أسئلة الواقع ومهمات المستقبل

الدكتورة
نجوة قصاب حسن
وزيرة الثقافة

منذ بداية مسيرته الرئاسية عرف العالم أجمع أنه أمام شخصية متميزة وقائد واضح الرؤية يعرف ماذا يريد.

منذ أن أقسم أمام الله والشعب، ارتسمت لسورية معالم آفاقٍ جديدة.

لغة جديدة وخطاب فكري يصوغ رؤى ومفاهيم لها دلالات ومؤشرات تتطلب منا قراءة جديدة لاحتياجات واقعنا ومتطلبات عالم المستقبل.

كانت وقفة جديدة مع الذات واختياراً لمسارات الارتقاء نحو الغد الأفضل، استندت على إنجازات وبنى أساسية راسخة لتبني إيجابيات على إيجابيات سبقتها.

كانت وقفة أمام التاريخ تحترم العراقة والثوابت وتعيد صياغة منطلقات التأسيس لسورية معاصرة تسير باتجاه التقدم وتفهم التغيير أداة لتحقيق احتياجات الواقع وليس هدفاً ينشد لذاته.

إنها أمانة الرسالة التي حملها السيد الرئيس بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية، حين حدد معالم الطريق وخط استراتيجية النهوض والتطوير فكراً ومنهجاً ورؤيةً شاملة، تقدر أبعاد الواقع وإمكاناته وتمد جسور العبور للمستقبل.

في هذه المسيرة الرناسية المتميزة فكراً ومنهجاً وأدواراً صعبة، نطرح على أنفسنا نحن أبناء الوطن في أي موقع تكون فيه أسئلة دقيقة ومحددة، هل كان أيٌ منا في مستوى هذه الطموحات التي تحددت ركائزها؟ هل استطعنا أن نحقق متطلبات التطوير التي تستلزم أن نعرف بأي اتجاه نسير في عملنا وخططنا، وأي السبل هي الأفضل؟ وهل نقوم بعملية التقويم للنتائج؟

هي منطلقات تحددت في خطاب القسم، فإلى أي مدًى كنا قادرين على السير بهديها وحمل أمانة الرسالة الوطنية والإنسانية المتضمنة فيها. وهل استطاع كل منا في المستوى الذاتي والوظيفي والوطني أن يبني معايير الأداء والنجاح باستغلال عامل الزمن، والاستفادة من الإمكانات لتحسين الواقع وخدمة المصلحة العامة. وهل مارسنا النقد البنّاء وتقبلناه وتعاملنا مع الواقع بفكر متجدد؟ وهل حددنا أولوياتنا في خطة عملنا؟ وهل امتلك كل منا العناصر اللازمة لتحقيق العمل؟ وهل فهمنا الشفافية ومارسناها باعتبارها حالة ثقافية تعكس قيماً ومواقف واتجاهات اجتماعية كما أوضحها السيد الرئيس في خطابه؟ وهل

اعتمدنا على دراسات لفهم الأسباب ومعالجتها قبل التعرض للنتائج؟ هل ساهم كل منا في طرح الحلول والبرامج انطلاقاً من الإدراك بأنها مسؤولية جماعية متكاملة.

والسؤال الأصعب هل استطعنا في جميع مجالات حياتنا وعملنا أن نعيد النظر فعلاً في المفاهيم وفهم مضمونها ضمن رؤية تحليلية نقدية تفكك عناصر تلك المفاهيم لتعيد صياغتها انطلاقاً من الفكر المتقدم والرؤية العلمية المستنيرة التي تتوافق مع منطق العصر والتقدم؟

إنه حقاً السؤال الأصعب لأن توضيح المفاهيم يُعد سمة الحكمة وركائز مبادئ الفكر، فمن يقرأ الفلسفة ومبادئ الحكمة يعرف أن سقراط الحكيم حين أراد أن يواجه الفكر السفسطائي الجدلي الذي كان سائداً في عصره، بدأ بتوليد المفاهيم وصياغتها وإبراز عناصرها، فمن وضوح المفاهيم ومكوناتها يبدأ البناء الفكري السليم. ولا شك أن التجديد والنقد البناء لابد وأن يبدأ بإعادة النظر حتى فيما تبيّن سابقاً أنه من البديهيات والمسلمات التي لا تحتاج إلى توضيح أو برهان وهذا ما أثبتته مسيرة التقدم العلمي والمعرفي، والتي ما كانت لترتقي وتفتح آفاقاً جديدة لولا أنها بنت ركائزها على منطلقات جديدة وأعادت صياغة المفاهيم والتعريفات.

ولا شك أن هنالك ثوابت وقوانين تستند إليها المعارف والحياة وعلى الفكر المتجدد أن يقرأها قراءة جديدة، ويراها من مناظير ورؤى متعددة.

إن الوقفة مع الذات في هذه المناسبة المتميزة والمشرفة لتولي السيد الرئيس بشار الأسد أمانة رسالة قيادة هذا الوطن الحبيب، تتطلب من كل إنسان

يحمل وجدانا نقيا وإحساسا بالمسؤولية والمواطنة أن يقوم بمساءلة نفسه عن طبيعة أدائه لأدوارد ومدى إخلاصه وكفاءته في تنفيذ البرامج والمشروعات التي ترسمها استراتيجيات العمل وسياسة الدولة، في توجهها نحو تحقيق استمرارية النهوض والتقدم، وأن يرتقي بأدائه ويطور إمكانياته ليكون في مستوى الطموحات والمهام المطلوبة. وأن يجدد الوعد مع نفسه والعهد أمام الله والوطن أن يكون مخلصًا في عمله وأدوارد لما فيه الخير ولما يحقق مسيرة التقدم ونهج التحديث والتطوير الذي يوجه به ويخلص له السيد الرئيس المفدى بشار الأسد رئيس الجمهورية العربية السورية.

قــول في المنهج

رئيسة التحرير
د. انصاف حمد

تضع كلاسيكيات الكتب الابيستيمولوجية في مناقشتها لنظريات المعرفة العلمية ومناهجها تمييزًا دقيقًا بين المنهج والطريقة (أو الخطة) . فهي تذهب إلى أن النشاط الإنساني يتجه عمومًا إلى تحقيق هدف معين ، وبذا يعد تحديد الهدف شرطًا أول للنشاط المجدي ، يليه تحديد وسائل تحقيق هذا الهدف ، ومن ثم الفعل ، أي استخدام الوسائل للوصول إلى الهدف.

ولعل أهم شروط الهدف المتصور : قابليته للتحقيق ، أي إمكانيته موضوعيًا. والإمكان بمعناه الأنطولوجي ، وبوصفه ميلاً للتطور الموضوعي الداخلي الذي يمكن أن يتحقق ابتداء من شروط معينة ، له أنواع ، فثمة

إمكانيات صورية ومنطقية ، وإمكانيات مجردة لا تتوفر أي شروط لتحقيقها حاليًا ، وثمة إمكانيات واقعية تتوفر بعض شروط تحقيقها الآن ويقتضي الأمر لتحويلها إلى واقع توفير الشروط الباقية .

ولتحقيق الهدف المكن موضوعيًا .. ينبغي أن تتوفر ايبستمولوجيًا تصورات عن العمليات والإجراءات الموصلة لتحقيقه ، وكذلك تصورات عن خصائص كل عملية ، وتأثيراتها ، والوسائل اللازمة لها ، وتصورات عن تسلسلها وترابطها ، وبذا يغدو الهدف - معرفيًا أيضًا - قابلاً للتحقق ، لكنه لا يتحقق أنطولوجيًا إلا بتحويل هذه التصورات إلى عمليات وأفعال .. وهذا يتطلب وضع مجموعة قواعد تحدد هذه العمليات وتكون مصاغة بشكل واضح وقابلة للتنفيذ والتعلم .

ويغدو المنهج وفقًا للتصور المقدم أعلاه .. فكرة عامة قابلة للتطبيق في حالات عديدة جزئية ، مفردة ، ملموسة ، إنه فكرة معيارية تختلف عن تحققها الخاص في جوانب ، وتتفق معه في أخرى .. وتزداد جوانب الاتفاق كلما ازداد ضبط المقدمات ، وتوصيف الخطوات بدقة وحساب احتمالاتها ، وتقل كلما كانت العبارات غامضة وغير دقيقة وكلما كان الهدف شديد الشمولية قليل التعيّن ، مما يتطلب المبادرة واللجوء إلى اتخاذ قرارات جديدة لم يسبق تحديدها ، ويمكن الإقلال من نسبة المخاطرة بالإدراك العميق لروح التعليمات العامة والهدف المراد تحقيقه ، وعندها لا يغدو صعبًا تحديد الخطوات اللازمة حيث يكون ثمة جوانب تفاجئنا عند التنفيذ .. ويمسي المنهج عند ذاك، وبحق، الفكر في علاقته بفعل الإنسان الخلاق المتجه إلى تبديل واقعه وتحسين شروط حياته .

وبوصف المنهج فكرة عامة قابلة للتنفيذ في حالات شتى ، فإن له طرقًا عدة ، أو بنىً إجرائية واقعية ، هي عبارة عن خطط وأساليب يتم فيها حل

جملة المهمات المطروحة ، ولعله من الخطأ الجسيم التوحيد بين المنهج وبناء الإجرائية المطبقة في مجال ما ، لأن هذه الأخيرة تابع موضوعي يلازم المنهج ، ولو تطابقا لفقدت عبارة التطبيق معناها .. فالبنى الإجرائية هي المنهج إذ يتحقق ، أما المنهج نفسه فهو كيان ذهني (مقتضى فكري) سابق على الحدث وليس صورة ذهنية مطابقة تمامًا لما يطبق واقعيًا .. إنه بهذا المعنى ، قواعد وصيغ معيارية موجهة للعمل ، إنه خطة تنفيذ بالقوة وليس بالفعل . أما هذه الأخيرة فهي معايير وتعليمات محددة للنشاط بشكل دقيق ، ومنظومة قواعد لعمليات تفضي إلى تحقيق هدف معين .. ولا حاجة للتذكير أن الهدف العام للنشاط الإنساني فكرًا وعملاً هو تغيير الواقع نحو الأفضل، وتتفرع عنه أهداف شتى في مجالات الحياة المختلفة .

ويرتبط القول الآنف الذكر بمقولة مفادها : أن ثمة باعثًا ذاتيًا على النشاط الإنساني، حاجة ما منبثقة من الواقع، ولأن الهدف المراد تحقيقه استطلاع جزئي للمستقبل مستمد من الواقع وقد لا يتحدد تمامًا إلا عند بلوغه، فإن بلوغه يقتضي قطع مسار متعدد المراحل وكل مرحلة تتمثل في خطوات أو عمليات إجرائية تحل كل خطوة منها جزءًا من المهمة المطروحة. وهذه البنية السياقية الملموسة قد تتألف إما من ترابط خطي متسلسل من الخطوات ، أو من خط يتفرع ثم يلم فروعه ملتقيًا عند نقطة واحدة أو من خط يتفرع ولا تلتقي خطوطه ..

في الحالة الأولى يتم تطبيق الخطوات بتسلسلها بشكل متكرر ومحدد لتحقيق الهدف وهي حالة يسودها التقليد ويقل فيها التجديد، وفي الحالة الثانية تتعدد دروب تحقيق الهدف ، وتتفتح أبواب واسعة للإبداع والاجتهاد واغناء التجارب، أما في الحالة الثالثة فيحدث المأزق إذ لاتصل الخطوات إلى تحقيق الهدف المراد ..

والعوامل التي تتحكم في تنوع هذه المساقات موضوعية وذاتية في آن معًا ، إنها ليست مشتقة كليًا من الواقع فقط ، بل تتعلق بخصائص الإنسان التاريخية والفردية ، ورغم تعادل هذه المساقات بنيويًا ووظيفيًا من حيث وصولها إلى النتيجة المبتغاة - ما عدا الحالة الثالثة - فإن مصدر تعددها هو جملة من العوامل الذاتية ، تتمثل في حجم العمل المطلوب ، والكفاءة والميول ، والسرعة ، والسهولة ، والتوفير ، ودرجة المشقة .

كما تدخل فيها مجموعة من المقتضيات التاريخية والاجتماعية كحاجات الوطن وإمكانياته ودرجة التطور في المجال المطلوب تحقيق هدف فيه .

ويبقى المعيار هو صحة النتيجة أو تحقيق الهدف المطلوب، في ظل الشعار المنهجي المعروف تحقيق أفضل النتائج في أقصر الأوقات وأقل التكاليف. وبذا لا يوجد منهج، وبالتالي ، طريقة صادقة أو كاذبة ، بل صالحة للتطبيق أو غير صالحة. وهذا يكون بمقدار ما يستنبط المنهج والطريقة من طبيعة الموضوع أو المجال المراد تطبيقه فيه .

إن كل التداعيات والتأملات النظرية السالفة الذكر، إنما استدعاها تنبيه السيد الرئيس في خطابه الأخير أمام مجلس الشعب إلى مخاطر الخلط بين المنهج والخطة ، وإشارته إلى أن " **التحديث والتطوير منهج وليس خطة تنفيذ** " وتذكيره بأن لكل منهج بالضرورة " **خطط لتنفيذه** " .

هذا التمييز العلمي الدقيق ، اقتضته المراجعة الشاملة والجريئة التي قام بها السيد الرئيس لما تحقق خلال السنوات الثلاث الماضية - بكل صدق وصراحة ووضوح وموضوعية، ومن الطبيعي أن يقتضي هذا المنهج العلمي في التفكير ، لغة علمية تبتعد عن القطعية وتعلن بكل وضوح عبر عبارات السيد الرئيس، أنها لا تنطلق من أن " **ما نقوله هو الصحيح** " لكننا " **مقتنعون به** " وبأن المرء " **قد يخطئ دون أن يدري أنه أخطأ** " وأن المسألة مسألة " **قناعات** " وأنه

يتمنى "**أن نكون على حق في كل ما نطرحه**"، مذكرًا بقاعدة فقهية مشهورة تثيب المجتهد بأجرين إذا ما أصاب وبأجر إذا ما أخطأ..

وهذا لعمري تأسيس موضوعي للحث على العمل والاجتهاد ومكافأة المجتهد .. وتذكير بأن لا أحد منا يمتلك الحقيقة الكاملة، وهذا ليس بغريب على رئيس يؤمن بالحوار بوصفه "**طريقًا إلى الديموقراطية وسبيلاً إلى المؤسسية**" غير مشترط فيه سوى أن يكون "**بناءً موضوعيًا .. خاليًا من الأفكار الثأرية والتحريضية**" معتمدًا على "**حرية الكلمة ومسؤوليتها وصدقها .. وابتعادها عن المشاعر السلبية تجاه ما تحقق أو ما هو في طور التحقق**" وعندها فقط يكون الحوار أساسًا في "**مكافحة كل أوجه الزلل والتقصير التي تعيق متطلبات التنمية والازدهار**".

وتطبيقًا لهذه القواعد في الحوار والمكاشفة والنظرة الموضوعية التي تنظر لأي أمر من كافة جوانبه، لم يغمط السيد الرئيس مجلس الشعب السابق حقه، بل ثمن جهوده في إقرار العديد من القوانين وإنجاز مهام تنموية.

وها هو يعلن بكل وضوح "**هذا لا يعني أن ما حققناه كان كافيًا ومرضيًا لنا جميعًا**" فهناك طريق طويلة أمامنا للوصول إلى طموحاتنا الكبيرة .. إنها العين البصيرة التي ترى ما تحقق وترى في الوقت نفسه ما لم يتحقق بعد وتدرك حجمه الكبير وطول الطريق للوصول إليه.

كما نجده يسن سنّة لكل مسؤول بالكف عن النظر إلى الأمور من زاوية ذكر الإنجازات فقط دون نظرة نقدية عبر قوله الصريح أن "**الإنجازات التي تحققت كانت أقل من الطموح**" وهو كطبيب لا يكتفي بالتشخيص والوصف كما يفعل الكثيرون بل يبحث عن السبب، وعن التفسير الذي يكمن في "**عدم توفر الكثير من العناصر الضرورية للتطور**".

ومرة أخرى، متسلحًا بالنظرة الموضوعية الشمولية ومبتعدًا عن

النظرة الأحادية الجانب المعتمدة لدى العديد من المثقفين والمفكرين والمحللين .. والتي إما تحيل المسألة برمتها إلى عوامل خارجية – عبر منهج تطهري يبرأ الذات ويلقي بتبعات تقصيرها على الآخر، أو تضع البيض كله في سلة الداخل، حيث تقوم بجلد الذات في نظرة قاصرة محملة إياها العبء كله؛ وبعيدًا عن هذا وذاك ، يحدد السيد الرئيس الأسباب من الناحيتين معًا: فهناك " **أسباب موضوعية كالظروف الاقتصادية والسياسية العامة والدولية والإقليمية**" وهناك أسباب داخلية ذاتية غير موضوعية " **كالهدر والفساد وضعف التأهيل والبيروقراطية والجمود** " .. والناجمة عن جهل بعض العاملين أو تجاهلهم وتلفع بعضهم "وراء **مقولة الخصوصية للهروب من المسؤولية من العمل** " مع أن الخصوصية في مفهوم السيد الرئيس " **أن نحصل على الأفضل لبلدنا** " .

وبالانتقال من التعميم إلى التخصيص يحدد السيد الرئيس المشكلة بجوانبها المتعددة والتي لم يحلها إصدار التشريعات وأسباب ذلك في رأيه تكمن في :

١. إصدار التشريعات لم يواكبه تطبيقها بالشكل الأمثل .

٢. بعض التشريعات لم تصدر بشكلها الأمثل، أي خالية من الثغرات والعيوب.

٣. بعض التعليمات التنفيذية لم تكن مطابقة لأهداف التشريعات وروحها.

والعلاج الموصوف والمطلوب كما يَرِدُ في توجيهات السيد الرئيس لمجلس الشعب المنتخب هو مراجعة القوانين والتشريعات ، والعمل على تلافي نواقصها والتأكد من أن تعليماتها التنفيذية مطابقة لأهدافها وأن نتائج التطبيق تنعكس إيجابيًا على حياة المواطنين في مختلف المجالات .

ومستلزمات هذا العلاج تتألف من شقين :

١ . مسؤولون يتفهمون القوانين ويشرفون على تنفيذها .

٢ . مواطنون يتعاملون معها ويطبقونها بالشكل الصحيح .

والمقصود بذلك هو توفر كوادر بشرية مدربة على تحقيق الأهداف وصياغتها ومراجعتها ، وهو ما لا نمتلكه بشكله المطلوب حتى الآن بل إن الافتقار إلى الموارد البشرية المؤهلة (كمًّا ونوعًا) كان نقطة الضعف التي بسببها لم تحقق تشريعات التطوير وإجراءاته غايتها ، خاصة كوادر الإدارة التي هي **" أهم عامل من عوامل النجاح والتي لم نعطها الأهمية اللازمة من قبل "** .

هكذا تتم دراسة الواقع ورصد احتياجاته ومستلزمات تطويره ، ووضع الأولويات للنهوض بعملية التطوير : **" إن أداة التطوير هي الكوادر المؤهلة إدارياً على المستويات كافة "** ويدونها **لا تتحقق الغاية** من عملية التنمية ومن الاستثمارات .. فالجانب الأهم من الإدارة لا يكمن في توفر القوانين والأنظمة بقدر ما يكمن في توفر الموارد البشرية المؤهلة وفق معايير محددة لتأدية مهام محددة ..

والأساس في ذلك ، أي في تنمية الموارد البشرية هو التعليم بمستوياته كافة ، وصولاً إلى بناء الإنسان المطلوب بعيدًا عن سلبيات ما هو كائن .. ومناهج التعليم يجب أن تنطلق من تحديد **المشكلات الراهنة في بنيتنا الثقافية** ، وهي كما يذكر أمثلة عنها السيد الرئيس : **الفردية والفوضى والتلقين والجمود والتواكل** ، ومن ثم طرح **البدائل المطلوبة** عبر تضمين المناهج مفاهيم وآليات ترتكز على **العمل الجماعي والنظام والانضباط وتنمية القدرات التحليلية والتركيبية وروح التجديد وتحمل مسؤولية وتنمية حس المواطنة ...** وبذا يتم العمل على بناء – طويل الأمد – لكنه أكثر متانة واقتصادية وإنتاجية .. إنه بناء الإنسان غاية التنمية ووسيلتها ، تلك التنمية التي يحددها السيد الرئيس بأنها

" حالة من الازدهار والتقدم تعكس ارتباطاً مادياً ومعنوياً لكل مواطن في المجالات كافة " .

وهل من مجادل في أن العامل الكامن ، لكن الحاسم ، في التطور هو رأس المال البشري ، وأن الاستثمار في الإنسان هو عماد التنمية ، فالفرد ذو الخبرات والمؤهلات العلمية رأس مال متجدد يعتمد على ذكائه المنتج للمعرفة مستقبل البشرية ، أكثر بكثير مما يعتمد على الموارد الطبيعية .

وإذا كان مكمن الضعف في خططنا السابقة : التركيز على الاستثمار في بناء رأس المال المادي أكثر من الاستثمار في تطوير رأس المال البشري، فإن هذا يعني ، من جملة ما يعنيه أن هناك مجالاً رحبًا لتحقيق إنجازات أكبر في مضمار تكوين رأس المال البشري .. وعبره يمكن تحويل معدل النمو السكاني المرتفع إلى محرك للتنمية والرفاه ومورد للثروة الوطنية بدلاً من أن يكون عبئًا على الاقتصاد الوطني ، فالعائد المالي للاستثمار في التعليم يقدر بثلاثة أمثال العائد من الاستثمارات المالية في مجالات النشاط الاقتصادي .

هكذا يتحدد هدف استراتيجي من أهداف التطوير والتحديث ، وتحديد هذا الهدف وخطط تنفيذه ، ومستلزماته ، لا يلغي الحديث عن أهداف أخرى، لعل من أهمها دور(مطوّر) لمجلس الشعب يقود إلى أداء أمثل يصل عبره إلى **«تحقيق مصالح المواطنين ومتابعة شؤون الوطن »**.

والتجديد والتطوير إنما يكمن في طرح مهام جديدة لهذا المجلس ، إضافة إلى مهامه التقليدية على أهميتها وحيويتها والمتمثلة في : **«سن التشريعات والقوانين ، ومراقبة أعمال الأجهزة التنفيذية وتقويم الأخطاء والمحاسبة عند التقصير»** حيث يضاف إلى ذلك الارتقاء بمهامه إلى مستوى المشاركة في التطوير عبر **" طرح الأفكار الخلاقة والمبدعة التي تسهم في تقدم الوطن "** ..

وبذلك " يتحمل المجلس جزءًا أساسيًا من المسؤولية " ويكون هذا هو

معيار نجاحه في أداء مهامه .. عبر "**تفاعل بين الحكومة ومجلس الشعب وبينهما وبين المواطنين**" وبذا "**يكون قادراً على مساءلة ومحاسبة الآخرين بعيداً عن الاعتبارات الذاتية في النقد والتقييم**".

تتحدد هذه المهمة للمجلس عبر "**دوره الكبير في تأسيس الحوار الموضوعي البناء من خلال حرية الكلمة ومسؤوليتها وصدقها .. فهي التي ستمكننا من تجاوز الكثير من الممارسات الخاطئة .. شرط توفر النية الصادقة والكفاءة والمنهج السليم**".

صحيح أن "**العلاقة بين السلطتين التنفيذية والتشريعية أو بين المؤسسات أو المسؤولين ترتكز على الصلاحيات والقوانين والأنظمة، وهذا هو الجانب الموضوعي، لكن قاعدتها الأساسية هي الوعي والإحساس بالمسؤولية، وهذا هو الجانب الذاتي والمهم .. لأن الجانب الموضوعي لا يكفي وحده لسلامة الأداء دون توفر الجانب الذاتي**".

وهذا التفاعل المرتكز على الوعي والإحساس بالمسؤولية وعلى القوانين والأنظمة يحتاج إلى إطار يعمل من خلاله، وهذا الإطار هو الشفافية فيه التي تعني عند السيد الرئيس "**اطلاع المواطنين على كل مايجري داخل المؤسسات والسلطات وعن علاقاتها بكل التفاصيل**" إنها "**الوضوح والصدق وعدم الاختباء وراء أقنعة**" قد تكون أحياناً براقة ومبهرة لكنها تحجب الرؤية ..

عبر هذه الشفافية يستطيع المواطن أن يعرف "**فيما إذا كان اختياره لممثله مناسباً، وستعرف أجهزة الحكومة ما إذا كان اختيارها للمسؤول مناسباً، أو في مكانه**".

ماذا يعني هذا الطرح؟ إنه يعني بكل وضوح أن الفوز الحقيقي للعضو المنتخب أو للمسؤول ليس لحظة إعلان النتائج أو التعيين في المنصب، بل هو مرتبط بنوعية الأداء الذي سيقدمه بعد ذلك .. حيث يبدأ العمل الحقيقي، إن الفوز في الانتخابات، أو التعيين في منصب، ليسا سوى جواز سفر يخول

الشخص المعني العمل على إثبات جدارته في الموقع الذي شغله و" **الحكم الأخير هو المواطن** " الذي يراقب أداء السلطتين معاً التنفيذية والتشريعية.

عود على بدء ، التطوير والتحديث كمنهج في التفكير ، يعني " **تقييماً موضوعياً لما قمنا به يرتكز إلى نظرة معمقة إلى الوراء لنرى ما الذي حققناه وما الذي لم نحققه** " .

وبدهي أن هذا لا يكون إلا بتحديد أهداف واضحة قابلة للقياس ، تعتمد دراسة الواقع الراهن وتحديد احتياجاته ومشكلاته ووضع خطط زمنية لـ" **معالجة السلبيات الناجمة عن العمل ، والمعوقات التي تعترض طريق التقدم** " .

ولا يجب أن ننسى ، إذا ما تسلحنا بالنظرة الموضوعية أن " **وجود الشوائب والسلبيات والمعوقات أمر طبيعي في أي مسيرة تطوير ، ومعالجتها ممكنة** " ومطلوبة لاتاحة الفرصة لعملية التطوير لاستكمال مسيرتها.

باختصار .. التطوير والتحديث منهج يريد له السيد الرئيس أن يكون ، ويجب أن يكون بالضرورة ، منا وبنا ولنا، لأنه من هذا المنطلق فقط يكتسب شرعيته، ونجاحه، واستمراريته.

ملف العدد

الرئيس بشار الأسد : إثراء مستمر لمسيرة التطوير

الرئيس بشار الأسد : إثراء مستمر لمسيرة التطوير

٣٠

المنظومة المفاهيمية ومسألة المصطلح في فكر القائد بشار الأسد

الدكتور خلف محمد الجراد ❖

أولاً: مدخل إلى دلالات المفهوم:

المفهوم لدى اللغويين خلاف المنطوق. ويطلق المفهوم على مجموع الصفات التي يتضمنها تصور الشيء، أو النقاط الجوهرية المتماثلة بين أفراد الصنف الواحد، ويُسمى بالمفهوم الإجمالي، ويطلق أيضاً على جميع محمولات القضايا الصحيحة ذات الموضوع الواحد، كقولنا: الإنسان ناطق، والإنسان كائن فان.. إلخ.

ويطلق المفهوم أيضاً على مجموع الصفات التي يدلّ عليها اللفظ في ذهن فرد معين، أو في أذهان معظم الأفراد في إحدى الجماعات، ويُسمى بالمفهوم الذاتي.

(❖) د. خلف محمد الجراد: باحث من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب. عضو جمعية البحوث والدراسات المدير العام لمؤسسة تشرين للصحافة والنشر.

ومن معاني المفهوم أنه لايطلق على مجموع الصفات المشتركة بين جميع أفراد الصنف فحسب، بل يطلق كذلك على الصفات الخاصة بقسم من ذلك الصنف على سبيل التناوب. مثال ذلك أنّ المثلث يمكن أن يكون حاد الزاوية، أو منفرج الزاوية، أو قائم الزاوية، وأنّ الحيوان الفقاري يمكن أن يكون لبونًا أو طيرًا، أو زاحفًا، أو ضفدعًا، أو سمكًا. ويُسمى هذا المفهوم بالمفهوم الرفيع.

في حين أنّ «اللامفهوم» هو مالايتسق مع المنطق، أو مالا تتقبله العقول ولاتجد له تفسيرًا، لأنه مرادف للامعقول أو التناقض والتهافت [1].

وعليه فإنّ دقة المفهوم ترادف العلم اليقيني، لأنه يشكّل حصيلة ذهنية لسلسلة من العمليات التي تشمل تطبيق عدد من مناهج المعرفة، مثل المقارنة والتحليل والتركيب والتجريد والصياغة في فكرة التعميم، والاستقراء والاستنباط، واستخلاص النقاط الأساسية أو المكونات الجوهرية وإطلاقها على صورة مفهوم محدّد من خلال تعيين المفاهيم نحصل على معرفة أكثر عمقًا بالواقع عن طريق فرز جوانبه الجوهرية وتعميمها. إضافة إلى ذلك، فإنّ العيني الذي ينعكس بشكل كامل في المفاهيم الجزئية يمكن أن يظهر بصورة أقرب إلى الاكتمال عن طريق تجميع المفاهيم التي تعكس جوانبه المختلفة. «إنّ أي مفهوم علمي باعتباره انعكاسًا للواقع، هو مفهوم متحرّك ومتدفق، شأنه في هذا شأن الأشياء والعمليات (السيرورات) التي هو تعميم لها» [2].

والواقع إنّ من أبرز مشكلات الفكر السياسي العربي التداخل بالمفاهيم والمصطلحات المستخدمة في كتابات المثقفين العرب والسياسيين، وعدم تطابق مدلولاتها ومعانيها إلى حدّ التناقض والتعارض. فينعكس ذلك على أخطاء في الفهم والإدراك، بل يتعداهما إلى السلوك والتصرف. الأمر الذي جعل الفكر السياسي العربي المعاصر يضيع في متاهات معقدة انعكست على الحياة العربية في مناحيها وجوانبها المختلفة.

وقد أشار باحث عربي معروف، إلى أنّ خطر الاضطراب في المفاهيم يشمل العلاقات مع الخصوم والأصدقاء على السواء. فالوطن العربي يعيش مرحلة خطيرة ناشئة من التحديات التي تواجهه من أعدائه، وفي مقدمتهم «إسرائيل» وحلفاؤها. ويرى أن ذلك يتطلب «تفكيرًا موحدًا حول مفاهيم مضبوطة. وحينما يختلف بعضنا مع بعض في مفهوم السلام أو الحرب مثلاً، يستطيع الخصم أن يركب الموجة ليعطي للقضايا الأساسية مفهومه الخاص: الحرب، السلام، السلطة، القانون، الدولة، الحرية، الأمن..» [3].

إنّ اهتمام قائد سياسي عربي بإشكالية المفاهيم وخطورة خلط المصطلحات، وتركيزه المستمر على ضرورة وعي المعاني والدلالات الثاوية خلفها، أو الاستهدافات المشبوهة لتوظيفها في هذا الخطاب السياسي أو ذاك، يؤكد ناحيتين مهمتين: أولاهما أنّ القائد يتابع بدقة مايكتب أو يطرح في ميدان الفكر السياسي والثقافي والإعلامي، وثانيتهما أنه يتناول إشكالية تكاد تكون مغيّبة في كلمات القادة العرب وبياناتهم ولقاءاتهم السياسية والإعلامية.. الأمر الذي يضعنا أمام نقلة نوعية غير مسبوقة في هذا المجال، من شأنها إكساب هذا الخطاب أهمية استثنائية، لجهة عقلانيته وعلميته ومنظومته المفاهيمية المتميزة.

ثانياً، «المنصب» و«الموقع» و«المسؤولية» في فكر القائد بشار الأسد:

تختلط في أذهان الناس وكتابات كثيرين من المثقفين وتصريحات السياسيين مفاهيم «المنصب» و «الموقع» و «المسؤولية».

وقد افتتح السيد الرئيس بشّار الأسد خطاب القسم الدستوري أمام مجلس الشعب (في السابع عشر من تموز عام ٢٠٠٠) مؤكّداً أنه لايسعى إلى منصب ولايهرب من المسؤولية. بل إنه تبوأ منصب رئاسة الجمهورية.، لكنه لم يتبوأ الموقع.. لماذا؟.. لأنّ الموقع اختيار ذاتي وقرار مبدئي، في حين أن المنصب مهمة محدّدة يختارها الوطن للشخص.فموقع القائد بشار الأسد ارتبط عضويًا بمدرسة حافظ الأسد النضالية وتصميمه وإرادته ووعيه ووفائه وتمسكه بهذه المدرسة العظيمة وصونه لمبادئها وقيمها وأهدافها. «هذا الموقع الذي لايتبدل يومًا من الأيام هو خدمة الشعب والوطن».

وهو يربط بصورة قاطعة بين «الشرعية» لأي منصب وإرادة الشعب ورغباته، بينما تعكس المسؤولية مصالح الشعب. ومن هنا فإنّ المسؤولية قضية شعور ووعي يجب أن يكونا حاضرين لدى كل مواطن، بصرف النظر عن منصبه ووظيفته الرسمية.

ويخطئ من يعتقد أنّ المنصب يخلق المسؤولية، لأنّ الشعور بالمسؤولية أوسع نطاقًا وأشمل من المناصب المتبدّلة، وإنّ كانت المناصب تعطي للشخص الصلاحيات والقدرة على اتخاذ القرارات المناسبة. والدليل على عدم التماثل بين مفهومي «المسؤولية» و«المنصب» أنه «عندما يصل إلى المنصب شخص لايحمل شعورًا بالمسؤولية فإنه لايستطيع أن يأخذ منه سوى السلطة، والسلطة دون مسؤولية هي الأساس في انتشار التسيّب والفوضى وتدمير المؤسسات».

ومادام مفهوم «المسؤولية» يعني

المواطنين جميعًا، سواء أكانوا في مناصب قيادية أو إدارية.. أم لم يكونوا، فإنّ ذلك يستتبع المُساءلة، وهي «عملية متكاملة».

مفهوم القائد بشار الأسد للمسؤولية يستند إلى الممارسة العملية وإلى أدبيات علم السياسة في هذا الباب. فالمعروف أنَّ الموسوعات المتخصصة [4] تعرِّف المسؤولية بأنها استعداد الشخص للالتزام بعمل قام به والاعتراف بأنه صاحبه وتحمّل التبعات والنتائج المترتبة عليه.

والمسؤولية على أنواع: فهناك المسؤولية الاجتماعية والمسؤولية الأخلاقية والمسؤولية السياسية. ولكل من هذه المسؤوليات خصائصها التي تميزها عن الأنواع الأخرى.

فالمسؤولية الاجتماعية تأخذ بشكل عام طابعاً خارجيًا لكونها تتصل بالحياة داخل الجماعة التي تفرض على صاحبها الالتزام بسلوكه تجاهها ولها شكلان: شكل شائع يتصل بالرأي العام وجزاؤه التقدير أو الاحتقار أو الاستحسان والتأييد أو الاستياء والنبذ. وشكل قانوني يتصل بقرارات السلطة وغالبًا ماتكون نتيجتها العقوبة أكثر من الاستحسان. أما المسؤولية الأخلاقية فهي مسؤولية داخلية وترتكز على كوننا بشرًا مدركين وراشدين وأحرارًا يجب علينا الالتزام بأعمالنا أمام ضميرنا أو أمام الخالق.

وترتبط المسؤولية بالثواب والعقاب. فكل مسؤولية يرافقها ثواب أو عقاب وهما الشرطان الضروريان لوعيها إضافة إلى عنصر العقل. لهذا يجب التفريق بين عدة درجات للمسؤولية نذكر منها: المسؤولية الناتجة عن فعل إرادي متعمد والمسؤولية الناجمة عن فعل غير متعمد حصل دون إرادة الشخص. وعليه فإن المسؤولية الكاملة متصلة بالحرية، لأن الفرد غير مسؤول عن فعل يتم بالإكراه.

فالمسؤولية السياسية تعني التزام كل من يمارس سلطة سياسية (فردًا أو جماعة) بأفعاله وأقواله أمام الجماعة التي يمثل، وتحمل النتائج المترتبة على هذه الأفعال والأقوال.

وتنشأ المسؤولية السياسية عادة عن خطأ أو أخطاء يرتكبها الشخص السياسي في أثناء ممارستها للسلطة، ويكون من نتائجها إلحاق الضرر بمصالح الجماعة. أو قد تنشأ أيضًا عن فشل في تحقيق الأهداف الأساسية للجماعة المتمثلة بتوفير الحماية على الصعيد الخارجي والاستقرار والرفاهية على الصعيد الداخلي.

لكن في كلتا الحالتين يرتبط تحديد المسؤولية السياسية بعناصر تشكل الدعامة الرئيسية للعمل السياسي الذي من دونه لاوجود لهذه المسؤولية، وهذه العناصر هي: الهدف السياسي والوسائل المستخدمة

لتحقيقه والنتائج الملموسة. فالمسؤول السياسي أو الإداري الذي يفشل في مهمته أو يرتكب الأخطاء بحق بلده أو مجتمعه لابد أن يخضع للحساب.

ولهذا يشدّد السيد الرئيس بشار الأسد على مبدأ المساءلة، بوصفها «عملية متكاملة لايمكن تجزئتها ... وهي عملية مستمرة تتوازى مع العمل أو تكون جزءاً منه. لأن الخطأ بأشكاله المختلفة سيبقى ملازمًا للحياة، وإذا لم يعالج فإنه يتفاقم، والعلاج لايهدف إلى الانتقام والتشفي، وإنما للردع ... ولايقصد به صاحب الخطأ فقط بل كل من يخطر في باله أن يقع فيه».

ثالثًا: مفهومه «للشفافية»:

يطابق القائد بشار الأسد بين الصدق والشفافية. مشيرًا إلى ضرورة تحديد أبعاد مصطلح «الشفافية» عبر تعيين مضمونه بصورة دقيقة من جهة، ومعرفة الأرضية التي يمكن أن يبنى عليها أو يستخدم في سياقها. وتكمن أهمية تناول القائد الأسد لهذا المصطلح ليس في إطار مجاراة وسائل الإعلام أو الأدبيات المتخصصة (الاقتصادية والسياسية والإدارية ..إلخ)، بل في مدى ملاءمته وانسجامه مع البنية الثقافية والقيمية والتقاليد الاجتماعية القائمة في هذا المجتمع أو ذاك. أي أن المسألة متصلة بحالة مجتمعية واستعداد نفسي ذاتي ... بمدى وعي الشخص وتربيته القيمية على الصدق والأمانة في القول والممارسة. ولهذا طالب المستويات المجتمعية والسياسية والإدارية المختلفة بأن تطرح على أنفسها قبل أن تطرح على الآخرين السؤال الجوهري- المبدئي التالي: «هل أتعامل بشفافية مع نفسي أولاً، ومع أسرتي ثانيًا، ومع محيطي القريب والبعيد والدولة والوطن ثالثًا؟!».

فالشفافية تبعًا لهذه الرؤية المنهجية الدقيقة تبدأ بسلوك الشخص ومدى انسجامه مع ذاته ومايتحدث به من شعارات وقيم وأهداف ، ثم مدى شفافية علاقاته بالمحيطين به، سواء أسرته المباشرة وجيرانه وزملائه في العمل، وصولاً إلى الدولة والوطن. لأن الصدق والشفافية ليست عبارات نرددها أو مصطلحات نكتفي بإطلاقها في مقالاتنا وأبحاثنا وندواتنا وبياناتنا السياسية وغيرها، بل إنه سلوك عملي يومي نابع من قناعات مبدئية ثابتة، يمارسه الشخص مع نفسه في غياب الآخرين وحضورهم ... مع القريبين والأبعدين. سواء كان في منصب رسمي أو اجتماعي أم كان مواطنًا عاديًا دون منصب أو موقع. إنه شعور بالمسؤولية لايرتبط بأي لقب أو صفة أو منصب. ولهذا- يؤكد القائد الأسد- أننا لايمكن أن «نطلب من إنسان لايصدق في حياته الشخصية ومع أقرب الناس إليه أن يكون

مسؤولاً صادقًا تجاه مسؤوليته وتجاه الشعب. وإذا كان غير واضح في طروحاته فكيف نطلب منه أن يكون شفافًا عندما يتولى منصبًا ما؟!».

رابعًا، «الواقعية» في مفهوم القائد بشار الأسد:

أثار القائد بشار الأسد في كلمته الهامة أمام القمة العربية الطارئة في القاهرة (في الحادي والعشرين من تشرين الأول عام ٢٠٠٠) جملة أمور ومسائل أساسية متصلة بالانتفاضة ومايتعرض له الشعب الفلسطيني من قتل وتدمير وإرهاب صهيوني منظم ومن محاولات تضليلية ومفاهيم مغلوطة، كالزعم - مثلاً - «أن باراك أفضل من نتنياهو»... إلخ والمؤسف (يقول السيد الرئيس) إنه عندما تحصل أزمات ترتفع الدعوات الإحباطية أو التنازلية بحجة «الواقعية» وعدم تجاهل موازين القوى، والظروف الدولية القائمة.

فالسيد الرئيس يطالب أصحاب هذه الأطروحات بتحديد معنى «الواقعية» قبل كل شيء، فهناك «شخص يخضع للواقع وهناك شخص يقرأ الواقع بدقة وهناك شخص يغيِّر الواقع. نحن ندعو لقراءة الواقع بوضوح وبدقة ومن ثم تغيير الواقع».

ويضرب القائد الأسد مثالاً على الدعوات القائلة «بعدم واقعية» مواجهة الشعب اللبناني ومقاومته الوطنية للاجتياح الصهيوني وقواته الغازية للبنان (في عام ١٩٨٢)، في حين أن صمود الشعب اللبناني وتصميم مقاومته والتضحيات الكبيرة وواقعية المواجهة، اضطرت «إسرائيل» للتراجع من بيروت ومن ثم من جبل لبنان، إلى أن أجبرت على سحب قواتها المنهزمة في أيار عام ٢٠٠٠ الأمر الذي أظهر مدى تهافت تلك المقولات الانهزامية من جهة، ومدى أهمية المقاومة كسلاح واقعي، استطاع تحقيق النصر، أي تغيير واقع الاحتلال بواقع التحرير من جهة أخرى.

وقد رأى أننا كعرب لايمكن أن نكون «بين بين» أو محايدين بين الصهاينة القتلة المجرمين، وشعبنا الفلسطيني الذي يتعرض للإبادة العنصرية على أيدي أولئك الصهاينة، فالمطلوب منا أن ندرك حقيقة مايجري وأهدافه، والعمل باتجاه حقوقنا المشروعة، واستخدام طاقاتنا وقدراتنا الكبيرة، لتغيير الواقع لمصلحة أمتنا ومستقبلها.

إذًا يفرِّق القائد الأسد هنا بين «الواقعية» و«الوقوعية». فإذا كانت الواقعية السياسية تعني قراءة الواقع القائم وحقائقه الملموسة بدقة وعمق وعلمية، لتكوين صورة صادقة وصحيحة عن الأشياء وحركة القوى وموازينها، وهو أمر ضروري بل مطلوب جدًا لاتخاذ القرارات السليمة والمواقف الصحيحة، فإن

«الوقوعية» تعني بالمقابل تضخيم الجوانب السلبية والاستسلام لظواهر الأشياء، وتغليب عوامل التراجع والإحباط والخضوع على العناصر الإيجابية التي يمكن إدخالها في الحسابات وحشدها للوصول إلى نتائج لمصلحة أهداف الأمة وتطلعاتها.

فالواقعية التي يتحدث عنها هي الواقعية النضالية في حركتها وديناميتها، التي تحترم الواقع الموضوعي في حساباتها وتربط النتائج بالمقدمات، وتحسب سلفًا نتائج أية خطوة دون انفعال أو إدخال للتمنيات والعواطف في هذه الحسابات، وترسم على أساس هذه المعرفة الدقيقة البرامج الضرورية لتطوير الواقع وتطويعه باتجاه الأهداف المرسومة. وهي نقيض (الوقوعية) أو «الواقعية الانهزامية» التي تستسلم للظروف القائمة في اللحظة الراهنة، دون محاولة قراءة مابعد الظواهر والتفاعلات الممكنة ... من ثم تتخذ من هذه الظروف مسوغًا للانهزام وعدم المقاومة، والاستسلام للقوى المعادية دون محاولة التأثير بالأحداث، واستنفار العناصر الإيجابية لمصلحة الأهداف المرسومة والتطلعات المشروعة.

من جهة أخرى هناك «الرومانسية الفكرية» ، القائمة على التمنيات والعواطف والرغبات ... وهناك «الواقعية الفكرية». والمعيار أو الفيصل بينهما برأي القائد الأسد هو إمكانية التطبيق «ولا يمكن أن يكون هناك تطبيق فعلي لهذه الأفكار، إلا إذا كان هناك ابتعاد عن الرومانسية الفكرية ... ولايمكن أن تتحقق الواقعية الفكرية إلا من خلال أشخاص دخلوا في معترك التجربة».

وحول مايُطرح من «تنظيرات» غير واقعية وأفكار وآراء مختلفة في ميدان تطوير المجتمع وتحديثه، يؤكد القائد بشار الأسد أننا نستند في مسيرة التطوير «إلى تجاربنا السابقة ونعتمد على الأشخاص الذين خاضوا تلك التجارب ... ناجحة كانت أم غير ناجحة في مجالات التطوير المختلفة. من ثم نستطيع أن نبتعد عن مجال المزايدات الفكرية ونتحاشى أن تكون عملية التطوير تربة خصبة للباحثين عن الزعامات أو لراكبي الموجات المختلفة ... وبالتالي نصل إلى التطوير الذي نراه مناسبا لمصلحة الوطن»، مع ضرورة المراجعة المستمرة للخطوات والبرامج في ضوء الواقع «وعندها لابد أن نقرر ... هل نتابع المضي في هذا الطريق أم نغير الاتجاه أم نعود ونخرج منه لنسلك طريقًا آخر ...» والهدف من ذلك كله تحديث المجتمع بأسرع وأفضل الأساليب وأقل التكاليف، مع الحفاظ في الوقت ذاته على الثوابت الوطنية والقومية للبلاد. وهي معادلة دقيقة تحتاج إلى الدراسة والتحليل والتحقق من كلّ خطوة ونقلة وإجراء.

خامسًا: «المجتمع المدني» مفهومًا وممارسة:

جوابًا على سؤال ممثلي صحيفة «الشرق الأوسط»[٥] حول نظرة القائد بشار الأسد إلى مصطلح «المجتمع المدني» المتداول بشكل واسع في سورية ... بيّن سيادته أن هناك خلطًا بين مفهوم المجتمع المدني ومؤسسات المجتمع المدني.

المجتمع المدني هو مجتمع حضاري نشأ عن تراكم الحضارات عبر مئات أو آلاف السنين ... وسورية لها تاريخ يمتد لأكثر من ستة آلاف عام من التاريخ الحضاري ... والقول إننا نريد أن نبني مجتمعًا مدنيًا يعني أننا نريد أن نلغي كل هذا التاريخ لنبدأ بتاريخ جديد ... طبعًا هذا غير واقعي بل خيالي، عدا أنه يعني رفضًا لهذا التاريخ ومحاولة للخروج منه ومن يحاول إخراج نفسه من تاريخه فهو يخرج نفسه من الحاضر ومن المستقبل.

والحقيقة أنّ مفهوم القائد بشار الأسد للمجتمع المدني جاء هنا تلخيصًا دقيقًا ومحكمًا لمئات المؤلفات المختصة بهذه الأطروحة المتداولة بين الفلاسفة والمفكرين وعلماء الاجتماع والسياسة الغربيين على مدى القرون الأربعة الأخيرة[٦].

فالمجتمع المدني مقولة تاريخية - حضارية، وليست نظرية جاهزة أو المفتاح السحري لقضايا المجتمع ومشكلاته المختلفة. «أما مؤسسات المجتمع المدني فهي شيء مختلف، وهي موجودة في سورية وقد لايكون ذلك بالشكل المثالي» (كما يؤكد القائد بشار الأسد).

والأمر المثير للدهشة والاستغراب أنّ عددًا من الكتاب وأدعياء الفكر والتنظير، ومحترفي المعارضة والرفض، وهواة استخدام المصطلحات الوافدة لايكلفون أنفسهم العودة إلى أصول تلك النظريات والمفاهيم والمصطلحات، أو التعمق بمعرفة الظروف، والخلفيات والسياقات التي ولدت في إطارها. وهم في سعيهم الشديد للفت الأنظار واجتذاب المعجبين من الشباب وقليلي الاطلاع المعرفي، لايجرؤون على مصارحة الناس بأنهم يقدمون تصورات عمرها حوالي أربعة قرون، وحصيلة تطور اجتماعي سياسي، واقتصادي، وعلمي، أنجز الثورة الديمقراطية والثورة الصناعية والثورة العلمية - التقنية، ناهيك عن سلسلة من الثورات الفكرية، والفلسفية والسياسية. أي أنّ نشأة مفهوم المجتمع المدني في الأدبيات الفكرية الغربية مرتبطة عضويًا بميلاد ونشأة وتطور المجتمعات الغربية في العصر الحديث. وهذا يعني أن المفهوم جاء لاحقًا لما حدث من تحولات في بنية المجتمع، وأنساقه، وعناصره، واتجاهاته، وليس العكس.

من هنا يمكن الجزم بأنّ فهم القائد

بشار الأسد للمجتمع المدني كتراكم تاريخي حضاري سابق على المقولات والمصطلحات الفكرية والفلسفية، جاء دقيقًا، متطابقًا مع الحقائق العلمية من جهة ومع الواقع القائم من جهة أخرى.

أما مسألة مؤسسات المجتمع المدني فهي قابلة للتطوير والتوسيع والتفريع تبعًا لحاجات المجتمع ومتطلبات التطوّر، لكنها لايمكن أن تكون «بديلة عن مؤسسات الدولة كما يطرح البعض، ويجب ألاّ تكون سابقة لها في البناء ... بالعكس هي لاحقة لها وداعمة وهي تستند عليها ولاتبنى على أنقاضها».

إنَّ ماركز عليه القائد بشار الأسد في هذا السياق يتمثّل في الانطلاق من حقيقة أنّ أطروحة «المجتمع المدني» ليست غير مفهوم من المفاهيم الإيديولوجية، لايقدّم – من وجهة نظرنا – تفسيرًا للواقع الاجتماعي القائم ولا حلولاً سحرية لمشكلاته الاقتصادية والعلمية والثقافية والاجتماعية، بقدر مايشكّل – لدى البعض – شعارًا يراد منه التشكيك بسياسات هذا النظام أو ذاك، وكسب تعاطف الرأي العام، دون تقديم حلول أو أفكار عملية وتصورات متكاملة مفيدة.

وأنّ الاعتراض الأساسي على التشبث المصطنع بهذا المفهوم الوافد، ناجم عن رفضنا لعملية بتره، أو اجتثاثه من جذوره التاريخية، والاجتماعية، والمعرفية، وإبرازه خلافًا للحقيقة كما لو أنه مطلق القيمة، والدلالة، وربطه بالديمقراطية، والحرية الفردية والتقدم الحتمي ... إلخ في حين أنه يجسد الصراع بين قوى، وتيارات، واتجاهات مختلفة باختلاف مواقعها الاجتماعية، ومنطلقاتها السياسية وأهدافها القريبة والبعيدة. إضافة إلى أن عملية تطوير مؤسسات المجتمع المدني ليست سابقة على تطوير البنى الإدارية وهيئات الدولة ومؤسساتها التنفيذية المختلفة. أمّا الفصل بين تاريخ المجتمع والمراحل التي قطعها في مسيرته الحضارية، وعملية تحديثه (وفق النماذج الغربية) على أساس ما يسمى «القطعية المعرفية»، فهو أمرٌ في غاية الخطورة، ولايخدم سوى دُعاة التغريب والانخلاع القومي والعدمية التاريخية.

سادسًا: مفهومه لخيار السلام:

في كلمته الهامة أمام القمة العربية الطارئة في القاهرة (في تشرين الأول ٢٠٠٠م) ناقش القائد بشّار الأسد عددًا من المفاهيم الخاطئة المتداولة، كالقول إنه يتوجب على الأطراف المتحاربة في فلسطين المحتلة ضبط النفس!! فتساءل سيادته عن ماهية هذه الأطراف، وعن وجودها الفعلي. وقال: إنّ كلمة أطراف تعني أن هناك جهات متقابلة لها مقومات

متشابهة. والحقيقة.. هناك طرفان، إذا صحّ التعبير: طرف إسرائيلي وطرف فلسطيني الطرف الأول الإسرائيلي لديه دولة، الطرف الثاني الفلسطيني لم يحقق هذه الدولة بعد. الطرف الأول لديه سيادة، الطرف الثاني لم يحقق هذه السيادة. الطرف الأول لديه جيش جرّار، الطرف الثاني لديه الحجر. الطرف الأول قاتل، الطرف الثاني مقتول. فكيف تسمونهم أطرافًا وتطلبون منهم أن يضبطوا النفس. مهمة القاضي أن يحدّد من هو القاتل ومن هو المقتول ولايطلب القاضي عندما تعرض عليه جريمة من الأطراف ضبط النفس، بل عليه أن يحدد وضع النقاط على الحروف. ماذا تكون النتيجة لو أن القاضي قال لأهل المقتول: عليكم أن تبحثوا عن تسوية.. نحن بهذه الحال ندفع الناس إلى الانتقام والثأر، وهذا يعني الفوضى (٧).

وقد بيّن القائد بشار الأسد في المؤتمر ذاته أنّ الحقوق الوطنية والقومية لايمكن أن تخضع للمفاهيم النسبية، القابلة للمناقشة والأخذ والردّ. «الحقّ خاصة عندما يكون أرضًا هو مفهوم مطلق محدّد واضح. الأرض تحدّد بالكيلو مترات وبالأمتار وبالسنتيمترات ولا يمكن أن يكون هناك مفاهيم نسبية في الأرض»(٨).

وحول، السلام أكّد سيادته في مرات كثيرة على أنّ السلام ليس مجرّد كلمة تُقال أوشعار يُرفع، وأنه «ليس كل من قال نريد السلام يعني فعلاً أنه يريد السلام» (كما تفعل «إسرائيل» وهي ألدّ أعداء السلام».

أما بالنسبة إلى العرب فإن السلام هو هدف، وعلى الأطراف التي تؤمن بهذا الهدف أن تسلك الطريق الموصلة إليه، وإلا فلن تصل إلى السلام. والواقع أن العرب صادقون وجادّون في الوصول إلى السلام العادل والشامل.. ويسيرون نحوه بصورة مستقيمة ومباشرة، «أما بالنسبة للإسرائيليين فإننا نرى أنّهم يسيرون باتجاه معاكس، لكنّهم يقولون أنهم يريدون السلام...».

أما بشأن عبارة «خيار السلام الاستراتيجي» فإن القائد بشار الأسد يتوقّف عند كلّ كلمة منها ليحلّل دلالتها المفاهيمية والنسبية والبعيدة، مشيرًا في الوقت ذاته إلى أنّ كلّ واحدة منها بحاجة لدراسة مستفيضة، لئلا يجري استخدامها بصورة مغلوطة أو تحويلها إلى غير معانيها الحقيقية.

فالخيار برأي القائد بشار الأسد ينطوي أساسًا على توافر إمكانية الحركة وحريّة الموقف تبعًا للقدرات الموجودة والموظّفة، وامتلاك بدائل عديدة بآن معًا. لأنّ «كلمة خيار تعني أن هناك خيارات مختلفة، ولاتعني فقط خيار السلام أو خيار الحرب».

أمامنا - مثلاً - الخيارات التالية [٩]:

أ- خيار السلام الاستراتيجي.

ب - خيار الحرب الاستراتيجي (خيار حرب هجومي استراتيجي).

ج- خيار القوة الاستراتيجي.

د- خيار الردع الاستراتيجي.

هـ - خيار دفاعي استراتيجي.

إضافة إلى مجموعة واسعة من الخيارات الاجتماعية والاقتصادية والعلمية والسياسية وغيرها.

وإذا كنا كعرب اخترنا السلام الاستراتيجي بديلاً لخيار الحرب، إلا أنّ من الخطأ الاعتقاد أن خيار السلام ليس بحاجة للقوة التي تحميه.

وهنا يبيّن القائد الأسد أنّ مفهوم القوة لاينحصر بالناحية العسكرية. فالقوة هي عوامل متعددة والردع أيضًا هو عوامل وعناصر مختلفة.

ويضيف سيادته موضحًا: خيار القوة والردع ليس بالضرورة عسكريًا. قد تكون له أشياء مختلفة. قد يكون بشكل عسكري، وقد يكون بشكل تضامني ... التضامن العربي هو خيار قوة وخيار ردع. وقد يكون من خلال مشروع قومي، قيام المشروع القومي أيضًا هو عامل ردع وهو عامل قوّة.

إذاً، أمامنا خيارات مختلفة بشكل عام: سلام، حرب، قوة، ضعف.. وأفضل الخيارات هو السلام مع القوة، أي سلام الأقوياء يأتي بعده خيار الحرب مع القوة. أي حرب الأقوياء ؛ أسوأ شيء هو سلام مع ضعف، أو حرب مع ضعف، حرب الضعفاء هي خسارة، وسلام الضعفاء هو خسارة.

فإذاً، إذا كنّا اخترنا السلام فليكن سلام القوّة أو سلام الأقوياء. أما ونحن ضعفاء فلا نستطيع أن نقول: إن هناك خيارًا، بل هناك فرض يفرض علينا من الخارج.

من ناحية أخرى أكّد القائد الأسد في المؤتمر نفسه خطأ أولئك الذين يعتقدون أنّ العرب لا يملكون شيئًا من عناصر القوة: «فالواقع يدلّ على أن الضعف الذي نعيشه هو شعور ذاتي نقنع أنفسنا به لأسباب مختلفة، في الوقت الذي نمتلك فيه الكثير من عوامل القوة.

وهذه هي الهزيمة من دون حرب ... هزيمة العقيدة والإرادة هي أصعب وأسوأ أنواع الهزائم» [١٠].

في هذا المؤتمر وفي مؤتمرات القمم العربية والإسلامية اللاحقة، وفي زياراته للعواصم، العربية والإقليمية والدولية، وفي لقاءاته مع قادة دول العالم والشخصيات السياسية والأكاديمية وممثلي وسائل الإعلام المختلفة، حدّد القائد بشّار الأسد بصورة شديدة الوضوح والدقّة رؤيتنا للسلام ومفهومنا للشرعية الدولية وعدالة

المواقف، مؤكدًا أنّ الأمة العربية اختارت السلام على أساس تنفيذ قرارات الشرعية الدولية ومبدأ الأرض مقابل السلام، الذي يؤكد على عودة جميع الأراضي التي احتلتها «إسرائيل» في حزيران عام ١٩٦٧ في الجولان وفلسطين، وضمنها القدس، بالإضافة إلى عودة الأراضي اللبنانية التي لاتزال تحت الاحتلال، وضمان حقوق الشعب الفلسطيني في العودة وتقرير المصير، وإقامة دولته المستقلة وعاصمتها القدس الشرقية كاملة، وتحرير جميع الأسرى العرب والمعتقلين في السجون والمعتقلات الإسرائيلية.

الخلاصة: «بينما نحن نسعى إلى السلام، تسعى « «إسرائيل» للحرب، وبينما اخترنا نحن السلام خيارا استراتيجيا كان بالنسبة لـ «إسرائيل» خيارا تكتيكيا. أراد العرب الوصول إلى سلام عادل وشامل وأرادت «إسرائيل» سلامًا مجتزأ منقوصًا»[١١].

سابعًا: التفريق بين المقاومة والإرهاب:

يؤكّد القائد بشار الأسد باستمرار على الفرق الهائل بين مفهومي المقاومة والإرهاب. ويستنكر ازدواجية المعايير والمواقف في هذا المجال، قائلاً: إنه لايجوز «أن توصف المقاومة من أجل تحرير الأرض نضالاً في مكان ما وإرهابًا في مكان آخر».

ولعلّ من المفارقات الناتجة عن تلك النظرة الازدواجية والادعاء بأن مقتل جنديين من القتلة في الجيش الإسرائيلي هو أهم بكثير من استشهاد العشرات من الأبرياء العرب المسلمين والمسيحين في فلسطين والآلاف في لبنان ودول عربية وإسلامية أخرى. كما أنّ أسر ثلاثة محتلين في الأراضي اللبنانية المحتلة يقيم الدنيا ولايقعدها، بينما عشرات من المختطفين اللبنانيين والسوريين والمئات من المعتقلين الفلسطينيين والعرب لاتحرّك شيئًا لدى المجتمع الدولي[١٢].

في المؤتمر الصحفي المشترك الذي عقد في دمشق بين السيد الرئيس بشار الأسد وتوني بلير رئيس وزراء بريطانيا، جدّد القائد الأسد إداننا لما حصل في الحادي عشر من أيلول في الولايات المتحدة، مشيرا إلى معاناتنا من الإرهاب خاصة في منتصف السبعينات والفترة التي تلتها، وفي الوقت نفسه فرّقنا بين المقاومة والإرهاب وبين والإرهاب. هناك فرق كبير: المقاومة هي حقّ اجتماعي، هي حق ديني، هي حق قانوني، وهي حق مكفول من خلال قرارات الأمم المتحدة.. وأنّ الأديان السماوية كلّها تدعو للسلام ومكافحة الإرهاب في الأرض.

وقد توقف القائد الأسد عند سبب يشعر به الكثير من المواطنين سواء في المنطقة العربية أو المنطقة الإسلامية، وهو

شعور بفارق القيمة بين المواطن في هذه المنطقة والمواطن في الغرب بشكل عام ... وعلى الدول الغربية أن تتعامل معها بشكل دقيق، الإنسان إنسان في أي مكان في العالم، الإرهاب إرهاب سواء كان في الولايات المتحدة أم في أوروبا أم في الشرق الأوسط أم في آسيا أم في أي مكان آخر، وقيمة الإنسان واحدة.

وأكد سيادته لرئيس الوزراء البريطاني أن معالجة الإرهاب تبدأ من تعريف هذا المصطلح، لايمكن أن نقاتل عدوا لانعرف من هو.. ماهو شكله، أين يوجد: شرقا، غربا، شمالاً.. جنوبًا ... لابدّ من أن نعرف هذا العدو ولابد من أن نحدد شكله وطبيعته ومن ثم ننتقل إلى تحليل الأسباب التي أدت لوجود هذا الإرهاب، وبالتالي علينا لكي نكافح هذا الإرهاب أن نتعامل مع الأسباب وليس مع النتائج حتى الآن هناك تعامل مع نتائج الإرهاب لكن لم تبدأ المعالجة الحقيقية للأسباب أو أنها في بداياتها ... الإرهاب ينتشر في كل مكان وبالتالي معالجة هذا الإرهاب ومعالجة أسبابه تكون بشكل تعاون دولي، وليس بنفس الطريقة أي أن جهة واحدة تقاوم الإرهاب.

الإرهاب منتشر في كل مكان ويجب أن تكون مكافحته من كل الدول في العالم.

وتعقيبًا على أحد الأسئلة على هامش اللقاء المشار إليه أعلن القائد الأسد أن «المقاومة لتحرير الأرض هي حق دولي لا أحد يستطيع إنكاره، وبالتالي نحن لدينا جهات مختلفة وشخصية وتيارات تدعم التحرير أو تدعم المقاومين الذين يسعون لتحرير أراضيهم. العمل المقاوم هو غير الإرهاب» (١٣).

وفي معرض حديثه الشامل لصحيفة «كوريري ديلاسيرا» الإيطالية، أكد القائد بشار الأسد أن المقاوم الفلسطيني الذي يذهب مندفعًا إلى الموت، لايقوم بذلك بناء على أوامر وتوجيهات مسؤولين أو دول معينة. فقسمٌ كبيرٌ يهرع لهذا الأسلوب نتيجة إحباطات شديدة جدًا وقمع يمارس على الشعب الفلسطيني.

وبالتالي سواء توافق معهم الغرب أم اختلف فهي نتيجة لإرهاب «إسرائيل».

وتساءل في هذا الإطار عن جدوى إدانة الزعماء الغربيين لهذا السلوك الحتمي، قائلاً: «هل تعتقد بأن شخصًا مستعدًا للموت يهتم بإدانة أو بمديح؟ لماذا لايكونون واقعيين ويعودون إلى السبب؟ لماذا لايعالجون السبب المباشر وهو القتل الإسرائيلي؟ هؤلاء الأشخاص إذا لم يذهبوا ليموتوا في «إسرائيل» فسيقتلون في بيوتهم كما يفعل بهم الآن شارون. أنهم يريدون أن يقولوا لشارون لن نموت وحيدين.. وبالتالي فإن الحل الوحيد

والواقعي، بغض النظر عن أفكارنا الخاصة، هو أنه يجب معالجة السبب بالضغط على «إسرائيل» (١٤).

وفي كلمته القومية الشاملة أمام مؤتمر القمة العربية الرابعة عشرة في بيروت (آذار ٢٠٠٢) جدد القائد بشار الأسد دعوته «لرفض أي مصطلح لايأتي من منطقتنا». فأشار إلى أنه من الممكن لطبيب في غرب العالم أن يكون مختصًا بمرض مافي شرق العالم، لكن من المستحيل لأي شعب أو جهة أو دولة أن تكون مختصة بقضايا شعوب أخرى، قضايا الشعوب هي من اختصاص الشعوب فقط.. وبالتالي فإن قضايانا هي ملكنا ولانقبل بأي تقويم يمسنا يأتي من الخارج، وبالتالي نحن من يحدد القيم التي يجب أن نسير عليها.

هم لايحق لهم أن يحددوا قيمنا ولامبادئنا ولامصلحتنا ولاكيف نشعر ولامتى نشعر. هذا شيء مرفوض تمامًا، طالبناهم بالتفريق بين المقاومة والإرهاب، ولكنهم طبعًا تهربوا (١٥).

وأكد القائد بشار الأسد في المؤتمرنفسه أننا نملك تعريفًا للمقاومة، ونفرق بوضوح تام بين المقاومة والإرهاب. هو كالفرق بين صاحب الحق ومغتصب هذا الحق، أما بالنسبة للإرهاب فيمكن أن نطرح الأسئلة التالية: هل التهجير هو إرهاب؟ إنه بكل تأكيد إرهاب. الكل سيقول هو إرهاب. هل إبادة شعب هي إرهاب؟! بكل تأكيد سيقول هي إرهاب.. هل الاحتلال هو إرهاب؟ لايستطيعون أن ينكروا ذلك. هل هذه الأمور هي عكس المقاومة أو أن المقاومة هي عكس هذه التعابير أو هذه الصفات؟ وهذه الصفات أو هذه الأمور هي التي تقوم بها «إسرائيل» وتمارسها. على كل الأحوال «إسرائيل» نموذج حي بالنسبة لنا. لمن لايفهم الإرهاب عليه أن يذهب ويراه بشكله العملي وأعتقد بأن كل العالم الآن أصبح يعرف، لكن أحيانًا لايريدون أن يعترفوا بهذه الحقيقة (١٦).

وفي السياق ذاته فنّد القائد الأسد مصطلح «ضرب المدنيين والأبرياء» الذي يستخدمه البعض للإشارة إلى سكان الكيان الصهيوني غير المسلحين أو غير المنخرطين مهنيًا في جيش الاحتلال. وبيّن كيف أن هؤلاء الوافدين من أنحاء العالم المختلفة ساهموا بقتل الفلسطينيين وتهجيرهم، وأن المستوطنات الصهيونية مبنية أساسًا على شكل نقاط استناد عسكرية، وفي «إسرائيل» الكل مسلح، «وبكل الأحوال المصطلح المعتمد بالنسبة لنا هو المقاومة كحق مشروع ضد الاحتلال» (١٧).

إنّ تحليلاً دقيقًا وشاملاً للمنظومة المفاهيمية ومسألة المصطلح في خطاب

القائد بشار الأسد وفكره وتوجهاته، تحتاج إلى وقفة متأنية ومتعمقة، وإلى مقاربات عديدة وقراءات متنوعة، من شأنها الإحاطة الجيدة بالموضوع المطروح في جوانبه ونقاطه الارتكازية والعملية المختلفة.

أخيرًا نختتم هذه المشاركة المتواضعة بالإشارة إلى تأكيد القائد بشارالأسد (١٨) بأنّ «المجتمعات تتطور في سياقها الطبيعي، وليس من خلال مصطلحات يفترضها البعض ويريد أن يجعل منها قوالب صغيرة، يحشو فيها مجتمعات كبيرة فيعيق حركتها ويدفعها للضمور.. المصطلحات لاتنتج مجتمعات بينما المجتمعات هي التي تنتج المصطلحات المناسبة لها وتعطيها شكلها ومضمونها، الذي يتناسب مع ظروفها المختلفة بحيث تكون مرنة لتتماشى مع حركة هذا المجتمع».

المصادر

(١) انظر: الدكتور جميل صليبا، المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت، ١٩٧٣، المجلد الثاني، ص ص ٤٠٣-٤٠٥.

(٢) الموسوعة الفلسفية، بإشراف روزنتال ويودين، ترجمة سمير كرم، بيروت، دار الطليعة، الطبعة الثانية، ١٩٨٠، ص٤٨٨.

(٣) عبد الكريم غلاب، أزمة المفاهيم وانحراف التفكير، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، سلسلة الثقافة القومية (٣٣)، ١٩٩٨، ص١١.

(٤) انظر: موسوعة السياسة، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، الطبعة الأولى ١٩٩٠، الجزء السادس، ص ص ١٧٨-١٨٠.

(٥) انظر نص المقابلة في صحيفة «تشرين»، العدد ٧٩٢٥، تاريخ ٢٠٠١/٢/٨.

(٦) من المؤلفات العربية الأكثر منهجية ودقة في دراسة مفهوم المجتمع المدني يبرز كتاب الدكتور عزمي بشارة «المجتمع المدني: دراسة نقدية»، بيروت مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٨؛ وانظر في هذا السياق أيضًا بحوث ومناقشات الندوة الفكرية التي نظمها مركز دراسات الوحدة العربية خلال الفترة ٢٠-٢٣ كانون الثاني ١٩٩٢، وشارك فيها حوالي مئة من الباحثين والمفكرين والسياسيين العرب ممن يمثلون اتجاهات مختلفة.. وصدرت تحت عنوان: «المجتمع المدني في الوطن العربي ودوره في تحقيق الديمقراطية»، بيروت، مركز دراسات الوحدة العربية، ١٩٩٢.

(٧) انظر: النص الكامل للكلمة في صحيفة «تشرين» العدد ٧٨٢٥ تاريخ ٢٠٠٠/١٠/٢٢.

(٨) و (٩) و (١٠) و (١١) المصدر السابق.

(١٢) انظر كلمة السيد الرئيس بشار الأسد في مؤتمر القمة الخامسة والخمسين الإسلامي في الدوحة، المنشورة في صحيفة «تشرين» العدد ٧٨٥١، تاريخ ١٢/١١/٢٠٠٠.

(١٣) انظر النص الكامل للمؤتمر الصحفي في صحيفة «تشرين» عدد ١/ تشرين الثاني ٢٠٠١.

(١٤) انظر نص اللقاء الصحفي في صحيفة «تشرين» عدد ١٧/ شباط ٢٠٠٢.

(١٥) انظر النص الكامل للكلمة في صحيفة «تشرين» عدد ٢٨/ آذار/٢٠٠٢.

(١٦) و (١٧) المصدر السابق.

(١٨) من حديث القائد بشار الأسد الشامل إلى صحيفة «الشرق الأوسط»، المنشور في صحيفة «تشرين»، العدد ٧٩٢٥، تاريخ ٢٨/٢/٢٠٠١.

٣٦

المرتكزات الرئيسة لعملية التطوير والتحديث في فكر وخطب الرئيس بشار الأسد

الدكتور محمد الحسين*

على مدى السنوات الثلاثة الماضية أصبح مصطلح التطوير والتحديث حديث العامة ونغمة إيقاع تبنى عليها السمفونيات الضبابية التي تفتقر إلى أبسط قواعد النجاح..... نعم هذا مايحصل هذه الأيام أماني حالمة قائمة على الفعل ورد الفعل ...

إن عملية التغيير سنة من سنن الحياة وحقيقة ثابتة يجب أن نعيشها بحلوها ومرّها نتأثر فيها ويؤثر فيها بعضنا البعض، لأننا جزء من عالم متحرك ... عالم لايهدأ ولايستكين،

(*) د. محمد الحسين: باحث من سورية، أستاذ في جامعة دمشق - كلية الحقوق، معاون وزيرة الشؤون الاجتماعية والعمل.

وعلينا أن نحسن التعامل مع عملية التغيير بفكر علمي وعقلاني حتى نضمن استمرارية وجودنا ضمن هذا العالم المتغير ..وأحب أن أقول هنا: إن عملية التطوير والتحديث تنبع من الإحساس ... إحساس عالي بالمسؤولية تجاه وطن أعطى لنا الكثير ... علينا أن نتسلح بالإرادة الصلبة والانتماء الوطني الصادق الذي يريد بالوطن لوحة فنية مطرزة بألوان منتظمة ومتكاملة تضمن لأجيالنا المقبلة الحياة الكريمة والرفعة والكبرياء بوطن يشمخ عاليًا بالقيم والتقدم والرفاه.

لذا ومن هذا المنطلق، من المؤكد أن نجاح الإدارة واستمراريتها يتوقف على التطويرالمناسب وفي الوقت المناسب وهذا يتطلب منا توفير المعلومات التي تبنى عليها هذه التصورات بعيدًا عن الارتجال والتخبط العشوائي، ولقد أثبتت التجارب بأن إصلاح النصوص مهما كان لايصل إلى درجة الكمال بل يبقى ناقصًا إذا لم يرافقه إصلاح في الإدارة التي يمكن أن يتم بها نقل تلك النصوص إلى الواقع العملي، وهذا يعني الإصلاح في عملية صنع القرارات الإدارية لأنها الأداة الرئيسة التي يتم بها تغيير الواقع نحو الأفضل، هذا مايريده منا قائد الوطن السيد الرئيس بشار حافظ الأسد عندما يقول: علينا أن نعيد النظر في النصوص القانونية ونعدلها بما ينسجم مع الرؤية التي نحب ونوائم ما بينها والقواعد التي نطبقها على أرض الواقع حتى نضمن تجسيد منعكسات التشريعات على أرض الواقع بما ينسجم وإرادة المشرع وهنا لابد من الإشارة بأنه لايمكن الوصول إلى نتائج تشريعات متطورة في ظل إرادة متخلفة لأنها تحبط أي تشريع كونها وببساطة هي الأداة التي تقوم بصياغة أو تطبيق التشريعات وبالتالي فإنها تعيق وتعرقل اي تطور تشريعي.

لذا فنحن بحاجة إلى إدارة كفوءة تطبق هذه التشريعات كما يجب وفي الوقت المناسب لأن هناك علاقة حتمية جدلية واضحة بين تطور الإدارة وتطور التشريعات. إضافة إلى أننا في هذه المرحلة نريد أن نعيش مرحلة التغيير البناء القائم على الاستراتيجيات الفعالة التي تهدف إلى الارتقاء بالوطن نحو الأفضل بخطىً ثابتة ومدروسة، والإدارة اليوم هي إدارة التغيير سواء في الموارد البشرية، أو المادية، أو المعنوية. لذا ومن هذا المنطلق كانت الرؤية ذات المنظور التطويري للسيد الرئيس بشار الأسد حيث أنه شخص لنا الحالة ومهد لنا الطريق حين قال سيادته بأن تغيير المناصب والأشخاص وجلب الكفاءات الإدارية لايكفي بل يجب خلق البيئة الصحية المناسبة للعطاء من خلال إعادة النظر في التشريعات والقوانين التي تحكم الإدارة وتعطيها دفعًا ومساحة من هامش الحركة التي تساعدها على التطوير ... لذا ومن هذه

النظرة أستطيع أن أقول إن العملية التطويرية لايمكن أن تنهض إلا بتوافر ثلاثة شروط متلازمة:

١ - وجود إدارة كفوءة متخصصة لأن مثل هذه الإدارة هي التي تهتم بالتفاصيل للتعرف على المشكلة، وتحديد الأهداف، وجمع المعلومات المتعلقة بالموضوع، وحصر العوامل المؤثرة كافة، ووضع البدائل المناسبة، واختيار البديل الأمثل والتمهيد للتنفيذ، وتقويم النتائج.

٢- إرادة صلبة ورغبة في التطوير وصدق الانتماء الوطني،صحيح أن الإدارة الكفوءة مهمة جداً بل لابد من توافر الإرادة والإيمان والغيرية الوطنية الصادقة من أجل النهوض بكل مامن شأنه أن يؤدي إلى رفعة الوطن والمواطن.

٣- توفر الوسائل الكفيلة بإنجاح العمل التطويري: ويمكننا القول بأن من أهم هذه الوسائل:

❖ ضرورة المراجعة الدورية والمستمرة للتشريعات وإجراءات سير العمل التي تحكم أبعاد الحياة المختلفة، مع حتمية ترشيدها وربطها بصورة ديناميكية بأهداف المرحلة والرؤية المستقبلية.

❖ إعادة النظر في القوانين المتعلقة بالإجراءات الإدارية بغية تبسيطها وإعطائها المرونة اللازمة والمناسبة للابتكار والإبداع.

❖ إعادة النظر في القواعد القانونية التي تحكم العاملين بالدولة من حيث الرواتب والأجور وعدالة التعويضات، والعمل بمبدأ الثواب والعقاب، وترشيد التعيين، واختيار الأكفأ.

❖ وضع ضوابط شديدة لإشغال المناصب العليا من قبل ذوي الكفاءات لخدمة الإدارة الناجحة قادرة على تفعيل دورها بالمجتمع ومواكبة تطوره وحركته وحاجاته.

❖ التأكيد الدائم على التدريب والتأهيل المستمرين للكادر الإداري.

❖ إعادة النظر في مسألة الرقابة على العاملين في الدولة وذلك من خلال تخفيف قيود الرقابة المباشرة على الخطوات وتشديدها على النتائج والابتعاد عن مبدأ التصيد القائم على الشخصنة مع التأكيد على مبدأ المحاسبة وخاصة بالنسبة للإدارة العليا.

❖ إعادة النظر في النصوص المنظمة للاختصاصات وسلطات مصدر القرار لأن أكثرها غير واضح، الأمر الذي يترتب عليه، في غالب الأحيان، الإحجام عن إصدار الكثير من القرارات. إضافة إلى ضرورة الابتعاد عن تداخل الاختصاصات.

❖ إدخال التقانة في العمل الإداري.

❖ إعادة النظر في التشريعات الحالية بما يؤمن وسائل نجاح العملية الإدارية.

وأخيرًا نقول: إن الابتعاد عن الأنانية والاعتراف بالخطأ والانتماء الوطني الصادق، وبالإرادة والعزيمة والتصميم نستطيع أن نبني بلدنا وفق أسس علمية متينة ونرتقي به إلى مصاف الدول المتقدمة. وهذا يكون من خلال تنظيم استغلال الكوادر الكفوءة في بلدنا وخلق البيئة المناسبة لمنع هجرة هذه الفئة إلى الخارج لأننا بأشد الحاجة إليها .. وهي بأشد الحاجة إلينا .. لأن الموارد البشرية هي الوسيلة وهي الغاية .. فبدونها لايمكن أن نحقق مانريد .. فبالتكامل .. والتفاعل .. والإرادة .. والغيرية .. نفعل المستحيل.

٤٠

التطوير والتحديث في سورية حاجة داخلية

بقلم: أ.د. كامل عمران ❖

أصبح التطوير والتحديث الإنساني اليوم ضرورة تلحّ على الأنظمة سواء في الأبعاد السياسيّة أو الاجتماعية أو الإدارية ، وأصبح المعيار الذي يحكم على بعض المؤسسات بالبقاء والثبات. لذلك بات من المحتّم على الجميع الإذعان لهذه الحقيقة ومواكبتها مواكبة عقلانية متوازنة ، لأن الوقوف أمامها ، أو التعامل بالأساليب التي كانت نافعة أو متداولة في مرحلة زمنية، يعد حجر عثرة أمام المسيرة الإنسانية . ومن الواضح أنّ مسيرة الحياة لابدّ وأن تمشي بخطى متسارعة ، وإن الفرصة لم تعدّ تسنح للذين لا يرغبون التنمية الإنسانية أو التطوّر أو يتخوّفون منها أن يقفوا متفرّجين ، ما لم يقوموا هم أيضاً بتقويم أساليبهم ومناقشة أفكارهم وخططهم وموازنة الصحيح أو المناسب منها ، للمحافظة على الصحيح و تبديل غيره إلى الأفضل والأحسن.

(❖) د. كامل عمران: باحث من سورية. دكتوراه في الدراسات الفلسفية والاجتماعية. أستاذ في قسم علم الاجتماع بجامعة دمشق.

وحتى يكون المجتمع في القمّة لابدّ أن يواكب التطوّر. ولا نقصد من التطوّر حداثة الآليّات والتقانات، كإبدال الأعمال اليدوية بنظام الحواسيب، أو تحويل نظام الاتصال من الرسائل إلى الانترنيت والبريد الإلكتروني. وهكذا، فإنّ هذا أمر يدخل في نظام العمل بشكل طبيعي، بل نقصد منه تطوّر الفكر وانفتاحه وتهذيبه. وتكامل الأساليب وسموّها. وأيضًا نمو الأهداف والطموحات. وبعبارة مختصرة التطوّر الإنساني في العلاقات ونمط التعامل ومنهجيّة العمل داخل مؤسسات المجتمع، لأنّ العمل مهما تطوّر تقنيًا أو امتلك من قدرات فإنّه يبقى رهن العقول التي تديره وتدبّر شؤونه. فليس التطوّر رهن الآلات والتكنولوجيا بل رهن تطوّر الانسان ونموّه وارتقائه. وتتدخّل أيدي المسؤولين في وضع اللبنات الحقيقية لهذا النهج كما يتدخّل الرؤساء وأصحاب القرار في وضع لمسات الديمقراطيّة والتعدّدية واحترام حقوق الإنسان.

ولا يفهم من كلامنا هذا الانسياب وراء التطوّر للانبهار بهذا المفهوم أو آليّاته لأنّ التطوّر بحدّ ذاته ليس هدفًا بقدر ما هو وسيلة إلى تحقيق الأهداف التي يرفعها المجتمع من أجل التقدم.

ونظرًا لأن خطاب القسم للرئيس بشار الأسد هو برنامج عمل للحكومة، لابد من وضعه موضع التنفيذ من خلال الخطط المرحلية والإستراتيجية المناسبة والمتوافقة مع إمكانات القطر، ولأن أحد محاور التطوير والتحديث الأساسية هي "طرح أفكار جديدة في المجالات كافة، سواء بهدف حل مشكلاتنا ومصاعبنا الراهنة أو بهدف تطوير الواقع الحالي"، ولأن التطوير والتحديث يتطلب فكرًا مستقبليًا قادرًا على استشراف المستقبل، وأساليب مبدعة لبلورة الأفكار المستقبلية، وإدارة واعية خلاقة منفتحة الذهن، لكل ما هو مفيد ومبدع، فإن الإصلاح الإداري "هو اليوم حاجة ملحة لنا. فقصور الإدارة يعتبر من أهم العوائق التي تعترض مسيرة البناء والتنمية والتي تؤثر بشكل سلبي في جميع القطاعات دون استثناء. وعلينا أن نبدأ بالسرعة القصوى بإجراء الدراسات الكفيلة بتغيير هذا الواقع نحو الأفضل من خلال تطوير الأداء الإداري وهيكليته ورفع كفاءة الكوادر الإدارية والمهنية، وإنهاء حالة التسيب واللامبالاة والتهرب من أداء الواجب".

إنّ الاتجاه الصحيح لمنظمات المجتمع ومؤسساته، يجب أن يكون على أساس منهجي وعلمي يتخذ من العلوم الجديدة وتكنولوجيا المعلومات ومن اختمار التجارب وتوسّع الأفكار وارتقاء الأهداف والطموحات والقدرات البشريّة الهائلة، أسسًا إستراتيجية للوصول إلى وضع

أفضل في البقاء والتطوّر والاستمرار، وهذا ما يتطلّب دائمًا توفير عناصر الابتكار والإبداع .

ولا شك أن التطوير ليس من أجل التطوير ، وإنما هناك ما يدعو إليه . إن الدواعي التي ينشأ منها التطوير عديدة ، بعضها علمي تقاني ، والآخر إداري ، إضافة إلى الفكري والثقافي . فضرورة العقل والحكمة تدعو إلى عقلنة التطوير وتوجيهه نحو الأفضل. لأننا لا نريد من التطوير مجرد التحول إلى وضع معين على خلاف ما كنا عليه من قبل، بأيّ شكل كان، لأن هذا إخلال بالتوازن غير معروف المصير، بل نريد من التطوير الارتقاء إلى الطموحات العالية والانفتاح الإيجابي، ووضع الخطط البناءة للوصول إلى الأهداف .

إن التغييرات التي تحدث في المجتمعات غالبًا ما تهزّ توازنها كليًا أو جزئيًا، ولذا تتطلب أسلوبًا يختلف عن الأسلوب التقليدي ، لتكون الإدارة قادرة وعلى مستوى جيّد من الحكمة والهدوء على احتوائه وتنظيمه ، وتحقيق التوازن الجديد للمجتمع وفق مبدأ عمل الأشياء الصحيحة بطريقة صحيحة ، بدلًا من مبدأ عمل الأشياء بطريقة صحيحة فقط ، والذي يعتمد عليه الأسلوب التقليدي في الغالب.

ولأن التطوير ليس هدفًا بل هو طريق ؛ فإن اتخاذ التطوير هدفًا بذاته ينتهي إلى ضدّه، ويتحوّل إلى فوضى واضطراب لانحمد عواقبه. لذا ينبغي أن نميز بين التطوير العشوائي الذي يحدث بلا إعداد وتهيئة ودراسة كافية له، وبين الآخر الذي يخضع لعمليات توجيه وقيادة حكيمة وخطط مدروسة؛ لذلك فإن الآثار التي تترتّب على كلا النوعين في التغيير متباينة؛ فالتطوير العشوائي أمر سهل وبسيط ويمكن البدء به بسرعة، لأنه هدم ، والهدم أمره سهل وبسيط خصوصًا في الجماعات التي يعاني أفرادها من أزمة الوعي ، أو تعاني صفوفها من التراكمات والتوتّرات السلبية الكامنة أو المحدودة ، لذلك فإن مجرّد الدعوة إليه والسير باتجاهه يؤدي إلى تمزيق وحدة الصف ، وتفكيك الأواصر، والانتهاء بالمجتمع إلى أسوأ الأوضاع ، بخلاف التطوير المخطط فهو أمر صعب ويحتاج إلى المزيد من العناية والتفكير والتصميم والإرادة ، وقبل كل ذلك الوعي الخلّاق ، وإدراك ضرورته ، وضرورة العمل لردم الفجوات ورفع النواقص وسدّ الثغرات ، أو لرفع مستوى العمل والأداء ، أو فتح آفاق التطلّعات والأهداف إلى الأعلى.

وهذه حقيقة علينا أن نؤمن بها جميعًا؛ إذ إن الرأي العام والمطالب المشروعة هي كالسيل الجارف، فإذا لم نخطط لاستثمارها إيجابيًا، فإنها تنقلب إلى

السلب، وتؤدي إلى مضاعفات لا تصبّ في الصالح العام.

إذن علينا أن نتنبأ بالتطوير دائمًا، وندرك ضروراته ونستعدّ له، ونخوض فيه بكل شجاعة وإنصاف، لنتمكّن من توجيهه وقيادته إلى النتائج الأفضل، فإننا بهذا نتمكن من أن نضمن المنافع ونتجنّب الأضرار والمساوئ ليكون التغيير في صالح الجميع.

كما أن عدم فهم الدوافع والغايات، وعدم إيجاد من يحمي فكرة التطوير ويتبنّى آلياتها، يوجد روح المقاومة له، وصياغة الأجواء المضادّة للحيلولة دونه، ومن هنا لعلّ من المناسب أن نذكّر ببعض الأسباب التي تدعو الكثيرين لمقاومة التطوير وهي كالتالي:

انعدام الاستقرار النفسي والطمأنينة، وتوقّع الخسارة، والتخوّفات الاقتصادية، والقلق الاجتماعي، والخوف من أن يؤدي التطوير إلى تعلّم مهارات جديدة، ويبرز الخوف في مظاهر عديدة في المؤسّسة نفسها التي منها ما يلي:

أ - الجمود الهيكلي؛ أي يتم انتخاب العناصر المؤثرة والتي يمكن أن تساهم مساهمة إيجابية في التطوير لتحييدها أو جرّها إلى صفوف المقاومة، وبالتالي قد تنقسم المؤسسة إلى جماعات تمثّل كل جماعة تيارًا يحميها ويؤيدها ويعرقل عمل التيار الآخر، والواضح أن هذا الشكل من العمل سيخرج من المنافسة إلى الصراع، ثم يتبدل الصراع إلى حرب داخلية مستمرة تحرق الأخضر واليابس، إذا لم نكن ماهرين في إدارته بالشكل المناسب.

ب - كما قد تتخذ عمليات المقاومة بعض الأساليب الخفيّة والمبطنة بدلًا من أن تكون ظاهرة وعلنيّة، ولعلّ هذا من أخطر الأمور تهديدًا لمصالح المؤسسات والأنظمة لتشكّل المزيد من الضغط على المسؤولين أو التصعيد من مستوى الفشل.

ج - تقييد جماعات العمل أو المشاريع والخطط أو عرقلتها بذرائع مختلفة.

د - زيادة تمسّك بعض الأفراد بما عندهم من مهام وإمكانات وتشديد القبضة عليها، لكي لا تفلت من الزمام، وتعطيهم القدرة على التحكم بها متى شاؤوا خوفًا من فقدانها أو عنادًا للتغيرات الجديدة.

و- اشتداد حالة التذمّر وتوسيع نطاقها لجعلها حالة مستشرية، وهذا الأمر يستفيد منه غالبًا الأفراد الذين لهم قدرة عالية على التنظيم والإدارة لتحويل المقاومة إلى رأي عام، وبالتالي فتح جبهات متعدّدة على الإدارة، بما يحول دون وصولها إلى أهدافها في التغيير.

ز- ومن هنا، فإن الحكمة تتطلب دائمًا أن نتحلّى بقدر كاف من الشجاعة والصبر

والإرادة والتصميم، بالإضافة إلى التحلّي بالحكمة والحنكة والتهيئة الكافية للتغيير من حيث الدراسة والموضوعية، ورسم الخطط الصحيحة لتتم العملية بلا أضرار أو مع أضرار أقل مع ضمان أكبر لقبول العاملين والأفراد وكسب تعاطفهم معها.

أما الوسائل التي تستخدم في التطوير فهي:

١- إيجاد وعي التطوير والاقتناع بضرورته؛ وأول خطوة في هذا المجال وقبل كل شيء علينا تجنب المفاجآت والقرارات الفوقية أو الارتجالية عن طريق إحاطة الناس علماً مسبقاً بما يراد عمله وأهدافه ودواعيه، والأفضل من ذلك إذا جعلنا الجميع يشعرون بضرورة التطوير والمساهمة في اتخاذ قراره حتى يستعدوا للنقلة وتقبّل الجديد بل والدفاع عنه مع الحفاظ على مستوى كبير من الثقة وحسن الظن بالقيادة، ويمكن اتباع أسلوب الاجتماعات واللقاءات والسماح للأفراد بإبداء الرأي ومناقشتهم في مجالات التطوير وطرقه.

٢- العمل على تزويد الناس بمضامين التطوير ودوافعه ودواعيه وأسبابه بحيث يدركون ويتفهّمون الأسباب الحقيقية من ورائه؛ مما يقطع دابر الشكوك والقلق، ويقطع سبل الإشاعات والإرباكات التي قد يثيرها بعض المعارضين ليشوّشوا العقول ويقلقوا الخواطر.

٣- ضرورة إشعار الناس بالفائدة والمكاسب التي يمكن أن تتحقّق لهم جرّاء التطوير على اعتبار أنه عمل يراد منه الوصول بالجميع - أفراداً ومؤسسة - إلى الأفضل؛ الأمر الذي يسهم مساهمة فاعلة في زيادة المكاسب المادية والمعنوية للمجتمع.

٤- الاستعانة بالأفراد والأطراف الذين لهم تأثير فاعل على الآخرين، لشرح التطوير وبيان دوافعه وأسبابه وفوائده.

٥- إشراك الشعب بكافّة مراحل التطوير ما أمكن، لأن الإشراك في بعض الأصول والكليات من الضرورات التي لا يمكن الاستغناء عنها بحال من الأحوال. فالإنسان بطبيعته يتقبّل أكثر ما يستشار فيه من أمور، فضلاً عما يشترك فيه من تخطيط وتنفيذ.

٦- فإذا لم نبدأ بتغيير أوضاعنا وتطويرها بحريّة وعقلانية وتوجيه، فإنه سيُفرض علينا التغيير، وربما في أشكال غير محمودة العواقب.

٧- إذن لابد أن نغيّر ما في أنفسنا وأفكارنا ومناهجنا إلى الأفضل ما دام التغيير سنة من سنن الحياة وإلا فإن التغيير سيكون نحو الأسوأ.

- وهذا التطوير يأخذ بالاعتبار **الحفاظ على نهج القائد الخالد**

حافظ الأسد باعتباره مدرسة فكرية تتجدد باستمرار، تثري العمل، وتدفع به إلى الأمام، وتشكل ركيزة صلبة، ومنارة ساطعة في المدرسة الوطنية والقومية والعالمية، وهذا يتطلب تطوير نهج القائد الخالد باستمرار بما يتناسب والظروف الراهنة والمستقبلية التي يمر بها المجتمع في سورية، دونما التخلي عن الثوابت الوطنية والقومية. ويأتي اليوم مشروع التطوير والتحديث الذي عبر عن بعض من جوانبه الرئيس بشار الأسد، تطويراً خلاقًا لمدرسة القائد الخالد، ومن هذه المدرسة الفكرية يأتي مبدأ الإيمان بالشعب باعتباره مصدر السلطات كلها، ذلك المبدأ الذي قامت على أساسه الحركة التصحيحية. إذ لا يجوز القفز فوق الشعب، وأي حاكم لا بد أن يستند في حكمه على الشرعية الأهم وهي شرعية الشعب. وأن يعبر عن آمال الشعب وتطلعاته وطموحاته المشروعة.

- الدعوة إلى ضرورة العمل على تقديم الفكر المتجدد المبدع الذي لا يتوقف عند حد معين، ولا يرتبط بوضع معين. وفي هذا دعوة إلى إطلاق حسرية الفكر واحترامه، لأن إطلاق الفكر مقدمة أساسية للإبداع الذي هو أساس التقدم، كما أنه يشكل محركًا أساسيًا للنهوض الإنساني، والقبول بالرأي الآخر، ما دام هذا الرأي يصب في إطار المصلحة الوطنية، وبالتالي لا رقابة على الفكر إلا رقابة الضمير، تلك المقولة التي أنتجتها مدرسة القائد الخالد حافظ الأسد. فحينما نجد فكرة صحيحة وأسلوبًا ناجحًا ينبغي الأخذ بهما لأنّ هذا هو الذي يثبت مصداقيتنا وإيماننا بأهدافنا الكبرى التي نناضل من أجل تحقيقها. فالتطوّر والنمو يتوقّف على الإبداع بدرجة كبيرة لأنّ مسيرة التقدم لا تتحقق بالكلام، ولا تنال بالشعارات أو بالخطط المثالية، وإنّما تتحقّق بالتدبير الخلّاق المبدع. ذلك أن معادلة التطوّر المستمر والبقاء في القمّة تتطلب فكرًا متطلّعًا، وأساليب مبدعة، وإدارة خلّاقة،

والإخلال بواحد من أطراف هذه المعادلة يعني أنّ النتيجة ستكون صفرًا بالقياس إلى التطوّر. ولا أظنّ أنّ أحدًا من المسؤولين وأصحاب القرار لا يحبّ النجاح والتغلب على المشاكل والأزمات، وهذا يتطلب التمعّن في الأمور والتفكير فيها وأخذ زمام المبادرة من حيث ينبغي بلا تردد أو خوف.

ولكي نعمل على تقديم الفكر المتجدد المبدع لا بد من بعض الممارسات المتمثلة في الآتي:

١ - إفساح المجال لأيّة فكرة أن تولد وتنمو وتكبر ما دامت في الاتّجاه الصحيح.. وما دمنا لم نقطع بعد بخطئها

أو فشلها. ذلك أن الابتكار قائم على الإبداع لا تقليد الآخرين. لذلك يجب أن يعطى الأفراد حرية كبيرة ليبدعوا، ولكن يجب أن تتركز هذه الحرّية في المجالات الرئيسيّة للعمل وتصبّ في الأهداف الأهم.

٢ - الاعتناء بالإنسان بتنميته ورعايته باعتباره مصدر قوة المجتمع يجعلنا الأكبر والأفضل والأكثر ابتكارًا وربحًا، ولتكون المكافأة على أساس الجدارة واللياقة.

٣ - احترام الأفراد وتشجيعهم بإتاحة الفرص لهم للمشاركة في اتخاذ القرار وتنفيذه في مؤسسات المجتمع المختلفة. فإنّ ذلك كفيل بأن يبذلوا قصارى جهدهم لفعل الأشياء على الوجه الأكمل. فالمؤسسة ما هي إلاّ مجموعة جهود أبنائها وتضافرهم.

٤ - التخلّي عن تفسير الأنظمة الإدارية تفسيرًا شكليًا، والابتعاد عن الروتين والبيروقراطية، والتوجه نحو اللامركزيّة في التعامل، لأن الابتعاد ينمّي القدرة الإبداعية لدى الإنسان، ويدفع به نحو الإبداع الذي هو شرط التقدم.

٥ - تحويل العمل إلى شيء ممتع، ويكون كذلك إذا حوّلنا النشاط إلى مسؤوليّة، والمسؤوليّة إلى طموح ومشروع وطني.

٦ - التجديد المستمر للنفس والفكر والطموحات، وهذا لا يتحقّق إلاّ إذا شعر الفرد بأنّه يتكامل في عمله، وأنّ العمل ليس وظيفة فقط، بل يبني نفسه وشخصيّته أيضًا، فإنّ هذا الشعور الحقيقي يدفعه لتفجير الطاقة الإبداعيّة الكامنة بداخله، وتوظيفها في خدمة الأهداف. فكل فرد هو مبدع بالقوة الكامنة في ذاته، وعلى المسؤول أن يكتشف مفاتيح التحفيز والتحريك لكي يصنع من أفراده مبدعين بالفعل ومن مؤسسته كتلة خلاّقة.

٧ - التطلّع إلى الأعلى دائمًا من شأنه أن يحرّك حوافز الأفراد إلى العمل وبذل المزيد، لأن الشعور بالرضا بالموجود يعود معكوسًا على الجميع، ويرجع بالمؤسّسة إلى الوقوف على ما أنجز، وهو بذاته تراجع وخسارة، وبمرور الزمن فشل.

٨ - ليس الإبداع أن نكون نسخة ثانية أو مكررة في المجتمع، بل الإبداع أن نكون النسخة الرائدة والفريدة، لذلك ينبغي ملاحظة تجارب الآخرين وتقويمها أيضًا، وأخذ الجيّد وترك الرديء لتكون أعمالنا مجموعة من الإيجابيّات. فالقيادة مهمة صعبة وعسيرة ينبغي بذل المستحيل من أجل الوصول إليها، وإلاّ سنكون من التابعين أو المكررين.

٩ - لا ينبغي ترك الفكرة الجيدة التي تفتقد إلى آليات التنفيذ، بل نضعها في

البال، وبين آونة وأخرى نعرضها للمناقشة، فكثير من الأفكار الجديدة تتولد مع مرور الزمن، والمناقشة المتكررة ربّما تعطينا مقدرة على تنفيذها، فربّما لم تصل المناقشة الأولى والثانية إلى تمام نضجها فتكتمل في المحاولات الأخرى.

١٠ – يجب إعطاء التعلّم عن طريق العمل أهميّة بالغة لأنه الطريق الأفضل لتطوير الكفاءات وتوسيع النشاطات ودمج الأفراد بالمهام والوظائف.

١١ – إنّ الميل والنزعة الطبيعية في الأفراد وخصوصًا أصحاب القرار، هو الجنوح إلى البقاء على ما كان، لأنّ العديد منهم يرتاح لأكثر العادات القديمة التي جرت عليها الأعمال وصارت مألوفة لأن التغيير بحاجة إلى همّة عالية ونفس جديد، خصوصًا وأنّ الجديد مخيف لأنّه مجهول المصير، والابتكار بطبيعته حذر وفيه الكثير من التحدّي والشجاعة، لذلك فالمهم أن يعتقد الأفراد أن أعمالهم الإبداعيّة ستعود بمنافع أكثر لهم ولمؤسستهم، كما أنّها ستجعلهم في محطّ الرعاية الأكثر والاحترام الأكبر، وهذا أمر يتطلّب المزيد من الجهد والمحاورة والنقاش حتى يصبح جزءًا من الاعتقادات والمبادئ لدى الأفراد.

– ضرورة ممارسة النقد البناء الذي يعتمد الموضوعية في التفكير. النقد الذي يشير إلى الأخطاء بموضوعية ويقدم الحلول الممكنة لتجاوز تلك الأخطاء. وممارسة المساءلة باعتبارها عملية متكاملة تبدأ من القاعدة إلى القمة وبالعكس. وفي هذا دعوة واضحة أن يأخذ كل شخص دوره الذي يحدده مركزه الاجتماعي. فلكل مركز أدوار محددة له، وعلى من يشغل هذا المركز أن يؤديها كما هو متوقع منه، لا كما يريد هو. فالأدوار الاجتماعية تحددها المراكز الاجتماعية وليس الأفراد.

– الدعوة إلى الشفافية باعتبارها حالة اجتماعية اقتصادية وثقافية وسياسية وإدارية، وتأصيلها في سورية لدى الفرد والمجتمع، لدى الحاكم والمحكوم، باعتبارها منهجًا في التفكير، ومواجهة حوارية جريئة مع الذات والمجتمع، ومشاركة فعالة من الجهات كلها، خارج إطار الحكومة وداخلها، ومسؤولية واعية من قبل الجميع. وهذا يتطلب إعادة النظر في أسس التربية السائدة داخل الأسرة بما ينسجم وتعزيز الشفافية. فالأسرة هي الخلية الأساسية في المجتمع التي يحدث فيها التغيير، وهي صورة المجتمع المصغرة. ثم لا بد من تغيير المناهج المدرسية وكذلك النظام التعليمي بما يتناسب وهذه المهمة العاجلة والأساسية، وكذلك أجهزة الحزب والدولة ومؤسساتها ووسائل إعلامها التي تشكل بمجملها وسائل تغيير الاتجاهات والرأي العام في المجتمع.

وتعد هذه الخطوة من أهم الخطوات المستقبلية التي يتم التركيز عليها ، وعلى استمرارها يتوقف نجاح مشروع التطوير والتحديث الذي يطرحه الرئيس بشار الأسد ، بوصفه تطويرًا خلاقًا وامتدادًا طبيعيًا لأفكار مدرسة القائد الخالد حافظ الأسد تلك الأفكار التي لا تتوقف عند مرحلة زمنية محددة ، وإنما تغنى بالممارسة المبدعة التي تثري تلك المدرسة وتشكل امتدادًا طبيعيًا لها . ومن هنا تأتي أهمية مشروع التطوير والتحديث الذي يفتح الطريق أمام الأجيال المتعددة لتأخذ دورها في بناء المجتمع ، انسجامًا مع سنة التطور وحركية المجتمع . كما سيتم تطوير صيغ عمل الجبهة الوطنية التقدمية بما يستجيب لحاجات التطوير على المستويات كلها .

لقد أدت الجبهة الوطنية دورًا أساسيًا في الحياة السياسية في سورية ، وكان وجودها في حينه يمثل موقفًا متقدمًا من حزب البعث العربي الاشتراكي الذي يؤمن بالتعددية السياسية ، ويعمل على تجسيدها على أرض الواقع . ونظرًا لأن التجارب والصيغ الاجتماعية هي وليدة زمانها ، فإن مرور فترة طويلة على وجود الجبهة الوطنية التقدمية ، يتطلب تطوير مفهوم الجبهة الوطنية ، بحيث يتسع إلى أكبر عدد ممكن من القوى السياسية والشعبية التي لم تشارك حتى الآن في الجبهة ، وتطوير صيغة عملها بما يستجيب لحاجات الواقع الجديد المتطور ، وتحقيق صيغة متطورة للمشاركة الفعلية في بناء الوطن ، بحيث تشارك أكثر في الدفاع عن مسيرة الحزب في وجه القوى المعادية ، وتتصدى لهذه القوى.

إن الخطوة الأخرى التي يجري فيها العمل مع تحديث الحزب هي تحديث هياكل الدولة الاقتصادية والسياسية والإدارية والاجتماعية والثقافية . حيث يجري التركيز على وضع الإنسان المناسب في المكان المناسب بعيدًا عن أي اعتبار غير موضوعي ، ووضع الخطط المناسبة التي تؤدي إلى جعل القطاع العام قادرًا على الوفاء بالتزاماته سواء من حيث وضع إدارة مناسبة وتسهيل الإجراءات الإدارية ، وجعل عدد العاملين فيه يتناسب والجدوى الاقتصادية لهذا القطاع ، وإدخال الآلات الحديثة وأساليب الإنتاج المتطورة ، وفتح أسواق داخلية وخارجية له ، وتقديم الحوافز للعاملين فيه بحسب الإنجاز الذي يقدمونه ، وإعطاء دور كبير للمؤسسات الأهلية للقيام بواجباتها في خدمة المجتمع.

أي لا بد من إجراء تغييرات من خلال تحديث القوانين وإزالة العقبات البيروقراطية أمام تدفق الاستثمارات الداخلية والخارجية ، وتعبئة رأس المال العام والخاص معًا ، وتنشيط القطاع الخاص ودفعه إلى اتخاذ مواقف أكثر

إيجابية في مساهمته في خطط التنمية . ولا بد في الوقت نفسه من تحقيق القدرة التنافسية للقطاع العام في الأسواق الداخلية والخارجية ، من خلال تحديث الإدارة ، وتحديث المنشآت الصناعية ، وزيادة الاستثمار فيه ، والتركيز على نوعية الإنتاج الذي يستطيع المنافسة داخليًا وخارجيًا ، إضافة للبحث عن أسواق خارجية لتصريف منتجاته فيها بعد تغطية السوق الداخلية . إن ذلك يؤدي إلى تنمية متوازنة وشاملة في المحافظات السورية كافة ، وفي الريف والمدينة ، كما يؤدي إلى توزيع الدخل القومي بصورة متوازنة ، وزيادة فرص العمل ، وتحسين الوضع المعاشي للمواطنين في ضوء زيادة احتياجاتهم الحيوية . ولا بد من تطوير القطاع الزراعي من خلال تحديث وسائل إنتاجه والبحث عن أسواق جديدة لتصريف منتجاته ، وتلافي التقصير والإهمال الذي حدث في الماضي ، والإسراع في إنجاز السدود التي تخدم الخطط التنموية .

أما تحديث المنظمات الشعبية والمهنية والنقابات فيكون من خلال التركيز على الديمقراطية في انتخاب قياداتها ومؤتمراتها ، والنضال لتحقيق الأهداف التي وجدت من أجلها هذه المنظمات . بمعنى آخر أن تتحول المنظمات الشعبية والمهنية إلى منظمات مطلبية تدافع عن حقوق أعضائها أمام الحكومة أو القطاع الخاص ، وتقلل من هيمنة الدولة على المجتمع . وهذا يعني تحول المنظمات الشعبية والمهنية إلى منظمات تأخذ دورها في بناء المجتمع ، وتعزيز هيبة الدولة وسلطة النظام والقانون ، وتعميق مبدأ المواطنة بين أفراد المجتمع .

إن التأكيد على دور المؤسسات الشعبية والمهنية كجانب من جوانب المجتمع المدني في حياة المجتمع ، يعني التأكيد على الفكر الديمقراطي الذي يعتمد على الفكر المؤسساتي ، ويؤمن أن كل مؤسسة تمثل الوطن كله ، والذي يؤمن أيضًا أن العمل المؤسساتي عمل جماعي لا فردي ، مبني على الصدق والإخلاص في التعامل وعلى استثمار الوقت بحده الأقصى ، وتغليب المصلحة العامة على المصلحة الشخصية ، وعقلية الدولة على عقلية الزعامة . والفكر المؤسساتي هو منطق التعاون والانفتاح على الآخرين ، وهو لا ينفصل عن الفكر الديمقراطي بل يتقاطع معه في مواقع عديدة ، ويستند على أساس قبول الرأي الآخر .

وبما أن الفكر الديمقراطي والفكر المؤسساتي مترابطان ، فإن الإدارة تتأثر بهما ، وبالتالي فالإصلاح الإداري في القطاعين العام والخاص يرتبط بهما بعلاقة طردية . فقصور الإدارة هي أهم العوائق التي تعترض مسيرة التنمية والبناء

والمستقبل يوحي بضرورة إجراء الدراسات الكفيلة بتغيير هذا الواقع للأفضل من خلال تطوير الأنظمة الإدارية وهيكلياتها، ورفع كفاءة الكوادر الإدارية والمهنية، وإنهاء حالة التسيب واللامبالاة والتهرب من أداء الواجب، ومحاربة المقصرين والمسيئين والمهملين والمفسدين، ومكافحة الهدر والفوضى لتلافي التقصير الذي حدث.

إن الوقت ليس في صالحنا، نظرًا للفجوة الحضارية الكبيرة التي تفصل بيننا وبين العالم المتقدم، ولهذا لا بد من مسابقة الزمن لإحداث تغييرات في جوانب المجتمع تبتعد عن فكرة نسف الواقع برمته بحيث تصبح هذه التغييرات، حاجة داخلية، فرضتها التطورات الداخلية للمجتمع في سورية، وليست نتيجة ضغوط خارجية تمارس على سورية.

وأكثر من ذلك، فالمستقبل يجب أن يحمل في طياته قيمة أساسية، ألا وهي احترام القانون، من قبل الدولة أولًا، لأنها تمثل الحامي لهذا القانون الذي وضعته مؤسسات الشعب، لأن احترام القانون من قبل الدولة فيه حفاظ على كرامة الدولة من قبل المواطنين، وعلى كرامة المواطنين من قبل الدولة، وفيه ضمان لحرية المجتمع شعبًا ودولة.

ويشكل مشروع التطوير والتحديث دعوة إلى أفراد الشعب والقوى السياسية المختلفة للمشاركة في تنفيذ هذا المشروع المجتمعي، والعمل على دفعه إلى الأمام، لأن الوطن للجميع، ولأن كل مواطن مسؤول، سواء أكان يشغل مركزًا أم لا، فالمسؤولية واجب علينا أينما كانت مواقعنا وأعتقد أن علينا جميعًا المشاركة الجادة في إنجاح هذا المشروع والالتفاف حول قيادة السيد الرئيس بشار الأسد، إذا كنا حريصين على تطوير سورية داخليًا لتصبح قادرة على الاستمرار في أداء دورها المستقبلي على الصعيد العربي والدولي.

❖ ❖ ❖

الرئيس بشار الأسد
ثلاث سنوات في مواجهة عالم متغير

الدكتور عماد فوزي شعيبي*

بعد حوار دام عشر سنوات، مع استراتيجيٍّ؛ كان ذات يوم معارضًا (وجدانيًا) لسياسة الرئيس الراحل حافظ الأسد، قال لي: كنتَ على حق قبلنا بسنوات فحافظ الأسد أهم رجل سياسة في تاريخ العرب الحديث، لكن حظه العثر أنه لم يرتح في حياته قط، فقد عانى من فرسان الجملة الثورية والتنظير الإيديولوجي، وجاءت سياسة بعض العرب لتتركه وحده في منتصف الطريق ثم جاء موعده مع الخاصرة النازفة «لبنان» مترافقة مع حركة الإخوان المسلمين، والأزمة الداخلية لعام ١٩٨٣ واتفاقية ١٧ أيار والاصطدام مع القوات الأمريكية وطرد القوات متعددة الجنسيات ومن ثم حرب الخليج الأولى والثانية وحرب السلام وحرب عناقيد الغضب وصولاً إلى النصر في جنوب لبنان.. وتابع لو أنه ارتاح قليلاً لوجدنا بلادنا والمنطقة في غير صورتها الحالية.

(*) د. عماد فوزي شُعيبي: باحث من سورية. دكتوراه في الفلسفة. له دراسات عدة في الفكر السياسي العربي والعالمي.

لم يهزني ويدغدغ مشاعري ويرضي غروري أن يعترف لي استراتيجيّ احترم وجهة نظره أنني كنت أغرد بشكل صحيح- خارج سرب المعارضين فالتفتُ إليه لأقول: من ميزاته أنه لم يرتح.! ووسط دهشته، تابعت لو لم تكن هي الجسام لما عرفنا عظمة حافظ الأسد، ونحن على قناعة مثلما قال الجنرال ديغول: إن الظروف الجسام تصنع الرجال العظماء وأضيف إليها إن الرجال العظماء يخلقون حولهم وهجًا سياسيًا يتناسب مع عظمتهم ولهذا كلما وجدت أن سياسيًا مرتاح فعليك أن تعرف أنه عابر سبيل وتحصيل حاصل.

مع الرئيس بشار الأسد وبعد أقل من شهر على توليه بدأت أحداث جسام. كانت نظرة الغرب إليه عبر وسائل الإعلام تحاول أن تسوق صورة نمطية تدعي أن الرجل سيتردد وسيخطئ في التعامل معها، لكن الأحداث ذاتها كانت تقول شيئًا آخر، وكشفت أن الشاب الذي توهموه غضًا يحمل كهلاً في داخله تعلم وراكم تجربته بسرعة، حتى ليكتشف المرء منها أنه كان أحد قادة ثلاثة محاور عرفتها الست سنوات الأخيرة الأولى حرب عناقيد الغضب عام ١٩٩٦، والثانية عملية السلام والثالثة المسار الذي أدى إلى انتصار المقاومة الوطنية اللبنانية، والتي كانت بحق- حسب تعبير الرئيس الراحل حين قال له السيد حسن نصر الله نصرك زُف إليك- إنجازًا للجميع.

كان الرئيس بشار الأسد في مقدمة من قادوا مفاعيل هذا العمل، بصمت الناسك.. وهذه الخبرة مكنته من أن يواجه رياحًا عاتية بتماسك وعقلانية وهدوء حتى لتتساءل: كيف يمكن لمن يحمل في دمه جذوة الشباب ألا يتسرّع أو يضطرب.. إنه اقتران الخبرة بالمسؤولية في نموذج «رجل دولة».

كان الأسد على موعدين: الأول بدء الانتفاضة وانتخاب شارون، والثاني أحداث الحادي عشر من أيلول وبدء عهد اليمين الجديد في الولايات المتحدة الأمريكية. نقول على موعدين لأنهما لم يكونا حدثين اعتياديين. كانا- بحق- نقطة الانعطاف الحادة والحرجة، فقدوم شارون كان يساوي في عُرف العمل السياسي واحدًا من ثلاثة احتمالات:

الأول: إنهاء عملية السلام والتحول نحو الحرب.

الثاني: فرض سلام الأمر الواقع الذي يساوي الاستسلام وفق قاعدة شارون ونتنياهو معًا التي ترى أن العرب قد خسروا الحروب وعليهم أن يدفعوا ثمن ذلك أي أن يقبلوا بواقع السلام مقابل الأمن والأرض وذلك على قاعدة استحقاق القوة الغاشمة التي لها أن تنال الأرض والأمن والسلام معًا.

الثالث: إلغاء الصراع والتحول إلى حالة من اللاحرب واللاسلم وصولاً إلى إلغاء قاعدة «الحرب امتداد للسياسة وإن بوسائل أخرى.

كانت لاءات الأسد تتصل بالاحتمالات الثلاثة معًا. فلا للحرب ولا لسلام القوة الغاشمة ولا لإلغاء الصراع!؟

وعلى حدّ الشفرة سارت سياسة الأسد؛ ذلك أنه أدرك، ومبكرًا، أن على رجل الدولة أن يمتلك «الخيارات»، وفق قاعدة «ضرورة الاختيار»، بأن لا يجعل من سياسته سمادًا لسياسات الآخرين.

وقد أدرك أن «شارون» ليس خيارًا أبديًا للمنطقة وأنه لا يجب أن يُستنزف باللحظة السياسية العابرة. وبامتلاكه للخيار يمكنه أن يغير من هذا الظرف العابر لأن السياسة هي صنعة التغيير، ولعل درس التاريخ الذي يمكن استنباطه من تجربة الحروب العبثية أن الشعوب التي تورطت بالحروب هي تلك التي توهمت للحظة أو لزمن أن التطرف هو قدر يجب الاصطدام به بالضرورة.

أدرك الأسد أن شارون يريد أي ذريعة للحرب؛ لأن الحرب وفقًا لتقديراته تمكّن من حسم الموقف بإيقاع إنهاء أيّة قيامة للطرف الآخر.

ومع نزع عوامل التفجير (مع عدم التضحية بالخيار العسكري إلى الأبد) بدأ الرئيس دائرته الالتفافية بتطويق شارون بحملة سلمية سورية تؤكد على أن سورية لا تريد الحرب وأن شارون هو الذي يطلبها. وإذ بدأت حملات عربية وجدانية تطالب بفتح جبهة الجولان، قطع الرئيس الأسد الطريق على استثمار هذه الدواعي الصادقة الآنية وغير الاستراتيجية بالضرورة، عندما أكد في باريس أن سورية ملتزمة الاتفاقيات الموقعة وذلك في إشارة إلى اتفاقية فك الاشتباك الثاني لعام ١٩٧٩، وفي وقت كان فيه القادة الإسرائيليون يذهبون بعيدًا في أحلامهم بضرب التوازن في المنطقة لإشعال حرب شاملة، عندما كانوا يهددون بالرد على عمليات المقاومة بضرب العمق السوري.

ولعله لا يخفى على أحد أن حكومة شارون لم تألُ جهدًا لكي تسعى لتوريط سورية لفك اتفاقية فك الاشتباك ولا تزال مهيئة لأن تفعل ذلك.

وعلى التوازي مع ضبط النفس السوري سحب الأسد الذريعة التي ينشدون. كان الرئيس يستفيد دوليًا من وصفه كعقلاني في المنطقة: فيما كان يرسل للإسرائيليين رسائل عديدة غير مباشرة عندما يقول: «إن إسرائيل قد تربح جولة ولكنها لن تربح الحرب»، بمعنى أنه إذا كانت إسرائيل تتوهم أنها قد تستطيع أن تقوم بحرب

خاطفة على طريقة حرب عام ١٩٦٧ فإن الخيار السوري عندئذ لن يكون إلا بحرب مستمرة، وهذا ما لن تستطيعه أو تطيقه إسرائيل.

وكانت الإشارات الاستراتيجية تنبع من حديث عن خيارات أخرى لسورية موجعة كان أقصاها، (وفقًا للتفسير الإسرائيلي) الدخول في حرب الصواريخ حيث شهدت المرحلة السابقة جملة رسائل مرمّزة في هذا الاتجاه.

وإذا كان شارون يعتقد أنه يستطيع أن يؤلب العالم على سورية بقوله إنها تمتلك أكثر من ألف صاروخ أرض- أرض مدعيًا أن ليس ثمة من دولة عظمى لديها هذا العدد من الصواريخ فإنه لم يدرك أنه يقع في خطأ كبير لأنه يثير ما يمكن أن يكون أكبر وبال على إسرائيل لأن حرب الصواريخ المزعومة إسرائيليًا آنذاك تعني نقل المعركة إلى الداخل الإسرائيلي وهو ما يتمخض في العمق عن اختراق للعقيدة الإسرائيلية ويشكل أكبر تحد لها وهي التي كانت تعتمد على سياسة الأرض المحروقة ونقل المعركة إلى أرض العرب والحرب عن بعد، وهو ماتم تجريب جزء منه في مغامرة الاشتباك مع الفلسطينيين إثر تحول الانتفاضة إلى ظاهرة الاستشهاديين التي كلفت الإسرائيليين الكثير.

في هذا السياق كان الأسد يحاول قدر جهده أن يبعد خيار الحرب باعتباره خيارًا تدميريًا، لا يجوز وفقًا لعقلانية سياسية حقيقية أن يكون خيارًا يحدده شارون في الزمان والمكان اللذين يروقان لسياسته.

كان الأسد دائمًا يقرع على أوجاع الإسرائيليين ولكنه كان يختار الزمان والمكان المناسبين؛ إذ أن الفاعلية تتجلى في الفعل المطابق لزمانه ومكانه.

وإذ يكون من الضروري هنا إدراك هذه اللعبة في عمقها، فإنها لا تفارق مفهوم ميزان القوى، لأنها لم تغدُ فقط- إرادوية منفلتة من عقالها فهي لعبة مكاسرة إرادات تحسب قواها جيدًا وتركزها في الاتجاه الذي تريد وتسخّر كل العوامل الإضافية لدعمها، وهي لا تبخس قوة عدوها لكنها وفي الآن نفسه لا ترضخ لها ولا تعتبرها قدرًا لا راد له. ولهذا فهي إذ تُقرّ، بصورة أو بأخرى، بالعدو (كآخر) فإنها لا تطيح به حُلميًا في إطار معركة دونكيشوتية، بل تعين عناصر قوته وعناصر ضعفه، فتتجنب الاصطدام بعناصر القوة تمامًا وفق قاعدة تقول «إذا وجدت في طريقك صخرة فلا تضرب رأسك بها بل عليك أن تدور حولها» وهي أول قواعد «الذكاء» كما يعرّف في علم النفس.. أو بالأحرى في قواعد التكيّف، وهي إذ تضغط على عوامل ضعفه فهي تفعل ذلك كي تحوّل عناصر القوة إلى وضع بلا أية فاعلية، طالما أنها عناصر

لايمكن استخدامها، وطالما أنها في حالة ارتباك إزاء عناصر الضعف التي تُفعل، وتتحول في «تغذية خلفية راجعة سالبة» لتضعف عناصر القوة الإسرائيلية... وهكذا في دارة معقدة من آليات الصراع بين القوة وبين إضعافها.

هذا العقل الاستراتيجي الذي حكم معادلة الصراع أخرج الصراع من «لعبة الأمم» باعتبارها قدرًا لا رادّ له، إلى «لعبة المكاسرة» مع العدو التي تضع قواعدها عدة معاملات هي متغيرات الواقع ومتغيرات الذات الفاعلة فيه على الدوام.

وفي سيرورة بناء هذه العلاقة (الفاعلة) بين العقل الاستراتيجي والفعل على الأرض وملامحها الجدلية التنامية وآليات التغذية الخلفية (المرتدة) الراجعة الموجبة والسالبة التي تحكمها، ينبري تجسيد فذ لمقولة أخرى هي مقولة «العقل شبه المطابق للواقع» أو «الوعي المحايث سعيًا لأن يُطابق الواقع»، وهو ليس وعيًا باعتباره انعكاسًا ميكانيكيًا للواقع، إنما هو الوعي الذي يتشكل مع متغيرات الواقع ومع فعل الذات في ذلك الواقع، ضمن تيار يدور في الدارة التي عينّاها قبل قليل.

وعلى نتائج هذا الوعي المطابق تتحدد الأهداف وتتحدد آلية ونوعية الأدوات المطابقة للأهداف والإمكانيات وللميزان المحلي والإقليمي والدولي. ضمن الوعي المطابق إلى «الأداة المطابقة» يسترسل نوع راق من فاعلية الذات العارفة والفاعلة، وهي فاعلية تجعلها الدرس الأهم في الواقع الإقليمي والفعل السياسي والعسكري.

هذه اللا للحرب المتعيّنة إسرائيليًا، رافقتها لا لسلام يعينه شارون بطريقته/ وهو ما لا يمكن ضمانه بدون خيار المقاومة عبر الانتفاضة أولاً وما يمكن أن يُشكل رديفًا لها ثانيًا. كان هذا هو ما يمكن تسميته «فن التقاط اللحظة التاريخية الفاعلة» في الصراع: **أعني اللحظة التي فيها الانتقال من الضعف الظاهر إلى القوة الفاعلة**، وهذه هي السيمياء السورية بامتياز.

كانت اللا الثالثة تتجلى في رفض آليات إيقاف الصراع وهي لا تُحصر من خلال الانتفاضة فحسب ولكن من خلال الضرب المبرح على أوجاع شارون، وفق قاعدة تقول: «لا تركن للأحمق وهياجه ولكن عليك أن تضربه في وقت لا يستطيع أن يُحول هياجه إلى انفجار وأن تنتظر عليه إلى لحظة غفلة منه وضمن إطار لا يستطيع أن يحول الحماقة إلى جنون كي تكرر ضرباتك»، وبهذا ابتكر الرئيس الأسد في مواجهة استحقاق فريد هو «مواجهة الأحمق» سياسة «الضربات النبضية» والتي لا تسلم شارون مادة للحرب.

بات واضحًا أن الرئيس الأسد سعى وبوضوح لتشكيل واقع جديد يتعامل مع الحقائق والمتحولات الجديدة في المنطقة على إثر انتخاب شارون بأغلبية لم تتحقق سابقًا في المجتمع الإسرائيلي ويتمثل هذا الواقع برؤية استراتيجية بضرورة إغراق شارون في حماقته، وعدم إنقاذ المجتمع الإسرائيلي مما هو فيه بل دفعه دفعًا نحو اتخاذ مواقف باتجاه السلام تتناسب مع الحق العربي لإعادة هذا المجتمع المتعصب إلى حدوده الطبيعية بل والمساهمة في استحداث انقلاب سياسي في بنية هذا المجتمع.

وعلى التوازي مع ذلك لا يفوت الأسد أن المنطقة بأسرها قد عادت رزمة سياسية واحدة، وأن يجب إقرار ذلك على المستوى الفعلي ومستوى العلاقات العربية- العربية، ومستوى النظر الغربي وخصوصًا الأمريكي إلى قضاياها، وبهذا يستعيد حلمًا كبيرًا للرئيس الراحل ويكمل مشروعه باستثمار للحظة الفاعلة، وكأنه «يترحم بذلك عليه وفاءً لإرثه وتحقيقًا لحلمه»، لذلك فهو سعى إلى لمّ هذه الرزمة السياسية بقوة.

بفهمه الاستراتيجي لضرورة تعيين سلّم الأولويات بدقة وعدم تضييع الأولي على مذبح الثانوي، رسم الرئيس الأسد قاعدة تقول لا «وقت لترف الاختلاف العربي- العربي العلني». وإذ تضفي ديمقراطية الأسد قناعة سياسية بأن الاختلاف أمر طبيعي في وجهات النظر؛ فإن على العرب ألا يحولوا الاختلافات إلى تناحرات تفتيتية لأن منها ينسل العدو، وعلى العرب بناء على تقديرات الرئيس أن يركّزوا على عناصر الاتفاق ويحاولوا قدر جهدهم إيجاد قاسم مشترك حول عناصر الاختلاف وبهذا تتجسد عقلية الأسد الديمقراطية التي لا تلغي الآخر ولاتفترض أنها تمتلك كل الحقيقة والتي تعترف بعمق فلسفي بالتنوع باعتباره سمة الكائن قبل أن يكون سمة السياسة. كما أن الاختلاف العلني يغذّي شعور الإحباط لدى الشارع العربي الذي يحتاج أكثر من اي وقت مضى، اليوم، إلى أن يمتلك فرصة الأمل في وقت بدأت تتداعى الأحلام الجماعية.

وإذا كانت السياسة، في بعض التعريف، هي مكاسرة إرادات فإنه على الرغم من تجاوز الأسد للخطوط الحمر الوهمية لدى البعض وفقًا لإيقاع المصالح العربية والسورية، فلم تعد لعبة السياسة تسمح للغرب برسم سياسات الآخرين، وليس صحيحًا أن السياسة مؤامرات من الغرب على الآخرين بما ليس من راد لها، وهذه هي دروس السياسة الأولى التي انتهجها الراحل حافظ الأسد: وتابعها الرئيس بشار فليس من المطلوب كي تحيا الدول أو يبقى الرؤساء على كراسيهم أن يكونوا أدوات طيّعة بيد الأمريكيين أو أي طرف غربي، إنما هي لعبة مفتوحة.

لا استعراضًا سياسيًا، والأمور بنتائجها.. وهذه هي حال سياسة هي سيدة ذاتها؛ تعمل على مواجهة رياح عاتية تجدد شبابها وتحقق ابتكارات جديدة، وتحاول قدر جهدها ألا تسحب من رصيد الأسد الراحل بل أن تضيف إليه باستمرار.. وهذا هو قدرها بعيدًا عن تنظيرات التأملية السياسية والفكر السياسي.. والإرادوية الوجدانية.

❖ سياسة الأسد في مواجهة السياسة الأمريكية:

نعم تغير العالم، ولكن السياسة كقواعد لم تتغير، وإذا كان ما حدث من منازلة في مجلس الأمن بين العالم (النظام العالمي الذي أرسي بعد الحرب العالمية الثانية) والولايات المتحدة قد أدى إلى حرب بلا شرعية دولية، إلا أن هذا لا يعني إرساء صورة ستاتيكية نمطية تقول بأن السياسة قد تغيرت أصولها. وإذا كان من الممكن القول إن من الضروري عدم الاصطدام، فإن هذا لا يعني عدم المواجهة (ولا نقول المجابهة).

عندما نتحدث عن مواجهة سياستين فإننا نميز بين المواجهة والمجابهة والصدام. فالمواجهة موقف يمايز السياسات المستقلة والقائمة على مبدأ السيادة، ويمايز اختلاف المصالح، لكنه يُدرك بعمق أن المواجهة لا يجب عليها أن تتحول إلى مجابهة إذا أمكن الانتقال من مُكاسرة الإرادات التي يستوجبها فعل السياسات المستقلة إلى تقاسم الإرادات شرط ألا تجر هذه المقاسمة إلى خسارة طرف لمصالحة القصوى والوطنية لصالح الطرف الآخر، فشرط مُقاسمة الإرادات الحفاظ على السيادة بجوهرها والمصالح وعدم إهانة الحس الوطني لأي طرف.

سورية في سياسة الرئيس بشار الأسد تفهم ببراغماتية، لا تنزل إلى درك أن السياسة إملاءات واستجابات، أن السياسة مُكاسرة إرادات في الشق المُختلف عليه في المصالح ومقاسمة إرادات في الشق المتوائم من المصالح. وهذا هو حالها مع الولايات المتحدة الأمريكية.

صحيح أن التيار اليميني الجديد في البنتاغون الأمريكي يحاول أن يقتص من تركة الحرب العالمية الثانية بما فيها مبدأ السيادة، إلا أن السيادة نفسها لم تكن في يوم من الأيام مُطلقة، بل تحكمها المصالح والعلاقات المتبادلة، لكن هذا التيار لا يستطيع أن يفرض إيقاع انتهاك السيادات طويلاً، مهما كانت معادلات ميزان القوى مائلة بشدة لصالح الطرف الأمريكي دون أن يُعرض العلاقة بين الولايات المتحدة الأمريكية والقوى العظمى إلى اختلال شديد. ولهذا لا تفهم سورية- حسبما نرى- أن انتهاك سيادات الدول هوقضاء

مبرم يمكن أن تواجهه في لحظة من اللحظات إذا ما أراد هذا التيار أن يخوض مُغامرة ضدها.

لا تفكر سورية في المجابهة ولا الصدام مع الولايات المتحدة، لا لأنها تُدرك ميزان القوى فقط، إنما لأنها لا تعتبر الولايات المتحدة الأمريكية عدوًا لها ولا ترى في إنحيازها لإسرائيل أكثر من خطأ ينبغي تصحيحه، وهي تُدرك في العمق أن محاسبة الشعوب على أخطاء الإدراك هو خطأ تاريخي، ومن الأفضل أن تُحافظ على علاقات جيدة حرصًا على مستقبل الأجيال. لأنها تُدرك أن لا شيء نهائيًا في السياسة وأن خلافات اليوم قد تكون مادة لتوافق في الغد، ومرة أخرى ليس من خلال حسابات ميزان القوى فحسب، إنما لإدراك سوري في العمق أن لا مصلحة للعرب بعداء مع الولايات المتحدة الأمريكية، نتيجة مُغامرة تيار في حزب وليس بسبب مصالح استراتيجية رسمها الأمريكيون جميعًا تقضي بعداء جماعي للعرب، لهذه الأسباب لا تخلط سورية الأوراق ولا ترى في الولايات المتحدة عدوًا.

العدو بالنسبة للتراتب الهرمي السوري محدد ومعروف وهو إسرائيل والسياسة السورية تعرف ترتيب أولوياتها، وتعرف أن تُفرّق بين عدوها وبين الغطاء الذي يضعه على رأسه ويقيه. ثم أن ألف باء السياسة تقتضي ألا يفتح المرء المعارك الجانبية على حساب معركته الأساس وألاّ يفجر معارك دونكيشوتية مهما كانت القوة ومهما كانت موازين القوى.

ففي ذروة قوة الاتحاد السوفياتي لم تعتبر سورية الولايات المتحدة الأمريكية عدوًا. صحيح أنها انتقدت انحيازها التام لإسرائيل، إلا أنها لم تستخدم التحليل (الطبقي- الإمبريالي) الذي ساد لفترة في الأجواء الثقافية العربية رائزًا في العلاقة مع واشنطن. فبقدر اقتراب الأخيرة من التعامل شبه المتوازن على صعيد الصراع العربي الإسرائيلي بقدر ما كانت سورية تُبادر إلى الحوار، عبر سياسة الباب المُوارب نصف المفتوح نصف المُغلق، والذي يقتضي إغلاقه الانحياز إلى إسرائيل ويقتضي فتحه تواشيح الموضوعية في السياسة الأمريكية.

هذا الباب مفتوحًا مع كارتر وجورج بوش الأب وكلينتون وموصدًا مع ريغان وبين بين مع بوش الابن، والمعيار دائمًا هو مصلحة الأجيال والمنطقة والعالم وليس لاعتبارات مزاجية أو مواقف استعدادية مبيتة.

في هذه المرحلة الحرجة، لا على مستوى المنطقة، بل على مستوى العالم بأسره وعلى مستوى النظام العالمي الجديد ومنظومة الأمم المتحدة ومجلس الأمن،

تُدرك دمشق أن ثمة مُخططًا يشمل المنطقة مثلما يشمل العالم، وأن هنالك بعض التيارات المُغالية التي تريد أن تدفع الإرادة الأمريكية إلى مُغامرات تذهب أبعد من حدود العراق، ولكنها تمايز بين تيار وتيار ولا تضع البيض كله في سلة واحدة؛ فتواجه التيار المتشدد من خلال محافظتها على حقوقها وخطها الاستراتيجي (وليس بالمجابهة أو الصدام) وتتحاور مع التيار العقلاني في محاولة لإيجاد قواسم مشتركة بينها وبين المصالح الأمريكية ومرة أخرى على أساس قاعدة السيادة وعدم التخلي عن الحقوق. ففي وقت تختلف فيه سورية مع الأداء الأمريكي في مبدأ الاحتلال وتجاوز الشرعية الدولية وفي طريقة التعامل مع عملية السلام، لا تمانع في إبرام عقدين نفطيين مع شركتين أجنبيتين ولا تمانع في أن تنظر لما هو إيجابي في الدخول الأمريكي لحل القضايا في المنطقة.

وفي مواجهة هذا الوضع المُعقد والمأزقي طورت دمشق سياستها التقليدية، التي ترفض أن تكون السياسة (إملاءات واستجابات)، والتي تقوم على التعامل بالمُفرق وليس بالجملة. وتقتضي هذه السياسة التوافق فيما يمكن التوافق حوله، والاختلاف فيما يستوجب مصلحيًا الاختلاف حوله دون أن يكون في هذا تغليب للأول على الثاني فتصبح سورية ريشة في الفلك الأمريكي، أو تغليب للثاني على الأول إلى حد الصدام.

هذا الأداء يسمح للسوريين الأداء على أساس قواعد الشرعية الدولية ومبادئ يتم تصويرها أمريكيا على انها قضت. لكن الحقيقة أننا في مرحلة بين مرحلتين: بين نظام عالمي يتقوض ونظام لم يتبلور ولن يتبلور على أساس أحادية القطبية لأنها لا تنسجم مع مُعطيات الاقتصاد والقوى العالمية.

في ثورة اندفاعات الأمريكيين اللفظية ضد سورية، قلنا عبر يومياتنا في «الكفاح العربي» أنها (زوبعة في فنجان)، وأن ثمة أسبابًا كثيرة تمنع الأمريكيين من الذهاب بعيدًا نحو الحرب على سورية.

اعتبرنا البعض نمارس نوعًا من المزايدة اللفظية على الأمريكيين، ولعلهم في هذا كانوا يستدعون بصورة لا واعية أساليب بعضنا في التعبير عن الموقف إزاء أمريكا - أحيانًا- بمنتريات لا معنى لها، وهي صورة قديمة انقرضت منذ أكثر من ١٣ عامًا.

ولكن الحقيقة أننا كنا نبيّن أسبابنا لهذا، وكنا نقول ما ندعمه بالبراهين السياسية والقراءة العقلانية الباردة والهادئة، ولكن ما كان يثير انتباهنا، وانزعاجنا وشفقتنا بآن، هذا الارتجاج الشديد الذي كان يصيب البعض!

نستطيع أن نتفهم أن البعض رآها حملة على سورية لا بد أنها ستنتهي إلى عمل عسكري، وذلك من خلال استدعاء «للذاكرة القريبة»، التي لا تزال تذكر كيف تهاوى النظام العراقي وخرج الجيش، الذي اعتبر بأنه يمثل خامس جيش في العالم!، من المعادلة، ولعل مشاهد القهر والانهيار والفوضى سرعان ما طغت على الموقف العقلاني، لكنها الصورة النمطية (stereotype) التي كان الأمريكيون- ولا يزالون- يريدونها أن تصبح قاعدة في فهمنا لهم وتعاملنا مع ما يملونه على المنطقة. وهي صورة (رامبو) القادم بسلاحه والذي يركع له الجميع بدون أن يتكلم، بل يكفي أن يومئ!

أعترف أنني لكثرة ما شعرت بأن العديدين قد ارتجّوا، بدأت أنظر إلى نفسي بالشك! وبدأت أسأل ذاتي هل ذهبتُ بعيدًا في حساباتي إلى درجة أنني لم أعد أرى ما يراه الآخرون. خصوصًا أنني قرأت في وجوه وأقوال ومواقف البعض ممن لا أتوقع أنهم يمكن أن يقعوا في مطب (الذاكرة القريبة) والصورة النمطية ورامبو أمريكا. ما كان يقتلني ويجعلني أتساءل هل كل من أراهم يرون حقيقة لا أود (أنا) أن أراها.

انتظرت يومين لأنظر في وجه الرئيس بشار الأسد على التلفزيون، ولأستخدم ما لدي من علم السميولوجيا (علم الإيماءات والإشارات) كي أقرأ كيف يرى الأمر. رأيته باردًا هادئًا واثقًا لاتوجد علامات للقلق عليه... أدركت أنني على الطريق المستقيم!، بشكل جيد لا يشعر شعور الآخرين، لأن ليس على رجل الدولة أن يرتج، وهو رجل دولة بامتياز.

كان السؤال المُلح الذي تعرضت له على القنوات الفضائية، وفي جلسات حوار استراتيجية على قناة الأوربت الثانية، مع مجموعة من أهم الاستراتيجيين العرب هو: هل ستقرأ سورية المعادلة جيدًا. وكانت التخوفات التي تطالعنا تتصل بشيء من الحرص على سورية من ناحية، واعتماد منطق الحسابات الاستاتيكية التي ترى أن لا راد لقوة الأمريكيين من ناحية أخرى، تود أن تحذر من التصريحات والمواقف العنترية الفارغة على الطريقة العراقية.

أدركنا أن من يسألوننا لا يعرفون سورية ويبدو أنهم منقطعون عنها أكثر من عشر من سنوات خلت. ولا يدركون عقلانيتها ولا يعرفون أننا في سورية، وفي مدرسة الأسد، لا نمارس ضروبًا من الاستعراضات العنترية، وأننا ندرك خلفيات السياسة ونعرف أن نميز بين العنترية وبين السيادة.

كثيرًا ما حذرنا من الخلط بين الواقعية والامتثالية، وبيّنا أن سورية قد غيرت لغتها منذ زمن طويل نحو العقلانية لا تعتبر

السياسة (إملاءات واستجابات) بل تعتبرها مكاسرة إرادات.

سألنا البعض هل في تحول الموقف الأمريكي ما يدلل على أن سورية لم تعد تعتبر السياسة مكاسرة إرادات، لكن سورية لا تركن إلى قاعدة أن «العين لا تقاوم المخرز» ولم تسر على قاعدة «نمشي من الحائط إلى الحائط ونقول يا رب السترة»، بل مارست عمليًا مكاسرة إرادات من طراز ممتاز وذكي للغاية عندما ذهبت مباشرة إلى مجلس الأمن لطرح مشروع قرار يطالب بإخلاء منطقة الشرق الأوسط من أسلحة الدمار الشامل؛ وهو ما بدا بمثابة «هجوم معاكس سلمي وسياسي» أحرج الأمريكيين لأنهم إن لم يوافقوا على مثل هذا المشروع فإنهم سيفقدون مصداقيتهم أمام الرأي العام الأمريكي، حيث أن مزاعم حربهم هي البحث عن أسلحة دمار شامل بات واضحًا أنها غير موجودة، وإذا وافقوا عليها فإن عليهم أن يواجهوا استحقاق ترك إسرائيل في العراء، وهذا ما لن يقبله الأمريكيون الذين مرجعيتهم تحويل ودعم اللوبي الصهيوني. وهنا بدا أن الأسد لا يرتج وأن أوراقه لم تُستهلك جميعًا وأن الصورة النمطية ليست حقيقة.

هنا كانت القضية برمتها «مكاسرة إرادات»، وكانت فعلاً «ضربة معلم» عكست مبدأ «ضرورة الاختيار» الذي طالما تحدثنا عنه في السياسة السورية. وبات واضحًا أن واشنطن ليس لها إلا أن تعود إلى السياسة طالما أن استعراضات العسكر تضرّ فعليًا بالعمل السياسي.

في الأوضاع الداخلية:

يستحق لقاء الرئيس الأسد، مع مجلس القضاء الأعلى أكثر من اهتمام بلقاء رئيس جمهورية مع هيئة قضائية في بلده. فالرئيس الأسد التقى بهذه الهيئة - كما نرى- لسببين: الأول لإعطاء رسالة بأن الظرف الإقليمي والدولي لا يمنع من أن يمضي قدمًا باتجاه تفعيل وتطوير مشروعه الإصلاحي بمعنى أن لا رابط بين هذا وذاك، والأجندة السورية تسير بإيقاعها؛ لا تتقدم؛ فلا تسارع تحت الضغط ولا تباطؤ، «وكان بين ذلك قوامًا». والثاني لإرسال رسالة إلى من لم يدرك بعد طبيعة المتغيرات التي أحدثها الأسد في مؤسسات بلاده أن المأسسة تقتضي تفعيل القضاء وإرساء دولة القانون.

مسألتان من لم يدركهما يخطئ أو يغامر بأن يكون خارج (السياق!): الأولى أن زمن أوهام البعض، عن أنه يمكن أن يكون فوق المؤسسة والقانون، قد رحل بالجملة والتفاصيل، فلا مكان لأحد يتصور أنه فوق الناس والمؤسسات والقانون، والرسائل في هذا المجال كثيرة: تقاعد الكثيرين بقوة القانون، تراجع واضح في الامتيازات، خضوع الجميع للمساءلة... والأهم من كل هذا أن كل من يتوهم أنه قادر على صناعة أحد!، أو لمّ أحد حوله على طريقة الشلل أو الجماعات قد أصبح خارج السياق فعليًا

أو هو في طريقه إلى الانقراض.

نعم هي دولة للمؤسسات لم تبلغ بعد بعدها المثالي، ولا ندعي ذلك أبداً، ولا يريدنا السيد الرئيس أن نوهم أحداً بأن الأمر قضي أو أن نرش على العفن سُكراً.

لكننا على الطريق.

الثانية: أن أحداً لا يجب عليه أن يتوهم بأن القانون تفاضلي، فلا استثناء لأحد؛ بدليل أن الرئيس لا يستثني أحداً من فعل القانون، وخصوصاً الأقربون.. محققاً أعلى درجات الانسجام مع الذات: إذ يذكر أحد الذين التقوا الرئيس الأسد قبل أن يصبح رئيساً أنه جمع (أقرب المقربين) ليقول لهم: «اليد التي أصيبت بالغرغرينا سأقطعها.. والأقربون أولى.. بالقطع»، وهو قد فعل ما وعد وأصبحنا نرى تراجعاً حقيقياً في بعض التظاهرات السلبية التي كان البعض يقوم بها.

مرة أخرى، لا نقول إننا حققنا مجتمعاً ومؤسسات مثالية، لكننا على الطريق..

يجب علينا أن نعطي المرحلة حقها من التوصيف الدقيق: (على الطريق). وأعتقد أن الأمر باتجاه حسم أوسع وتسارع أكبر قليلاً، في هذا المجال أو ذاك، لكن علينا ألا نبخس ما تحقق حقه؛ فثمة إنجازات حقيقية حدثت وهنالك أيضاً وعلى التوازي قطاعات تسير «بقوة العطالة».

نعم، بقوة العطالة الفيزيائية تتحرك قطاعات وظيفية وهيكلية لا تريد التغيير ويتعشش فيها الفساد، والبعض يتوهم أن (المدحلة) لن تنالها... وأن هذه هي «القاعدة» لكننا على قناعة أن التغيير الذي بدأ، وما تحقق، مؤشر إلى أن القوى الديناميكية للتغيير ستقضم في «اللحظة الفاعلة» قوى العطالة أو «قوى القصور الذاتي» وما كان عنصراً من عناصر الاستمرارية بحكم ما درج البعض عليه، وما يسير على أساس أن البعض لا يعرف أن تغييراً قد حدث فما لا يعرفه البعض عن نهاية مسار الرئيس الأسد في الإصلاح، سيصبح بعد فترة أثراً بعد عين، ودليلنا على ذلك أن نعود قليلاً إلى الوراء لنتذكر تظاهرات استعراضية خارجة بوضوح على كل القواعد، أصبحت اليوم مجرد ذكرى.

نعلم أن الآمال كبيرة والغالبية العظمى من السوريين ينتظرون تغييرات متسارعة، وهذا جزء من وطنيتهم وواجبهم، ولكن علينا ندرك أن «قضاء الحاجات رهن بأوقاتها»، وأن حساب الحقل ليس كحساب البيدر، والأهم أن نبقى دائماً على قناعة بأن الرجل الذي بادرنا بالإصلاح معني بها ومعني بإكمالها لكن صورة المشهد البانورامي والتفصيلي لديه تختلف عن الصور التي لدى كل منّا... ومع ذلك قناعتنا بالرجل كبيرة. ولكن ثمة مسؤولية علينا.

ولكي لا نظلم السيد الرئيس، نُذكر بأنه لم يقل مرة بأن لديه عصى سحرية، ولم يضعنا في وضعية أنه وحده الذي يستطيع

أن يغيّر، فهو- فعليًا- قد طالبنا بأن نقوم كل منّا من موقعه (وليس بالضرورة من خلال المنصب) بدوره في هذا التغيير، وطالبنا بعقلية وممارسة فعل الفريق في العمل. فإذا كنا نطالب بالتسارع في التغيير- ونحن محقون في هذا- فماذا فعلنا كلّ في مكانه كي ننضم إلى قافلة الفريق في العمل.

مرة أخرى، يجب علينا أن ننظر للأمور بواقعيتها. فهنالك عقليات تمنع المبادرات وتريد إرساء «قوة العطالة» سواء بعلم وقصد أو بحسن النوايا حسب وصف الرئيس الأسد للوضع، وهي ربما تسير على ما درجت عليه باعتباره طبيعة المؤسسات.

إذًا لدينا مشكلة مركبة تتأرجح بين كفاءة الأشخاص ونزاهتهم وقدرتهم الإدارية وقدرتهم الابتكارية (وهذه كلها مشكلة أفراد)، وبين طبيعة الإدارة وتراكم القوانين القديمة واندراج الناس في آلية عمل تضاعف من سوء الإدارة وتعرقل التغيير وتفرّغ القوانين الجديدة من مضامينها (وهذه مشكلة بنية).

إذا لم ندرك هذه المشكلة المركبة سنكون كمن ينادي في واد. نعم مشكلتنا في بعض الأفراد ولكن لدينا مشكلة مركبة في البنى الإدارية والقانونية، وهذه تحتاج إلى (تفصيص) حتى يمكن التعامل معها.

مشكلة أي مسؤول يُعين في منصب معين أن لديه خيارات محددة:

فهو إما سيفسد مع الفاسدين أو أنه سيصطدم بهم فيفشل لأنه سيغدو كمن يحارب طواحين الهواء أو يصارع الأشباح لأن عليه أن يصطدم بهم في كل مكان، أو أنه (سيدير أزمة) بمعنى ضمان الاستمرارية، لكن الأهم هو أن عليه أن يدير أزمة في الوقت الذي يبتكر كل الوسائل الممكنة لتفكيك مواطن الفساد. والأهم من هذا وذاك أن عليه أن يبحث جديًا في القوانين المعرقلة ويسعى- بسرعة- لإدخالها متحف القوانين. ولكن هل يستطيع أحدنا أن يتصور أن هذا يمكن أن يحدث بدون فريق عمل يجمع النزاهة والكفاءة والموضوعية والابتكار والقدرة القيادية..

هل عقدنا القضية؟، أم أنها بطبيعتها معقدة وصعبة، ولا نقول مستحيلة.

لنكن صريحين مع بعضنا البعض، ونقول مع الرئيس بأن ما تحقق لا يمثل الطموح، وعلى التوازي علينا أن نكون موضوعيين إلى الدرجة التي نقول إننا حققنا شيئًا ما في بلدنا، وعلينا أن نبتكر ونوسع دائرة النقاش حول الوسائل التي يمكن لنا أن نرسّخ وننمّي هذا الشيء. بحيث يصبح هو القاعدة وما هو سائد حاليًا هو الاستثناء.

أصعب شيء في الدنيا أن تبني على البناء، فالهدم سهل وعقلية «إذا لم تخرب لا تعمّر» تشفي الغليل لكنها لا تصنع طريقًا نحو التغيير بل ربما ترسي الفوضى.. ومع

ذلك فنحن لم نبلغ مستوى الطموح ولم نقم بدورنا في البناء على البناء وإصلاح بنائنا الداخلي.

لنشر بصراحة إلى مواطن التقدم وبصراحة أكبر إلى مواطن التأخر، فالرئيس الأسد لا يريدنا نزوّق الصورة نكذب على أنفسنا مداهنة أو رياءً، وهو أكثر الناس محبة لمن يجاهر بالإشارة- من موقع المسؤولية والموضوعية- إلى مواطن الخطأ والفساد، ولكن هل ينفع مجرد الكلام؟. وهل ينفع مجرد الجهر بالأخطاء؟. ألن يغدو هذا مجرد صراخ لا معنى له، إذا لم نقرن النقد بمشاريع (واقعية وموضوعية) للتغيير حتى لا يتحول النقد إلى انتقاد ولا يغدو مع الوقت (نقّاً). ثم ماذا نفعل، كلٌّ في مكانه، كي نكون فاعلة للتغيير؟ من الذي يمنعنا؟ إذا كنا لا نُمنع من الكلام المسؤول والموضوعي الوطني فمن الذي يمنعنا من العمل على خط الرئيس في التغيير؟

نعلم حجم الصعوبات، ونعلم حجم العقبات، ولكن علينا أن نبتكر النوافذ كي نفتحها، إذ ليس من المطلوب دائماً للمجابهة الدونكيشوتية، ذلك أن للمجابهة وقتاً هو جزء من الإدراك العميق لمفهوم «اللحظة الفاعلة» لكن تفكيك عوامل الفساد وكتلة القوانين المعرقلة، تجعل الأشخاص الفاسدين مجرد تفاصيل في اللوحة يمكن تغييرها بسهولة.

نعم ننتظر رياح التغيير، التي هبت والتي هي جزء من عقلية الإصلاح لدى الرئيس الأسد، لكننا جميعاً جزء منها... جزء لا يتجزأ منها، ولنتذكر دائماً أن الرئيس الأسد دعانا منذ البداية إلى العمل كفريق عمل، وأكد أكثر من مرة أن التغيير منوط بالمؤسسات وقدرة المجتمع على التكيف مع هذا التغيير. فالنوايا وحدها لا تكفي وتركيز النقد في اتجاه واحد لا يكفي، وتغليف نقدنا برغباتنا الخاصة بدور مُعلن أو باستعارة نموذج من الآخرين لا يكفي، والاكتفاء بدور المشاهد أو المقامر... لا يكفي.

لكن قراءة أعمق وبمسؤولية وحرص على الدولة والمجتمع وإرث بلدنا ومشروع الرئيس، وحوار أعمق لا يصل إلى حد فرض الرؤى، هي الطريق كي نكون جزءاً من... عمل (الفريق) ... فرياح التغيير هبت منذ زمن.

ثلاث سنوات على حكم الرئيس بشار الأسد، فيها أضاف الرجل للرصيد، وفيها عيّن آفاقاً، وفيها كان وحده من يقول لا الفاعلة والعقلانية، وفيها كان لابد لنا أن نتوقف، لا زلفى ولا ملقاً، فالرجل لا يحب المديح وهو أبعد الناس عن الاستعراض وعبادة الذات وطغيان السلطة، لكنها مناسبة أن نقول في الرجل، في الحد الأدنى... ما يستحق.

٦٥

التحديث والديمقراطية جناحا تطوير التعليم في برنامج الرئيس بشار الأسد

الدكتورة فاديه المليح حلواني *

التحديث والتنمية مرادفان للنمو والتغير العميق في إطار الاستمرار الذي يتشكل من تراكم تغيرات تنتج عنها خصائص جديدة ومعطيات كبيرة هي في الوقت نفسه عناصر لاتنفصل عن ديمومة مستمرة تعطي الحياة نكهة الحداثة والحيوية والتجدد.

وعلى هذا الأساس لم يعد الفكر التربوي والتعليمي مكتفياً بفلسفته وأساليبه وقناعاته السابقة، بل أصبح لازماً نتيجة التطور الحاصل والآفاق المنفتحة على التجارب والثقافات الحضارية المختلفة والتقدم التكنولوجي والمعرفي استدعاء أدوات وأساليب

(*) د. فاديه المليح حلواني: كاتبة. أستاذة في جامعة دمشق- عضو اتحاد الكتاب العرب.

مستجدة تستطيع أن تبلور مجالات جديدة وميادين مختلفة قادرة على استيعاب الظروف والمستجدات وتوليد مناخات أكثر قدرة على التفاعل والعطاء والإنتاج للمساهمة في عملية التطوير العام في إطار من العمل المستند إلى مفاهيم ديمقراطية وعلمية بآن واحد يحقق اتصالاً وتفاعلاً ليس في عملية التطوير الداخلي فقط. وإنما في عملية التطور والتفاعل الحضاري العالمي.

ووفق هذه المفاهيم استند برنامج التطوير والتحديث الذي رسمه الرئيس الدكتور بشار الأسد في خطاب القسم أمام مجلس الشعب على تأكيد المفهوم الديمقراطي في ميدان التعليم في سورية وحسب النظرية الديمقراطية فإن مفهومها لم يعد كما يراه مفكروها محصوراً بالمجال السياسي فقط، بل تعداه ليشمل جميع مجالات الحياة التي تهم المجتمع وتتعلق به، وعليه يعد نشر التعليم من أهم أركان الديمقراطية كما أكد الإعلان العالمي لحقوق الإنسان في باب الحقوق الثقافية للأفراد على حق كل شخص في التعليم، إضافة إلى ما قررته المبادئ العالمية ذات المضمون التقدمي الديمقراطي في:

- حق جميع الطلبة في التعليم المجاني في جميع مراحل التعليم دون تمييز في العرق، أو الجنس، أو الدين، أو المعتقد، بما فيه التعليم العالي.

ومن هذا المنطلق فإن التعليم في سورية ينهج منهجاً ديمقراطياً متكاملاً حيث يعتمد الأسس التالية:

١- إلزامية التعليم الأساسي الذي امتد مؤخراً ليشمل المرحلة الإعدادية بالإضافة إلى المرحلة الابتدائية وهو قرار جريء ويدخل في إطار عملية التطوير الشامل كما رسمها الرئيس الدكتور بشار الأسد.

٢- تنويع التخصصات في جميع المراحل التعليمية اللاحقة للتعليم الأساسي (المرحلة الثانوية-مراحل التعليم المتوسط-التعليم العالي).

٣- تشجيع الإناث على الالتحاق في جميع المراحل التعليمية وفتح جميع الفرص أمامهن.

٤- تكافؤ الفرص التعليمية وفق معايير تعتمد الكفاءة والمقدرة الدراسية.

٥- تشجيع التفوق ومنح الحوافز للمتفوقين ومنحهم الرعاية الخاصة لضمان الارتقاء بتفوقهم.

٦- فتح مجالات المشاركة للمنظمات المجتمعية بشكل عام والطلابية والمعلمين بشكل خاص لتوجيه العمليتين التربوية والتعليمية والمساهمة في تطويرهما بما يتلاءم وحاجات المجتمع.

٧- تحقيق علاقة تبادلية بين المعلم والمتعلم في كل المراحل الدراسية.

٨- تجديد الخطط والمناهج التعليمية وإعادة النظر في التخصصات المفتوحة بما يتلاءم وحاجة المجتمع الفعلية والتواصل المتفاعل مع حركة التطور العالمي.

٩- تنويع قنوات وطرق ومجالات التدريس بمختلف الأساليب التكنولوجية الحديثة من التعليم الأكاديمي العادي إلى التعليم المفتوح إلى الجامعة الافتراضية.

لقد جاءت برامج التطوير والتحديث لتخرج التعليم في سورية من النمطية التي سادته عبر مسيرة كبيرة كانت حافلة بكثير من الإنجازات في إطار خطة التنمية الاقتصادية والاجتماعية التي حققتها سورية خلال العقود الماضية، ولتحقق الارتقاء بها لتأمين حركة التواصل العلمي والمعرفي بيننا وبين العالم المتقدم، ولتلبية حاجات المجتمع السوري في خطواته التطويرية والتحديثية، وعليه فقد تم:

١- افتتاح كليات وتخصصات جديدة وتطوير أو تعديل الأقسام والتخصصات القائمة بما ينسجم مع آفاق التنمية الحديثة.

٢- افتتاح أنماط جديدة من التعليم العالي كالتعليم المفتوح والجامعة الافتراضية والتعليم المتناوب والتطبيقي.

٣- تحسين نوعية التعليم العالي والعمل على تحويل الجامعات السورية إلى مراكز بحث وعلم وفكر وتأهيل بالاعتماد على الخبرات المحلية وهي كبيرة وقادرة خاصة في ظل التعاون المنفتح مع الخبرات العربية والعالمية عن طريق اتفاقات التعاون والتبادل والمنح العلمية والاطلاعية والأبحاث المشتركة.

٤- العمل على اجتذاب الكفاءات السورية المهاجرة وفق خطة منفتحة ذات طابع وطني عام مع تقديم الحماية والحوافز اللازمة للكوادر المحلية.

٥- تأكيد الارتباط بين التطوير الكمي والنوعي وتحسين مستوى الأداء بما يتلاءم مع سمعة الخصائص السورية ومتطلبات السوق المحلي والعربي والدولي.

٦- مشاركة المجتمع في عمليات التطوير والتحديث في ميدان التعليم واستخدام وسائل الاتصال الجماهيري لهذه الغاية.

٧- إنشاء مراكز بحوث تعليمية وتربوية وتوثيق الصلة مع الجامعات والمعاهد والوزارات المختصة.

لقد ظهر جليًا في إطار خصائص ديمقراطية التعليم في سورية خلال السنتين الماضيتين حركة ديناميكية كبيرة اضطلع بها مكتب التعليم العالي من خلال

لقاءات دائمة مفتوحة أو مبرمجة مع مجالس الجامعات السورية وأعضاء هيئاتها التعليمية تم فيها شرح خطة التطوير والتحديث ومناقشة الآراء والمقترحات المختلفة وإقامة حوار علمي دلل على الامكانيات الكبيرة التي تحتضنها الجامعات السورية والقدرة على ابتكار أفكار وبرامج وخطط تساير خطة التطوير الشاملة، كل ذلك إلى طموح كبير ممزوج بعقلنة علمية تستطيع رسم الأهداف وتحديد طرق الوصول وقنوات العمل وأشكاله.

ولقد أكد ذلك أن مبدأ المشاركة في اتخاذ القرار والوصول إليه عن طريق الحوار المفتوح بين الجهات ذات العلاقة، هو العلاقة المتينة لديمقراطية التعليم في سورية.

ولعلنا نستطيع هنا أن نعرض للإجراءات التي اتخذت أو أنجزت استناداً إلى هذا الفكر والبرنامج الذي عرضته والتي أخرجت التعليم العالي في سورية من نمطية حشرته في عنق الزجاجة في إطار توسع كمي لم تكن للقنوات العادية الإمكانية لإخراجه من هذا العنق أو حتى تطويره.

فلقد واجه التعليم العالي في المرحلة السابقة إشكالات كبيرة منها:

١- عدم تحقيق رغبات الطالب والاعتماد على المفاضلة المستندة إلى الدرجات الحاصل عليها الطالب في الثانوية العامة.

٢- ازدياد عدد الطلبة في جميع الكليات والأقسام عن النسب المتعارف عليها في العالم للحصول على تعليم جيد.

٣- التوسع في أعداد الطلبة المقبولين في الكليات النظرية التي لا مجال لها في سوق العمل استناداً إلى سياسة الاستيعاب وإلى عبارة جميع المتقدمين التي كانت تدرج عادة في شروط التسجيل في الجامعات السورية.

٤- مغادرة عدد كبير من الأساتذة الأكفاء إلى أقطار عربية وأجنبية تمنح رواتب وامتيازات أعلى الأمر الذي أفقد الجامعات السورية الكثير من كفاءاتها وخبراتها نظراً لاعتمادها سلم رواتب تقليدي وروتيني تتحكم فيه وزارة المالية.

٥- اضطرار الكثير من الطلبة الذين لم تتحقق رغباتهم في المفاضلة إلى أحد الحلول التالية:

آ- إعادة التقدم إلى فحص الشهادة الثانوية العامة وما يستتبع ذلك من توترات في الأسرة وهدر للوقت إلخ.........

ب- السفر للدراسة في الخارج وما يستتبع ذلك من متاعب اغترابية ومالية،

واحتمالات عدم العودة في حال التفوق بسبب المغريات.

جـ- ترك التحصيل العلمي والاكتفاء بالشهادة الثانوية العامة التي لا تعني أي تخصص في سوق العمل.

٦- هبوط المستوى التعليمي العام.

٧- واكب ذلك كله إيفاد أعداد كبيرة إلى دول أوروبة الشرقية. التي عمدت في بعض الحالات إلى تسهيل عمليات نجاحهم للتخلص من أعبائهم التي جاءت نتيجة اتفاقات سياسية.

٨- حدوث متغيرات كبيرة تركت آثارها وانعكاساتها على التعليم الجامعي كان لابد من مراعاتها ووضعها في الحسبان:

آ- تطور نظم الاتصال.

ب- الثورة العلمية والتكنولوجية.

جـ- تطور أساليب العمل وأدواته والحاجة إلى تخصصات جديدة.

د- تغيير مفاهيم العمل الاقتصادي والتجاري وتأثيرات منظمات التجارة العالمية.

هـ- تداخل العمليات الاستثمارية في العمل الجامعي.

و- اتساع مفاهيم الديمقراطية وحق التعلم والعمل.

ز- التغيرات في سوق العمل العربي وانعكاساتها على التخصصات الجامعية المطلوبة من اليد العاملة والكفاءات السورية.

إن الزيادة المطردة لعدد السكان في سورية التي تتراوح بين ٤٫٢-٢٫٧٪ سنوياً والتوجه الاستراتيجي المنفذ حاليًا على صعيد التعليم ما قبل الجامعي والقاضي قبول ٥٠٪ من حملة شهادة التعليم الأساسي في التعليم الثانوي وكذلك الضرورة القصوى لرفع النسبة الحالية الضعيفة لعدد المتواجدين في مراحل الدراسة ما بعد الثانوية من الفئة العمرية بين ١٨-٢٣ في مؤسسات التعليم العالي من ١٢٪ في الوقت الحاضر إلى ما لا يقل عن ٢٥٪ خلال العشرين عامًا القادمة على الأكثر، كل هذا يعطي مؤشرات رقمية تدل على أن طالبي فرص التعليم العالي والمتوسط سيصل عددهم إلى ٣٣٨٠٩٦ طالبًا وطالبة في عام ٢٠٠٥ وإلى ٤٦٥٦٥٠ عام ٢٠١٠ وإلى ٨٤٠٣٢٣ عام ٢٠٢٠ مقارنة مع ٢٣٠٥٢٠ طالبًا وطالبة في عام ١٩٩٩..

أنماط التعليم

وإزاء كل هذه المتغيرات ظهرت أصوات ونظريات كثيرة تدعو إلى إعادة النظر في وضعية التعليم العالي والمسارعة إلى تحديثه وتطويره وبعث الحياة فيه من جديد بأساليب تتلاءم ومتطلبات العصر قبل أن تصعب المعالجة. كما ظهرت

أصوات أخرى تطالب بتركه دون علاج حتى الموت والالتفات إلى إقامة بدائل جديدة بأساليب عصرية وبأنماط مختلفة وحدث هذا الخلاف في وجهات النظر بفترة قصيرة لا بل قياسية وانتصر رأي حكيم يدعو إلى تطوير الواقع وتحديثه وإنشاء بدائل جديدة تكون رديفة تحقق الحداثة والتواصل مع المستجدات العالمية وعلى هذا الأساس بدأت ورشات عمل كبيرة في المجالين المذكورين في محاولة جادة لوضع التعليم العالي السوري في الموضع الذي يجب أن يكون فيه من حيث مواكبته للتطور وتلبية للحاجة وفتحه لآفاق الإبداع الذي عرف به الشعب السوري عبر العصور.

١- كان القرار الأوَّل السماح بافتتاح جامعات جديدة أو فروع لجامعات مشهود لها سواءً بشكل مستقل أو بالمشاركة مع الجامعات السورية القائمة وبالرغم من أن هذا القرار جاء سريعًا وعامًا وضروريًا إلا أن آليات تنفيذه بقيت ناقصة غير واضحة وبالتالي بقيت مدة طويلة حبرًا على ورق ولا يزال الكثير من الأساتذة والطلبة ينتظرون تنفيذه لأهميته والمناخات الجديدة التي سيهيؤها على الصعيد العلمي والتعليمي والتنافسي.

٢- التعليم المفتوح:

بالرغم من أن الجامعات السورية لديها خبرات سابقة في نظام الانتساب وعدم مطالبة الطلبة في كثير من الاختصاصات في مجال العلوم الإنسانية بالدوام إلا أن وزارة التعليم العالي حرصت على الاستفادة من تجربة الأشقاء في جمهورية مصر العربية في مجال التعليم المفتوح وهي تجربة متطورة نسبية عن نظام الانتساب الذي سبق وطبق في جامعتي دمشق وحلب لفترة قصيرة ثم ألغي أمام التوسع في التعليم العالي وفق سياسة الاستيعاب.

والحق أن هذا النمط الجديد من التعليم العالي فتح آفاقًا واسعة في تجديد التعليم العالي السوري ومده بدفعة حياة متجددة، يمكن لها إذا ما تطورت واستقلت بمفهوم جامعة جديدة باسم جامعة التعليم المفتوح لها كلياتها وفروعها في المحافظات باتفاقات خاصة مع الجامعات السورية القائمة. لاستثمار قاعاتها أو اعتماد شهاداتها بحيث يمكن لها أن تخطو خطوات أكبر وفق أهدافها. لقد حققت هذه التجربة:

آ- إعادة تأهيل عدد من أصحاب الشهادات الثانوية أو المتوسطة أو الجامعية سواء باختصاصات جديدة أوبتجديد ومتابعة الدراسة العالية.

ب- كما حققت حياة علمية في المجتمع السوري بدلاً من بعض الخمول والكسل والتردد والبحث عن جامعات خارج القطر للدراسة.

جـ - أوجدت فرص عمل جديدة لكثير من الأساتذة الجامعيين والاختصاصيين في شؤون العمل والإدارة الجامعية.

الجامعة الافتراضية

جاء المرسوم التشريعي بإنشاء الجامعة الافتراضية السورية لتعتمد التدريس الإلكتروني بجميع مستلزماته من خلال:

١- استخدام أحدث الوسائل التقنية.

٢- تقديم مناهج إلكترونية متنوعة في التعليم المتوسط والتقني والدراسة الجامعية الأولى والدراسات العليا.

٣- تقديم خدمات إدارية لطلاب الجامعة.

٤- تقديم خدمات الدعم الأكاديمي والتقني للطلبة من خلال الشبكة الإلكترونية مستعينة بالعلماء والأساتذة السوريين والعرب والأجانب.

٥- إعادة وتطوير برامج تعليمية إلكترونية عربية محدثة بشكل مستمر.

٦- تشجيع حركة التعريب والتطوير الإلكتروني في الجامعات السورية والعربية والأجنبية.

٧- توفير عملية التعليم المستمر والتعاون مدى الحياة والتدريب التخصصي.

كل ذلك في إطار التعاون التام والكبير مع الجامعات والمؤسسات العلمية والبحثية السورية.

لقد جاء قرار إحداث الجامعة لا لتشكل ميداناً جديداً من ميدان التعليم الجامعي فقط وإنما جاءت لتحقيق أغراضاً عديدة في ميدان التعليم الجامعي فهي:

١- إلغاء هيمنة التعليم بشكله الأكاديمي التقليدي الذي بدأ كما أشرنا في بداية هذا المقال في نهاية القرن التاسع عشر.

٢- الاستفادة من التقانة المتطورة والسهلة الانتشار للأنترنيت بدخول مجال التعليم الالكتروني خاصة إذا علمنا أن هذا النمط من النظام التعليمي قد أصبح خياراً مستقبلياً بعد وصول نموه إلى نسبة ٩٦٪ سنوياً وفق إحصاءات جريدة الفاينينشال تايمز لعام ٢٠٠١م.

٣- إن هذا الميدان الجديد سيفتح المجال رحباً للاستفادة من الكفاءات الأكاديمية السورية المميزة في الجامعات السورية المختلفة وبالتالي سيتيح فرصة كبيرة لهم لتقديم خبراتهم وأفكارهم والتخلص من القيود البيروقراطية والأنظمة النمطية التقليدية التي لم تستطع أن تتخلص منها حتى الآن الجامعات السورية بالرغم من القرارات التي أعطتها حرية العمل الجامعي.

٤- ستتيح الجامعة الافتراضية إمكانية تخطي الحدود القطرية علميًّا بيسر وسهولة وبالتالي ستفتح ميدانًا رحبًا لانتساب الطلبة العرب والاستفادة من الطاقات والخبرات التعليمية السورية.

٥- كما ستتيح هذه الجامعة الإمكانية لانتساب طلبة أبناء المغتربين في كل أنحاء العالم، الأمر الذي سيوفر عليهم مشقة الانتقال إلى سورية، وسيؤمن في الوقت نفسه تلبية الرغبات لدى الكثير منهم للنهل من منابع التعليم السورية الأصلية.

٦- إن المزايا والإعفاءات التي منحت لهذه الجامعة هو أمر يدل على الرغبة الجازمة لدى المشرع لتحقيق النجاح المطلوب لهذا الميدان الجديد وهي مزايا ستكون دعمًا حقيقيًّا لضمان نجاحها وتحقيق أهدافها.

لقد تساءل بعضهم عن جدوى إقامة هذه الجامعة قبل الانتهاء من عملية تطوير وتحديث الجامعات السورية القائمة حاليًّا.

في حين أنني أرى أن إحداث هذه الجامعة وفق الأنظمة والمزايا التي وضعت لها سيشكل دعمًا كبيرًا لعملية التطوير الجارية للجامعات السورية القائمة وسيتيح المجال واسعًا للاستفادة المتبادلة على طريق تحقيق أهداف الارتقاء والتحول إلى مراكز إشعاع وخلق ثقافي وعلمي ومعرفي عام، تمامًا كما كانت منذ بداياتها، بحيث تشكل هذه الجامعات كلها وسيلة تلاحم للمجتمع السوري والعربي بالطاقات والقدرات والإبداع للوصول إلى اكتشاف أفضل السياسات الاجتماعية والاقتصادية ولتعطيل طريق هجرة العقول وتحويلها إلى أجواء جاذبة للأسراب المهاجرة.

وطبيعي أن الجامعة الافتراضية لها مواصفات خاصة مختلفة عن الجامعة الأكاديمية العادية لابد من التعريف بها فهي تتطلب معرفة استخدام الأنترنيت وتصفّح الويب وتبادل رسائل البريد الإلكتروني عبر استخدام الكمبيوتر والتعامل مع البرمجيات المختلفة.

هذا من جهة ومن جهة ثانية فإنه يتيح استخدام وقت الفراغ بطريقة بناءة وإيجابية، فالطالب يدخل الشبكة في الوقت الذي يناسبه خلال الـ ٢٤ ساعة من أيام الأسبوع كلها كما أنه ينمي مجالات التفكير والتحليل في موضوعات الدراسة بشكل ذاتي وإيجابي ويوسع ملكة تحمل المسؤولية المباشرة فغالبية الأبحاث عن طلبة التعليم الإلكتروني وطبيعتهم تدل على قدرتهم على الانضباط الذاتي وأن غالبيتهم من أصحاب المبادرات بالإضافة إلى كسر الحواجز التي تمنع التواصل مع طلبة من مختلف الجنسيات والمشارب الثقافية.

المعاهد العليا

لعل تجربة المعاهد العليا تحتاج إلى وقفة متأنية نستعيد فيها أهدافها وطرق عملها وتبعيتها الإدارية والعلمية.

لقد أثبتت تجربة المعاهد العليا والمتوسطة إداريًا بالوزارات والإدارات المتخصصة الكثير من النجاح ولو أنني أجد ضرورة في إعادة النظر في طريقة القبول، من حيث عدم اشتراط حداثة الشانوية العامة وإمكانية إعطاء درجات إضافية لأبناء العاملين من أصحاب الاختصاص في الوزارات التي تتبع لها هذه المعاهد وعدم التقيد بتحديد سنوات الدراسة بأربع سنوات حرصًا على تعادل الشهادة بالشهادة الجامعية العادية والبحث عن اختصاصات عملية وتطبيقية تحتاجها الإدارات ذات العلاقة كما أنني لا أريد أن أنسى في هذا المجال إمكانية إقامة معهد عال للنقابات العمالية على أن تبقى مسؤولية الإشراف العلمي من مهام وزارة التعليم العالي أو من مجلس التعليم العالي.

التعليم المستمر

وهو أسلوب في التعليم غير التقليدي ظهر أمام تسارع التقدم العلمي، والمكتشفات والمستجدات في ميدان التخصصات المختلفة مما خلق فجوةً بين الخريجين القدامى والجدد. الأمر الذي استدعى إقامة عملية تجسير للخريجين القدامى بإقامة دورات قصيرة أو طويلة تستهدف إعادة التأهيل ومواكبة التطورات العلمية المستجدة.

وهناك اختلاف حول الجهة التي تتولى مثل هذا العمل بين النقابات المتخصصة والجامعات وقد استقر رأي كثير من الجامعات في العالم على تولي هذا الموضوع من قبلها بتأسيس أقسام تتولى مسؤولية التواصل الدائم بين الجامعة وخريجيها وإقامة برامج إعادة تأهيل لهم كل خمس سنوات أو ثلاث.

وأعتقد أنه في إمكانية جامعاتنا سواء مستقلة أو في إطار وزارة التعليم العالي التفكير في هذا النمط الهام والضروري ولاسيما بالنسبة للتخصصات العلمية (الطب، الصيدلة، الهندسة، المعلوماتية). ووضع آلية أكاديمية له يشرف عليه ويتفرع له عددٌ من الأساتذة المختصين والمهتمين بحيث يضعون لكل دورة مناهجها ومواضيعها ويمنح خريجوها شهادة إعادة تأهيل، أو دبلوم التعليم المستمر.

٥- ونعود مرة أخرى إلى موضوع التعليم النظامي (التقليدي) وهو التعليم الذي يمتد إلى جذور عميقة وتراث كبير وخبرات لا محدودة وهو الذي أعطى تجربة التعريب في التعليم الجامعي في

سورية القدوة والحيوية والرسوخ كما أعطاها مفهوم الديمقراطية والالتحام بالمواطن والوطن وقضاياه.

إن مسؤولية التطوير وإعادة التنظيم والتحديث وفق مبدأ الاستقلالية الذي أقرته القيادة. لابد أن يعتمد على الأسس التالية:

١- التشدد في الضوابط العلمية وعدم التساهل فيها أو التنازل عنها لأن التمسك بها لا يعني بأي حال من الأحوال الأبعاد عن ديمقراطية التعليم. فالديمقراطية لا تعني التراخي أو التسيب وإنما تعني فتح الفرص المتكافئة وفق أصول وضوابط.

٢- إن إدخال مفهوم التعليم الإلكتروني إلى جانب التعليم التقليدي لا يعني تغييب التعليم الإلكتروني عن جامعاتنا وطلبتنا في التعليم التقليدي نظرًا للأهمية ولعدم صلاحية أية شهادة بدون معرفة التعامل مع أنظمة الاتصال الإلكتروني.

٣- التأكيد على استقلالية الجامعات وإصدار الأنظمة الخاصة بذلك.

٤- جعل القبول مباشرًا مع التأكيد على نسب الدوام وتحديد عدد الطلبة في كل فصل.

٥- اعتماد نظام الجودة التعليمية وتكليف جهة مختصة بذلك، ووضع معايير معتمدة من قبل جهات عربية ودولية.

٦- تطوير الكتب الجامعية باتجاه تحويلها إلى مراجع علمية متميزة ترفد الطالب وتحفزه لا تحده.

٧- تطوير النظم الإدارية والقانونية لعمل الجامعات باتجاه المرونة والابتعاد عن المركزية على أن لا يؤدي ذلك إلى التساهل في الطرق العلمية.

٨- تأكيد مبدأ الرقابة الناظمة وفق أسس واضحة للاعتمادية والموثوقية.

٩- ترسيخ آليات التحليل والتكييف والتدريب على الخلق والإبداع وفق نظرية التعليم الذاتي.

١٠- منهجة التعليم مدى الحياة وتخديم المنظومة الوطنية للتجديد والابتكار.

١١- إعادة هيكلة البنى التنظيمية الجامعية بافتتاح أقسام جديدة أو دمج بعضها ببعض أو إلغاء بعضها.

١٢- تطوير العملية الامتحانية ووضع معايير للتقويم تعتمد على سبر القدرة على التحليل واقتراح الحلول المناسبة للمشاكل والعقبات وعدم تناسي الموهبة والإبداع والابتكار الأدبي أو العلمي.

خاتمة

إن الخروج من النمطية التي سادت التعليم التقليدي طيلة تاريخ التعليم العالي خلال العقود الماضية ليست عمليةً سهلة

كما أيّ عملية انتقال أو تغيير في المجتمع لذلك فإنني أرى فيما تم حتى الآن خطوات جريئة وكبيرة، وأعتقد أنه بفضل وجود وسائل الاتصال الجماهيري ذات القدرة الكبيرة على العرض والشرح والتواصل والإقناع يمكن اختصار الكثير من الوقت والجهود للوصول إلى المبتغى بحيث يتم التركيز على شرح الأنماط الجديدة ومشاركة الجماهير المستهدفة في مناقشتها وتباين جميع أهدافها وطرائقها لأن القاعدة تقول: «إن الإنسان عدو ما يجهل» ولذلك عُدّ الإعلامُ الجماهيري من أركان أي عملٍ جديد. وفي هذه الحالة ومع تفهّم الجماهير الطلابية وذويهم واقتناعهم فإن الانتقال إلى الأنماط الجديدة يكون عملاً واسعًا ويسيرًا بحيث تتفوق أعداد طلبته على طلبة التعليم التقليدي.

الأمر الذي يحمّل القائمين على الأنماط الجديدة مسؤولية كبيرة في تقديم أفضل ما لديهم من العلم والقدرة على استخدام التقنيات الجديدة والتواصل مع المراكز والجامعات العالمية بحيث يشعر الطلبة بفوائد وأهمية التحاقهم بهذه الأنماط الجديدة.

وأخيرًا فإن الآثار الإيجابية للتعليم تكون عادةً بعيدة المدى وبالتالي فإن قطف ثمارها لا يتم بصورة سريعة ولهذا فإن القيادة ذات الأفق الاستراتيجي هي التي تهتم بهذا الميدان فعن طريق عمليات التنوير والتثقيف والتوعية والتعليم تظهر تلك الفئات القيادية من الأجيال التي لا تتماشى مع تيارات التراخي والتقليد والإذعان فتسعى دائمًا إلى التغيير والتطوير المنشود في إطار العمل المؤسساتي والبيئة الإيجابية الحاضنة وهو ما يعطي للإجراءات القائمة في تطوير التعليم العالي وفتح آفاقه في مستويات وأنماط مختلفة، المجال لأفقٍ حضاري متطور.

❖ ❖ ❖

٧٦

رؤى التحديث عند السيد الرئيس بشار الأسد

د. توفيق داود ✻

يشير مصطلح التحديث إلى انتقال المجتمع من مجتمع تقليدي، مجتمع ما قبل حديث، إلى أنماط تكنولوجية، وما يتعلق بها من تنظيم اجتماعي، فالتحديث مصطلح متنوع يقدم وصفاً لتغيرات عديدة في وقت واحد وعلى مستويات متعددة، بعض الباحثين يرى أن التحديث يظهر في المعرفة المتزايدة عند الإنسان وقدرته على السيطرة على بيئته، وعلى ما يراه «روبرت. ن. بيلا» أن التحديث هو «أن يتعلم الإنسان كيف يتعلم»، ودون أدنى شك في رؤية (بيلا) إلى التحديث وتحديداً الجانب الأهم فيها وهو الإنسان. وتزداد أهمية هذه الرؤية من خلال المنطلق الذي قدمه «سيرل. أي. بلاك»، «بتميز المجتمعات الحديثة بنمو المعرفة الجديدة»

(✻) د. توفيق داود: باحث من سورية. دكتوراه في الدّراسات الفلسفية والاجتماعية له عدة أبحاث منشورة في مجلة المعرفة. أستاذ مادة الاجتماع في جامعة دمشق.

وهذا يوضح وجود إنسان له قدرة متزايدة على فهم أسرار الطبيعة وتطبيق معارفه الجديدة، على شؤون حياته المختلفة. وتأسيسًا على ما سبق فإن التحديث يتم وفق التصورات التي قدمها «زيمون شوداك» وفق ثلاثة مستويات:

١ - التحديث الذي يتم عن طريق التصنيع وما يدخله ذلك على المجتمع من تغيرات في الميول والسلوك وما ينتج عنه من تغيرات تطال القيم الماضية واستبدالها بقيم جديدة تناسب إمكانية الانتقال إلى درجات أعلى من التصنيع.

٢ - تحديث فجائي يأتي عن طريق الاتصال بمجتمعات أخرى وثقافات أكثر أو أقل تقدمًا.

٣ - تحديث يتم عبر الأنشطة الحكومية المقصودة والمخططة، في ضوء ذلك يعني التحديث أول ما يعنيه تحديث الإنسان في تفكيره وأساليب وصور حياته.

أنماط التحديث:

- التحديث الصناعي - التحديث الزراعي - التحديث بالإقناع.

إننا بأمس الحاجة إلى مختلف أنماط التحديث مع أهمية خاصة لنمط التحديث بالإقناع والذي يتضمن فيما يتضمنه تعديل تنظيمات المجتمع ومؤسساته واتجاهاته، وإدخال أشكال حديثة للحكومة والإدارة، والتعليم، والجامعات، ومؤسسات البحث، وحق الاقتراع، ووسائل الاتصال....إلخ.

من هذه الزاوية بالذات يمكننا الوقوف على بوابة أهمية مفهوم التحديث والتطوير الذي طرحه الرئيس بشار الأسد.

انطلاقًا من امتلاكه رؤية كاملة متكاملة عن مجتمعه فيها المشرق والمضيء وفيها ما لا يسر ولا يريح، المشرق يعبر عنه بصورة دائمة بملامحه التفاؤلية ونظرته التأملية المتطلعة إلى غد أفضل لشعبه وللشعوب الأخرى، تستطيع قراءة ذلك من خلال جولاته الميدانية شمالاً وجنوبًا ووسطًا، تلك الجولات التي يفرضها الواقع الراهن لمجتمعنا وضرورات تحديثه وتطويره والحال كذلك بالنسبة لجولاته وزياراته التواصلية مع شعوب وحكومات الدول الشقيقة والصديقة، والتي يغلب عليها طابع التعامل مع الآخر من موقع الإرث الحضاري المديد والعميق لسورية، والذي يحرص الرئيس على تقديمه بأبهى صورة جمالاً ومسؤولية منطلقًا من التاريخ العميق لسوريا ودورها التواصلي مع الحضارة الإنسانية التي لم يكن يومًا دور سورية الطبيعية فيها شحيحًا، لا بل أخذ موقع الريادة كمهد للحضارات فلبنان هي سورية، وفلسطين هي سورية.

من هنا يمكن القول: جاءت أهمية المشروع التحديثي والتطويري للرئيس بشار

الأسد ذات طبيعة ثنائية التوجه: الأولى داخلية والثانية خارجية.

فعلى الصعيد الداخلي جاء مشروع التحديث والتطوير محمولاً على عربة الأولويات التي أدركها الرئيس بشار الأسد بعقل نافذ وقلب سليم وإرادة عقلانية تسير الهوينى بهدوء وتأن، فطرح مشروعه بموضوعية وعلمية تستند على المنهج اللازم لذلك وأدواته الموضوعية في المعالجة دون أن يخلو كل ذلك من الإشكالية المعرفية في العلاقة ما بين الواقع ومتطلباته والخروج منه، يمكننا قراءة ذلك بوضوح وتأن في خطاب القسم، لكننا نود أن نقف عند عبارة مفصلية فيه هي: «أنني لا أملك عصًا سحرية» هذه العبارة بحد ذاتها إذا ما وقفت أمامها توضح كثيرًا من الأمور وتحل الأحجيات والألغاز التي تبدو عصية على الفهم وتضعك على مسافة قريبة جدًا من مشروع السيد الرئيس التحديثي، خاصة إذا امتلكت المقدرة العلمية والروح التواصلية مع الأحرف ودلالاتها والكلمات ومعانيها لتصل إلى المفاهيم التي هي محددات الفكر.

فعندما يقول الرئيس الأسد أن ليس لدي عصًا سحرية إنما يعني القول فيما يعنيه وبشكل دقيق جدًا إدراكًا عميقًا ومعرفة بيّنة لمجتمعه وتضاريسه ومشكلاته وكل الظواهر السلبية التي تملأ العديد من مساحاته، وعليه فإن المرحلة القادمة ليست هينة ولا لينه، وإنما على العكس تمامًا هي معقدة وصعبة ومتنوعة بتنوع الواقع الاجتماعي ومتطلباته. فالحلول ليست في الخزائن ولا في الأبراج ولا في القصور، وإنما هي في عقول الناس ومعارفهم وتجاربهم الحياتية الفردية والمجتمعية التي تتكون من خلال الواقع الذي تحاكيه.

وتأسيسًا على ذلك فإن ما طرحه الرئيس بشار الأسد من دعوة للتحديث والتطوير كان إدراكًا عميقًا وصادقًا وبعيدًا عن المثالية بكل ألوانها، وهي أنه أراد أن يقول الحقيقة لشعبه مصارحة وبصورة مباشرة ودون وسائط، وبشفافية عرفها وحاكاها في مدرسة القائد الخالد حافظ الأسد، وهذا بحد ذاته يصلح عنوانًا للتحديث والتطوير الذي يعتمده الإنسان أولاً والذي لا تغيير ولا تحديث ولا تطوير بدونه.

لقد دعا الرئيس بشار الأسد إلى التحديث والتطوير مدركًا عمق العلاقة بين مفهومي التحديث والتطوير كنمطين من أنماط التغيير الاجتماعي الذي يستند أساسًا إلى الواقع وإمكاناته دون القفز على الواقع أو تجاوزه من خلال دعوة جميع أبناء المجتمع للإسهام في مسيرة التحديث والتطوير دون الاستغناء عن طاقة أي فرد

من أفراد المجتمع يؤمن بأرضه ومجتمعه، فالوطن يتسع لجميع أبنائه المخلصين الذين يعملون من أجل أن يحيا الوطن. فالتحديث الصناعي بأمس الحاجة إلى عمل وجهد أصحاب المشروعات الصناعية الكبيرة والمتوسطة والصغيرة، والتحديث الثقافي مسؤولية المفكر والمثقف، والتاجر، والطالب، وجميع أعضاء المجتمع المتحررين من علاقات المجتمع التقليدي أو القبلي...إلخ.

أما التحديث الثالث والذي أسميناه التحديث بالإقناع، فهذه مهمة السياسي ورجل الحزب والدولة والإدارات والمؤسسات ورجال القانون والأكاديميين الجامعيين... إلخ الذي يقع على عاتقهم أمر تعديل تنظيمات المجتمع ومؤسساته.. إلخ.

التحديث في بعده الخارجي:

يجزم المتتبعون لخطوات الرئيس الأسد في السنوات الماضية أنه قد أحدث نقلة نوعية في الخطاب السياسي العربي الرسمي، محولاً إياه من خطاب رسمي عاطفي آني إلى خطاب شعبي مطلبي سواره همـوم المواطن العربي وجوهره منهجية علمية واقعية في كيفية التعامل مع هذه المشكلات مستنداً استناداً دقيقاً إلى المفاهيم كمحددات للفكر، سيما وأن عالم اليوم يعيش عصر هيمنة الأقوى الذي يريد أن يرسم معالم العالم الآن كما لم تكن عليه في يوم من الأيام حيث يريد تحويل القوة إلى أداة قمع أولاً وإقناع ثانياً مستخدماً أحدث ما توصل إليه العلم الحديث على المستويين المادي والفكري. وتأسيساً على ذلك كله فقد بلغ الرئيس الأسد مرحلة النجومية السياسية في جميع مؤتمرات القمة العربية التي عقدت في مصر و في لبنان والتي بيّن فيها ما يجب على العرب أن يعملوا وكيف ومتى ولماذا. إدراكاً منه أن المفاهيم والمعاني والدلالات التي تخص قضايا العرب قد باتت عرضةً للتغيير والتشويه، فامتشق سيف المعاني والألفاظ معتبراً ذلك مطلباً ضرورياً وعاملاً مهماً يجنبنا الوقوع في التيه في عالم شديد التعقيد والتداخل في نظرياته وأفكاره، مؤكداً على أن تحديد معاني الألفاظ هو شرط المعرفة الصحيحة العلمية. وكم نحن اليوم وأكثر من أي وقت مضى بحاجة إلى مثل هذا التحديد في المعاني والألفاظ التي أراد الآخر أن يتلاعب من خلالها بمقدراتنا ومصائرنا ومستقبلنا، فعلى سبيل المثال مفهوم الإرهاب بحد ذاته يقف العالم عاجزاً عن صياغة مفهوم واضح بيّن له سوى ذلك المفهوم الذي تصنعه غطرسة القوة والعدوان التي تسحق الإنسانية ألف مرة في اليوم، وها هم الفلسطينيون يوصفون إرهابيين وكذلك اللبنانيون والعراقيون والأفغان، «والحبل على الجرار» فالتهم جاهزة لكل دولة ولكل فرد لا يأتمر بأمر المصالح الأمريكية والصهيونية حتى أصبح المدافع عن أرضه ووطنه ودينه وماله

إرهابيًا، في محاولة لدفع العرب والمسلمين إلى تغيير قيمهم ومعتقداتهم إرضاءً لصانعي المفاهيم التي أسسها مفهوم القوة، كيف يمكن تطويع الكلام القرآني لصالح الكلام الشيطاني؟ كيف يتحول الجهاد إلى عمل إرهابي: ﴿وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم﴾ ... ﴿ولا تحسبنّ الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا﴾ ...

لقد أكد الرئيس بشار الأسد في مؤتمرات القمة بأن الحالة الراهنة للعرب ليست مريحة ولا مطمئنة وتحتاج إلى إجراء تغييرات شاملة في كل ميادين الحياة من أجل الحفاظ على الهوية القومية والانتماء الإنساني وما تأكيده على الهوية القومية والانتماء الإنساني سوى إشارة ذات دلالة أن لا فضل لإنسان على آخر إلا في حدود التزامه الإنساني والعمل من أجل خدمة قضايا الإنسان مؤكدًا على أن العرب لم يكونوا قط في حياتهم معتدين في أوج مراحل قوتهم مذكرًا العالم أن العرب لا يمكن أن يكونوا عبيدًا عند أحد.

أدرك الرئيس بشار الأسد أن التغيير ظاهرة حياتية موجودة في كل مستويات الوجود بشقيه الفيزيقي الطبيعي والاجتماعي، إلا أن ما لم يقبل فيه تغييراً وهو الجوهر الإنساني الذي يجب ألا يعدله إلا ما هو أفضل منه أي لا يجوز التضحية بالجوهري والدائم والخالد والسرمدي في سبيل الآني والمؤقت، حيث لا يجوز أن يتحول الإنسان إلى وحش يفترس الإنسان الآخر وإلا كيف يمكن لنا الآن إلقاء آلاف الأطنان من القنابل على شعب العراق وكيف يمكن لنا أن ننظر إلى الطفل ألذي فقد كلتا يديه أو إلى أطفال فلسطين من أمثال فارس عودة.

باختصار شديد استطاع الرئيس بشار الأسد أن يخرج الخطاب السياسي الرسمي العربي من أقبية المتاجرة؛ والغرف السرية وفضاءات الاندفاعات العاطفية المسرحية إلى أرض الهموم والمشكلات العربية الملحة وهذه النقلة استحوذت على عقل وقلب وضمير رجل الشارع العربي الذي وجد في السيد الرئيس بطله المنتظر وذلك لم يكن مفاجئًا لأن الرئيس بشار الأسد كان يقف على أعلى قمة من قمم السياسة في العالم المعاصر. إنها قمة حافظ الأسد الخالد في عقل السياسة وفنونها وحكمها والذي لا يمكن لقارئ للسياسة إلا وأن ينظر باحترام إلى مجد حافظ الأسد السياسي عدوًا كان أم صديقًا.

أكد الرئيس بشار الأسد أن التحديث والتطوير هو في واحة فكر وعقل القائد الخالد حافظ الأسد عندما قال: «كان نهجًا متميزًا وبالتالي فإن الحفاظ على هذا النهج ليس بالأمر السهل، وخاصة أننا لسنا مطالبين فقط بالحفاظ عليه وإنما بتطويره أيضًا. وهذا يحتاج إلى كثير من العمل والجهد على المستويات كافة بهدف البناء على ما تحقق في عهده الزاهر لنعلي البنيان ونضاعف

الإنجــازات، مــصــمــمين على تذليل الصعوبات ومواكبة العصر من دون التخلي عن ثوابتنا الوطنية والقومية التي رسخها في قلوبنا وعقولنا متمثلين في الوقت ذاته حكمته في تحويل الحزن إلى طاقة خلاقة والمصيبة إلى عمل وإنجاز.»

إن البرنامج التحديثي التطويري الذي انطلق منه الرئيس بشار الأسد بدءًا من إصراره على أن يكون واحدًا من مواطني مجتمعه دون أية إضافات أخرى، يعتبر بحد ذاته مقومًا هامًا جدًا من مقومات التحديث، الذي ينطلق من الذات، ويلقي خلفه كل مقومات المجتمع التقليدي، الذي تغلب عليه ألوان سلوكية نعرفها جميعًا، عرفناه طالبًا كبقية الطلاب وشابًا متميزًا همه ثنائي الاتجاه: التحصيل العلمي والشأن المجتمعي لمجتمعه.

كل هذه السمات لا يمكن أن تثير شيئًا من الاستغراب نظرًا للتربية والنشأة في بيت القائد حافظ الأسد، الذي رسم معالم الوطنية وحدد مفهوم الهوية القومية، ورسخ جذور الأخوة العربية. فلم يقبل يومًا قط التفريط في ذرة من تراب الوطن، ولم يتنازل عن كرامة وطنية أو عزة قومية، قارع المعتدين عسكريًا وسياسيًا فأعطى كل ذي حق حقه، هذا هو البيت والمناخ الفكري والعقائدي، الذي درج عليه الرئيس بشار الأسد الذي لن يكون قط يومًا إلا وفيًا مخلصًا لكل معلم من معالم المدرسة الأسدية.

هذه الرؤى تؤكد عمق العلاقة مع الوطن والمواطن، فالوطن الأرض المكان الوجود الكرامة العزة الإنسانية، والمواطن هو الوجه الآخر للوطن، فالبيت بأهله وقاطنيه وكذلك الوطن لا يكتسب هذا المفهوم إلا بوجود المواطن صاحب الحقوق والواجبات، فالحقوق تكافؤ الحرية والواجبات تكافؤ شرط تحقق هذه الحرية.

لقد قال الرئيس بشار الأسد في خطاب القسم في إشارة إلى ذاته قائلاً: «إن الرجل الذي عرفتموه وأحببتم بعضًا من صفاته وبادلتموه الثقة والمحبة، لن يغير فيه المنصب شيئًا وهو الذي انطلق من بين الناس وعاش معهم سيبقى بينهم وواحدًا منهم وتوقعوا أن تروه في كل مكان معكم سواء في موقع العمل أو في الشارع، أو في أماكن نزهتكم، فإن الذي أصبح رئيسًا سيبقى هو نفسه الطبيب والضابط وقبل كل شيء المواطن».

إن المدقق في خطاب القسم الذي أدلى به السيد الرئيس في مجلس الشعب يحمل الكثير من الجديد في طياته، وإذا ما تتبعنا بعضًا من فقرات هذا الخطاب يمكن أن نلحظ ذلك من قوله: «لقد قلتها بالأمس وأقولها اليوم إنني لا أسعى إلى منصب ولا أهرب من مسؤولية، فالمنصب ليس هدفًا بل هو وسيلة لتحقيق الهدف، والآن وبعد أن شرفني الشعب باختياره لي رئيسًا للجمهورية وبعد أن أديت القسم الدستوري، وتسلمت مهامي أقول: إنني تبوأت هذا المنصب، ولكنني لم أتبوأ الموقع أي أن

المنصب تبـدل لكن الموقع بقي ذاته ولم يتغير ...... كنت دائمًا أقول لمن ألتقيهم إن المنصب مسؤولية، لكن الموقع فرض هذه المسؤولية من قبل، وقد يقول قائل: بأن المنصب يعطي الشرعية لكن الشرعية، هي قبل كل شيء إرادة الشعب ورغباته ....».

من هنا نستطيع القول إن المسؤولية هي مصلحة الشعب والشرعية هي رغبته، إن الحديث عن الشرعية من قبل السيد الرئيس وبإدراكه لأهميتها يدل على فهم عميق لما يجب أن تكون عليه حال العلاقة بين الشعب وسلطته، سيما وأن كل منهما يختزن قوة مؤثرة.

توحيد تلك القوة رهن بتوفر الشرعية التي تحدث عنها الرئيس، فالشرعية بحدّ ذاتها قوة كبيرة متجددة، لأنها جزء لا يتجزأ من العمليات الاجتماعية، لا بل أكثرها عندما تتحقق بفعل عملية التواصل الاجتماعي بين مختلف ظاهراته، التي غايتها إنجاز الشرعية التي تحتاجها أية سلطة وبدون تلك الشرعية، فالسلطة بحد ذاتها ليست شرعية، من هنا أكد السيد الرئيس على دور المواطن وأهمية هذا الدور قائلاً: «على كل مواطن شريف أن يضع نفسه في موقع مماثل وأن يحمّل نفسه المسؤولية وأن يؤمن بالشرعية حتى لو لم يكن في وضع يسمح له بتطبيق أفكاره، فالمنصب لا يعطي المسؤولية، بل العكس هو الصحيح هو يأخذها من الإنسان الذي يمتلكها، ويسمح له فقط أن يمارسها من خلال الصلاحيات التي يمنحها له».

تتمثل أهمية خطاب القسم من خلال معالجته الشاملة لمختلف ظواهر المجتمع السلبي منها والإيجابي مؤكدًا على دور المواطن في ضرورة تفعيل دوره وممارسة هذا الدور في إطار من العمل الجاد والمسؤول، والأبرز في هذه النقطة والهام، هو حديثه عن السلطة وضرورة تحديثها من خلال التواصل بين القاعدة والقمة، مؤكدًا على أن الاختلال في تلك العلاقة يؤدي إلى نتائج وخيمة وغاية في الخطورة قائلاً: «لا يبنى المجتمع ولا يتطور ولا يزدهر باعتماده على شريحة أو جهة أو مجموعة بل يعتمد على تكامل عمل الكل في المجتمع الواحد ولذلك أدعو كل مواطن لكي يشارك في مسيرة التطوير والتحديث إذا كنا فعلاً صادقين وجادين في الوصول إلى النتائج المرجوة في أقرب زمن ممكن».

إن هذه الرؤية بضرورة مشاركة الجميع في حمل المسؤولية كل في موقعه، لهي إدراك عميق لما يجب أن يكون عليه حال المجتمع، حتى يسير في طريق التحديث والتطوير، انطلاقًا من إدراك العلاقة التالية: وهي أن البنية السياسية لكل مجتمع تاريخي هي عبارة عن المنظومة الشاملة لتنظيمه السياسي. فالظاهرة السياسية تلف حياة الإنسان في المجتمع المعاصر وتمسها مسًا مباشرًا في كل خطوة من خطواتها، من هنا تأتي أهمية المشاركة

التي أرداها الرئيس في برنامجه التحديثي الذي يرتكز على مجموعة من الأسس والمعايير الضرورية وهي عامل الزمن، وطبيعة الواقع، والإمكانات المتوفرة والعمل جديًا من أجل تطويرها، والمصلحة العامة.

إن المدقق في جملة العوامل السابقة يستطيع أن يجزم أنها تشكل جملة العقبات التي يمكن أن تعيق تحقيق التحديث، فالتحديث ليس كلمة تقال، فهو أكثر من ذلك بكثير، فالتحديث مرادف للتغير وأي شكل من أشكال التغير ينتج عنه تحويل وتبدل يمكن قياسه في روتين الحياة الاجتماعية، يميل إلى أن يحطم العادات التي يقوم عليها التنظيم الاجتماعي القائم، كل اكتشاف جديد، وكل اختراع جديد، وكل فكرة جديدة تعتبر شيئًا مزعجًا ومقلقًا. إذن أي شيء يجعل الحياة أكثر جاذبية وتشويقًا يعتبر خطرًا على النظام القائم في أي مجتمع من المجتمعات. إن المجتمع عرضة للتفكك نظرًا لعدم قدرة بناءاته ومراكزه وأدواره على العمل كما يجب من أجل تحقيق أهدافه، وتأسيسًا على ذلك فإن التحديث يحتاج إلى زمن لإحداثه وواقع يتبناه، وإمكانات تُرصَدُ من أجل تحقيقه، وفي ختام كل هذه الاحتياجات فإنها جميعًا يجب أن تكون في هدفها وتطلعاتها متجهة إلى خدمة المجتمع ومصلحته، وهنا تظهر بشكل جلي خصوصية التحديث عند الرئيس بشار الأسد بأن هدفه وغايته هو تحقيق الرفاه للمجتمع والحفاظ على منظوماته القيمية الاجتماعية وعدم تعريضها للتفكك أو الزوال خاصة وأننا بأمس الحاجة إلى الحفاظ على هويتنا القومية وخصوصيتنا الوطنية بما ينعكس إيجابيًا على مصالحنا ومستقبل وجودنا، في ضوء ذلك كله فإننا بأمس الحاجة إلى مراجعة شاملة تطال المنظومات الاجتماعية برمتها من أجل تقييمها وإعادة النظر في الكثير من مفرداتها والعمل جديًا على استنبات بدائل عنها تستطيع أن ترتقي إلى متطلبات التحديث والتطوير التي بدونها سنبقى عرضة للتفكك، وربما للزوال، إن المراجعة مطلوبة وإعادة النظر بمفهومنا لوجودنا الذي هو في كثير من الأحيان ذي طابع فردي، إن خلاصنا لا يمكن أن يكون فرديًا وإنما جماعيًا، خلاص الوطن بأرضه وبمواطنيه، علينا التوجه إلى ذواتنا لقراءتها وتحديد علاقاتها والسلبي والإيجابي لنتخلص من السوء بكل معانيه ولنلوم هذه النفس إن فعلت ما يتناقض والمصالح العليا للمجتمع حتى نصل إلى درجة الطمأنينة التي تجعلنا على توافق وتصالح داخلي آمن، وإذا ما استمعنا إلى حديث السيد الرئيس لصحيفة السفير اللبنانية بتاريخ ٢٧/٣/٢٠٠٣م، وفي معرض رد على سؤال وجِّه لسيادته، مفاده من خلال مواقف سيادتكم في القمم العربية ولا سيما قمة شرم الشيخ، ثم في خطاب سيادتكم أمام مجلس الشعب كنتم كأنكم طائر يغرد خارج سربه كأنكم خارج هذا النظام العربي ..... سيادتكم حضرتم حتى الآن أربع قمم عربية وأعتقد أنه أصبح لديكم توصيف كامل لهذا النظام ....

إن الإجابة التي قدمها السيد الرئيس لم تكن إجابة رئاسية وإنما مواطنية مئة بالمئة إنها إجابة المواطن العربي في أعمق أحاسيسه تجاه المشكلات التي تمنع عليه السكون والراحة والاطمئنان قائلاً: «إذا كان النظام العربي مجموعة من المسؤولين فأنا جزء من النظام العربي بالوظيفة. وبالتالي أنا أتحمل جزءاً من سلبيات وإيجابيات هذا النظام، بغض النظر من يخطئ أكثر ومن يخطئ أقل، أما بالنسبة لموضوع السرب، فالأمر يتوقف على تعريف السرب وهل هو مجموعة الحكام أو هو الشعب العربي؟ وهل هما سرب واحد أو سربان؟ لكن إذا كان السرب الأساسي هو الشعب العربي فخطاب القمة يقيم من خلال الناس إذا قبل الناس هذا الخطاب فأنا من السرب وإذا ما رفضه أنا خارج السرب.. أما إذا كان تعريف السرب هو المواطنين فهذا هو الشيء الذي يهمني، وهذا الشيء يحدد من خلال المواطنين..».

أعتقد جازمًا أن نغم الحداثة والتطوير وموسيقاهما يمكن أن يشكل أغنية وطنية ولحنًا عذبًا يدندنه مواطنونا في محتوى ومضمون هذه الكلمات والعبارات التي صاغتها مواطنية الرئيس لا رئاسة المواطن..

إن الكلمات والعبارات والمفاهيم والدلالات لا بدّ أن تخضع للاختبار في مختبر المجتمع، وفي ضوء نتائجها نستطيع الحكم عليها، وما أصبح متاحًا لنا الآن إمكانية قوله بعد أن اختبر اجتماعياً ومُورس عمليًا فهو أن الرئيس بشار الأسد يمتلك رؤية تحديثية متميزة. تميزها نابع من كونها تشكل حالة وعي متقدم في مجتمع انفرد في امتلاكها ويسعى بكل جهد وجد وجدية لخلق حالة من التغيير والتحديث والتطوير في مختلف أنماط الثقافات السائدة لدينا وتحديدًا ثقافة الخطاب السياسي من الأعلى إلى الأدنى ومن الأدنى إلى الأعلى، فلا يريد من الجماهير أن تكون ظاهرة صوتية بل يريدها ظاهرة معرفية إنتاجية.

على مجتمعنا بكل ألوانه أن يجعل من الثبات حركة ومن الحركة انتظامًا واتساقًا من أجل إعطاء الحركة مسارًا حرًا.

المراجع المستخدمة في البحث

١ - خطاب القسم في ٢٠٠٠/٧/١٧

٢ - حديث السيد الرئيس بشار الأسد لصحيفة السفير اللبنانية.

٣ - رجال تحدثوا عن القائد الراحل - كمال المسالمة.

٤ - دراسات سياسية - حزب البعث العربي الاشتراكي - القيادية القطرية - مكتب الإعداد القطري.

٥ - التغيير الاجتماعي - ثناء الخولي، الاسكندرية، دار المعرفة الجامعية.

الرئيس بشار الأسد : إثراء مستمر لمسيرة التطوير

٨٥

مشروع في التغيير؟! أم تغيير في المشروع؟!!

أ. خالد العبود ❖

بعد تسلّم الدكتور بشار الأسد مهامه الدستورية، رسميا، وضع مجموعة من السمات العامة التي عبر فيها، ومن خلالها، عن جملة من المهام الأولية التي شغلته، أو كانت تشغله، وتجسّدت هذه الخطوط لهذه المهام في خطاب القسم الذي ألقاه في مجلس الشعب، بعد فترة انتقالية مرّت بها سورية، أنهت فيها بعضا من المهام الدستورية على مستوى المؤسسات، وغيرها، كي يتمّ انتخاب رئيس الجمهورية.

(❖) خالد العبود: مدير تحرير صحيفة الوحدوي، عضو مجلس الشعب في الجمهورية العربية السورية.

في هذا الخطاب، خطاب القسم – وهو الاسم الذي عرف به فيما بعد، نظراً لإلقائه بعد أدائه القسم الدستوري – تجلّت فيه اهتمامات الرئيس الأسد الأولى، والتي وصفت بالجريئة والجادة، كما أنّها وصفت بالمباشرة والواضحة، حيث كان هذا الخطاب يحمل تحولاً واضحًا في سياق الخطاب السياسيّ السوري، على مستوى أعلى قمة في هرم السلطة، فقد جاء خالصًا، أو يكاد، من لغة الإيحاء والإيماء، التي كانت تحفل بها كلمات وتوجيهات وتصريحات القائد الراحل حافظ الأسد، وهذا مردّه إلى بنية داخلية ذاتية، يتميّز بها كلّ منهما، ولكلّ من هاتين الطريقتين مبرراتها وظرفها التاريخي، غير أنّ الوسط السياسي والاقتصادي، داخليا وخارجيا، لمس أنّ هناك خطابا جديداً يميز مرحلة الدكتور الأسد، على هذا الصعيد.

سياسيًا، وفي ظل هذا التوجّه الجديد كان هناك حراك سياسي جديد أخذ أبعاده على مستوى الداخل السوري، لعل البعض فهم بأنه عملية قلب للقائم، أو أنه عملية بناء جديدة، بعيدة عن أسس ومؤسسات ثلاثين عاما مضت، لعله فعل الرهان على السياسي بعيدا عن فعل بناء الدولة، والحفاظ على هيكليتها، أسًا أساسًا رئيسيًا، في عملية البناء الجديدة، ولا أرى مبالغة إذا قلت بأنّ البعض، وعلى هذا المستوى، راح يقامر على مجمل القائم، في عملية قفز غير طبيعية، ظنًا بأنّ عهدًا جديدًا في سورية، لن يكون له ربط إيجابي مع الماضي، وهؤلاء في الحقيقة نسق ممن كانوا يبحثون عن مكان لهم في جسد النظام والدولة، ربما يكون البعض منهم لا يملك أيّ جزء لتوضع له داخل مؤسسات النظام، وربما البعض الآخر أراد أن يبحث عن مكان جديد في بنية مؤسسات متوقعة، انطلاقا من جملة مظاهر توفر لها هامشا مقبولا ومكفولا لممارسة مثل هذا التوجّه، بيد أنّ هؤلاء لم ينتبهوا جيّدا، لا بل لم يقرؤوا أساسيات التوجّه الجديد، وملامح هذا التوجّه، لقد ربطوه بشخص الرئيس الدكتور الأسد، بعيداً عن مؤسسات النظام القائمة..

إنّ هذا التغيير كان يمضي بذات الاتجاه، في الفترة الأخيرة من حياة الرئيس حافظ الأسد، بيد أن ظروف الواقع وشروطه حالت دون الإفصاح عنه جيدا، أو التوجّه إليه مباشرة، لقد ربط هؤلاء هذا التوجّه بشخص الرئيس بشار الأسد، لم ينتبهوا إلى جملة من المظاهر التي كانت تشير إلى هذه التحولات، على أكثر من صعيد، سياسيا واقتصاديا.

لقد أشارت، بل أكّدت، المرحلة الأخيرة من عهد الرئيس حافظ الأسد، على أنّ جملة من التدابير كان لا بدّ من أن تراعى، بغية أن تكون سورية في النسق الذي

يحميها من انزلاقات خطيرة، انساقت إليها كيانات سياسية ودول هامة، بعد التحولات الأساسية على مستوى العالم وبنيته، خاصة إذا ما قمنا باستعراض المشهد الذي آل إليه العالم، خلال جملة من التفككات والتشرذمات، التي دبّت في جزء هام من أجزائه - أعني جملة الكيانات الاشتراكية التابعة لمنظومة الاتحاد السوفييتي - مع الانتباه جيّدًا إلى أنّ علاقة من نوع خاص كانت تربط سورية بهذه المنظومة، إضافة، كما قلنا، إلى مستوى التغيير والتباين الذي حصل على مستوى العالم، والمواجهة المفروضة مع كيان غاصب محتل، يمتلك قوّة عسكرية محسوبة على مستوى العالم.

إنّ هذه المؤشرات، والتي تعتبر واقعًا معاشًا وفاعلاً، كانت كفيلة بإعادة ترتيب وصياغة الخطاب السياسيّ والاقتصاديّ في سورية، كما أنّ هناك مجموعة من الأسباب الداخلية كانت متمثّلة في إعادة تقييم اداء بعض المؤسسات وبعض الأدوار لبعض الأفراد، على مستوى النظام نفسه، لقد أدى ذلك إلى تراكمات كانت تنتظر هذه القفزة، أو هذا الانعطاف، وتزامنت هذه القفزة - الانعطاف مع رحيل القائد الأسد وقدوم الدكتور بشار الأسد.

إنّ البعض لم يدرك ذلك، لا بل لم يستطع إدراك ذلك، فهو يظنّ بأنّ كلّ ما يحصل في سورية هو نتاج تحوّل، أو تبدّل، في رأس النظام، من استبدال شخص بآخر، لقد ذهب البعض إلى اعتبار أن التحوّل في سورية هو كالتحول الحاصل في مصر، بعد تسلم السادات السلطة، في حين أن ما حصل في سورية لا يمكن أن نشبهه بالذي حصل في مصر، بعد رحيل الزعيم جمال عبد الناصر واستلام السادات السلطة، لا يمكن أن يقارن بين هذين الموقفين، فالفارق كبير جدًا، كون أنّ التحول الذي حصل بمجيء السادات كان تحولاً كليًا على كل المستويات، نتيجة رؤية جديدة مغايرة، أو معاكسة، لرؤية سابقة، في حين أن التغيير الذي حصل، بمجيء الرئيس بشار الأسد، كان قد بدأ العمل عليه، أو التوجه إليه، في نهاية عهد الرئيس الراحل حافظ الأسد، وهناك جملة واسعة من المشاهد التي تدل وتؤكد هذه القراءة، بل هذا التحليل، لهذا يمكن الجزم بأن التغيير الحاصل في فترة ولاية الرئيس بشار الأسد الماضية، لم يكن تغييرا بعيدا عن تغيير كان يحصل على مستوى المشروع الكلي في نهاية قيادة القائد الخالد حافظ الأسد، مع الملاحظة بأن إيقاع العمل والتركيز والمباشرة كان أعلى وأسرع، باعتبار أن الرئيس بشار الأسد كان قارئا حقيقيا لجملة المشهد على صعد ومستويات عدة، داخلية وخارجية، وهو الذي وفّر في هذه القراءة الذكية والخاصة والمباشرة زمنا ليس قليلا، كما أنه استطاع

أن يتخلص من ملحقات من التجريب الذي كان يمكن أن يحصل، أو يقع، على جملة واسعة من تلك المستويات والصعد الداخلية..

لقد ظنّ البعض بأنّ سادات جديدا سيحكم سورية، وهو بالتالي سيقوم بفعل قلب كامل لجملة من التوضعات التي مرّ عليها ثلاثون عاما، لقد خلطوا على هذا المستوى بين الانقلاب على الماضي، رفضًا، وبين الانتصار للماضي، تصحيحًا وتنقيحًا، بفعل من الداخل لصالح الداخل، لهذا سرعان ما اصطدم هؤلاء بمأساة حساباتهم، فراحوا يتراجعون مبررين مواقفهم على أساس تلميحات وطنية وثقافية، جرّاء ما سجّلوا من مواقف، فقد تراجعوا لصالح بنية تأكّد لهم بأنّها هي الأقوى والأبقى.

مدخل إلى التغيير..

يشعر، ويستشعر، المراقب والمتابع، أن هناك جملة ظواهر هامة رافقت إيقاع الحراك اليومي، السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي، على مستوى الداخل السوري، خلال السنوات الثلاثة الأخيرة، ولا يمكن لهذه المظاهر، أو الظواهر، أن تخفى، في ظل نمو صعودها وتصاعدها، وفي ظل جملة أخرى من الظواهر والمظاهر التي تبدي، أو تعبر، عن انكماش أو تراجع في أنساق أخرى، كانت في الماضي تطفو على سطح بنية المجتمع، السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية، الأمر الذي يعبر وبالضرورة عن وجود نوع وشكل جديدين من الإنتاج المختلف، يتخلل خطابا استطاع أن يفرز ويعطي مثل هذه المفردات من التغيّر والتغيير، على مستوى ذات الداخل.

وبعيدا عن تقييم جملة هذه المظاهر والظواهر، من التغيير والتغيّر، يمكننا أن نؤكّد أن القدرة والقابلية على التغيير أصبحت موجودة، لا بل إن الشعور العام، على المستوى الفردي والجمعي، للمجتمع الداخلي السوري، استطاع أن يتفهم مثل هذا المفهوم، ويطمح إليه، ويدافع عنه نظريا، كونه استشعر أن هذا الداخل السوري، بكل أنساقه ومستوياته، أصبح بحاجة ماسة لهذا التغيير..

من هنا يمكن أن نفهم أن التغيير المطموح له، غدا مطلبا داخليا، يمكن القول بأنه مطلب شعبي عام، وإن وجدت بعض تلك النتوءات هنا وهناك، والذي يعمل مثل هذا التغيير على ضرب مصالحها، بيد أن هذه النتوءات سرعان ما سوف تتراجع وتنكمش، لصالح بنية قوية، أدركت أن مصالحها العامة، والتي تلتقي مع مصلحة الوطن، سوف تعمل على اجتياز مثل تلك النتوءات الشاذة، بعيدا عن فلسفة الأشياء ومحاولة الدفاع عنها، إذ أن التغيير بدا، كما أنه غدا، حاجة، خاصة وعامة.

ما معنى التغيير:

ماذا يعني التغيير؟ هذا سؤال فلسفي سياسي فكري ثقافي مطروح علينا جميعا، ومطلوب منّا أن ننظر إليه، وفيه، كثيرا، كي نستطيع تحديد معالمه واتجاهاته وأبعاده وأشكاله، ووضع يدنا على المعنى الحقيقي للتغيير الذي نريد أو نعني.

فقد رأى البعض أن التغيير هو تحول جديد في وجهة الفعل السياسي الاقتصادي والاجتماعي والثقافي، وقارنه بما حصل في مصر أيام أن طرح مفهوم الانفتاح، باعتبار أن الانفتاح جاء تغييرا لواقع لم يكن منفتحا، متناسيا أن هذا التغيير لم يكن تغييرا بقدر ما كان تحولا بين شكلين من أشكال النظم والتفكير، في الآن الذي نفهم به التغيير على أنه فعل داخل أكثر منه فعلا خارجيا، بمعنى أن التغيير يجب أن ينال الذات، باعتبار ان الذات هنا تكون ذات الداخل الوطني، بعيدا عن إملاءات خارجية غير بريئة، وغير طبيعية، وهنا نفهم الغير بريئة بأنها إملاءات تؤدي إلى تسيير مصالح لقوى خارجية، والغير طبيعية هي جملة الإملاءات التي تأتي عنوة وليس في سياقاتها المأسورة إلى فعل التغيير الحاصل على مستوى العالم، معرفة وثقافة وفكرا..

وكي نصل إلى المعنى الحقيقي للتغيير الذي نعني لا بد من أن نفرّق بين ثلاثة مفاهيم هامة، تعبّر عن حالة انتقال من معنى سياسي واقتصادي واجتماعي وثقافي إلى آخر، وهذه المفاهيم هي:

التحوّل أو التحويل:

التحوّل أو التحويل هو الانتقال من نظام إلى آخر، انتقالا كليا، ومباشرا.

الانفتاح:

الانفتاح هو الانتقال من النظام المغلق إلى نظام السوق، وكأن نقول هو الانتقال من النظام الاشتراكي إلى النظام الرأسمالي.

التغيير:

أمّا التغيير فهو العمل على إعادة النظر في الآليات والأدوات والسلوك والقوانين المعمول بها ضمن النظام القائم، والاستفادة من جملة التحولات والشروط والنمو الحاصل على مستوى الداخل والخارج..

من هنا يمكننا القول بأن التغيير هو الحفاظ على ذات النظام مع إعادة النظر في آليات وأدوات وسلوك الواقع المعمول به، إضافة إلى الإستفادة من جملة الشروط والتحولات والنمو المعرفي الحاصل على مستوى الداخل والخارج، باعتبار أن الداخل أسيء له بجملة من الاستطالات على حساب القانون، والخارج الذي ظل بعيدا عن التأثير في الداخل بسبب الآليات

والقوانين التي حالت دون وصول المنتج الخارجي إلى مفاصل الداخل، والتأثير به.

لهذا فإن التغيير يجب أن لا يأتي تغييرا من أجل التغيير، بقدر ما يكون استجابة لإلحاح ومتطلبات الواقع، خاصة حين يمكننا فهم وإدراك حجم الأثر الذي تركته، أو الذي فعلته، جملة قوانين وقرارات وتشريعات وتعليمات وأعراف، وحجم الكبح الذي تؤديه ثقافات وآليات وأدوات قديمة، في مسيرة نمو الدولة وملحقاتها المؤسساتية..

مفهوم التغيير في مشروع الرئيس بشار الأسد:

لقد تطابق مفهوما التطوير والتغيير في خطاب الرئيس بشار الأسد، لذلك فإن التغيير يجيء وفي أحيان كثيرة جزء من التطوير، كما أن التطوير يجيء كذلك، لهذا فإن البحث في مفهوم التطوير يكاد أن يكون ذاته في مفهوم التغيير.

لعل مفهوم التغيير والتطوير كان واضحا في ذهن السيد الرئيس بشار الأسد، ومنذ يومه الأول في تسلم مهامه الدستورية، وهذا ما كان جليا في توجهاته، باعتبار أنه ما أتيح له أن يبدأ أيامه الأولى، إن لم نقل لحظاته الأولى، حتى سرعان ما ألمح لذلك، بقوله:

(إن نهج القائد الأسد كان نهجا متميزا وبالتالي فإن الحفاظ على هذا النهج ليس بالأمر السهل وخاصة أننا لسنا مطالبين فقط بالحفاظ عليه وإنما بتطويره أيضا وهذا يحتاج إلى الكثير من العمل والجهد على المستويات كافة بهدف البناء على ما تحقق في عهده الزاهر لنعلي البنيان ونضاعف الإنجازات)[1]..

وهنا علينا أن نلاحظ جيدا أن مفهوم التطوير الذي أراده الرئيس بشار الأسد، لم يكن بعيدا أو منسلخا عن نهج القائد الخالد حافظ الأسد، خاصة حين يشير إلى أن هذا النهج الذي أرسى قواعده الرئيس الخالد كان نهجا متميزا، ولكنّه دخل مدخلا آخر للتطوير في ذات النهج من خلال العمل على الحفاظ عليه نهجا متميزا والعمل على تطويره...

كما أن الحفاظ على المنجز التاريخي، وربطه بالممكن إنجازه لاحقا، يؤكد ويرسم مفهوم التطوير والتغيير المنشود، ويسير إلى فعل التواصل والمواصلة، وينفي وجود نقطة القطع مع الماضي، سياسيا واقتصاديا واجتماعيا..

والرئيس بشار الأسد يدرك حجم الجهد الذي سيرافق مثل هذا التطوير والحفاظ على هذا المنجز، وهو يدعو إليه بهدف البناء ومضاعفة الإنجازات، وهنا يتضح بعد جديد في فعل التطوير الذي مال إليه سيادته، وهو البعد الذي كنا قد

حددناه سابقا، في معرض حديثنا وفهمنا لمفهوم التغيير، إذ أنه اعتبر أنه يحمل مشروع تغيير جديد في المشروع الأساس، المشروع الذي أنتج كل هذه الإنجازات، وهو لن يخرج منه أو عليه، لكنّه سوف يعمل من خلاله، بالتركيز على جملة آليات جديدة وسلوكيات أخرى، والاستفادة من قفزة المعارف التي أنتجها العالم، وعلى كافة المستويات.

هذا بالنسبة لأساس التطوير والتغيير الذي عمل عليه سيادته، هذا بالنسبة للمعنى والسمت الذي يمضي إليه مشروع التغيير الذي بشّر به، لكن ولو دخلنا قليلا في المعنى الأوسع لهذا المفهوم لوجدنا أن سيادته يوضح رؤيته بشكل أوسع وأوضح.

آليات التطوير:

لم يكن في خطابه بعيدا عن النزول إلى تحديد آليات وأهداف ومفاصل التطوير الذي يطمح إليه، معتبرا أن هذا التغيير والتطوير أصبح هاجسا وطنيا، بالمعنى الإيجابي لمعنى الهاجس، كما أنه لم يعمل على مصادرة مجال دون الآخر، بغية التغيير، بمعنى أنه اعتبر أن مشروع التغيير يجب أن يصل إلى كل المجالات بغية الوصول إلى المطموح الذي ننشده، حيث يقول:

(وبما اننا نتحدث عن التطوير والذي هو باعتقادي الهاجس الأساسي لكل مواطن في هذه البلاد في مختلف المجالات فلابد أن نعرف بأي اتجاه نسير وأي الطرق أفضل وما هي النتائج المطلوبة وغيرها من الأسئلة التي تشكل اجوبتها البوصلة التي تحدد موقعنا الحالي والمستقبلي وعلينا من اجل الوصول إلى ما نبتغيه ان نتحرك بالتوازي وبنفس الوقت على ثلاثة محاور اساسية.)[٢]..

ويحدد هذه المحاور الثلاث بكل هدوء وموضوعية فيقول:

(المحور الأول ويتضمن طرح افكار جديدة في المجالات كافة سواء بهدف حل مشكلاتنا ومصاعبنا الراهنة او بهدف تطوير الواقع الحالي.)[٣]..

وهو هنا يشير إلى أن هناك جملة من المشاكل والمصاعب التي تواجه البلاد، وليس من مهمته أن يحدد أكثر أو يتوقف أكثر عند هذه المشاكل والمصاعب، باعتبار أن هناك مؤسسات وأفرادا مختصين يجب أن يعملوا على طرح هذه الأفكار الجديدة والتي ستطال المجالات كافة في سبيل إزالة المصاعب والتخلص منها، وفي سبيل تطوير الواقع الذي نعيش.

في حين أنه يحدد المحور الثاني بقوله:

(المحور الثاني يتضمن تجديد افكار قديمة لا تناسب واقعنا مع إمكانية

الاستغناء عن أفكار قديمة لا يمكن أن نجددها ولم يعد ممكنا الاستفادة منها بل أصبحت معيقة لأدائنا..)[٤]..

هنا يقترب سيادته من معنى التغيير الأوضح، في قوله (تجديد أفكار قديمة لا تناسب واقعنا)، وهو المعنى الأقرب لمحاولة اجتياز مجموعة من الأفكار التي كانت وليدة مراحل سبقت، ونتيجة لتغيير حاصل على مستوى بعينه، لا بد من العمل على تجديد هذه الأفكار، وهنا علينا ملاحظة مفردة (أفكار) باعتبار أن الأفكار تبقى تنتمي لمفهوم (المتغير) ولا تعني أبداً، أو تدخل في، مفهوم (الثابت)، كون أن سيادته أبقى على (الثابت) بالمعنى التاريخي والسياسي له، باعتبار أن (المتغير) تحدده وترسمه جملة شروط وظروف محيطة، في الآن الذي نرى به أن (الثابت) تحدده وتصيغه وتفرزه الحقوق والواجبات.

وهو لم يكتف بهذه الإشارة إلى محاولة تجديد جملة من هذه الأفكار، لكنّه يذهب إلى الاستغناء عن بعضها، باعتبارها: (قديمة لا يمكن أن نجددها ولم يعد ممكنا الاستفادة منها بل أصبحت معيقة لأدائنا..)، وهو بذلك يكون قد فتح الباب على مصراعيه في مفهوم التغيير الذي يطرحه، من حيث أنه جعله (تغييراً) مفتوحاً على فضاء واسع غير مشروط أو محدود، إلا بشرط الحرص على (الثابت)، والذي يبدو واضحاً وجلياً في الخطاب السياسي السوري، وعلى مدى أكثر من ثلاثين عاماً..

في حين أنه في المحور الثالث يقفز إلى دائرة جديدة، معتبراً أن التجديد في الأفكار لم يكن تجديداً مرهوناً بالفترة الزمنية التي رفع بها شعار التغيير، بقدر ما يربطه بفترات زمنية سابقة، حين يؤكد أن هناك جملة من الأفكار القديمة والتي تمّ تجديدها في أوقات سابقة لكنّها قد تكون بحاجة إلى تطوير، كي تتناسب مع الأهداف الحاضرة:

(المحور الثالث ويتضمن تطوير أفكار قديمة تم تجديدها لكي تتناسب مع الأهداف الحاضرة والمستقبلية..)[٥]..

لكنّه يبقى الحريص والمشدود دائماً إلى لغة الأرقام وكفاءة الإنتاج، حين يضيف مباشرة، بأن:

(كل عمل بحاجة إلى قياسات لتحديد نسبة الإنجاز والتقدم فيه ومن المفيد في هذا المجال أن نستند إلى مجموعة من المعايير)[٦]..

وهو هنا لا يقرّ بمعيار واحد في تحديد نسبة الإنجاز والتقدم، فهو يذهب إلى إيجاد مجموعة من المعايير القادرة على رسم وتحديد مشهد الإنجاز والتقدم.

أدوات التطوير واستراتيجيته:

يحــدد الرئيس بشــار الأســد أدوات التطوير ويعتبـر المساءلة الأس الأراس في هذا فعل، باعتبار أنها:

(عملية متكاملة لا يمكن تجزئتها)[٧]..

ويحدّدها بأنها:

(تبــدأ من القــاعــدة والأســاس ومن الوحدة الصغرى في المجتمع وهي المواطن وتنتهي بالمؤسسات)[٨].

ويرى بـأنه إذا لـم يقم كل مــــواطن بمساءلة نفسه ومراقبة ذاته ومراجعتها بشكل يومي، أو شبه يومي، سوف يبقى هناك قصور في هذه العملية، يؤدي إلى قصور كلي في تحقيق مهامها، حيث يوضح ذلك بقوله:

(فإذا لم يقم كل مواطن بمساءلة نفسه ومـراقبـة ذاته ومـراجعتها بشكل يومي أو شبه يومي فستبقى هذه العملية قاصرة عن تحقيق مهامها)[٩].

وفي ظل هذا الفهم على مستوى الذات، وسحبه كي يستفاد منه على مستوى المجتمع، لا بل على المعنى السياسي والاقتصادي والثقافي للمجتمع، يفيد بأن سيادته ربط العام بالخاص، والوعي الفردي بالوعي الجمعي، بحيث يتدخل التغيير في بنية المجتمع على مستوى الأفراد، وهذا يؤكد أن مشروع التغيير الذي يرمي إليه سيادته، وفي إحدى أهم زواياه، أنه يطالب في خلق تربية جديدة، أو إعادة النظر في الخطاب التربوي الذي يحدد سلوكيات الأفراد والأشخاص، وهو الخطاب الذي غدا بشكل أو بآخر معنيا بالتغيير، بحيث يغدو أداة هامة من أدوات التغيير ذاته.

ونراه يتــدخل أكــثــر في الخــاص والشخصي على مستوى الفرد، في تحديد وعيه الذي يعتبره أداة متقدمة في فعل التغيير، من خلال التوقف عند الضمير:

(وهنا يأتي دور الضمير وأهمية الوجدان وضرورة تنقيتهما من الشوائب التي تعلق بهما وتعكر صفاءهما بفعل الظروف والعوامل المختلفة التي تحيط بكل فرد.)[١٠]..

فهو يزج الضمير والوجدان في هذا الفعل، معتبرا إياهما الأداة الأهم في المساءلة، المساءلة التي تؤدي إلى إعادة رسم نمطية جديدة للحياة العامة، وإلى تلاقح إيجابي ومباشر بين الخاص والعام للأفراد، والذي ينعكس بدوره ليشكل الوعاء الواسع الذي يحدد ضمير ووجدان المجتمع، فهو ضمير ووجدان يجب أن يتحمل مسؤولياته الجديدة، هذه المسؤوليات التي تساهم في فرز وتشكيل التغيير المطلوح له..

ومن المساءلة على المستوى الفردي ينتقل إلى المساءلة على المستوى الجمعي، وبعد أن يكون قد انتهى من تحديد المساءلة الذاتية والتي تدخل في تربية الأفراد، ينتقل لمسة هذه المحاسبة والمساءلة، فهو رغم تركيزه على تشكيل حس ووعي ذاتي فردي جديد، يتوازى مع مهام وطنية جديدة، لا ينسى الدور المؤسساتي والأداة المؤسساتية التي تقوم بهذا الدور:

(أما المستويات الأخرى في المساءلة والمحاسبة والتي تقوم بها المؤسسات المختصة فتكون للحالات التي يكون فيها شذوذ عن القوانين والأنظمة)[11].

ونرى أنه يربط المساءلة والمحاسبة المؤسساتية بالحالات التي يكون بها شذوذ عن القوانين والأنظمة، وهي حالات من المفترض:

(أن تكون محدودة في حال وجود الرقابة الذاتية)[12].

ونلاحظ أنه يجزم بأن هذه الحالات من الشذوذ عن القوانين والأنظمة سوف تكون محدودة، في ظل فعل ربط بين ما يمكن أن يحصل على مستوى إعادة تربية ونمطية الذات، على مستوى المساءلة، وبين ما يمكن أن يحصل من مساءلة ومحاسبة على المستوى المؤسساتي، بحيث يسوق هذا الربط إلى محدودية في حالات الشذوذ والخروج عن القوانين والأنظمة النافذة، الأمر الذي يؤدي أخيرا إلى أداء مؤسساتي أفضل:

(وبالتالي يكون أداء المؤسسات أفضل وأسلم)[13].

ويصف هذه العملية بأنها:

(عملية مستمرة تتوازى مع العمل أو تكون جزءا منه لأن الخطأ بأشكاله المختلفة سيبقى ملازما للحياة وإذا لم يعالج فإنه يتفاقم)[14].

وهو يحدد الهدف من هذا العلاج بأنه:

(لا يهدف إلى الانتقام والتشفي وإنما للردع)[15].

ويضيف بأن المقصود في هذا العلاج ليس صاحب الخطأ فقط:

(ولا يقصد به صاحب الخطأ فقط بل كل من يخطر في باله أن يقع فيه)[16].

إنها أداة جديدة على مستوى المحاسبة والمساءلة، اتخذت جانبين هامين، الأول يتعلق بالمستوى الفردي التربوي، والثاني يتعلق بالمستوى المؤسساتي، وهما فعلان متلازمان في مشروع التغيير الذي تتحدد استراتيجيته أيضا بشكلها الدقيق والواضح، حيث تربط وتتصل بأدوات التغيير..

استراتيجية التغيير:

يحدد هذه الاستراتيجية استنادا إلى ما سبق حيث يقول:

(بهذا الشكل نستطيع أن نضع استراتيجية عامة للتطوير تكون إطارا محددا للخطوات والإجراءات الواجب اتخاذها في سبيل تحقيق أهداف هذه الاستراتيجية)[17].

لكن سيادته لا يفصل ما يطرحه نظريا عن مجريات وخطوط ومفاصل الواقع، الواقع التاريخي، السياسي والاقتصادي والاجتماعي، والذي لا يمكن القفز فوقه، فهو لا بد من أن يكون مأخوذا به، وبشكل رئيسي، في أي فعل تغيير منشود أو معمول له، وبالتالي فإن هذه الظروف وهذا الواقع التاريخي يتدخل في رسم ملامح هذه الاستراتيجية:

(إن بلدنا قد مر بظروف تاريخية وسياسية واقتصادية واجتماعية مختلفة خلال القرن العشرين وكانت هذه الظروف تتغير بشكل متسارع ومازالت وقد غلب على هذه التغيرات الطابع السياسي واستطاع القائد الأسد خلال العقود الثلاثة الأخيرة وضع استراتيجية عامة تلبي الحاجات المختلفة للتطوير المنشود شملت مختلف القطاعات وقد برهنت الاستراتيجية السياسية التي وضعها وأشرف على تنفيذها ومتابعتها وتطويرها عن نجاحها الكبير حتى يومنا هذا)[18]..

وهو يؤكد في هذا المقام أن الرئيس الخالد حافظ الأسد كان قد وضع استراتيجية ناجحة خلال العقود الثلاث الماضية، وهي استراتيجية ناجحة استطاعت أن تلبي الحاجات المختلفة للتطوير المنشود خلال تلك المرحلة، وهو ما يفيد بأن سيادته يريد أن يعمل على تطوير هذه الاستراتيجية، خاصة حين يمكن ربط هذا التغيير في الاستراتيجية مع أدوات المحاسبة والمساءلة، آخذا بعين الاعتبار جملة المتغيرات، السياسية والاقتصادية والاجتماعية، التي مرت على العالم..

إنه فصل من التأكيد على أن فهمنا السابق للتغيير كان صحيحا، فهو إذا، وكما أسلفنا، ليس تحولا أو انفتاحا، بالمعنى السياسي لهذين المفهومين، بقدر ما هو تغيير في السلوك والأدوات والآليات، ومحاولة تفعيل لإمكانيات أخرى كامنة في المجتمع، والاستفادة من المنجز المعرفي على مستوى العالم.

المشاركون في فعل التغيير والتطوير:

إن مشروع مأسسة الدولة الذي يعمل عليه السيد الرئيس بشار الأسد، جعله ينظر إلى الدولة بصيغتها المفتوحة على كامل المجتمع، بعيدا عن النظر إلى

المجتمع من حيث شرائحه المتباينة، باعتبار أن تقديم مفهوم الدولة على جملة المفاهيم الأخرى، المكونة لمجتمع الدولة، يجعل **الدولة حاملة لهذه الشرائح، وليست الشرائح التي تحمل الدولة - والشرائح** هنا بمعناه السلبي - وهو فهم متطور ومتقدم على كل المستويات..

وفي ظل مفهوم الدولة، **بمعناها المؤسساتي، تصبح الدولة، من خلال مؤسساتها، على مسافة واحدة من جميع مكونات هذه الدولة، وأطيافها، وهي بالتالي لم تعد خاضعة، أو يمكنها** أن تخضع، لفعل **مكون منها** دون الآخر، كما أنها **لم تعد تخضع لمكونات المجتمع بقدر ما هي خاضعة لمكونات الدولة**، باعتبار أن مكونات **المجتمع تصبح بعيدة** في توضعها عن **مكونات الدولة، فتصبح** شرائح المجتمع ملتقية في مؤسسات الدولة، وأي مشروع تغيير يجب أن يكون في مؤسسات الدولة، الأمر الذي يؤدي إلى حراك جديد بعيد عن مفهوم الشرائحية، أو المكونات الاجتماعية، وهو الأمر الذي ألح إليه السيد الرئيس بشار الأسد، حين قال:

(لا ينبني المجتمع ولا يتطور ولا يزدهر بالاعتماد على شريحة أو جهة أو مجموعة بل يعتمد على تكامل عمل الكل في المجتمع الواحد ولذلك أجد من الضروري جدا أن أدعو كل مواطن لكي يشارك في مسيرة التطوير)[19]..

لهذا فإن مفهوم الدولة القبيلة والدولة الدينية والدولة الحزبية هي دولة سابقة لمفهوم الدولة المؤسسة، وهو آخر ما وصل له الفكر السياسي على مستوى تطور مفهوم الدولة، كما أنه أرقى حالات الدولة الحالية، فالشريحة والطائفة والدين والحزب والمؤسسات جميعها يحكمها مفهوم قانون ونظام ودستور الدولة.

ربط مفهوم التغيير بالثورة:

لا تستطيع أي ثورة على مستوى التاريخ البشري أن تقدم مشروعها في التغيير بشكل كلي، ودفعة واحدة، لمجرد أنها وضعت على محك الفعل اليومي، فالثورة على المستوى الفكري - النظري يمكنها أن تقدم مشروعها في التغيير، بيد أنها غير قادرة على أن تطابق الواقع على حجم تصوراتها في هذا المشروع، لهذا نرى أن المشروع الثوري حتى يتموضع في الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي لا بد له من فترة زمنية قادرة على نقله إلى هذا الواقع، ثم لا يكفي أن نقول عن أي مشروع ثوري أنه ثوري ما لم يقم هذا المشروع بالتغيير المستمر والمتواصل، نهوضا نحو الأفضل، ولعلها النقطة التي أشار إليها السيد الرئيس بشار الأسد حين رأى بأن الثورة الفعلية هي:

(الواقع المستمر الذي يلي ذلك التغيير الجذري وهي حالة متواصلة من التطور والتقدم نحو الأفضل)[20].

فالتغيير مربوط بالثورة، لهذا فإن الثورة حالة حية تتحرك في الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي، وهي أيضا فعل التغيير المستمر الموازي لأي ظروف وشروط جديدة، ضمن دائرة الثابت الأساس الذي قامت عليه أصلا..

من هنا نرى أيضا أن ربط مفهوم التغيير بالثورة، وبالمشروع الثوري، وأن الثورة لا تؤدي مهامها ما لم تؤد هذا التغيير المستمر، وهي تموت وتنتهي بموت وانتهاء هذا التغيير، كما أن هذه المساحة الزمنية المعطاة في اختبار المشروع الثوري، على سلّم التغيير، هي نقطة تضاف إلى سمات مشروع التغيير الذي ركّز عليه الرئيس بشار الأسد.

كما أن روح الثورة باقية في فعل التغيير المستمر، مثلما أن أسلوبها ينعكس على مادتها الأساسية، ومادة الثورة الأساسية هي الجماهير، وهدفها أيضا، من هنا نستطيع أن نقول بأن هناك إجماعا واسعا على مشروع الرئيس بشار الأسد، وهو المقياس الحقيقي والمعيار الأهم في تحديد روح الثورة وأسلوبها، من خلال تغيير نفسية المواطن، ومن خلال تحقيق جزء من طموحاته وتطلعاته، لقد أدرك أن جزءًا هاما من مطالبه قد تحقق، وأن هناك قناعة مطلقة لديه بأن المزيد موضوع على سلّم أولويات التغيير والتطوير.

فالثورة فعل تغيير مستمر. يتوازى هذا التغير وهذا الاستمرار طردا مع حراك المجتمع على مستوى الزمن، وهذا ما يؤكده الأستاذ فائز إسماعيل الأمين العام لحزب الوحدويين الاشتراكيين في سورية، بقوله:

(إن الذين أصروا على اعتبار الثورة هي التغيير الجذري نقول لهم هذا مبالغ فيه، إلا أنه يمكن اعتبار خطوات التغيير المستمرة مع الجماهير تحقق الثورة، وتنجزها..)(*)..

ويرى الأستاذ إسماعيل أن:

(الثورة لا تتوقف ما دامت جماهيرها مؤمنة بها، ومادام الشعب ملتزما بها، كون أن الثورة لا تكون من فوق، إنها محمولة على أكتاف القاعدة مع ثائرها الرمز)(**)..

لهذا أدرك السيد الرئيس بشار الأسد أن التغيير يجب أن يتجه نحو مادة الثورة وهدفها، فكان قاعديا في توجهاته، ولم يكن فوقيا، يمارس تنظيرا لا يتقاطع ومصالح الجماهير، لقد كانت وجهته الأولى الجماهير، والالتزام بها إيمانا منه بأن التغيير يأتي من التركيز على مادة الثورة وهدفها، في التجدد والتطور والعطاء والاستمرار.

ربط التغيير بالماضي وثوابته:

والحديث عن الثورة وعلاقتها بالتغيير

يقودنا، وفي جزء حي ومباشر منه، إلى الحديث عن الثابت الثوري، فالثورات البشرية عبر التاريخ لها ثوابتها، وهي بالضرورة ليست واحدة، وإن التقت في أجزاء هامة منها، فالثابت الثوري يصبح زمنيا على قائمة ثوابت الماضي، غير أنه واقعيا، ورغم التغيير الحاصل على مستوى الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي فإنّه يبقى ثابتا، ويظل حيًّا في حيثيات ومعطيات وإفرازات وقرارات هذا الواقع..

فالثابت الثوري الماضي، في المشروع الثوري الحي، والذي يبقى يحمل فعل تغيير مستمر ودائم، هو الثابت الثوري اليوم، وهو الثابت الثوري في الغد، مع ملاحظة إمكانية تحريك هذا الثابت في جملة ظروف وشروط الواقع المتغير، على أغلب المستويات، في حين أن أهداف الثورة هي في حالة متجددة دائمة ومستمرة، وهي أهداف قادرة على أن تحمل مفهوم التغيير والتطوير بمعطياته الجديدة، هذه المعطيات التي تتناسب مع الحاضر، وتتطلع إلى المستقبل.

إن الرئيس بشار الأسد انطلاقًا من فهمه لمعنى التطوير والتغيير وعلاقته بالماضي، ربط هذا التغيير بمفهوم الثورة، واعتبر أن التغيير والتطوير سمة أساسية من تطلعات وأهداف الثورة الناجحة، حيث يقول:

(وبما أن حاضرنا هو استمرار لماضينا فإن التطور الذي نسعى إليه اليوم هو نتيجة او استكمال لما هدفت إليه الثورة في ذلك الحين. وهو التطوير بأوسع معانيه والذي ينطلق من ظروف تلك الفترة والذي يستمر اليوم بمعطيات تتناسب مع الحاضر وبنظرة ترنو إلى المستقبل)[٢١].

إذا التغيير والتطوير لا يمكن فصلهما عن حركة الثورة ذاتها، وهما جزء رئيسي من حركة الثورة في الواقع، لا بل إن التغيير والتطوير هما المقياس الحقيقي والمعيار الدقيق لمدى فعل وتأثير الثورة في الواقع السياسي والاقتصادي والاجتماعي.

معوقات التطوير:

وكي يكون مشروع التغيير والتطوير الذي قدّم له الرئيس بشار الأسد مشروعا متكاملا، ورؤية متجانسة وواقعية، فهو لم يغب عن ذهنه أن هناك جملة من المعوقات التي سوف تقف في وجه التغيير أو التطوير، باعتبار أن التغيير سوف يجيء على جملة من المصالح التي تكرست في ظل حقب زمنية سابقة، هذه المصالح رعت وترعرعت واستطالت وتزايدت أفقيا وعموديا، الأمر الذي سوف يفرز أنساقا أو أفرادا تدافع عنها، وبالتالي فإن هؤلاء الأفراد والأنساق سوف تكوّن فعلا عكسيا في وجه التغيير المنشود..

وسيادته اقترب من مرآة الواقع أكثر،

حين اعتبر أن هذا الفعل الذي يمكن أن يطفو على سطح الحراك العام لفعل التغيير، فعل الردّ الآخر، إنما هو ردّ الفعل الانتهازي المصلحي، والذي عبّر عنه بقوله:

(وكما هي الحال في أي مسيرة تطوير .. قد تكون الشوائب والمعوقات كثيرة وتبقى معالجتها ممكنة.. ولكن الأكثر ضررا وتشويشا هي الانتهازية التي تزين المصالح الخاصة تحت عناوين المصالح العامة)[٢٢].

وهنا يمكن أن ننتبه لهذه الإشارة **الرائعة، الا وهي في التقاطه للضرر والتشويش الذي سوف تنتجه الانتهازية، تلك التي تزين المصالح الخاصة،** والتي سوف تعمل على محاولة ترتيب صالحها الخاص على أنه صالح عام، وهو فعل عكسي خطير يشكل أهم معوقات التغيير.

ويحدد الضرر الذي يمكن له أن يتضح ويؤثر أكثر في سياق التغيير، إنها الانتهازية عندما تمتزج بالعقد النفسية أو الأنانية أو الحقد أو الفساد المادي والأخلاقي، أي أن الثورة خلال سيرها في عروق ومفاصل المجتمع، وخلال تصديها لجملة ظواهر سياسية واقتصادية واجتماعية، فإنها قابلة أيضا للاختراق من قبل طاقات انتهازية مريضة على أكثر من مستوى، وهي بالتالي سوف تكون أداة كبح مباشر في وجه التغيير الذي تطمح له الثورة ذاتها.

(وضررها يظهر بصورة خاصة عندما تمتزج هذه الانتهازية بالعقد النفسية أو بالأنانية أو بالحقد، أو بالفساد المادي والأخلاقي..)[٢٣].

من هنا نرى أن من أهم معوقات التغيير أو التطوير ظهور مثل هذه الأنساق أو الأفراد، التي سوف تعمل على ميل الثورة نحو جملة مصالحها الخاصة، والتي سوف تعمل على كبح جماح فعل التغيير؛ هذا التغيير الذي سوف يؤدي إلى ضرب تلك المصالح، علما أن هذه **الانتهازية والضرر** الذي يمكن أن تنتجه سيكون **الفساد أهم** عناصره، باعتبار أن **هناك حلقة سوف** تكون متكاملة ومغلقة إذا ما أعطيت مساحة زمنية معقولة كي تمرر غاياتها ومصالحها، وكي تؤسس لنهجها القائم أصلا على حالة فساد متقدمة.

ولهذا فإن الفساد إضافة إلى كونه حالة من الانتهازية التي تنتج ضررا، يكون الفساد المادي والأخلاقي أهم إفرازات هذا الضرر، الأمر الذي يستدعي مواجهة جريئة وشديدة، وإلا فإن هذه الحالة يمكن أن تأخذ مع مرور الزمن جزءًا من المشروعية الاجتماعية، وبالتالي المشروعية الأخلاقية، الأمر الذي يمكن بعدها أن يكون فعل التغيير فعلا قدرة الإنتاج فيه تطابق الصفر.

لقد توقفنا عند هذا العائق الهام، علما

أن هناك مجموعة أخرى واسعة من المعوقات، وهي متنوعة ومتعددة، بيد أن المعوق الأخلاقي نراه الأهم، باعتبار أنه يحمل خصوصية عالية، في عملية التغيير، خاصة إذا كان هناك شكل من أشكال الكبح الذي أنتجه فعل أخلاقي معين على مستوى الدولة ومؤسساتها، وهي الحالة التي توقف عندها سيادته، حين أكد على أن أية عملية للتطوير:

(لا ترتكز إلى الأخلاق تصبح ضارة)[٢٤].

باعتبار أن أساس التغيير أصلاً الأس الأخلاقي، مثلما هي الثورة أيضاً، فإن الأس الأساس للثورة الفعل الأخلاقي، وما دام هذا الفعل هو الحامل الحقيقي لتطلعات الثورة ما دامت الثورة موجودة ومستمرة ومنتجة في الواقع.

البعض الذي حاول الالتفاف على التطوير والتحديث:

وفي ظل نمو الظواهر والحالات التي تقف في وجه فعل التغيير، فقد يظهر **نسقان أو خطان في حركة التغيير**، الأول حامل للتغيير والآخر محمول على التغيير، الأول يعمل من أجل مشروع التغيير القيمي الأخلاقي، والآخر يريد أن يركب في عربة التغيير، وهذا الآخر سرعان ما يمكن أن يفسد عليك وعاء التغيير، حين لا يستطيع أن يحدد المعنى والمرجعية الأساسية لفعل التغيير المنشود، فهو حين يركب عربة التغيير يصبح ينشد لهذه العربة بعيداً عن علاقتها بمفاصل الواقع، وبعيداً عن فهمه لهذه العلاقة، وهو ما حصل واقعياً على مستوى الداخل السوري، حين خرج البعض، ومدّ رأسه من العربة مطبلا ومزمرا للتغيير وللتطوير والتحديث رافعا علمهما، معتبرا أن التغيير والتطوير هي اللافتة التي سوف يكون في ظلها كل من سوف يبقى في هذه العربة، وللحفاظ على مكان له بها فلا بد من أن يرفع هذه اللافتة، وهي النقطة التي جعلت السيد الرئيس يتدخل في هذه الظاهرة، ويرد عليها بكثير من المباشرة والوضوح:

(أنا قلت وأقولها دائماً أنني لم اخترع في موضوع التطوير والتحديث كل دولة تطور وتحدث بشكل يومي، وهذه هي الطريقة الطبيعية، هذه هي سنة الحياة، والتطوير والتحديث يتم بشكل يومي ومستمر)[٢٥].

ويرى أن هناك خلطاً حدث على هذا المستوى، الأمر الذي دفعه إلى القول أيضاً:

(اختبأوا خلف التطوير والتحديث وصارت بنظرهم حتى الأشياء التي كانت ضارة بالبلد تطويرا وتحديثا..)[٢٦].

إنها العربة التي أشرنا إليها، والتي أراد

أن يتوقف عندها سيادته، جزما منه بأن الأمر مكشوف والتطوير والتغيير لا يحتاج إلى لافتات وشعارات عريضة وبراقة، إنه مواجهة للواقع، وتحد له، في سبيل النهوض به، على جملة من المبادئ الأساسية التي تكون أصلا جزء من أهداف ومبادئ الثورة.

الخصوصية والتطوير:

(فكل شعب في العالم يتميز بكل تأكيد عن كل الشعوب الأخرى بأشياء معينة حتى لو كان يملك نفس القومية والجغرافيا لكن ليست هذه هي النقطة.. النقطة هي هل تكون الخصوصية عائقا في وجه التطوير أم لا؟!!..)[27]

بهذه الكلمات أدخل السيد الرئيس بشار الأسد مفهوم الخصوصية في عملية التغيير والتطوير، وبهذا السؤال انتقل إلى مفهوم جديد يمكن أن يقف منه كثيرون مواقف متباينة، وهو حين تكون الخصوصية حائلا في وجه تغيير بعينه، أو لا تكون، وبالتالي فإن هذه الخصوصية سوف تتحول هي الأخرى إلى فعل إعاقة في وجه التغيير الذي نطمح له.

ويرى سيادته أن البعض يستعمل أيضا هذا المفهوم هربا من المسؤولية:

(هناك طبعا من يستخدم كلمة خصوصية لكي يهرب من المسؤولية فيقول لدينا خصوصية وبالتالي لنبتعد عن هذا العمل)[28].

لكنه يقر بهذه الخصوصية ويتعامل معها من منظاره ورؤيته الأقرب إلى الصواب:

(لنأخذ إجراء معينا أو تشريعا معينا في دولة ما. هذا التشريع قد يصلح في تلك الدولة وقد يصلح هنا في سورية. لكن ربما كان هذا الإجراء في تلك الدولة هو أفضل شيء وربما يكون في سورية جيدا لكن ليس هو الأفضل. وبالتالي الخصوصية هنا هي أن نعدل هذا الإجراء لكي يصبح افضل بالنسبة لسورية)[29]..

وبالتالي فهو يعرّف الخصوصية على أنها:

(هي أن تحصل على افضل شيء يناسب هذا البلد)[30]..

هذا هو المشروع، هو أن تعمل على الاستفادة من كل المفاهيم التي يمكن أن تصب في مصلحة حراكك العام، وهو أن توظف هذه المفاهيم في معناها الإيجابي، لا أن تعمل على ليّها، ولكن أن تسحبها من مساحات مختلفة معك وتعمل على التعامل معها وفق شروطك وظروفك، وأن تضعها في سياقها العام الذي يقود أخيرا إلى صالح عام.

أخيراً:

ندرك أن هذا الموضوع سوف يكتب به

الكثير، ولا بد من أن يكون ذلك، كوننا بحاجة ماسة إلى تأسيس مرجع فلسفي نظري لفعل التغيير الذي نحن بصدده، وإلا سوف نبقى نواجه بعشرات الأسئلة التي تتجها سيرورة وصيرورة التغيير، وسوف نظل مشغولين ببعض الثانويات التي تستيقظ نتيجة فعل التغيير ذاته، باعتبار أن هناك بنى أخرى كانت تستفيد من بعض القائم الذي اقترب منه التغيير، الذي سوف يؤدي إلى نوع من الاضطراب الصحي والطبيعي في تصاعد مثل هذه المواجهات، غير أنه من غير الصحي أن لا نتصدى لإنتاج فلسفة تغيير وتطوير نحدد بها المبادئ والسمات والحدود والآليات.. الخ، مع ربطها بثابت الثورة وأساس النظام وخصوصية التاريخ والجغرافيا.

وكوني أنتمي إلى مكون من مكونات هذه الدولة، على المستوى الحزبي، فإنني ومن موقعي في حزب الوحدويين الاشتراكيين، كاتبا وباحثا وشاعرا، ومديرا لتحرير صحيفة الحزب، وعضوا في مجلس الشعب عن هذا الحزب، أرى، أن ما جاء به الرئيس بشار الأسد، وعلى هذا المستوى بالذات، أعني، مشروع التغيير والتطوير والتحديث، بأنه الحلقة المفقودة التي كانت بحاجة لها سورية، خلال السنوات الأخيرة من عهد الرئيس الخالد حافظ الأسد، باعتبار أن الرئيس الخالد كان قد استشعر بالخطر على جملة مستويات -كما أسلفت- كيف لا وهو قارئ التاريخ جيدا، ماضيًا وحاضرا ومستقبلا.

كان قد استشعر بأن الواقع، على مستوى الداخل، بحاجة إلى مشروع رفد، ولا أقول مشروع غير ذلك، باعتبار أن مشروع الرفد هذا لا بد وأن يكون خارجا من روح مشروع الثورة الأساس، الثورة الأم، كون أن الواقع المشهود أصبح يحتاج إلى مجموعة من الإجراءات التي تحول دون الانزلاق أكثر، في أكثر من مفصل من مفاصل الدولة، وقد ابتدأ فعلا بهذه الإجراءات، ولم يكن السيد الرئيس بشار الأسد بعيدا عنها في حينه، لهذا فإن سيادته لم يأت بغريب، ولم يكن طارئا في مشروعه على مشروع الثورة الأساس، لقد قدّم الطبيعي الذي يجب أن يكون في سياق نمو الدولة، استنادا إلى مشروعها الثوري..

إنه مشروع التغيير الذي خرج من مشروع عباءة الثورة، لم يغادرها ولم يبتعد عنها، ولهذا، كما لغيره، إننا نستطيع أن نقول بأنه لم يكن هناك تغيير في المشروع، ونعني بالمشروع هنا مشروع الثورة الرئيسي، لكنّه كان مشروعا في التغيير، على أرضية ثوابت مشروع الثورة..

ومنه نخلص إلى السؤال المشروع هل مايقوده السيد الرئيس بشار اليوم هو تغيير في المشروع!!.. أم أنه مشروع في التغيير!!؟.. والجواب يكون، نتيجة ما سبق، أن سيادته يعمل على مشروع في التغيير!!..

هوامش

(١) (من خطاب القسم أمام مجلس الشعب)

(٢) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب)

(٣) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب)

(٤) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب)

(٥) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(٦) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(٧) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(٨) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(٩) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١٠) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١١) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١٢) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١٣) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١٤) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١٥) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١٦) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١٧) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١٨) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(١٩) (خطاب القسم أمام مجلس الشعب).

(٢٠) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(*) (من كتاب واسع للأستاذ فائز إسماعيل يتحدث به عن الثورة - لم يطبع)

(**) (من كتاب واسع للأستاذ فائز إسماعيل يتحدث به عن الثورة - لم يطبع)

(٢١) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(٢٢) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(٢٣) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(٢٤) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(٢٥) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(٢٦) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(٢٧) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(٢٨) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(٢٩) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

(٣٠) (من كلمة السيد الرئيس أمام مجلس الشعب في الدور الثامن).

❖ ❖ ❖

الرئيس القائد بشار الأسد
مصادر الموقف القومي ومنهجية الفعل السياسي

أ. أحمد الحاج علي *

* *كل العرب في قلب الخطر وكل العرب مستهدفون*
* *الظروف الاستثنائية ترفض المواقف العادية*
* *في الوطن العربي، الاستهداف في الذروة والاستجابة في الحضيض*

قد تكون المسافة الفاصلة ما بين الثوابت العربية ومشتقاتها والنوعية المستبدة لمجمل السياسات العالمية الراهنة، هي المدخل الموضوعي والمكافئ لبحث في مثل هذا المستوى والاختيار بكل ما يشتمل عليه من منهجيات تكاد تستغرق مجمل الموضوع ومواقف ومسلكيات سياسية تجتهد بلا توقف لإنجاز الأهم في زمن يراد فيه للعرب ألاّ ينجزوا شيئاً،

(*) أحمد الحاج علي: باحث من سورية، ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

إن المدخل هنا يفضي بنا إلى مسارات لا نعرف قيمتها القصوى إلا بانتماء الموقف إلى حقائق العصر وتياراته المسيطرة. وسلفاً علينا أن نثبت المفاتيح التالية في منهجية الفكر السياسي عند الرئيس بشار الأسد، ولهذا كان علينا أن نبحر في الموضوع عبر بوابته الأكثر صعوبة والأكثر ضرورة في وقت واحد، إذ القصة في أصلها تقع ما بين الحدين المتناقضين، حقوق الأمة ومصالحها كحد أول، طبيعة السياسات العالمية وواقعها كحد ثان، وبرغم كل المجهودات التي تأتلف لدفع الحد العالمي في السياسة لابتلاع الثوابت العربية وتذويبها في منطق الآخرين ومصالحهم فإن كتلة الجهد الأساس عند الرئيس بشار الأسد تكمن في قاعدة التخلص من حالة الابتلاع هذه وقاعدة تجذير مناطات ومصادر لاتنضب من شأنها أن توفر كل المعايير اللازمة لإبقاء الحق القومي على قيد الحياة وفي منطقة التداول وفي موازين الفعل والتفاعل مع القوى السياسية العالمية المتنوعة، ونعود للمفاتيح الأهم في هذه المنهجية ولعلنا معنيون بأن نختار الأكثر شمولاً والأدعى للاستثمار في واقع الحياة السياسية.

١- تشكل منهجية الوضوح في الانتماء للقضايا القومية وفي التعايش معها وفي الانطلاق منها في التعامل مع الآخر المفتاح الأهم في هذه المنهجية، وهنا بالتأكيد سوف نلتقي بنسقين من المسارات يؤطران لهذا التوجه المبدئي، أما النسق الأول فتؤكده مسألة الهوية إذ في المحصلة السياسية عند القائد بشار الأسد هي إنجاز للهوية وتعبير مكافئ عنها، وأما النسق الثاني فإنما تتضمنه شمولية المسلكيات التي تحيط بمنطق الهوية القومية نفسها وعلى سبيل المثال هو يقول في خطاب القسم الدستوري في العام ٢٠٠٠ (إن علينا الابتعاد عن فكرة نسف الواقع برمته منطلقين من أن الحياة الإنسانية لامطلق فيها فمهما كان الواقع سيئاً لابد أن يكون فيه العديد من الفوائد...).

كما أن مسيرة الشعوب في نسق الاحاطات بالهوية القومية ليست عبارة عن اندفاعات مرحلية ولاهي مواقف محدودة في الزمان والمكان، إن هذه المسيرة كما يقول الرئيس بشار الأسد هي إنجازات متلاحقة ومواقف متكاملة كل مجموعة منها تبنى على ماسبقها، وهذا يعني بالضرورة أن نبتعد بالمنهج السياسي عن خيارين غير سليمين خيار نسف الواقع برمته بحيث نقع سياسياً في مطب (الصفر المعقد) الذي تضيع عنده المعالم وتسيل الخيوط فيها على بعضها تحت وطأة حرارة وسرعة الوقائع السياسية المتجهة نحو العرب، إن الوضوح بالمعنى الفكري والفلسفي لايمكن اختزانه في الذاكرة

الفردية أو استدعاؤه عند الطلب. الوضوح هو حالة من الوعي تستمد أصولها ومقاطعها من التراكم التاريخي في حياة المجتمعات ولا يلغي هذا الأمر قسوة الواقع وقوة التحديات الخارجية مع ما يلازمها من سهولة الاختراق والتمادي في الجسد العربي نفسه. وأما الخيار السلبي الثاني الذي علينا عزله فإنما يتمثل في سطحية المفاهيم وتكرار المصطلحات دون تحليل لمضمونها، فكثير من الأفكار قد تكون بذاتها إيجابية لاخلاف عليها لكن مستوى استيعابها المتراجع وآلية التعاطي معها بصورة جامدة قد يحول هذه المفاهيم والمصطلحات إلى ناتج سلبي يكون في المحصلة على حساب القضايا القومية وليس لحسابها، وحينما نحاول أن نضيف الخيارين السلبيين إلى بعضهما سيكون من الطبيعي كما يؤكد الرئيس بشار الأسد أن الثقافة والمعرفة ونظام الأولويات الوطنية والقومية هي العوامل المؤهلة لإبعاد تأثيرات المناهج المضافة بصورة قسرية إلى واقعنا السياسي، وإذا ماحاولنا أن نستعين بالأمثلة فليكن مطروحاً أمامنا بعض النقاط الأساسية، إن الآخرين مثلاً يطرحون على العرب فكرة المرونة بحيث تبدو المسألة أن هؤلاء الآخرين راغبون في السلام وأن المشكلة إنما تقع في جفاف وقسوة الموقف العربي، وبهذا ينطلقون من معايير لاعلاقة لها بالواقع، هم لايملكون الأرض بل ربما كانت الأرض واحدة من أسوأ عقدهم بالمعنى السيكولوجي والثقافي وفي مسعى لتغطية هذا الانحراف عن جدول الواقع يطلبون منا المرونة بحيث نتنازل عن بعض الأرض مقابل أن يتنازلوا عن بعض الأمن وهنا يؤكد الرئيس بشار الأسد مقولته التالية: **(السلام العادل والشامل الذي اعتمدناه خياراً استراتيجياً لن يكون على حساب أرضنا ولا على حساب سيادتنا فالأرض والسيادة هما قضية كرامة وطنية وقومية، ولايمكن.. وغير مسموح لأحد أن يفرط بها أو يمسها..)** إننا نتوقف عند هذه اللقطة المؤثرة حيث لايسمح لأحد أن يغير في معايير التعامل مع قضية الأرض والسيادة، لأن هناك فعلاً من تستبد به في الداخل العربي رغبة التفريط الجزئي أو الكلي بعنصري الأرض والسيادة تحت وطأة السلبية العربية الخانقة وبذريعة الواقعية العربية المطلوبة.

٢ - إن الموقف السياسي كما يؤسس لمقاطعه ومصادره وتطبيقاته الرئيس بشار الأسد إنما هو خيار إرادي متكامل يقوم على قواعد ثابتة الأصل فيها تحديد المفاهيم والتدقيق في المعطيات القائمة واستخراج الحدود الأساسية في مجمل فقرات الموقف السياسي، إن القضية في الأساس هي موضوع السيطرة على العالم وفي مساحة هذه السيطرة تدخل منطقتنا

العربية، وللسيطرة أهدافها وصيغها وآليات تبريرها وهنا يقول الرئيس بشار الأسد في القمة العربية العادية الخامسة عشرة المنعقدة في شرم الشيخ في مطلع آذار ٢٠٠٣م **(القضية هي النفط، والنفط هو إحدى الأدوات للسيطرة على العالم، القضية هي إعادة رسم الخريطة بالشكل الذي يناسبهم ويناسب إسرائيل..)** لعله في التركيز على محور القضية تكمن الفكرة الأساس في نفي حالة التسيب أو اللامبالاة التي تنتشر في الحياة السياسية العربية **تمامًا كما يأتي** في هذا التحديد التحرك الحي لكشف **الأقنعة** وللتخلص من زيف الادعاء عند **الطرف** الامبريالي الصهيوني، ونحن نعلم تمامًا بأن المسألة لاتقع في حدود رغبة الآخرين في السيطرة على ثرواتنا لكنها تستند أيضًا إلى سهولة التغلغل في الداخل العربي إذ هناك من يحاول أن يجترح مبررات وأن يصنّع أقنعة للمشروع الاستعماري، وهذا يعني أنه كلما جرت عملية تذويب للأقنعة الواقية والخادعة ينهض البعض من العرب ليعيدوا الأقنعة قسرًا وقصدًا للمشروع الامبريالي (هم يخلعون القناع ونحن نلبسهم إياه)، وكأنما كان الرئيس القائد بشار الأسد يحاول أن يتابع خط المشروع المعادي من منبعه إلى مصبه بحيث يدخل التخاذل العربي وأسلوب التسويغ والتسويق العربي للمشروع المضاد على أنه جزء عضوي من الهدف الامبريالي نفسه وفي محاولة لالتقاط المحفزات الواهية لهذا التوجه في الداخل العربي يحاول الرئيس بشار الأسد أن يرفع حالة الخلط بين عناصر الموقف بصيغته الإجمالية إذ يقول **(علينا ان لا نخلط بين قضية شخص أو أشخاص وقضية وطن، لايوجد شخص في العالم يستطيع أن يختصر أي وطن...إن القناعة هنا يجب ان تقال كما هي ومن دون تجميل..)** ومن الواضح أن الرئيس بشار الأسد بهذا الطرح المنهجي يحاول أن يعزل في الموقف السياسي **بين المستويات التالية:**

- بين الموقف الشخصي والحالة الوطنية والقومية، وحينما تستبد في البعض نزعة التحكم الشخصي عبر القناعة أو مفهوم الثأر أو حالة الانفعال المؤقت يكون من الضروري إيقاف هذا الزحف الأسود لأن تصغير الوطن إلى حدود الذات الفردية سيعني مباشرة تلاشي الذات الفردية نفسها عبر حالة الانكسار العام للمسألة الوطنية والقومية.

- بين الحدث بذاته وامتدادات هذا الحدث ليتحول إلى منطلق متشبث ومقياس عام لانرى فيه درجة الخطر ومواقع الألم في القضية العامة .

- بين حقيقة الموقف في النظام السياسي العربي ومقومات المشروعية القومية من خلال الحقوق الثابتة والأهداف الراسخة وهنا يحذر القائد الأسد من

الإختباء وراء مواقف الآخرين حيث يقول (دعونا نقف في وجه هؤلاء لأنه لم يعد بالإمكان في هذه الظروف أن نقف في الوسط رجل في هذا المكان ورجل في المكان الآخر).

- بين عناصر الموقف السياسي بحقيقته وشكليات تمثيل هذا الموقف. إن مسألة الانطلاق من الموقف تختلف تماماً عن خيار الانطلاق من وهم الموقف وفي عالم كعالم اليوم تتدخل ثلاثة عناصر في أي موضوع سياسي العنصر الدولي والعنصر الإقليمي، والعنصر المحلي وبمتابعة منهجية للعلاقة التبادلية والتفاعلية لهذه العناصر فإن الجدلية المنطقية تقوم على أساس قوة وتماسك الموقف المحلي ثم تأثير ذلك في العنصر الإقليمي الأمر الذي يؤدي في وحدة المحلي والإقليمي إلا حالة قصوى من التأثير على العنصر الدولي، إذ كلما ضعف العنصر الوطني والإقليمي اندفع العنصر الدولي واشتدت فيه نزعة اختيار الحرب والتدمير باعتبار التسهيلات التي تقدمها حالة الضعف الوطني والإقليمي، بل إن المسألة تتخطى حد تسهيل مهمة المخطط المعادي لتجعلنا نخسر نسبة عالية من المواقف الدولية المؤيدة لقضايانا، على أن المسألة لن تكون مجرد نوايا وتصريحات ولن تجدي إذا ما بقيت محصورة أو محاصرة في حدود البروتوكول الرسمي والبيانات العامة، إن ثمة ما يمكن ضخه إلى العمق هنا، إنما يتمثل في بناء الوطني والإقليمي على أساس الإرادة السياسية أولاً وعبر مقادير الالتزام الأدبي والمادي بما تنتجه هذه الإرادة ثانياً، لأن هناك كما يقول الرئيس بشار الأسد مفارقة شديدة (بين ماندعيه أو مانقوله دائماً ونصرح به ونعلنه من رفضنا للتدخل في الشؤون الداخلية).

٣ - إن الواقعية بمفهومها الواقعي تفرض تجلياتها في منهجية الرئيس القائد بشار الأسد ليس باعتبارها تبديلاً في حقائق الواقع أو افتراضاً مضافاً في الموقف السياسي نفسه وإنما عبر نزعة تأخذ بعين الاعتبار أن مصير الأوطان والإرادة السياسية من خلال هذا المصير ليست مغامرة في المجهول وليست انتساباً غير محسوب لما سوف تأتي به الأقدار، فالواقعية هنا تقوم على المنظومة السياسية التالية:

- قاعدة المصارحة مع الذات أولاً وفي الواقع ثانياً بحيث نكتشف أنفسنا على قاعدة ذاتنا قبل أي شيء فلا نتوهم حيث يجب أن نطمئن ولا نخاف حيث يجب أن نستقر ولانتنازل حيث يجب أن نتماسك ولا نطمئن حيث يجب أن نفزع، إن المستوى الأفقي والعميق في المصارحة المطلوبة على خط الذات وفي مسارات وتشكيلات مواقعها المتناقضة والمتناثرة إنما تشكل منهجاً تشخيصياً بحيث يكون المطلوب هو

تحديد معالم الذات دونما تجميل أو تزييف في مسعى لتطويق مصادر المرض ومحاصرة مواقع الخلل وفيما بعد سوف نكتشف أن مقايضة الجسم المنهك بالشعارات الفاقعة هو خسارة مضاعفة تعمق حالة الخلل وتنتج آثارًا سياسية وميدانية تفاقم في حدود الأزمة وتنقل حالة الضياع إلى مستويات جديدة غير محسوبة بدقة.

- قاعدة الخيارات المنهجية الراسخة والتي تشكل بمجموعها منطقًا موحدًا يبعد نزعتي التبديد والمجازفة عن الهدف القومي وفي هذا المنحى نستذكر الأصول الحيوية في المنهج السياسي عند الرئيس بشار الأسد حيث يتشكل أولها من نسق الثوابت والمستقرات التي لاتقبل القسمة على اثنين ولا تتعاطى مع منطق المساومة أو التفريط والثوابت هي موضوعات المصير والحق القومي وتحرير الأرض والسيادة الوطنية وبرغم مايبدو على هذه الثوابت من انتماء إلى مصادر معنوية فإن ذلك لايشكل بالتأكيد إحراجًا أو ضغطًا عصبيًا أو شدًا نفسيًا لأن هذه الثوابت هي مصادر الحياة بالمعنى البيولوجي للعرب وهي قواعد التعامل مع كل المواقع العالمية ثم إن هذه الثوابت تأخذ صفة الملكية التاريخية والاجتماعية بحيث يكون مجالها الحيوي ومدار تأثيراتها هو المكان العربي بكل آفاقه وأقاليمه والزمان العربي بلحظته الراهنة وتاريخه الماضي وامتداداته في المستقبل إلى حدود المصير نفسه، وعبر هذا المفهوم المتكامل يُنظّم الموقف السياسي على إحداثيات الجغرافيا العربية والتاريخ العربي والإنسان العربي، وعندها سوف تنجز هذه الثوابت مقطعين متلازمين يتمثل الأول منهما في تفعيل المحاور والحدود القومية بأصولها وضروراتها وليس بحالتها الراهنة أو النزوع نحو تدجينها وتمهيدها لمنطق الضعف أو التفريط بها في مناخ العاصفة، إن العرب هنا بحاجة لحالة التقاط النفس وهي غير ممكنة إلا بالانتماء لهذه الثوابت وفيما عدا ذلك سوف تتحرك القطرية في محاولة لتبديد جذوة الجذور في الثوابت ولتسهيل مهمة القوى الامبريالية والصهيونية في توجهها نحو الداخل العربي والمهم في التعاطي مع هذه الثوابت أن تتم عملية الابتعاد عن مسلكيات الانفعال مع اللحظة الموقوتة الراهنة أو الاندماج في أسلوبية الارتجال بما فيها من ردود فعل تنوس عادة بين الصخب ومظهر الشعاراتية أو التسليم بالأمر الواقع والانفصال عن الثوابت كونها همًا خارج نطاق احتمال الواقع السياسي القائم، وأما المقطع الثاني فإنما تجسده حالة التفكك في مواجهة الخطر بحيث يعتقد البعض تبعًا لحالته الخاصة وبمعايير الابتعاد أو الاقتراب من مصادر الأزمة أنه يمكن أن ينجو من الخطر وينحرف عن

مجرى العاصفة بطريقة الانكفاء أو الإنزواء في هذا السياق يرد الرئيس القائد بشار الأسد على خطورة المقطعين معًا بقوله: (البعض يعتقد أن هذا الخطر سيؤثر عليه بشكل غير مباشر والبعض يعتقد أن هذا الخطر سوف يقترب من حدوده، والبعض يعتقد بأن بعض المسايرات تبعد هذا الخطر إما إلى الأبد أو إلى أجل طويل...) وفي مسار هذه المسألة يطرح الرئيس بشار الأسد الفكرة بأصلها حيث يقول: (في الحقيقة ...الجميع سيكون في قلب هذا الخطر وسيكون مستهدفًا... ربما ليس مباشرة ومن المرحلة الأولى ولكن على مراحل «باعتقادي» أن الكثير من الأمور التي حصلت في الماضي لم نشعر بخطرها بالمقدار الصحيح في ذلك الوقت (سايكس بيكو... وعد بلفور... إنشاء دولة إسرائيل... واليوم قضية العراق))، إن حقيقة الأمر تتجلى في الربط العضوي بين وحدة الحظر ووحدة المصير لأنه في أصل هذه المتلازمة نكتشف الآن أن الصياغات السياسية العربية تتنوع تناقضًا أو تقاطعًا على أساس غياب الثوابت ومايتصل منها بوحدة الحظر ووحدة المصير والإشكالية المرة. إن كل تشكيل سياسي عربي سوف يقتطع من الثوابت ما يعادل حقيقة موقفه السياسي بحيث يختصر الوطن والحظر معًا وبحيث تجري عملية تفصيل (قدود) سياسية يطرحها هذا النظام أو ذاك في مسعى لتبرير حالة الانكفاء ولتوصيل رسالة الانفصال عن الثوابت للطرف الامبريالي والصهيوني، لعلنا الآن ندرك بأن عمق الصراع مابين المشروع الامبريالي والثوابت العربية يقع عند حدود هذه النقطة العميقة، والآخرون من الخارج ومعهم من الداخل العربي تشكيلات سياسية كثيرة. يرون الآن أن الموقف السياسي لسوريا يشكل محورًا قائمًا بذاته هو في المحصلة حالة مواجهة مع القوى المعادية ووسيلة كشف لمواقع التردي العربي، وهذا يعني بالضرورة أن القوى المعادية من الخارج سوف تجد منافذها عبر تحالفات براغماتية مؤقتة مع قوى سياسية في الداخل العربي، ولعله بهذا المنطق الواقعي نكتشف الآن لماذا يتم التركيز على سوريا بالاتهامات الخارجية وبالاستجابات الداخلية في الوطن العربي. القصة تكمن في الثوابت، والثوابت تمتلك معايير مطلقة فالأرض والكرامة والحرية والوحدة لاتتقبل التجزئة في جوهرها لكن ذلك لايعني أن الإرادة السياسية مضطرة للأخذ بنظام (الكتلة) في مواجهة التحديات، إن المهم هنا هو التبصر بدرجة الحظر والبحث الدؤوب عن التراكم والتفاعل في مستويات النضال وإيقاع المواجهة، إن فكرة كل شيء أو لاشيء هي عقيمة بالتأكيد والأكثر رخصًا منها هو الأخذ بفكرة الفتات أي أن يكون أي شيء هو أفضل من لاشيء.

- ثم تفرض نفسها تلك القاعدة الحيوية التي تتصل بمنطق الالتزام بالثوابت عبر نقل هذا المنطق من مستوى الشعار إلى منطقة الفعل والالتزام، وهكذا تصبح القاعدة القائلة بضرورة البدء بالممكن والمتاح وصولاً إلى المطلوب والنهائي، هي منهجية أصيلة تستمد حضورها ومبررها من خلال الانتماء للثوابت من جهة والاحتساب الدقيق لحالة الواقع العربي بقواه ومناخاته وتشكيلاته غير الموحدة، ومن الملاحظ هنا أن هذه القاعدة تتصل بضرورة إنجاز الموقف المتحرك بالموقع المتحرك بحيث لا نقع في مطب السكون أمام سرعة وتسارع المشروع الإمبريالي الصهيوني، ثم إن المسألة ليست محدودة في سور الانطلاق من المتاح الراهن إنها لحظة البدء ليس أكثر والممكن القائم هو الذي سوف يؤسس لحالة نمو وانتشار في قوة الموقف السياسي. إن السياق العملي الحيوي هنا سوف يفرض شرط إنجازه للقوة المتاحة بمقدار مايؤسس لمستويات جديدة من تطور وتجذر الموقف نفسه في مساحات أكثر وبمعدلات أعمق، ويبقى المهم هو أن يتم ردع كل المحاولات القائلة بتبني منطق السكون تمهيداً للاستسلام بحجة خواء الواقع العربي وخلوه من أي مصدر من مصادر القوة.

- والقاعدة الثالثة في منهجيات الموقف السياسي لسورية العربية تستوعبها ضرورات المسؤولية واعتبارات الموقف السياسي لسوريا في تأثيره على مجرى الصراع من جهة وعلى الحالة القومية العربية من جهة أخرى ولقد يكون من الطبيعي أن يرتكز الموقف السياسي لقاعدة الثبات في المشروعية وأسلوب الوعي والحيوية في التفاعل مع الأحداث والقوى المختلفة، وبهذا الصدد فإن منطق المجازفة والمغامرة غير المحسوبة إنما يشكل استجابة غير مباشرة لما يريده المخطط المعادي ولطالما وقعت في حيثيات هذا المخطط تجسيدات في منتهى الخبث والقسوة تقوم على أساس زج الإرادة السياسية السورية في مأزق الاختيار بين الانتماء السياسي عبر التسليم والاستسلام أو الانتماء العسكري من خلال الدخول في مواجهة يخطط لها الآخر وهو الذي يحدد مداها ومواقيتها وميادين التحرك فيها وهذا ما يسحب من الإرادة السياسية السورية شرطي الوعي والالتزام في وقت واحد، إن المنهجية السياسية لاتحتسب بمقاديرالاستجابة لمنطق الآخر، إنها بالأصل موقف إرادي يستند إلى الوعي والتبصر بدرجة متماثلة مع استناده للمشروعية والعدل، وهكذا فإن الطموح وشرط الأصالة في الموقف يتحددان بمعايير الثبات والإنماء وطريقة إدارة الصراع وآلية استثمار مجمل عناصر المواجهة في زمانها ومكانها المنتجين بعيداً

عن القفز فوق الحقائق وتجاهل حقائق القوة والقوى التي تهيمن على العالم الآن إن المسؤولية هنا تفترض أن تكون القوة في الذات هي مصدر للحوار ومنبع لاتخاذ القرار وبناء منهجية الموقف بما يثمر فيه هذا الموقف وبمقدار ماينتج من آثار حقيقية من جهة ويؤسس لمرحلة جديدة متطورة في مجمل مراحل المواجهة اللاحقة، لكن منهجية الرئيس القائد بشار الأسد في هذا المنحى تعود لتؤكد من جديد أن الخيار الصعب إذا ما فرض علينا فإننا سوف نواجهه بصلابة ووضوح تامين وعندها سنضيف إلى مفردات قوتنا بمنظومتها المادية والمعنوية شرطًا حيويًا آخر يتمثل هذه المرة في أننا نمتلك من الإيمان والشجاعة وصدق المواقف مايؤهلنا للدخول في معارك المصير بعيدًا عن الحسابات المادية وقريبًا بلا تحفظ من عوامل المصير والقيم التي يأتي في مقدمتها الغيرية والشهادة وصلابة الموقف ووعي إدارة الصراع.

أسس المشروع العربي الوحدوي في خطاب السيد الرئيس بشار الأسد السياسي

د. طلال عبد المعطي مصطفى *

يكتسب الحديث عن أسس المشروع العربي الوحدوي في خطاب السيد الرئيس بشار الأسد السياسي مشروعيته السياسية والفكرية في هذه المرحلة التاريخية من تاريخنا المعاصر بالنظر إلى الحالة المتردية التي أصبحت تحتلها القضية القومية والحاجة إلى صحوة قومية جديدة -نعتقد أن الخطاب السياسي للسيد الرئيس بشار الأسد يمثلها الآن- لمواجهة المشروع الامبريالي الصهيوني الاستعماري التفكيكي الزاحف إلى الوطن العربي والذي بدأت مقدماته في احتلال العراق والتهديدات العسكرية الأمريكية المباشرة لسوريا ولبنان وللقوى المقاومة في لبنان وفلسطين.

(*) د. طلال عبد المعطي مصطفى: باحث من سورية، دكتوراه في علم الاجتماع. له عدة أبحاث منشورة في مجلة المعرفة.

ويجمع العديد من الباحثين العرب على أن الخطاب العربي الوحدوي تميز بطبيعة تبشيرية ، لأنه انطلق عادة من مجردات ومفاهيم أخلاقية رومانسية ، ودار حول رغبات ذاتية ، حاول فرضها على الواقع الاجتماعي والسياسي والتاريخي ، دون إدراك للموضوعية المستقلة التي تميز الظواهر وتطبع تحولات الواقع وبدون دراسة القوانين والاتجاهات التي تحكم هذا الواقع ، وتميز تلك الظواهر في المجتمعات المجزأة الساعية للتوحيد أو الوحدة أو الاتحاد السياسي ، ويذهب المفكر العربي (الجابري) بعيدًا في توصيف هذا الواقع الذي وصم مرحلة الخمسينات والستينات فيقول كانت الإيديولوجيا العربية محكومة بمطلقات من نوع "الاستقلال التام" و "الجلاء الكامل" و"الوحدة الاندماجية الشاملة " وأيضًا الجمع بين "الديموقراطية السياسية " و"الديمقراطية الاجتماعية" وبين "الوحدة والاشتراكية" ..الخ ، هذا هو التفكير بالمطلقات الذي لا يقبل النسبية ولا الحلول المرحلية ...[1].

ومما لا شك فيه أن الذاكرة العربية لاتزال مثقلة بضجيج الشعارات المنادية بهذه المطلقات التي يتحدث عنها الجابري.

إن مراجعة سريعة للخطاب العربي الوحدوي يتبين أنه ينتقل بين الطوباوية والإيديولوجيا ويعيد إنتاج قوالب سابقة تبحث في الضرورات والواجبات وتغوص حتى العمق في الوصف الشكلي مما أدى إلى عملية إفقار خطيرة للمشروع العربي الوحدوي بـ:

١- على المستوى القطري: في تحقيق الاستقلال الوطني بمرتكزاته الأساسية : بناء وحدة المجتمع ببناء ثقافته وتاريخه الموحدين ، بناء وحدته السياسية بمركزة السلطة على أسس القبول الاجتماعي وفك الحجز عن الصراعات الاجتماعية لتعبر عن نفسها بشكل طبيعي وديمقراطي يضمن تماسك المجتمع، بناء اقتصادي ووطني موحد وموجه نحو السوق الداخلية

٢- على المستوى القومي : في بناء وعي وممارسة قوميتين بفشلها في صياغة تاريخ موحد للجماعات المختلفة المنتمية ثقافيًا للتاريخ ما قبل الرأسمالي ، وبفشلها في استيعاب التناقضات وضبطها على أسس حديثة تؤسس لبناء الدولة القومية، وذلك لانطلاقها من افتراض خاطئ مفاده أن الأمة معطى يتحقق تماسكه وديمومته بتحقق الكيان السياسي.

واستنادًا إلى الإخفاقات السابقة لقوى المشروع العربي الوحدوي جاء خطاب السيد الرئيس بشار الأسد السياسي في المناسبات الوطنية والقومية ليعبر عن إمكانية تأسيس المشروع العربي الوحدوي

من جديد مستنداً إلى الموضوعية العلمية والواقعية في تشخيص الواقع العربي الحالي بالإضافة إلى حضور إرادة التغيير لهذا الواقع.

وبالإمكان تحديد السمات الرئيسية للخطاب السياسي للسيد الرئيس بشار الأسد كأسس علمية موضوعية لتأسيس وانطلاق المشروع العربي الوحدوي بالآتي:

أولاً ، موضوعية وعقلنة الخطاب السياسي

يقصد بالموضوعية معالجة الظواهر كأشياء لها وجود خارجي مستقل عن وجود الإنسان، والشيء الموضوعي هو ما تتساوى علاقته بمختلف الأفراد والمشاهدين مهما اختلفت الزاوية التي يشاهدون منها وهذا يعني أن الالتزام بالموضوعية انطلاقاً من ذلك ، أنه لو قام باحثان أو أكثر بإجراء نفس خطوات البحث العلمي على ظاهرة ما، ستكون النتيجة المتوصل لها واحدة.

ومفهوم الموضوعية هو ألا تتأثر بدوافعك وعرفك وقيمك ومواقفك الاجتماعية في حكمك على الموضوع المحكوم عليه ، وهذه الموضوعية بالإمكان ممارستها بسهولة عالية في العلوم الطبيعية ، لأن الظاهرة الطبيعية شيء ثابت نسبيًا بالإمكان الإحاطة به من كافة الجوانب من قبل أكثر من شخص مهما اختلفوا في أفكارهم واتجاهاتهم الاجتماعية القيمية والسياسية ..الخ، أما ممارسة هذه الموضوعية في القضايا الاجتماعية فلها خصوصيتها ، وتتجلى هذه الخصوصية في أن الواقع الاجتماعي ذو طابع خاص يقوم على جدل الذاتي والموضوعي، ويتعذر فصل العلاقات والبنى الموضوعية عن نشاط الذات الواعي والهادف والذي يتصل بالمصالح الاجتماعية ، وقد استخدم السيد الرئيس بشار الأسد الشروط السابقة للموضوعية كمنهج علمي في خطابه السياسي على الصعد كافة ، ففي خطاب القسم حدد مفهوم الموضوعية بقوله "الموضوعية تتطلب منا أن ننظر إلى أي موضوع من أكثر من زاوية وضمن أكثر من ظرف وبالتالي نحلله بأكثر من طريقة ونصل من ثم إلى أكثر من احتمال أو على الأقل للاحتمال الأقرب إلى الصحة أو الاحتمال الأفضل".[٢]

وقد جسد سيادته الموضوعية كونه في أعلى منصب في الجمهورية العربية السورية لم يدع إلى الحفاظ على الواقع الراهن وإنما تبنًا لاستخدامه المنهج العلمي الموضوعي في تشخيصه للواقع طالب بالتغيير استناداً إلى ثلاثة محاور أساسية:

المحور الأول: طرح أفكار جديدة في المجالات كافة بهدف حل المشاكل

والمصاعب الراهنة وتطوير الواقع الراهن.

المحور الثاني: تجديد أفكار قديمة لاتناسب الواقع الراهن والاستغناء عن تلك التي لا يمكن تجديدها والتي أصبحت غير مفيدة بل معيقة للأداء.

المحور الثالث: تطوير أفكار قديمة ثم تجديدها لتتناسب مع الأهداف حاضراً ومستقبلاً .

ولأن كل عمل يحتاج إلى مقاييس لتحديد نسبة الإنجاز والتقدم فيه ، فقد طرح السيد الرئيس بشار الأسد في منهجه **الفكري والموضوعي** أربعة معايير هي :

١- المعيار الأول: هو استغلال الزمن **بهدف تحقيق الإنجازات بأقصر مدة ممكنة.**

٢- المعيار الثاني : طبيعة الواقع الراهن والظروف المحيطة داخلياً وخارجياً.

٣- المعيار الثالث: الانطلاق من الإمكانيات المتوفرة كمعطيات قابلة للتعديل للوصول إلى الهدف.

٤- المعيار الرابع: المصلحة العامة باعتبارها معياراً وهدفاً في آن واحد ، وتلتقي كل المعايير السابقة عندها ومن خلالها تتجدد ، ومن المعروف للباحثين أن للمنهج العلمي أدواته ، وقد حدد سيادته أهم هذه الأدوات بالتالي:

١- الفكر المتجدد والمبدع الذي لايتوقف عند حد معين ولا يحصر نفسه في قالب واحد جامد ، هذا الفكر هو المحرك الدافع لعملية التطوير ، ولم يربط سيادته هذا الفكر بسن معينة ، بل أكد أن البعض الآخر من كبار السن يفارق الحياة وعقله لا يزال يضج بالحيوية والتجدد والإبداع في حين أن البعض يدخلون سن الشباب وقد تحجرت عقولهم باكراً "[٣]

وبذلك حدد سيادته اتجاه التغيير المطلوب في الأشخاص ، حيث أصبح المعيار هو امتلاك الفكر المتجدد والمبدع والحيوية بدلاً من أن يكون **المعيار هو السن وحسب.**

٢- والأداة الثانية ، هي النقد البناء الذي يعتمد الموضوعية في التفكير والابتعاد عن الطروحات الشخصية التي تستهدف الهدم وحسب ، والبديل هو تناول الموضوع من أكثر من زاوية وضمن أكثر من ظرف وتحليل الوقائع بأكثر من طريقة للوصول إلى أكثر من احتمال وبالتالي اختيار الاحتمال الأقرب إلى الصحة والواقع ، وقد حدد سيادته منذ البداية معايير هذه الأداة النقدية بقوله " علينا الابتعاد عن النقد بهدف استعطاف البعض أو استثارة التصفيق من البعض الآخر أو بهدف الاستفزاز أو الإساءة للآخرين"[٤]

٣- والأداة الأخرى التي حددها الرئيس بشار الأسد للقيام بالتطوير هي المساءلة،

وهي عملية متكاملة لا يمكن تجزئتها وتبدأ من القاعدة والأساس من المواطن وتنتهي بالمؤسسات ..فالمحاسبة والمساءلة ثقافة تبدأ من الإنسان، بل من وجدانه وضميره، وتبدأ بمساءلة المرء لنفسه وبمراقبة المواطن لذاته ومراجعتها يوميًا ، وعند كل منعطف ، وعند القيام بأي عمل في المؤسسة ، والشارع والبيت ، إن ثقافة المساءلة تحتاج إلى رعاية دائمة من القائمين على التربية العائلية فالمدرسية فالإعلامية ..الخ وعندما تسود ثقافة المساءلة تصبح المحاسبة أمرًا من طبيعة الحياة وتأخذ مجراها حيث يشذ المرء أو المؤسسة عن تطبيق القانون ويخرج عن النظام مهما كان موقعه، ومهما كانت المؤسسة مؤثرة ، وعندما تسود ثقافة المساءلة التي دعا إليها سيادته تصبح حالات ارتكاب الأخطاء محدودة بفعل الرقابة الذاتية والمؤسسية والخطأ يعالج أثناء العمل بهدف تجاوزه ومن أجل ألا يتفاقم والعلاج لا يهدف إلى الانتقام والتشفي وإنما للردع ، وشبيه هذا الردع بالردع الذي تتعامل معه الأسرة بشكل عام، وخاصة الأبوين انطلاقًا من المحبة يعاقب أحد أفراد الأسرة، كل أسرة لديها طريقتها بمعاقبة هذا الشخص أو محاسبته ، لكن في المبدأ في العائلة السليمة هو الانطلاق من المحبة كذلك العلاقة بين الدولة والمواطنين هي علاقة أسرة واحدة". [٥]

ثانيًا - الحوار والرأي الآخر

يذهب بعض المفكرين لجعل درجة تطور مجتمع ما ومواكبة القرن الحادي والعشرين مرهونة بمدى التنمية الفكرية والسياسية لأفراده ، وحجر الزاوية في هذه التنمية هو المشاركة وتعدد الآراء وحرية التعبير عنها ، بل ذهب البعض إلى اعتبار الأزمة التي تعيشها المجتمعات العربية تعود إلى غياب الحوار في حياتنا المعاصرة "فنحن لسنا أحرارًا في تفكيرنا ولا نسلم بحق الآخر في الحرية والتفكير ، كما يرى المفكر العربي حسن حنفي ، ومن هنا تبرز أهمية الحوار في مجتمعنا المعاصر، فلكل فرد في المجتمع وجهة نظر في أمر من أمور الحياة الاجتماعية والتربوية، والاقتصادية والسياسية ..الخ وهو يسعى لأن يقنع غيره بها، فسواء كان رئيسًا أو مرؤوسًا ، أستاذًا أم تلميذًا ، أبًا أم ابنًا ..الخ، فهو بحاجة إلى إقناع المتعاملين معه ، مستمعيه أو قارئيه بصحة وجهة نظره، وهو في حاجة أيضًا إلى إثبات العكس بالنسبة لوجهة نظرهم، أي أنه في حاجة إلى القيام بعملية مزدوجة تتمثل في تفنيد وجهات نظر الآخرين وإقناعهم في الوقت نفسه بصحة وجهة نظره، ويطلق على هذه العملية المزدوجة في العلوم الاجتماعية "النقد" والتي تعد من أهم استراتيجيات الحوار.

وقد استخدم السيد الرئيس بشار الأسد القواعد الاستراتيجية للحوار كمنهج علمي موضوعي في خطابه السياسي ، ويمكن التمييز بين عدة صور وأشكال لعملية الحوار والنقد في خطاب السيد الرئيس.

وبداية انتقد سيادته من فهم خطاب القسم بشكل خاطئ أو من استظل تحت عباءته لتحقيق مصالحه الخاصة فقط ، في قوله "أول شيء أمسكوا به هو موضوع التطوير والتحديث أنا قلت، وأقولها دائمًا إنني لم أخترع في موضوع التطوير والتحديث، كل دولة تطور وتحدث بشكل يومي .. وهذه الطريقة الطبيعية ... هذه هي سنة الحياة ، والتطوير والتحديث يتم بشكل يومي ومستمر. اختبؤوا خلف التطوير والتحديث وصارت بنظرهم حتى الأشياء التي كانت ضارة بالبلد تطويرًا وتحديثًا " (٦)

واستخدم السيد الرئيس في خطابه أسلوب المراجعة كأحد أشكال النقد والحوار في منهجه الفكري ، عندما عاد ليحلل ويفسر مفهوم التجديد والتطوير بقوله" وعندما نتحدث عن تجديد وتطوير ، فهذا يعني تقييمًا موضوعيًا لما قمنا به ، يرتكز على نظرة معمقة إلى الوراء ، لنرى ما الذي حققناه وما الذي لم نحققه .. وكم من الشوائب علق بمسيرتنا الوطنية لكي نقوم بإزالتها .. وهذا يفترض معالجة السلبيات الناجمة عن العمل والمعوقات التي تعترض التقدم" (٧)

وهنا يصل سيادته إلى قمة المصداقية واحترام عقلية المواطن عندما يتحدث سيادته عن السلبيات والشوائب قبل الحديث عن الإيجابيات والإنجازات ، وهذه هي المراجعة النقدية المستندة إلى الموضوعية العلمية ·

والجانب الآخر في عملية النقد والحوار التي دعا إليه سيادته ، هي عدم التعميم والابتعاد عن العملية الإنشائية، عندما حدد بشكل دقيق من هو الشخص الانتهازي بقوله : " الانتهازي يظهر دائمًا، ويظهر بشكل سريع ويكون هو الأبرع ..أبرع من المخلصين في الظهور على واجهة الأحداث ، وهو دائمًا يقتنص مناسبة .. يراقب ما هي الموجة السائدة ·· وغالبًا ما تكون هذه الموجة هي موجة من مسؤول ومن دولة أومن رئيس دائمًا عندما يظهر هذا المسؤول يحاول أن يحجب الرؤية، إنه لا يريد لصاحب الطموح أن يرى ما الذي يحصل ، يريد أن يقول إنني الوحيد الموجود على الساحة ، أي شيء أخر هو كما يقال عبارة عن أصفار" (٨)

والنقد البناء الحقيقي هو من يضع " الضد" في مواجهة "القائم" ويؤلف بينهما في "جديد" أعلى وأشمل وأكثر وعيًا وخصوبة ، فالفكر الرسمي المؤسساتي يصبح فكرًا ضحلاً ، بل يصبح شيئًا من الأوهام الزائفة والأحلام المستحيلة والوعود

البلاغية والإنشائية ، وهذا ما نجده في خطاب سيادته عندما انتقد بعض من تحدثوا عن خطاب القسم ورفعوه كعلم ... وجعلوه خطة تنفيذ. بينما هو منهج تفكير، والفرق كبير بين منهج تفكير وخطة تنفيذ. منهج تفكير هو كيف يفكر هذا الشخص الذي ألقى الخطاب وهذه هي آلية تفكيره[٩].

وعندما تحدث سيادته عن الديمقراطية اشترط الإيمان بالحوار كطريق للوصول إليها وأيضًا السبيل إلى المؤسسية ، كما أنه الأساس في مكافحة كل أوجه الزلل والتقصير والانحراف وغيرها من الظواهر السلبية والممارسات الضارة التي تعيق تحقيق متطلبات التنمية والازدهار وشرط هذا الحوار أن يكون موضوعيًا ، حيث ربط سيادته بين الفكر المؤسساتي والفكر الديمقراطي من خلال رؤيته العميقة للمؤسسات البعيدة عن الفهم الظاهر لها - كونها بناء ونظامًا يحكمها أشخاص يعملون فيها- بل هي فكر مؤسساتي يؤمن أن كل مؤسسة تمثل الوطن وتمثل سمعته ووجهه الحضاري ، يتم فيها العمل الجماعي اعتمادًا على الصدق والإخلاص في التعامل وعلى استغلال الوقت بحده الأقصى ، وهذا لن يتم إلا بالفكر الديمقراطي ، وغياب الممارسة الديمقراطية في المؤسسة سيحولها إلى مؤسسة شخصية، وبالتالي مؤسسة بعيدة عن الوطن والمواطن.[١٠]

وعند تحديده لمفهوم الديمقراطية يقف ليميز بين الفكر الديمقراطي وبين ممارسته . فجوهر الفكر الديمقراطي هو في قبول الرأي الآخر ، أما ممارسته فتتم في عملية الانتخاب وحرية النشر والكلام، ويتابع ليحدد وبدقة أكثر أن لكل مجتمع ديمقراطية خاصة به تستند إلى تاريخه وثقافته وشخصيته الحضارية النابعة من حاجاته ومقتضيات واقعه وعندها ستكون النتيجة بناء متينًا قادرًا على الصمود في وجه الهزات مهما كانت بقوله : **"وبالتالي لايجوز أن نطبق ديمقراطية الآخرين على أنفسنا ، الديمقراطيات الغربية على سبيل المثال هي محصلة تاريخ طويل " نتج عنه عادات وتقاليد وصلت معها مجتمعاتهم إلى ثقافتها الراهنة ، ولكي نطبق ما لديهم علينا أن نعيش تاريخهم وإسقاطاته الاجتماعية وعندها يكون هذا الاحتمال ممكنًا وبما أن هذا مستحيل ، فعلينا أن تكون لنا تجربتنا الديمقراطية الخاصة المنبثقة عن تاريخنا وثقافتنا وشخصيتنا الحضارية ...والنابعة من حاجات مجتمعنا ومقتضيات واقعنا " .**[١١]

ودعوة سيادته إلى ترسيخ دولة القانون بقوله : " **علينا احترام القانون ففيه حفاظ على كرامة المواطن وفيه ضمان لحريتنا وحرية الآخرين**"[١٢]

وباعتقادنا أن الخطاب السياسي للسيد الرئيس هو خطاب حواري لم يلغ الاختلافات وتعدد الرؤى في وجهات النظر ، بل اشترطها عندما ربط بين الديمقراطية وقبول الرأي الآخر ، شرط ألا يتحول الرأي الآخر إلى الرأي الصائب الوحيد والقبول به كما هو ، وهنا ينقلب العقل على مبدئه الخلاق ويتنكر لحرية غيره التي هي حريته الذاتية في الاجتهاد المغاير.

ويبقى أخيرًا أن نقول إن الأهم في خطاب السيد الرئيس أنه عندما تحدث عن الديمقراطية لم يعط لأحد حق مصادرة الرأي الآخر، كذلك دعا المجتمع للمشاركة في تحمل المسؤولية ، وهكذا ظهرت موضوعية وعلمية خطاب السيد الرئيس في دعوته للرأي الآخر في التعبير عن نفسه بما يصون الوحدة الوطنية.

ثالثًا - الواقع العربي وثقافة الانتصار

يتضمن الخطاب السياسي للسيد الرئيس إمكانية انتقال العرب من جو الهزيمة والإخفاقات إلى ثقافة إمكانية التضامن العربي والانتصار ، إذا أدرك العرب المخاطر القادمة نتيجة التغيرات الدولية والإقليمية التي طرأت مؤخرًا ، وقراءة أولية في هذا الخطاب نجده أولاً بحث علمي أكاديمي للواقع العربي السياسي من حيث التشخيص والعلاج بالإضافة إلى ما اتسم به من الموضوعية العلمية في تشخيص الواقع العربي وتقييمه بالإضافة إلى حضور إرادة التغيير لهذا الواقع في الوقت نفسه وهذه هي أرقى درجات المعرفة العلمية في بحث الواقع السياسي .

والجانب الثاني ، تحليله العلمي لمواقع القوة والضعف للواقع العربي بقوله، "الواقع يدل على أن الضعف الذي نعيشه هو شعور ذاتي نقنع أنفسنا به لأسباب مختلفة ، في الوقت الذي نمتلك فيه الكثير من عوامل القوة ، وهذه هي الهزيمة من دون حرب" هزيمة العقيدة والإرادة هي أصعب وأسوأ أنواع الهزائم" (١٣)

والجانب الثالث أنه جاء تجسيدًا للإرادة العربية والتعبير عن الوجدان العربي عندما تحدث سيادته قائلاً "أن قضية العراق وفلسطين ليست قضية شخص أو قسم من العرب بل هي قضية الشعب العربي كله ، كما عبر سيادته عن رفض العرب لكل عدوان مسلح على أي جزء من أراضيهم ، وبرفض التفريط بحق الشعب الفلسطيني بأرضه ضد أي عدوان عليه" (١٤)

وتحليل سيادته لمفهوم الأمن القومي العربي بقوله "نحن معنيون بهذه الحرب وبالعراق أخلاقيًا وقوميًا ومعنويًا وماديًا ، فلا بد من القيام بعمل ما لكي يتماشى مع العنصر الدولي الذي يعادي الحرب ولكي

يدعمه، عدا عن ذلك علينا أن نقول : أن نعلن أن اجتماعنا أو عدمه واحد ...لأننا دول لا حول ولا قوة لها ، والمطلوب عدم إعطاء أية تسهيلات لهذه الحرب بالحدود الدنيا .(١٥).

والجانب الرابع دعوته الحثيثة للتضامن العربي في قوله : " وأول ما نحن مطالبون **بتحقيقه في هذه القمة هو الاتفاق على صيغ محددة للتضامن فيما بيننا والالتزام الجاد بتطبيق واحترام تلك الصيغ وللوصول إلى ذلك لا بد من الاستناد إلى موقف استراتيجي دائم ومستمر وليس لحالات ظرفية طارئة** ، تظهر وتختفي ، مع **تزايد أو تناقص التهديدات الإسرائيلية** ...وبمعنى آخر ...لننتقل من حالة نكون **فيها متأثرين ومنفعلين إلى حالة نكون فيها فاعلين ومؤثرين**".(١٦)

وأكد سيادته على أهمية التضامن العربي أيضاً في قوله: "فالخلافات العربية مهما بلغت من الحدة تبقى أقل أهمية من خطر خارجي يهدد جميع دولنا وشعوبنا، فنحن في النهاية أمة واحدة ، ومهما اختلفنا سنعود ونلتقي من خلال تطوير العلاقات الثنائية بين دولنا أو من خلال تفعيل دور جامعة الدول العربية " .(١٧)

والجانب الخامس في الخطاب السياسي للسيد الرئيس ، فيما يخص العدوان على العراق أنه أعادنا إلى التاريخ العربي القديم الجديد، وذكرنا بقول (علي رضي الله عنه) "والله لو فعلها ابن الأصفر لوضعت يدي بيد معاوية ، عندما سمع أن حاكم الروم "ابن الأصفر" كان بصدد تهديد الدولة الإسلامية أو غزوها في وقت اشتد الخلاف بينه وبين معاوية ، عندما خاطب السيد الرئيس بشار الأسد القادة العرب في القمة العادية الخامسة عشرة بقوله: "أنطلق من القول بأنني لا أعرف الرئيس صدام حسين ، لم ألتق به أبداً ولم أتحدث معه على الهاتف، وربما في ظروف سنوات مضت كان هناك خلاف **شديد وقاس بيننا** وبين الإخوة العراقيين لأكثر من عقد من الزمن أقول هذا الشيء لكي لا أتهم بالحديث الرومانسي العاطفي".(١٨)

والجانب السادس في هذا الخطاب السياسي، أنه عاد بذاكرتنا أيضاً إلى مواقف الرئيس الراحل جمال عبد الناصر القومية في الستينات بعد أن كاد المتآمركون والمتصهينون أن يطمسوها من الذاكرة العربية عندما دعا سيادته العرب إلى موقف عربي موحد مضمونه الأساسي لا للحرب الأمريكية على العراق بقوله "وبكل تأكيد نحن قادرون بالرغم من وجود اليائسين والميأسين والميئسين في عالمنا ونحن قادرون ولو لم يكن ذلك لما كان هناك داع لهذا الاجتماع".(١٩)

وهكذا أعاد السيد الرئيس بشار الأسد في الخطاب السياسي للجماهير العربية بريق أمل بعودة موجات الثورة العربية القومية في الستينات إلى وقتنا الحاضر.

والجانب السابع، هو الموقف المبدئي والقومي تجاه القضية الفلسطينية، القضية المركزية، بقوله "نمد يدنا لإخواننا الفلسطينيين لنقول لهم "نحن نقف معكم الآن في خدمة القضية الفلسطينية مع العلم أن النهج والعقل والمنطق السوري لا يسير إلا باتجاه هدف واحد واضح ومحدد وهو عودة الحقوق العربية كاملة وغير مجزأة ولا مجزأة، ولا يسير باتجاه التنازل" نقف معكم لانسحاب إسرائيل حتى خط الرابع من حزيران ١٩٦٧، نقف معكم لعودة اللاجئين بأكملهم من دون استثناء، نقف معكم لقيام دولة فلسطينية مستقلة عاصمتها القدس نقف معكم لدعم الانتفاضة الباسلة ولعودة أي حق عربي لابد أن يعود" [٢٠]

والجانب الثامن في خطاب الرئيس بشار الأسد السياسي الدعم الواضح للمقاومة في قوله "من الضروري دعم الانتفاضة بالوسائل والطرق المختلفة وأهمها "الدعم المادي المباشر" وبشكل إسعافي للحد من التأثيرات السلبية للحصار المفروض على المدن والقرى الفلسطينية لتركيعها والقيام بحملة دولية لتثبيت شرعية الانتفاضة التي هي شكل من أشكال المقاومة، والمقاومة حق مشروع للشعوب المحتلة أراضيها والمسلوبة حقوقها، وبهذه الطريقة نتمكن من إحباط المحاولات الإسرائيلية الهادفة إلى إعطائها صفة الإرهاب" [٢١]

وبعد استعراض سيادته للوضع العربي المشتت من خلال بروز الاهتمام بالمصالح المحلية القطرية على حساب المصالح القومية، يعود ليؤكد على عدم اليأس من إمكانية تغيير هذه الحالة من خلال تفعيل الاتفاقيات الاقتصادية العربية القائمة والسعي الدائم لإقامة نواة حقيقية للسوق العربية المشتركة، لأن الوضع العالمي الجديد يعطي الموقع للأقوى وبالتالي علينا القيام بأسرع وقت لتشكيل تكتل اقتصادي عربي، وبالتالي نجد سيادته يشخص الواقع العربي بكل موضوعية ويطالب بتعديله بالحدود الدنيا من خلال العمل الاقتصادي المشترك، وأخيرًا تحليله الاستراتيجي

لطبيعة المشروع العربي الوحدوي من خلال قوله "التضامن العربي هو خيار قوة وخيار ردع ، وقد يكون من خلال مشروع قومي، قيام المشروع القومي هو عامل رادع وهو عامل قوة". [٢٢]

رابعًا - الكيان الصهيوني ومشروعه العنصري:

يمثل المشروع الصهيوني تكثيفًا للنظريات العنصرية ، إذ يجسد إيديولوجية موغلة في العنصرية والتعصب وكره الآخر ورفضه مستندًا في ذلك إلى أوهام دينية وتاريخية زائفة، لم تستطع كل الإمكانات المسخرة من قبل الحركة الصهيونية العالمية إثبات إدعاء واحد من ادعاءاتها التي سخرت مراكز القرار في العواصم الكبرى والآلة الإعلامية الغربية الهائلة لترويجها.

وقد حلل سيادته هذه الطبيعة العنصرية للكيان الصهيوني في خطابه السياسي بقوله: "لقد دخل شارون إلى باحة المسجد الأقصى ليس محبة بنا ولا بالسياحة ، بل لكي يقول لكل فلسطيني ولكل عربي ولكل مسلم أنه يحتقر كل شعائرنا ومشاعرنا ومقدساتنا ومعتقداتنا". [٢٣]

ويضيف موضحًا هذه الطبيعة العنصرية بقوله: " من متابعة الأعمال الإجرامية الدموية التي مارستها سلطات الاحتلال الإسرائيلي ضد أبناء شعبنا في فلسطين يثبت لنا يومًا بعد يوم بما لا يدع مجالاً للشك عجز قادة اسرائيل عن إخفاء طبيعتهم العنصرية العدوانية ، بل إنهم تجاوزوا هذا إلى حد الإعلان عنها أسلوبًا معتمدًا في التعامل مع العرب وما تغيير الأسلوب الإسرائيلي في القمع من إطلاق الرصاص الحي على الأرجل إلى التسديد مباشرة على الرأس والصدر إلا دليل واضح على رغبة عارمة لدى الإسرائيليين في القتل تم التخطيط لها مسبقًا وعلى أعلى المستويات" [٢٤]

أما نقده الموضوعي لبعض الساسة العرب ، الذين حاولوا تبرير علاقاتهم التطبيعية السياسية مع الكيان الصهيوني بحجة أن هناك ما يسمى يمين ويسار أو صقور وحمائم في الكيان الصهيوني بقوله: "بالنسبة لنا كعرب كل الإسرائيليين هم يمين ، والمهم انشغلنا بتحليل هذه القضايا التي لا تقدم ولا تؤخر ، ونسينا الموضوع الأساسي أو النقطة الأساسية والجوهر،

ونسينا أن هناك شارعًا إسرائيليًا هو السبب أما البقية والنقاط الأخرى فهي نتائج » (٢٥)

أما تحليله للطبيعة العنصرية للشارع الإسرائيلي فقد جاء في قوله: " هذا الشارع قتل رابين عندما شك مجرد شك بأن هذا الرجل قد يقدم شيئًا للسلام، انا لا أقول قدم أقول مجرد الشك، جعلهم يقتلون هذا الإنسان بالرغم من انه بطل تكسير عظام الفلسطينيين في الانتفاضة الأولى ..وهذا الشارع أسقط (بيريز) عندما شك بأنه أقل تطرفًا من نتنياهو بالرغم من أن بيريز قدم هدية للشارع الإسرائيلي وهي مجزرة قانا ، وهذا الشارع أسقط باراك عندما شك بأنه أقل تطرفًا من شارون وعندما شك من خلال الطروحات الوهمية الكاذبة من الممكن أن يقدم شيئًا لعملية السلام بالرغم من أن باراك ، كان قدم هدية للشارع الإسرائيلي أكثر من أربعمئة شهيد فلسطيني .والآن هذا الشارع هو نفسه يأتي بشارون ، شارون يوصف في العالم بشكل عام وحتى في داخل إسرائيل بأنه رجل مجازر ، رجل يكره العرب ، وهذا صحيح ، هو يكره كل شيء له علاقة بالعرب .

هذا الشخص كيف أتى إلى رئاسة الحكومة ؟ هو رشح نفسه بإرادته لكنه لم يصل بإرادة الشارع الإسرائيلي ، ولا يوجد فرق بين الأول والأخير ومن في الوسط ، كل الأشياء التي سبقتها هي نتيجة للشارع الإسرائيلي ، فإذاً هو مجتمع عنصري ، عنصري أكثر من النازية » (٢٦)

أما تحليله التاريخي للكيان الصهيوني كمشروع استعماري استيطاني لا جذور له في التاريخ ، فقد جاء من خلال ثلاث نقاط وصف الإسرائيليين بها :

١- النقطة الأولى: هم يخافون من الماضي القمعي القريب الذي ابتدأ قبل الإعلان عن دولة فلسطينية عام ١٩٤٨ بعدة سنوات .

٢- النقطة الثانية : التي يخاف منها الإسرائيليون هي الماضي بمعناه العام أي التاريخ، هم لا يمتلكون التاريخ ، نحن من يمتلك التاريخ وهم يعرفون ذلك تماماً ، هم لم يوجدوا في هذه المنطقة منذ آلاف السنين بكل تأكيد.

٣- النقطة الثالثة: هي الأرض ، كل إسرائيلي يعرف أنه لا يمتلك هذه الأرض ، هذه الأرض ملك العرب ، وبالتالي إسرائيل دائمًا غير واثقة من نفسها» (٢٧)

٤- **النقطة الرابعة :** هي أن إسرائيل وجدت في عام ١٩٤٨ من خلال قرار دولي ووجدت من خلال القتل والإرهاب والتوسع أي أنها فرضت نفسها بشكل دولة عدوة، وحتى أنها لم تحاول أن تظهر بشكل دولة صديقة، أتت لتقول للكل أنها دولة عدوة تقتل وتدمر وتحتل وتتوسع. [٢٨]

والواضح أن التمييز العنصري والإرهاب والتطرف والجنوح إلى العنف والعدوان من السمات التي تجمع الصهاينة، وهي ليست جديدة أو طارئة على الكيان الصهيوني ، فهي قيم متأصلة رعتها العقيدة الصهيونية ضد كل ما هو ليس يهوديًا ، فنجدهم يدعون إلى التخلص من العرب بالإرهاب والمجازر الدموية .

لقد قام المشروع الصهيوني في أساسه على التعصب والتطرف ، وكان شعاره منذ البدء "أرض دون شعب لشعب دون أرض" ويمكن اعتبار استيطان اليهود لأرض فلسطين ، ومحاولة تمدده باستمرار مثالاً معاصرًا لمحاولة إلغاء الآخر على قاعدة بقاء وسيادة "النخبة المختارة" وتستند هذه النخبوية إلى خطاب ديني تاريخي وهمي وزائف توارثته الأجيال اليهودية ، ولقد جسدت السلطات الإسرائيلية هذا الوهم بقانون العودة عام ١٩٥٠، تمنح الجنسية الإسرائيلية بشكل آلي لأي يهودي يصل إلى إسرائيل في حين يحرم منها الإنسان الفلسطيني الذي ولد ونشأ في فلسطين.

خامسًا : النظام العالمي الجديد

وأما دعوة السيد الرئيس بشار الأسد للتعامل مع المستجدات الدولية الجديدة، أو ما يسمى بالنظام العالمي الجديد ، فقد أكد على ضرورة التعامل بمنتهى الحكمة والمسؤولية والواقعية والموضوعية انطلاقًا من الاعتماد على الذات الوطنية أولاً وعلى الذات العربية الأوسع شمولاً وعمقًا ثانيًا وعلى تعاملها مع الظواهر العالمية الرئيسية استنادًا إلى المصالح الوطنية والعربية بقوله: " وفي الوقت الذي ظن كثيرون أن ما سمي بالنظام العالمي الجديد قد يهيئ مناخًا جديدًا لنمو العلاقات الإنسانية المبنية على التفاهم واحترام العيش المشترك ويطفئ بؤر التوتر في العالم، نجد أنفسنا أمام نظام يكرس كل مظاهر الاضطراب والفوضى والظلم واللاعقلانية ..فلم يعد مهمًا إن كنت على حق أم لا ، ولاقيمة لحجتك إذا كانت صحيحة أم غير

صحيحة، مقبولة أم غير مقبولة، فنحن نعيش في عالم يتساوى فيه المنطق مع اللامنطق، وما بقيت له كل القيمة هو القوة بكل معانيها وأدواتها، وليس بالضرورة أن تعني الجانب العسكري بل جوانب أخرى، اقتصادية وتقنية ومعرفية وغيرها..ومن يمتلك هذه العناصر يمتلك أوراق القوة ومن لا يمتلكها ليس له موقع ولا كلمة في المستقبل. (٢٩)

وبالنسبة للموقف المطلوب من العرب، يقول "علينا كعرب امتلاك ما نستطيع من هذه الأوراق حفاظاً على مستقبلنا، أما المسايرات غير المحدودة للآخرين والتي أصبحنا معروفين بها على مستوى العالم فنتائجها مؤقتة وكل طلب نلبيه اليوم سوف يليه طلب آخر غداً، وتستمر التنازلات دون مقابل، ويستمر النزيف ويبدو النفق في هذه الحالة دون نهاية، فلنقف بثبات مكاننا ولنتمسك بمصالحنا ومبادئنا وكرامتنا. (٣٠)

واستناداً إلى هذه الرؤية السياسية نستطيع كعرب احترام الآخرين.

واستناداً إلى ما جاء في الخطاب السياسي للرئيس بشار الأسد كما بينا سابقاً نستطيع تكثيف الأفكار الرئيسية في خطاب السيد الرئيس بشار الأسد والتي -باعتقادنا- تمثل الأسس الأساسية لصحوة عربية تؤسس لمشروع عربي وحدوي جديد.

١- قيام قوى حركة النهضة العربية الوحدوية بمراجعة نقدية جذرية لسياساتها واختياراتها، وبمحاسبة نقدية للذات وبإعادة ترتيب للأولويات.

٢- الثورة العقلية العلمية، التي لابد منها لكل من يحيا في هذا العصر، فلا مفر من بدء التعايش بين إيمان لا نستغني عنه، وبين عقل متسائل ناقد، وإن اختلف النهج وتباينت الرؤية بينهما، فللإيمان روحه وللعقل منهجه، فالثورة العقلية مطلوبة لمعرفة ونقد الذات الجماعية والكشف عن معوقاتها الموروثة والتي مازالت تعرقل النهضة الحضارية والعملية الديمقراطية.

٣- التصحيح السياسي الداخلي على الصعيد الوطني لكل بلد عربي وإنهاء الاغتراب التاريخي مع مفهوم الوطن، هذا الاغتراب القائم على التهرب من واقع المواطن ومسؤوليته انتظاراً لوحدة عربية مأمولة "لن تتحقق الآن".

٤- تبني قضية الديمقراطية التي باتت تحتل مكانة أولى متقدمة بين المهمات السياسية والنضالية في كل البلدان العربية، فعلى الرغم من تفاوت مستويات التطور فإنها بالإجمال تشكو من تقلص أطر ممارسة الديمقراطية.

٥- تبني استراتيجية دولة القانون، وهي دولة المؤسسات القانونية والدستورية، صاحبة السيادة والقرارات المستقلة داخليًا وخارجيًا.

٦- التصدي للسياسات الاستعمارية، ومحاولة الهيمنة التي تستهدف ما تبقى من وجود الأمة العربية من خلال تعبئة طاقات الأمة العربية بكل فئاتها الشعبية في نضال طويل متعدد الأساليب والأدوات فيه المقاومة المسلحة والمقاومة السلمية تبعًا للظروف العربية والدولية.

٧- الانفتاح على جميع القوى العالمية، والتي لها قضايا مشتركة مع العرب على الصعيد العالمي.

المراجع

١- محمد عابد الجابري، إشكاليات الفكر العربي المعاصر، مركز دراسات الوحدة العربية.

٢- الرئيس بشار الأسد، خطاب القسم، في ١٧/ تموز/٢٠٠٠م.

٣- المصدر السابق

٤- المصدر السابق

٥- الرئيس بشار الأسد، كلمة سيادته في افتتاح الدور التشريعي العادي الثامن لمجلس الشعب، دمشق ١٠/ ٣/ ٢٠٠٣م

٦- المصدر السابق

٧- المصدر السابق

٨- المصدر السابق

٩- المصدر السابق

١٠- خطاب القسم، دمشق ١٧/ تموز/ ٢٠٠٠م.

١١- المصدر السابق

١٢- المصدر السابق

١٣- الرئيس بشار الأسد، كلمة سيادته في قمة شرم الشيخ العربية، تاريخ ١/ ٣/ ٢٠٠٣ م

١٤- المصدر السابق

١٥- الرئيس بشار الأسد، كلمة سيادته في القمة العربية العادية الخامسة عشرة بتاريخ ١/ ٣ / ٢٠٠٣م القاهرة.

١٦- الرئيس بشار الأسد، كلمة سيادته في قمة شرم الشيخ العربية، تاريخ ١/ ٣/ ٢٠٠٣ م

١٧- المصدر السابق.

١٨- الرئيس بشار الأسد، كلمة سيادته في القمة العربية العادية الخامسة عشرة بتاريخ ١/ ٣/ ٢٠٠٣ القاهرة .

١٩- المصدر السابق

٢٠- الرئيس بشار الأسد، كلمة سيادته في القمة العربية الدورية، عمان ٢٠٠١/٣/٢٧م.

٢١- المصدر السابق

٢٢- الرئيس بشار الأسد، كلمة سيادته في القمة العربية الطارئة بتاريخ٢١/ ١٠/ ٢٠٠٠/ القاهرة

٢٣- الرئيس بشار الأسد، كلمة سيادته في القمة العربية الطارئة بتاريخ ٢٠٠٠/١٠/٢١م القاهرة.

٢٤- الرئيس بشار الأسد كلمة سيادته في القمة العربية الطارئة بتاريخ ٢٠٠٠/١٠/٢١م/القاهرة

٢٥- الرئيس بشار الأسد ، كلمة سيادته في قمة عمان العربية بتاريخ ٢٧/ ٣/ ٢٠٠١م.

٢٦- المصدر السابق

٢٧- المصدر السابق

٢٨- الرئيس بشار الأسد ، كلمة سيادته في قمة بيروت العربية بتاريخ ٢٧/ ٣/ ٢٠٠٢م.

٢٩- الرئيس بشار الأسد ، كلمة سيادته في افتتاح الدور التشريعي العادي الثامن لمجلس الشعب بتاريخ ١٠/ ٣ / ٢٠٠٣م دمشق.

٣٠- المصدر السابق.

❖ ❖ ❖

الدراسات والبحوث

مستلزمات النهوض العربي في زمن هجوم العولمة

د. وجيــــه فانــوس ❊❊

تمهيد

ثمّة واقع معاصر لن تنفع أيّة مكابرة في نفيه أو الالتفاف على حقيقته؛ إنّه واقع التغيُّر السّريع الذي يجتاح مجالات العيش في هذا العالم، إلى درجة يكاد ينتفي معها ما تعوَّد الناس على اعتباره ثباتًا أساسيًا في السياسة أو الاقتصاد أو الاجتماع، بل حتّى في الفكر والثّقافة.

(❊) ألقيت هذه الدراسة، كمحاضرة في مكتبة الأسد بدمشق بتاريخ ٢٠٠٣/٦/٤.

(❊❊) د. وجيه فانوس: باحث من لبنان. يهتم بالفكر العربي الحديث والمعاصر له عدة مؤلفات منشورة.

ينظر بعض المراقبين إلى هذا التغيُّر من خلال عدد من الزوايا السياسية أو الحضارية أو المعرفيَّة، ومن هذه الزوايا مايقود إلى حديث عن أمور منها «العَوْلَمَة» أو «تَحَقُّق القرية الكونيَّة» أو «حضارة المعلوماتيَّة». ويميل بعض المُحللين، من جهة أخرى، إلى رؤية هذا التغيير على أنه «أَمْرَكَة» للعصر تفرض رؤية الولايات الأمريكية المتحدة للعالم ومصالحها على كل الدُّول والنَّاس.

وكيفما دار الأمر، فإنَّ المتغيُّرات في الزَّمن الرَّاهن أصبحت أقوى من كل مظهر للثبات، حتَّى لكأن العالم المعاصر ما عاد يعرف حقيقة وجهه؛ أو لعلَّه أيقن ألاَّ حقيقة ثابتة لما كان يعتبره وجهًا له ومقياسًا لوجوده. ولابد للجميع، والحال كذلك، من الوقوف أمام تحدي هذا الواقع والنَّظر فيه والسَّعي إلى مناهج للتعامل معه، إمَّا لمصلحة لهم في استمراره وانتعاش آفاقه؛ أو رغبة منهم في القضاء عليه وتبديد قواه. لكن، ما من عمل إلاَّ ويتطلَّب تحديد منهج له؛ والمنهج، في هذا المفهوم، يتحمَّل قسطًا كبيرًا من نجاح العمل أو فشله أو حتَّى تعثُّره. لذلك، فالأهميَّة الكبرى التي يواجهها العرب في هذه المرحلة ليست فقط في تحديد موقف لهم من «العولمة» وسواها من قضايا العصر وتحدياته، بل تحديد المنهج الصَّالح الذي يكفل نجاح ما يريدون عمله وتحقيقه.

لعلَّ من أبرز صفات المنهج المطلوب لهذه المرحلة، من المتغيرات غير المحدودة، أن يكون قادرًا على مواجهة المتغيرات، وهي متغيرات غير عاديَّة الإيقاع على الإطلاق. إنها متغيرات سريعة سرعة وسائل التواصل المعاصرة، وعنيفة عنف ما بات العلم يحققه بين ثانية وأخرى من أمور لايكاد يفرغ المرء من الانذهاش بأحدها حتَّى تأتي دهشته بما يليه أشد صَعْقًا وإذهالاً.

وثمَّة تَحَدٌ، آخر وأساسي، ينهض في هذا المجال أمام كل عربي يعيش زمن عُهْرِ الغصب الصهيوني للأرض العربيَّة وخيراتها ومستقبلها؛ إنه التحدي المفروض على الانتماء والهُويَّة والمحافظة على الوجود. ومن هنا، لابدَّ من قيام منهج فكري عملي، قادر على الاسترشاد بالماضي وما قام عليه من أسس الثَّبات، لما لهذا الماضي من ارتباط عضوي بمفاهيم الانتماء والهويَّة والوجود؛ لكن من غير أن يُبْنى هذا المنهج العتيد على ثباتيَّة سيرورة الماضي بالذَّات، لما لهذه الثباتيَّة الماضويَّة من إعاقة لحركيَّة المعاصرة. فالمتغيرات المعاصرة تفرض منهجًا مرنًا قادرًا على فهم حركيتها، وقادرًا، كذلك، على التحاور معها، وقادرًا، أخيرًا وليس آخرًا، على حفظ هويَّة ناسه وشخصيتهم ضمن تفاعل بنَّاء لهم مع واقع العصر وحركته؛ في زمن صهيوني عالمي دَيْدَنُه إلغاء كل ما هو غير عربي وإسلامي، بل كل ما هو آخر.

دراسة حقليّة:

من هنا، يمكن اعتبار القرن العشرين مجالاً مُيَسَّرًا لدراسة نماذج من التفاعل العربي المعاصر مع حركة الحياة وتطوُّراتها؛ كما يمكن، لهذا القرن، بما حفل به من نوعيَّة أحداث ومسالك فعل، أن يشكِّل مصدرًا عمليًا لاستخراج دروس عن مناهج العرب في تفاعلهم مع الحياة المعاصرة.

يمكن النَّظر إلى مسيرة الحياة العربيَّة، بناء على هذا، من خلال أربع محطات أساسيَّة:

١) الحكم العثماني

٢) الانتداب الغربي والحرب العالمية الثانية

٣) مابعد الحرب العالمية الثانية وحتى انهيار الاتحاد السوفياتي

٤)- ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي، وبدء فرض سياسة القطب الواحد، ممثلاً بالولايات المتحدة الأمريكية، على العالم.

محطة الحكم العثماني

لئن استمرَّ الحكم العثماني للمناطق العربيَّة ما ينوف عن خمسة قرون، فإنه احتل من حياة العرب، حوالي العشرين سنة الأولى من سنوات القرن العشرين. لقد غربت الشمس السياسية لهذا الحكم بين سنتي ١٩١٨و ١٩٢٠، إذ أعلن توقف الحملات العسكرية للحرب العالمية الأولى وبدء اتِّخاذ الإجراءات الدَّولية لنهاية الارتباط السياسي بين المنطقة العربية والحكم العثماني.

كانت المنطقة العربية، خلال السنوات الطويلة لهذه المحطة التاريخية من حياة العرب، تشكل وجودًا قوميًا ضمن القوميات المتعددة التي تألفت منها شعوب السلطنة العثمانية. وكان ارتباط المنطقة العربية، بمن في السلطنة، يتم عبر طريقين نوعيين: واحد يمتد مباشرة إلى العاصمة السياسية «اسطمبول»، وآخر ينتقل بين سائر المناطق والقوميات التي تشكل العناصر الدمغرافية للسلطنة؛ مع الإشارة إلى أيًا من أطراف هذه الخطوط لم يجسد أي تعارض أو تناقض بين الخط الذي يمثل والخط أو الخطوط الأخرى التي يتفاعل معها مباشرة، أو يتفاعل مع الآخرين، بصورة مباشرة أو غير مباشرة، عبرها. ف «اسطمبول» مثَّلت في هذه المعادلة مركزية السُلطة، في حين إن الولايات العثمانية مثَّلت التنوُّع الفاعل ضمن تلك المركزيَّة.

اسطمبول ⟷ العرب ⟷ الولايات المتحدة
(وجود مركزي) ⟷ (وجود متنوع)
(عدم تعارض)
منهج متعدد الخطوط

والملاحظ أن العلاقة بين العرب والآخرين، ههنا، لم تكن علاقة ضمن نسيج

من خط أو خيط واحد، بل كانت علاقة تقوم على نسيج شبكي يتألَّف من عدة خطوط أو خيوط. فالارتباط بين العرب والإدارة السياسية المركزيَّة في «اسطمبول» كان خطًّا واضحًا، لكنه كان واحدًا ضمن خطوط أخرى تربط بين العرب وبقية شعوب الولايات العثمانيَّة المتعددي الإثنيات واللغات والديانات. ومن هنا، فلقد تعامل العرب، في هذه المرحلة، مع محيطهم السياسي والديمغرافي والحضاري والاجتماعي، عبر نظام أو منهج متعدد الخطوط وليس عبر منهج أحادي الخط.

ظهر نجاح هذا المنهج في عدد من الوجوه العمليَّة التي انتظمت الوجود العربي طيلة سنين هذه المحلَّة وما سبقها من عقود بل قرون. ولعلَّ من أبرز الأمثلة على هذه الوجوه ما يشهد له التَّاريخ العربي من وجود لمنطقة عربيَّة واحدة، لاحدود سياسيَّة تفصل فيما بينها. وهي منطقة أثبتت قدرة واضحة على التفاعل الإيجابي فيما بينها ومع ما كان يحيط بها ويجاورها من أراض تابعة للسلطنة العثمانيَّة. ومن النَّاحية الاقتصاديَّة فقد تجلَّى هذا الأمر في وجود تجارة حرَّة متنقلة بين الأقطار العربيَّة كافَّة، فضلاً عن حركة واسعة لرؤوس الأموال العربيَّة ضمن هذه المنطقة.

أمَّا على الصعيد الاجتماعي، فقد برز الأمرمن خلال انفتاح اجتماعي بين العرب تمظهر في تأسيس أسر، من أصول مناطقيَّة مختلفة، في مناطق جديدة عليهم. ومن هنا يجد الباحث عددًا كبيرًا لعائلات استقرَّت في مدن ومواقع غريبة عنها؛ فعرفت، خارج المكان الجغرافي الذي تنتسب إليه، عائلات مثل الدمياطي والجزائري والتونسي والبيروتي والمصري والجيزي والصيداوي والطرابلسي والشامي والنابلسي والصفدي والمغربي والبغدادي، فضلاً عن الأرضروملي والداغستاني والإزمرلي والعنتبلي والإستانبولي وسواها.

وعلى الصعيد الفكري والثقافي العام، فقد شهدت البلدان العربيَّة حركة واسعة ونشطة لمفكرين عرب تنقلوا بأفكارهم من بلد إلى آخر، وتمكنوا من ترك بصمات واضحة لهم ليس على مستوى البلد الذي انطلقوا منه وحسب، بل على مستوى البلدان التي أقاموا فيها وسائر البلدان الأخرى. ومن هؤلاء يمكن للباحث أن يذكر أحمد فارس الشدياق، اللبناني القادم من حدث بيروت، وقد صار من أبرز رجالات الفكر والصحافة على مستوى العالمين العربي والعثماني في عصره. وبطرس البستاني، المبشر البروتستانتي، الذي أسس في بيروت مدرسة أسماها «المدرسة الوطنيَّة» وليس المسيحيَّة أو البروتستانتيَّة، وكان في عداد أفراد الهيئة التدريسيَّة فيها المسلمان الشيخ أحمد عبَّاس الأزهري والشيخ يوسف الأسير إلى جانب المسيحي

ناصيف اليازجي. أمّا سليمان البستاني، وهو المسيحي اللبناني من بلدة الدبيّة، فكان وزيرا للأحراش والمعادن في حكومة الباب العالي في «اسطمبول»، وامتدت سلطته الوزاريّة على أرجاء السلطنة كافّة. وليس آخر هؤلاء، شكيب أرسلان، اللبناني من الشويفات، الذي كان من أشهر دعاة الخلافة العثمانيّة في كل أرجاء السلطنة.

ومن الواضح أن هذه الممارسات، وأمثالها، شهدت لنجاحات كثيرة تمثّلت بسعة أفق الطموحات والأعمال والنتائج، مع التّأكيد بأن ثمّة وجود سياسي وعسكري قمعي كان يخيّم بكلكله عليها ويقف في مرات كثيرة في وجهها. فلم يرتبط نجاح العرب أو فشلهم، في هذه النماذج، بنوعيّة الحكم السياسي؛ إذ يبقى الحكم السياسي، وباستمرار، موضوعًا خلافيًا لن يمكن البت فيه بسبب ما يقوم عليه من أمور وما يرتبط به من أمور تبقى محطّ إشكاليّات وتأويل من قبَل الموالين والمعارضين فضلاً عن الدّارسين والمحللين. ولذا، لابدّ من النّظر في عناصر الفشل أو النّجاح من خلال منهجيّة العمل التي تمكّن عرب هذه المرحلة من ممارستها وتحقيق وجود لهم من خلالها.

لقد استطاع العرب أن يحققوا وجودًا خاصًا بهم عبر هذا المنهج المتعدد الخطوط؛ وعرف هذا الوجود حالات كثيرة جدًا من النجاح والتّألق. فتمكّن كثير من العرب من أن تكون لهم أيد مؤثرة في «اسطمبول»، ضمن المجالات السياسية أو الإدارية، وأن تكون لهم، كذلك، فاعليّة مميّزة على الأصعدة الفكريّة والثقافيّة والاجتماعيّة والاقتصاديّة في سائر مناطق السلطنة وولاياتها ومع ناسها على اختلاف قومياتهم.

محطة الانتداب الغربي والحرب العالمية الثانية

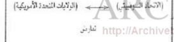
تبدأ المحطة الثانية مع سنة ١٩٢٠، تاريخ ممارسة بعض الدول الغربيّة انتدابها على المنطقة العربيّة. وهكذا، وعلى سبيل المثال وليس الحصر، كان على جزء من المنطقة العربيّة أن يكون ضمن علاقات مع فرنسا، وآخر مع بريطانيا، وثالث مع إيطاليا؛ مع الأخذ بعين الاعتبار بعض التحالفات التي كانت لبعض العرب مع ألمانيا وروسيا وسواها من الدول الفاعلة في تلك المرحلة.

فرنسا	عرب سورية ولبنان
إيطاليا	عرب ليبيا
بريطانيا	عرب فلسطين والعراق ومصر والسودان
ألمانيا/ روسيا	قوى سياسية في العراق ومصر وسورية ولبنان وفلسطين
	تعارض
	منهج ضمن خط واحد محصور

لقد فرض منهج التعامل بين خطين محصورين نفسه على الجميع. فمن كان ضمن أحد الخطوط المشكّلة لواقع تلك المرحلة، وجد نفسه في مواجهة مع من كان في خط آخر مختلف. ولقد تجلّى هذا الأمر عبر عدة مراحل من أبرزها مرحلة الحرب العالمية الثانية وما سبقها ورافقها وتبعها من تصنيفات سياسيّة أوروبية. فمن كان ضمن تبعيّة الانتداب مع الفرنسيين وجد نفسه، في كثير من الأحيان، في تباين سياسي وثقافي مع من كان ضمن تبعية الانتداب للبريطانيين؛ وكذا الحال مع من كان ضمن تبعيّة الاستعمار الإيطالي، أو كان في تحالف ما مع ألمانيا أو روسيا. وضمن محاولات تثبيت التبعيّة أو التحرر منها، وجد ناس المنطقة العربية أنفسهم وقد توزّعوا ولاءات أوروبا خلال الحرب العالمية الثانية: فوالى قسم منهم المحور، وكان عليه أن يتصدى سياسيًا وعسكريًا لمن والى الحلفاء؛ والعكس صحيح أيضًا. أمّا النتيجة المتحصّلة فكانت انقسام المنطقة العربية وناسها، في هذه المحطة، إلى ولاءات متباينة فيما بينها، أو هويّات سياسيّة خارجيّة متعارضة في كثير من الأحيان.

ما بعد الحرب العالمية الثانية وحتى انهيار الاتحاد السوفياتي

وجد ناس هذه المنطقة أنفسهم، بعد إعلان استقلال دول المنطقة العربية، قبيل نهاية الحرب العالميّة الثانيّة وما تلا هذه النهاية، خلال سنوات العقود الأربعة الأولى من النصف الثاني من القرن العشرين، وقد توزّعوا، راضين أو مرغمين، ضمن ولاءين أساسين: فإمّا أن يكون الواحد منهم ضدّ السياسة الامبريالية الأمريكية، مع السياسة الماركسيّة والاشتراكيّة للاتحاد السوفياتي ودول المنظومة الاشتراكية؛ أو ضد السياسات الماركسية والاشتراكيّة هذه، مع الولايات المتحدة الأمريكية ومن يدور في فلكها من دول المجتمع الرّأسمالي.



ويتمظهر الحصاد العملي للمنهج الخطّي، الذي عاشه العرب في هذه المرحلة، في عدد من النتائج التي منها رسم حدود تفصل أجزاء الكيان العربي عن بعضها، مما ساهم في تكوين مظاهر لتمايز سياسي وفكري انجذبت إليه الأنظمة السياسيّة التي كانت تتولّى السُّلطة في كل واحد من هذه الأجزاء. ومن جهته، فقد ساهم هذا الأمر في تكوين منطلقات لبعض مجالات العداء السياسي الظاهر أو الباطن بين كثير من أجزاء المنطقة العربيّة.

وكان من بعض محصّلات هذه الحال أن باتت الحدود بين معظم الدُّوَل العربيَّة فرصة لفرض تأشيرات سفر مُسْبَقَة تُطلَب ممن يرغب في زيارة هذه الدَّولة العربيَّة أو تلك من عرب الدُّوَل الأخرى؛ وتبع هذا ضرورة استصدار رخص عمل وتجارة تُفرَض على العرب الذين لايحملون جنسيَّة الدَّولة التي يعملون فيها.

أمَّا على الصَّعيد الثقافي، فقد كان لهذا المنهج الخطِّي أن شهد لمشاريع ثقافيَّة عربيَّة بشَّرت ببعض خير في العقدين الثاني والثالث من القرن العشرين، لكنها سرعان ما آلت إلى كثير من اضمحلال الفاعليَّة الحقيقيَّة والاعتماد شبه الكُلّي على ما يمكن أن يُعتبر استيرادًا مباشرًا وفجًا لنتائج التجارب الثقافيَّة في الغرب. فلئن أحسَّ المثقفون العرب بكثير من الأمل والانتعاش الثقافي والأدبي مع أفكار «الرَّابطة القلميَّة» و«جماعة أبولو» و«جماعة الدِّيوان» وبعض الصالونات الأدبيَّة والمنتديات التي ظهرت في العقود الأولى من القرن، فإنَّهم واجهوا كثيرًا من الضبابيَّة ومظاهر الفوضى الفكريَّة والتَّجريب والعبثيَّة في كثير جدًا من المشاريع والرؤى الثقافيَّة والأدبيَّة التي عرفوها بعد منتصف القرن العشرين.

ويشهد المستوى الوطني السِّياسي للعرب، في هذه المحطَّة، كارثة كبرى. تتجلَّى بداية الكارثة في تقسيم فلسطين، وتستمرُّ عبر سلسلة من التَّراجعات الكبرى بدءًا من سنة ١٩٤٨، تاريخ الإنشاء الرَّسمي للكيان الصهيوني الغاصب والاعتراف الدَّولي به. فلم يتمكَّن العرب من ممارسة رفض عملي لقرار التقسيم وإنشاء الكيان الغاصب، مما ساهم في تشريد عرب فلسطين عن أرضهم. ومن ناحية ثانية، لم يتمكَّن العَرب من المحافظة على ما تبقَّى من أرض فلسطين التي كانت بيد أبنائها العرب بعد الاعتراف الدَّولي بالكيان الصهيوني الغاصب،فخسروا الضَّفة الغربيَّة لنهر الأردن وغزَّة سنة ١٩٦٧، فضلاً عن تمكُّن إسرائيل من احتلال مساحات أساسيَّة من الأرض العربيَّة في سيناء والجولان وجنوب لبنان وبقاعه.

وتأتي «جامعة الدُّول العربيَّة»، التي كان تأسيسها أملاً عمليًا في قيام توحيد عربي ما، لتشهد، عبر مسيرتها الطويلة، على عدم تحقُّق هذا الأمل. ومن جهة ثانية، فعلى الرغم من تمكُّن العرب من تأسيس ما عرف بـ «مجلس الدفاع العربي»، فإنهم لم يستطيعوا تقديم أي دفاع عسكري فعلي عن أنفسهم عبر هذا المجلس أو بواسطته. ولعل كل هذه الأمور، وسواها، ساهمت في قيام اقتصاد عربي يعيش أزمات متنوعة، ويشهد اختلالات كبيرة في توازنه، ويقوم قسم كبير منه على المساعدات المباشرة وغير المباشرة من الدول الغربية وخاصة

الولايات المتحدة الأميركيَّة. وتبقى بارقة أمل هي الدُّرة الناصعة للعرب في هذه المحطة، حرب مجيدة خاضها الجيشان العربيان السوري والمصري ضد إسرائيل سنة ١٩٧٣؛ والملاحظ أن هذه الحرب لم تُخَض بمنطق المنهج الخطِّي على الإطلاق، بل كان خوضها من إيمان راسخ بحق الوجود، وحريَّة مطلقة في تنفيذ هذا الإيمان بعيدًا عن أي تَوَجُّه يسعى إلى أي إرضاء لأيَّة قوة دوليَّة عظمى كانت أو صغرى.

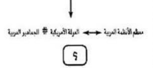
ويشهد التَّاريخ أن العرب لم يتمكَّنوا طيلة هذه المحطَّة من تحقيق وجود عربي واحد فاعل لهم عبر هذا المنهج الخطِّي الذي سلكوه. تفرَّقوا، رغم محاولات لقيام «وحدات عربيَّة» فيما بين الدُّول العربيَّة، شيعًا وأحزابًا يعارض بعضهم البعض الآخر؛ وكم سعى كل فريق إلى نبذ الآخر، بل إلى تخوينه ورفض وجوده. فكانت الانقسامات العربيَّة بناءً للتبعيَّات الاستعماريَّة أو المصالح والأهواء الذاتيَّة؛ وكانت التَّفرقة، ونشوء كثير من الحدود الإقليميَّة المصطنعة والمسيَّسة لصالح الانتداب أو الاستعمار أو المصلحة الضَّيقة، وكان توجُّه واضح نحو ممارسات منغلقة باتجاه المحلي والإقليمي أكثر منها منفتحة باتجاه الكل العربي.

محطَّة ما بعد انهيار الاتحاد السوفياتي

تُعْلِنُ هذه المحطَّة عن وجودها بأنَّها مرحلة العَوْلَمَة السياسيَّة التي مركزها الولايات المتحدة الأميركيَّة. إنَّها، وبغض النَّظر عن أي اعتبار، عولمة معرفيَّة وثقافيَّة عامَّة ذات مركزيَّة ما مرتبطة بالعولمة الاقتصاديَّة التي تُنظِّر لها الولايات المتحدة الأميركيَّة وتعمل على تحقيقها بشتَّى الطُّرق، بما فيها الطُّرق الحربيَّة على اختلاف أنواعها وفنونها. وهنا وجد العرب أنفسهم في حال لاتدعو إلى أي اطمئنان، إذ هي حال شديدة الوضوح، لاتحتمل أي تمويه؛ وهي، كذلك، حال أعلنت عن وجودها منذ البداية ولم تخضع لأي محاولة استتار؛ فهي واقع جلي من إفراز العيش العربي المعاصر.

إن معظم الأنظمة العربيَّة وجدت نفسها منساقة مع رؤيَّة الإدارة السياسيَّة للولايات المتحدة الأميركيَّة للعَوْلَمَة، في حين أنَّ معظم الشعوب العربيَّة، إن لم يكن كلها، وجدت نفسها ضد هذه الرؤيَّة الإدارة السياسيَّة للولايات المتحدة الأميركيَّة. ولقد ساهمت هذه الحال في إحداث ضياع كبير في رؤيَّة الموقع الفعلي والعملي لتحقيق المصالح العربيَّة، أهو ضمن سياسة الأنظمة الحاكمة الموافقة للولايات المتحدة، أم هو عبر رفض الشعوب العربيَّة لهذه

الرؤية؟ وهكذا، برز تشوُّشٌ عربي عام، كما ازداد التَّراجع العربي السياسي والاقتصادي والعسكري وسوى ذلك من حقائق الوجود العربي.



إذا كان كثير من الدَّاعين إلى العولمة يبشرون بمرحلة زمنيَّة يسقط فيها كثير من مفاهيم الطَّبقيَّة والقوميَّة، فلابدَّ من البحث عن الأسس الجديدة التي يتوقَّع أن يقوم عليها المقبل من الزَّمن، والتي يمكن أن تكون ملامحها قد بدأت تخط وجودها اليوم. ولعلَّ من أبرز ما خطَّته العولمة من ملامح، في المرحلة الرَّاهنة، اتِّهام ناسها وكثير من دعاتها للفكر العربي بأنه عدائي وأصولي؛ علمًا أن التجربة الحضاريَّة العربيَّة تثبت على مر العصور قابليَّة مميزة للانفتاح الحضاري والتفاعل الإيجابي البنَّاء. ومن الواضح أن هؤلاء يبنون اتِّهامهم على ما قام به بعض العرب إبَّان العقدين الأخيرين من القرن العشرين، اللذين شهدا عدم وضوح في منهج التعامل العربي مع العصر، من محاولات تثوير ورفض للواقع وسعي إلى التَّحرير.

وعلى هذا الأساس، يمكن القول إن أهم إفرازات الدعوة إلى العولمة كانت تنصب العداء لكل ما هو تثوير عربي ولكل ما هو سعي إلى التَّحرير والاستقلال أو حتى الانتفاض. وضع أرباب العولمة العرب في قفص اتِّهام واسع في مساحته المكانيَّة وعريض في مساحته الزمانيَّة؛ ولم يقف الأمر عند هذا الحد، بل إن قضبان القفص بدأت تهمُّ بالأمتداد لتشمل كثيرًا من أسس الماضي ومفاهيم الوعي ورؤى المستقبل.

لقد تسبب عدم اعتماد منهج واضح في التَّعامل، بكثير من الأمور الصَّعبة التي ما برح يعيشها العالم العربي. ولعلَّ ما يحصل حاليًا في العراق، وما نتج عن أحداث العراق في سائر الأقطار العربيَّة، لشاهد على هذه الصعوبة. من جهة ثانية، فإن ثمَّة بارقة أمل مضيئة في هذه المرحلة نتجت عن الانطلاق من الإيمان بالذات وحقوقها، وكانت نتيجة تناغم وتنسيق ودعم بين قوى الجماهير العربية ومن أدرك خطورة هذا الأمر ومصداقيته من قوى السلطة العربية؛ ولقد تجلَّت هذه البارقة في تَشَكُّلين لها مقاومين، الأوَّل في «الانتفاضة»، والثاني في «دحر الوجود الصهيوني من جنوب لبنان».

خلاصة أولى:

يمكن استخلاص مسارات مناهج العمل العربي خلال المحطات السَّابقة كما يلي:

١)- مسار شَبَكي (منظومي) قبل سنة ١٩١٨؛ قاد إلى عدد لايستهان به من النجاحات العربية.

٢)- مسار خطِّي من سنة ١٩١٨ وحتَّى سنة ١٩٩٨؛ قاد إلى إحباط شبه شامل، خلا بعض اللمعات القليلة الناجحة.

٣)- مسار غير محدد الملامح من سنة ١٩٩٨ وحتَّى اليوم، أدَّى إلى إحباط امتدَّ على أصعدة حياتيَّة كثيرة.

العرب بين المنهج الخَطِّي والمنهج الشَّبكي (المنظومي)

يقوم المنهج الخطِّي على مقولة أساس تتمظهر في الاتجاه ضمن خط واحد، معتبرة أن أي خط سواه خطأ إن لم يكن، على المستوى السياسي والشخصي، خيانة. ومن هنا، كان الخيار الأبرز، في المنهج الخطي، بين «الأنا»، بكل ما تشتمل عليه وينجم عنها، و«الآخر»، بكل ما يشتمل عليه وينجم عنه؛ فكل ما هو خارج «الأنا» مرفوض، وكل ما هو «الآخر» خائن. وجد العرب أنفسهم، على هذا الأساس، أمام سلسلة من الاختيارات المحدودة والقاتلة في الآن عينه. محدودة، إذ هي مرتبطة بموضوعات معيَّنة من دون سواها، وقاتلة، إذ هي من خارج حقيقة هوية العرب ووجودهم.

من النماذج الشَّاهدة على هذه الحال، أن «عرب» الفرنكوفونيَّة وجدوا أنفسهم ضد، أو على خصومة مريرة، مع «عرب» الأنكلوسكسونيَّة؛ والعكس صحيح أيضًا. وكما الحال على المستوى اللغوي الحضاري، فهو كذلك على المستوى السياسي؛ فـ «عرب» الاتِّحاد السوفياتي يُخَوِّنون «عرب» الولايات المتحدة الأميركيَّة، والعكس صحيح تمامًا. ولايتغيَّر الوضع في المجالات الفكريَّة عن هذا النَّسق من الفاعليَّة والتفاعل، إذ «عرب» التقليد الفكري والأدبي، يُخَوِّنون «عرب» التَّجديد الفكري والأدبي، والعكس واقع في كل حال. وخلاصة القول، فإنَّ ما نجم عن هذا المنهج لم يتعدَّ كونه تجارب عداء عربية ضد عرب، ومساعي إلغاء عربية لعرب آخرين.

وثمَّة نموذج آخر، مؤلم، عن الفاعليَّة العربية، عبر المنهج الخطِّي، تتجلَّى في بعض مظاهر التَّعامل الرَّسمي، الذي يغلب عليه التَّراجع، مع قضيَّة فلسطين؛ وهي القضيَّة الأكثر حساسيَّة وشعبيَّة وخطورة في الحياة العربيَّة المعاصرة. وكذلك، فإنَّ الشعارات والنِّداءات العربيَّة التي سادت الشَّارع العربي تشكِّل مرآة ناصعة مؤلمة لهذه التراجعات. فلئن كان الشِّعار العربي الأشهر «تحرير كامل التراب الفلسطيني» ذاع وعمَّ بين العرب منذ سنة ١٩٤٨، فإن شعار «الصلاة في المسجد الأقصى» انتشر سنة ١٩٦٧، وهو يظهر محدوديَّة استراتيجيَّة إذا ما قورن بالشِّعار الذي

سبقه. أمّا النداء الذي تلا، فكان «التفاوض على نسب معيّنة من مساحة الضفّة الغربيّة لتكون تحت الإشراف الإداري المباشر للسلطة الفلسطينية»، وقد برز هذا سنة ١٩٩٤، ولعل لامجال للمقارنة بينه وبين سابقَيْه. وكان لسنة ٢٠٠٢ أن تشهد ظهورًا لنداء آخر، وإن كان مرحليًا، ومفاده «الموافقة الفلسطينية على إبعاد مناضلين فلسطينيين عن أراضي الضّفة الغربيّة لأنهم واجهوا الغصب الإسرائيلي في كنيسة المهد». وأخيرًا، وقد لايكون آخرًا، ظهر في الآونة الأخيرة«إصرار على تطبيق خارطة الطّريق»!!

يستند المنهج الشّبكي (المنظومي) إلى مقولة أساس، مفادها أنّ تجربة العيش لايمكن أن تنتظم من خلال مسار واحد، بل هي جُماع عدد من المسارات المتعاونة والمتكاملة فيما بينها. ومن هنا، فـ «الأنا» لايمكن أن تكون إلاّ بـ «الآخر»، كما أن «الآخر» لايمكن أن يكون إلاّ بـ «الأنا». وإذا ما سعى المرء إلى امتحان هذا الأمر، من خلال ممارسات العرب للمنهج الشّبكي هذا، فسيجد في علاقة عرب المناطق العربيّة فيما بينهم، وعلاقة عرب الولايات العثمانية مع ناس الولايات العثمانية الآخرين، تجربة تحتضن كثيرًا من مبادئ قبول الآخر والتفاعل معه.

عملانيّة المنهج الشبكي (المنظومي)

ثمّة حقيقة متأتّية من المنهج الخطّي في التّفكير، تتميز عبر مفهومي الصّواب والخطأ؛ في حين أن الحقيقة المتأتية من المنهج الشبكي (المنظومي) تقوم على مفهوم العملانيّة وحدها المرتبطة بالقابليّة للتّحقّق والتّنفيذ. ولقد اتضّح في هذه المرحلة من العيش، وخاصة إبّان العقود الثلاثة الأخيرة، أن مقياس الوجود في الزّمن الرّاهن يقوم على القدرة في تحقيق الفاعلية، بغض النّظر عن مسبباتها؛ في حين أن مقياس الوجود في المرحلة السّابقة لزمننا الحالي، قامت على الحدث المسبب للفاعليّة.

يمكن القول، تاليًا، إن المعطيات «القديمة»، المُمتدّة في الماضي، لفهم طبيعة الأمور ومجالات حركيّاتها، لم تعد قادرة اليوم على النُّهوض بما أنيط بها من مهام. لقد قامت على أسس من منهجية خطيّة، في حين أن ما نعانيه اليوم، من نتائج للعيش والفكر، إنما يقوم على أسس شبكية (منظوميّة). ومن الواضح أن منهج التفكير الشّبكي (المنظومي) يُسقط، على المستوى النّظري على الأقل، مقولة أن القوّة العالميّة لاتكون إلاّ بيد الدّول القويّة، بل بات بالإمكان تحقيق كثير من هذه القوة عبر جماعات صغيرة قادرة على تنفيذ فعل القوة. وواقع الحال، وبغض النّظر عن أي

موقف مؤيِّد أو معارض، فإن في نموذج أحداث ما يعرف بالحادي عشر من أيلول، وما لحق بها من دخول أميركي بريطاني إلى العراق، ما يؤيِّد هذه الفكرة. وانطلاقًا من هذا الفهم لعملانيَّة المنهج الشَّبكي (المنظومي)، ومن شاهد الحال في الزَّمن المعاصر، فإنَّ الدِّيمقراطيَّة، التي مورست من قبل ضمن مفهوم غلبة العدد، باتت اليوم تشهد ميلاً نحو ممارسة غلبة الفُرص الفاعلة على تلك غير القادرة على الفعل.

يقوم منهج التفكير الخطي على فهم الجزء ومعرفته، باعتباره المدخل الوحيد لفهم الكل. ومن هنا كانت الدعوة إلى تفكيك الكل، والتَّعرُّف إلى أجزائه. ولعل أبرز من نظَّر للتفكير الخطي كان ديموقريطس في اليونان القديمة، ثم ديكارت ونيوتن فيما بعد. أمَّا منهج التفكير الشَّبكي (المنظومي) فيقوم على أنه لايمكن فهم الأجزاء إلاَّ من خلال ديناميـة الكل. الكل أصل، فإذا ما كان ثمَّة فهم لدينامية الأصل، بات من الممكن اشتقاق مبدئي لخصائص الأجزاء. لعل أبرز من شجَّع على اتباع المنهج الشبكي (المنظومي) كان علم الفيزياء المعاصر، ومنه برزت الدعوة إلى فهم الأجزاء من خلال السياق وليس فهم السِّياق عبر الأجزاء. فالسِّياق، في الفيزياء، هو المؤثر والمغيِّر لواقع فاعليَّة الأجزاء، وليست الأجزاء هي المؤثرة أو المغيِّرة لواقع فاعليَّة السِّياق. ومن هنا يمكن القول إن المنهج الشبكي (المنظومي) يتطلَّب متغيِّرات مستقلة، ذات تأثير ثابت على متغيِّرات ثابتة. ولقد كان أبرز المتحمسين لفكرة هذا المنهج الفيزيائي الألماني فرنر هايزنبرغ.

التفكير الشبكي (المنظومي) هو التفكير بالسيرورة وليس بالبنية، إذ سيرورة الأمر أو الشيء هي المنطلق والموجه وليست بنيته أبدًا. ومن هنا، لم تعد المعرفة قائمة على أسس تبنى عليها، فلطالما أثبت الواقع تكسُّر هذه الأسس وتغيُّرها. المعرفة تقوم على شبكة متَّسعة من العلائق؛ ومن هنا يعتمد الفكر الشبكي(المنظومي) منهج الشَّبكة، في حين يعتمد الفكر الخطي منهج البناء. وإذا كان المنهج الشبكي (المنظومي) لايقود إلى حقيقة ثابتة أو التعرُّف اليقيني عليها، فبالإمكان الوصول، عبره، إلى كثير من محطات الفهم التقريبي للحقيقة.

إن مراجعة متأنيَّة لمناهج التَّفكير عبر التُّراث الحضاري العربي تفيد، وبوضوح لافت، أن العرب مارسوا كثيرًا من فاعليتهم الإيجابيَّة النَّاجحة عبر منهج التفكير الشبكي (المنظومي) وليس عبر منهج التَّفكير الخطي. فحضارة العرب في مرحلة ما قبل الإسلام، وهي حضارة بنت معظم مداميكها، إن لم يكن كل هذه المداميك، على التِّجارة، لم تتعامل مع بيئتها

السياسيَّة والجغرافيَّة على أساس خطِّي يثبت طرفًا ويلغي آخر. إن عرب ما قبل الإسلام مارسوا التجارة في الصيف كما مارسوها في الشتاء، واتَّجروا مع الروم كما اتَّجروا مع الفرس أعداء الروم أو خصومهم السياسيين. وعرب المرحلة الإسلاميَّة أظهروا مقدرة لافتة في ممارسة فاعليتهم عبر المنهج الشبكي (المنظومي) حين اتَّصلوا بكثير من الحضارات والثقافات والأمم والشعوب المختلفة والمتباينة فيما بينها؛ ثم تمكنُوا، بجدارة راقيَة، من ربط كل هذه الاتِّصالات، على مختلف نوعياتها ومستوياتها، لينشؤوا منها ما عرف في التَّاريخ باسم الحضارة الإسلاميَّة.

ومن جهة أخرى، فإن الدين الإسلامي بحد ذاته، وتحديدًا مناهج التَّفكير والتَّفاعل التي يطرحها النَّص القرآني، إنما هي مناهج شبكيَّة (منظوميَّة) في معظمها؛ وهي مناهج تدعو العقل الإنساني إلى تفاعل حي خلاَّق مع محيطه وبيئته وأمور عيشه ومتطلبات مستقبله. فالنَّص القرآني يحض على التَّفكُّر والرَّبط بين الأمور وعدم التعامل معها من جانب واحد مقيَّد بذاته. والأمثلة على هذا كثيرة وواضحة لكل من يسعى إلى درس في النَّص القرآني ومناهج التَّفكير فيه.

لقد أثبت الفكر العربي لمرحلة ما قبل الإسلام، كما الفكر العربي في المرحلة الإسلاميَّة، تمكُّن منهج التَّفكير الشبكي (المنظومي) من تحقيق نجاحات واسعة للعرب على كثير من المستويات التي خاضوا عيشهم وتفكيرهم فيها. فحقق لهم نجاحات اقتصادية وأخرى سياسيَّة، فضلاً عن النجاحات الفكريَّة والمعرفيَّة والثقافيَّة، وساهم في تبوئهم المكانة الحضاريَّة المرموقة التي احتلوها، زمنذاك، في مسيرة الأمم.

أثبت الفكر العربي في العقود الثمانين الأخيرة من القرن العشرين، أي في العقود التي نجمت عن مرحلة الانتداب الغربي على البلدان العربيَّة، وما رافق هذه المرحلة وتلاها من خطوات وسياسات استعماريَّة ونتائج تقسيميَّة وتوزُّعات مناطقيَّة وإقليميَّة قوميَّة، وما استغرق هذا كله من منهج تفكير خطي بياني، ضعفًا مزريًا في تحقيق نتائج تفوق عملي على مستويات العيش العربي كافة، وخاصة الاقتصاديَّة والسياسيَّة والعسكريَّة منها، فضلاً عن تلك الفكريَّة والمعرفيَّة والثقافيَّة.

خلاصة ثانية:

لعلَّ بالإمكان القول إن حضاريَّة العرب، المنبثقة من منهج التَّفكير الشبكي (المنظومي)، والظَّاهرة جليًا في عدد كبير من محطَّات حياتهم قبل نهاية العقدين الأوَّلين من القرن العشرين، أثبتت قدرة مميزة لهم على التفاعل الإيجابي والبناء

والمحافظ على الهويّة والوجود، إذا ما قورنت مع كثير من مفاهيم قوميّتهم عبر منهج التفكير الخطي الذي سيطر على كثير من سلوكيّاتهم، وقادهم إلى كثير من ردّات الفعل عبر سنوات طويلة من عقود القرن العشرين.

فَهَل يُمكن،

❖ بقراءة لتجربة ما مضى من عقود القرن العشرين وما سبقه وما تلاها،

❖ وباعتبار أن المستقبل لم يعد قائمًا على نماذج تراثية مستقلة من الماضي وتجاربه،

❖ وبأن على الإنسان المعاصر الاسترشاد بالماضي من غير أن يبني وجوده على نموذج هذا الماضي،

ممارسة الفكر والتّفاعل العربيين مع العيش المعاصر، بمختلف أصعدته ومستوياته، على منهج شبكي (منظومي) وليس على منهج خطي؟ وإذا ما كان الحال كذلك، فإن هذا قد يقود العرب إلى عدد من الأسس الفكرية لعيشهم التي من أبرزها:

❖ إن المعرفة لم تعد قائمة على أسس تبنى عليها، بل المعرفة تقوم على شبكة متّسعة من العلائق.

❖ لايمكن فهم الأجزاء إلاّ من خلال ديناميّة الكل، إذ الكل هو الأصل؛ فإذا ما كان ثمّة فهم لديناميّة الأصل، بات من الممكن القيامُ باشتقاقٍ مبدئيٍّ لخصائص الأجزاء.

❖ إن سيرورة الأمر، وليس بنيته، هي المنطلق والموجّه له ولأي تفاعل معه وبه.

❖ إن حقيقة الوجود ليست في العدد، ولكن في القدرة على تحقيق الفاعليّة.

❖ إن القوة ليست في الغلبة الكميّة، بل في الغلبة النّوعيّة المتمثلة في التمكّن من تنفيذ المراد.

ومن هنا، فهل يمكن اعتبار العروبة الحضاريّة، المبنية على حقيقة الهويّة القوميّة العربيّة ومجالات نجاحها الإنساني، منطلقًا عقديًا أساسًا للمرحلة الحاليّة التي نعيش من القرن الحادي والعشرين، وذلك لما في الممارسة الحضاريّة من تنظيمات شبكيّة (منظوميّة)؛ إذ العلاقات العالمية والدولية المعاصرة تقوم ضمن تكوّن شبكي (منظومي) تتلاقى عبره الحضارات الإنسانية وتتفاعل فيما بينها؟

وهنا، لابد كذلك، من درس معمّق ومسؤول لما يمكن أن ينتج عن اعتماد العروبة الحضاريّة فعل إيجابي للقوميّة العربيّة، وما يمكن أن ينتج عن هذا الاعتماد على منطلق العروبة الحضاريّة من سلبيات وإيجابيات؛ خاصّة في مفاهيم الحريّة والدمقراطيّة والآخر المقبول والآخر

غير القابل للتفاعل والمرفوض من ثمَّ. إنها مفاهيم طالما كان التعامل العربي معها تعاملاً خطيًا، فعاشت في الفكر والممارسة وجودًا مقيَّدًا باختيارين لاثالث لهما، اختيار الاتِّباع أو اختيار الوسم بالخيانة، ضمن مقاييس تعنى بالبناء وليس بالسيرورة، وتهتمّ بالأسس وليس بالعلائق، وتحفل بما هو قائم وليس بما له قدرات واعدة بالقيام.

استنتاج

النُّهوض العربي ضرورة لمستقبل ناس العروبة وأهلها وأرضها. ولعل هذا النُّهوض لن يتحقق عبر تكرار التجارب المفجعة التي مرَّ بها عرب المئة السنة التي مضت. إنهم عرب التفكير الخطي، والتفاعل مع الأحداث والأفكار والنَّاس عبر هذا المنهج. ولربما كان النهوض العربي العتيد، عبر النَّظر في تجارب عرب القرون الماضيَة، وعبر اعتمادهم منهج التفكير الشبكي (المنظومي). لقد نجح هؤلاء العرب في تحقيق وجود ناهض، بل رائد لهم، عندما تفاعلوا وفعلوا في قضايا زمنهم وموضوعاتهم عبر المنهج الشبكي (المنظومي)، فما الذي يمكن أن يمنع هذا النجاح إذا ما تعاطى عرب اليوم مع قضايا زمنهم المعاصر وموضوعاته عبر هذا المنهج؛ خاصَّة وأن كثيرًا من الدلائل تشير إلى أن هذا المنهج هو منهج إيقاع الزَّمن المعاصر، وهو زمن الفعل الحضاري والسياسي والعلمي والثقافي لهذه المرحلة، وهو زمن يأتي في كثير من التوافق مع حقيقة التراث والفكر الإسلامي؟!!

❖ ❖ ❖

صدام الحضارات وحوارها بين الشرق والغرب «رؤية جديدة»

د. علي عثمان محمد صالح *

١ - تمهيد

طرح الفكر الأمريكي المعاصر نظريتين مثيرتين في نهاية القرن الماضي. جاءت الأولى كنتاج لنهاية «الحرب الباردة، وانتصار الليبرالية بعدما انهزمت الشيوعية وتداعت مجتمعاتها وأخذت تبحث عن خلاصها في صيغ الديمقراطية الغربية. فقد نشر *FRANCIS FUKUYAMA* مقالاً بعنوان « نهاية التاريخ» في عدد من المجلات العالمية في خريف ١٩٨٩ م(١) ، ثم أعقب ذلك نشر كتابه بعنوان : *THE END OF History and the Last Man, New York, Free Press. 1992* وتؤكد الأطروحة الأساسية لنظرية فرانسيس فوكوياما انه

(*) علي عثمان محمد صالح: باحث من القطر السوداني الشقيق، رئيس قسم الآثار - جامعة الخرطوم.

ذلك فإن انتصار الليبرالية وضع نهاية التطور الإيديولوجي للإنسانية. ولم يكن هذا الانتصار مقصورًا على الغرب، ففي الشرق أيضًا كان نجاح اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان يعزز المزيد من التغيرات على الطريق نفسه. وكانت الديمقراطية الليبرالية ذروة الحقبة الرأسمالية المنتصرة، تلك التي يمكن لأبنيتها أن تحتوي التنافس الاقتصادي بين الدول. وهو التنافس الذي سيمضي إلى نهاية الوقت. وقد أكدت النظرية أن بعض الصراعات لابد أن تستمر، لكنها ستظل ثانوية، غير قادرة على تحدي الهيمنة الليبرالية.

جذب مقال فرانسيس فوكوياما الانتباه فتدافع الكتاب إليه وترجم إلى جميع اللغات الأساسية وأشار إليه كل كتّاب ومحرري الأعمدة في الصحف والمجلات العالمية السيارة وسرعان ما أصبح المقال الخلاصة العقائدية لما سمي بالعولمة والتي تدل على مجمل نتائج ثورات ثلاثة تعم العالم وهي :ثورة المعلومات، وثورة الاتصالات وثورة نظم علاقات الإنتاج وقد أدت هذه الثورات إلى تغيير فكرتي المكان والزمان فأصبح التبادل معممًا بين مختلف أصقاع المعمورة وفتحت الحدود والأسواق وسيطرت قوة عظمى وحيدة - هي القوة الأميركية - على الأمور وإليها يعود - لو أرادت - فصل الصراعات وحل المشاكل حيثما وجدت وعلى النحو الذي تريد، ثم هي قوة عظمى تنشر لغتها وثقافتها وقيمها نشرًا أيسر وعلى مراحل، فلا كوابح لها ولا شريك، وهي تنشر بوجه أعم أنموذجا انبنى على أساس الدولة الدنيا، والمرونة الكلية، والقيم الخاصة، وتوهمنا بنشأة سريعة لمجال عالمي لتبادل حر، يكون غاية في الشفافية، تتناقص فيه الفوارق الثقافية والهويات الوطنية وإرادة الاستقلال.

أما النظرية الثانية التي طرحها الفكر الأمريكي المعاصر في نهايات القرن الماضي فهي نظرية «صدام الحضارات» التي أبدعها صموئيل هنتقتون ونشرها في مقالة بعنوان: Samuel p . Huntington.
The clash ot civilizations

Forbeign Affairs,
vol.72,No.3summer 1993,pp.- 22- 49

وقد دار نقاش مستفيض وطويل حول هذه النظرية بين مختلف المدارس الفكرية المعاصرة في العالم وزاد الاهتمام بها لدرجة جعلت إحدى أكبر دور النشر الأمريكية (Simon and schuster) أن تطلب من صاحبها تطويرها وتوسيعها لتنشر في كتاب حتى يسهل على القراء الحصول عليها، وفعل الكاتب ذلك، ونشر الكاتب عام ١٩٩٦م (٢) بعنوان : صدام الحضارات وصنع النظام العالمي. وقد ظهرت من هذا الكتاب طبعتان عربيتان أولاهما بترجمة الدكتور طلعت الشايب،

وبمقدمة للدكتور صلاح قنصوه صدرت عام ١٩٩٨ م عن دار نشر سطور في القاهرة، وثانيتهما بترجمة الدكتور مالك عبيد أبو شهيوة والدكتور محمود محمد خلف، صدرت عن الدار الجماهيرية في مصراته في ليبيا، قد تصدرتها مقدمة للمترجمين يشرحان فيها أسباب ترجمتهما للكتاب تلاها استهلال مطول عنوانه **«مساهمة أولية للوعي بالآخر: منطلقات وآليات صدام الحضارات»**. كما أن كتّابًا ومفكرين عرب آخرين تصدوا لهذه النظرية وناقشوها من منطلقات الحضارة العربية الإسلامية وأصدرت جهات عربية عدة إصدارات هامة شملت مناقشات مفيدة لهذه النظرية نذكر منها هنا مجلة «الآداب» التي أصدرت عددًا خاصًا عن «**الحضارات والثقافات بين الحوار والصراع**» السنة (٤٨)، العدد ٣، ٤ - آذار / نيسان ٢٠٠٠. والعدد الخاص الذي أصدرته مجلة «الاجتهاد» (بيروت) عن : «**مسألة الحضارة والعلاقات بين الحضارات**»، السنة الثالثة عشرة، العددان الثاني والخمسون والثالث والخمسون، خريف وشتاء العام ٢٠٠١ - ٢٠٠٢ . والملف الخاص الذي نشرته مجلة « العربي » (الكويت) عن « **الإسلام والغرب: صدام الحضارات - متى تحين لحظة الحوار**». العدد ٥١٨ يناير ٢٠٠٢ والعدد ٥١٩ فبراير ٢٠٠٢. وأصدر مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق (بيروت) كتابًا بعنوان «**الغرب وبقية العالم بين صدام الحضارات وحوارها**»، ٢٠٠٠. وأصدرت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (تونس) كتابين، الأول : **الحوار الثقافي العربي الأوروبي: متطلباته وآفاقه**،٢٠٠٢، والثاني : **السياسات الثقافية من أجل التنمية في الوطن العربي**، ٢٠٠٢. ومن إصدارات المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم كذلك كتابان للدكتور المنجي بو سنينة، مدير عام المنظمة بعنوان :رؤى ومواقف ومدارات . يعالج فيهما الكاتب مسألة الحوار بين الحضارات ومسألة العولمة وتداعياتها. كما أصدر مركز البحوث والدراسات في دولة قطر كتابًا بعنوان :الدور الحضاري للأمة القمة المسلمة في عالم الغد، بمناسبة انعقاد مؤتمر القمة الإسلامي التاسع ٢٠٠٠ . كما أصدر السيد الصادق المهدي (الخرطوم) كتابًا بعنوان :**جدلية الأصل والعصر**. يناقش في بعض محاوره عيوب الحضارة الغربية وشبهات تفوقها والحوار بين الحضارات ويضع مقابل ذلك حججًا مقنعة في مجالات الصحوة الثقافية الإسلامية.

إذاً ما هي أساسيات نظرية «صدام الحضارات»، يقول هنتنغتون:

١ - إن المصدر الأساسي للصراع في هذا العالم الجديد، أي عالم ما بعد

العولمة، لن يكون بشكل رئيسي إيديولوجيًا أو اقتصاديًا كما كان في العالم القديم.

٢ - إن الصراعات الرئيسية للسياسة العالمية ستحدث بين أمم وجماعات ذات حضارات مختلفة وسيهيمن صدام الحضارات على السياسة العالمية لتكون خطوط الصراع بين الحضارات خطوط المعركة في المستقبل.

٣ - إن الصراع بين الحضارات سيكون الطور الأخير في تطور الصراع في العالم الحديث.

٤ - إن الإطار الأوسع للتاريخ الإنساني كان تاريخ الحضارات وكانت هناك حضارات كثيرة، فقد عدَّ أرنولد توينبي منها إحدى وعشرين حضارة رئيسية ولكن الحضارات تختفي وتدفن في رمال الزمن ولا يوجد منها في العالم المعاصر إلا ست.

٥ - سيكون الشكل العام للعالم مرتبطًا إلى حد كبير بالتفاعل بين سبع أو ثماني حضارات كبيرة تشمل الحضارات الغربية والكنفوشيوسية واليابانية والأمريكية واللاتينية وربما الأفريقية. وستحدث أهم النزاعات في المستقبل على امتداد خطوط التقسيم الثقافية التي تفصل هذه الحضارات الواحدة عن الأخرى. لأن الفروق بين الحضارات ليست فروقًا حقيقية فحسب، بل هي فروق أساسية. فالحضارات تتمايز الواحدة عن الأخرى بالتاريخ واللغة والثقافة والتقاليد والأهم الدين.

٦ - إن حجم العقبات التي تقف في وجه انضمام البلدان غير الغربية للغرب يتفاوت بين بلد وآخر ولكنها أكبر بالنسبة إلى المجتمعات الإسلامية والكونفوشيوسية والهندوسية والبوذية. وهناك ضرورة عاجلة لاحتواء هذه المجتمعات لأنها بدأت تتقارب لبعضها البعض وخاصة الدول الكنفوشيوسية والإسلامية حيث يتركز النزاع بين الغرب وبينها إلى حد كبير.

٧ - بالنسبة للمستقبل، فلن تكون هناك حضارة عالمية، بل عالم يضم حضارات مختلفة ينبغي أن يتعلم كل منها التعايش مع غيره.

٢ - مناقشة:

توافقت نظريتا الفكر الأمريكي المعاصر مع الموقف السياسي الآني للولايات المتحدة ومع نظرتها للنظام العالمي الجديد الذي ابتدعته عقولها السياسية وقوتها العسكرية الضارية واستخباراتها الداخلية والخارجية. لذا دفعت الدولة الأمريكية وآلياتها الإعلامية القوية والمسيطرة على الإعلام العالمي بالنظريتين إلى المقدمة لتصبحا الشغل الشاغل للعالم أجمع، فصارتا موضة الفكر والفلسفة في بدايات الألفية الثالثة.

ولكن، لم تكن أمريكا وحدها التي كانت تحتفي بالألفية الجديدة القادمة، بل كان العالم كله مشغولاً بهذا الحدث الثاني فقط في عمر الحضارات الإنسانية تحت ظل الأديان السماوية. وكان معظم علماء العالم يجمعون ويطرحون المكاسب والخسارات في الألفي سنة الماضية بمقياس الإنسانية الجديدة التي انبعثت مع ظهور الرسالات السماوية الإلهية واختتامها بالرسالة المحمدية، رسالة الإسلام، في منتصف الألفية الأولى من عصر الحضارات. بل كان هذا الحث مشتركًا بين كل شعوب العالم بريادة منظمة الأمم المتحدة للتربية والتعلم والثقافة (اليونسكو) إلا أمريكا التي خرجت منها بحجج واهية عاصرنا مشاهدها. وقد جاءت نتائج أبحاث ودراسات اليونسكو موفقة جدًا ومتفق عليها من شعوب العالم باختلاف ألسنتها وثقافاتها وأنظمتها الحاكمة. وتمثلت هذه النتائج في مقررات وتوصيات المؤتمرات العلمية الكبرى التي انعقدت في العقد الأخير من القرن الماضي في كوبنهاجن وفي القاهرة وفي بكين واستكهولم وفي فيينا. وكان مؤتمر استكهولم في السويد عن السياسات الثقافية والتنموية تحت شعار «Power of cultures» في ربيع ١٩٩٨م[٣]. ولا شك أن من أروع نتائج ذلك المؤتمر «**الإعلان العالمي لتنوع الثقافات**» الذي صادقت عليه الدول الأعضاء في اليونسكو في مؤتمرها العام رقم ٣١ بالإجماع والتصفيق في شهر نوفمبر ٢٠٠٢ [٤]. ذلك أن المجموعة الدولية تجهز نفسها لأول مرة بأداة معيارية من أجل تأكيد تعلقها بالتنوع الثقافي، عين الشيء الذي رفضته النظريات الأمريكية قيد النظر هنا.

هذا من الناحية الفلسفية والسياسية للنظريتين الأمريكيتين. أما من الناحية العلمية، فإن النظريتين تعوزهما أساسيات علمية لابد منها في الفهم وفي الأداء العلميين. وأقل ما يمكن أن يقال عنهما من هذه الناحية إنهما ساذجتان! وقد صدق المفكر الفلسطيني إدوارد سعيد عندما وصف أسلوب هنتنقتون بأنه «يشبه أسلوب طالب أبحاث يضيع في متاهات حيز لا يعرف عنه الكثير، معتنيا بالتعريفات» والوقائع» والإحصاءات»، وخاشيًا في الوقت نفسه من انفجار غضب الأستاذ المشرف»[٥] كما صدق عندما يصف مضمون مقال هنتنقتون بأن فيه نواقص كثيرة في المسلمات «مثلا، أن الحضارات تبدو له كأنها كتل هائلة الحجم مثل جبل حديد»[٥] و «الأخطاء المخجلة العديدة في شأن الطريقة التي تعمل بها ثقافة ما، وسوء الوصف للعناصر التي تميز الغرب عن الإسلام والكونفوشيوسية وغيرهما. والافتراضات الساذجة التي لم تخضع للنقد والتقويم عن تفرد حضارة

الغرب بالعظمة»[٥]. بل وأكبر من هذا، ما يبدو «من سوء فهمه لحضارته هو، أي للحضارة الغربية ولمنتجها الغرب، وخطئه الفادح في النظر إلى هذا الغرب على أن له جوهرًا ثابتًا لا يعرف التغيير، أو هوية مطلقة تبقى كما هي عبر القرون»[٥].

ولا أريد أن أضيف على هذا عن الفهم الخاطئ والأداء غير العلمي للكاتب هنتنقتون، إلا أنني أريد أن أجلي المواقف حول:

أ - معنى الثقافة ومعنى الحضارة والعلاقة بينهما.

ب - ما يحدث عند لقاء الثقافات و / أو الحضارات، أي جدلية الصراع والحوار في هذا المجال.

ج - نهاية الحضارات.

د - الحضارة - السياسة - الإيديولوجيا.

وهي قضايا ظهرت في كتابات هنتنقتون بآرائه الثابتة في كل منها. وسوف أقدم حججي عنها مجملة لأنها عندي متصلة إن لم تكن موضوعًا واحدًا . ذلك أن هذا من صلب تخصصي واهتماماتي العلمية كما أنه مدخل جيد للرؤية الجديدة التي أود طرحها في الجزء التالي من البحث.

وقد بذل الكاتب هنتنقتون جهدًا للبحث عن معنى الثقافة والحضارة عند العلماء المشتغلين بهما كتخصص وأورد في كتابه جل التعريفات المتفق عليها عنهما. ونوجز ذلك فيما يلي:

يضع المفكرون الألمان حدًا فاصلاً بين الحضارة والثقافة، فالحضارة عندهم تشمل التقنية وسائر العوامل المادية، أما الثقافة فتشمل قيم المجتمع ومثله العليا وخصائصه الفكرية والفنية والخلقية الكبرى. إلا أن سائر المفكرين الغربيين خالفوا الألمان فيما ذهبوا إليه، فهم يرون أن الحضارة والثقافة كلتيهما تشيران إلى منهاج حياة أمة من الناس، وأن الحضارة إنما هي الثقافة مكبرة وأن كلتيهما يشمل القيم والمعايير والمؤسسات وطرائق التفكير السائدة في أمة من الناس، وأن الحضارة ليست متطابقة مع العرق ، فأصحاب العرق الواحد قد ينتمون إلى حضارات مختلفة كما أن الحضارة الواحدة قد تضم مجتمعات مختلفة الأعراق والألوان والأشكال ، إذًا الحضارة هي أوسع وحدة ثقافية [٦] .

أما الحضارة فقد نشأت من خلال أسس ونتائج تفاعل الإنسان بثقافاته مع البيئة ومع الزمان والمكان. لذا فهي لم تنشأ في كل مكان في توقيت واحد ولا بسمات محددة يكون اكتمالها لحظة نشأتها . حيث أن لكل مجتمع إنساني سماته المميزة

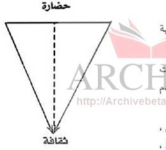
وظروفه التاريخية والجغرافية والإنسانية الخاصة التي ترسم شخصيته المستقبلية . وقد انتبه العلماء المعاصرون لهذه الحقائق فـأثروا إلى الإشارة إلى بعض المؤشرات العامة التي تشير إلى بدء عصر الحضارة في تاريخ الإنسان . ويمكن حصر المؤشرات العامة في الآتي :

أ . ظهور الطبقات الحرفية والمهنية المتميزة بدرجة عالية من حقوق الملكية الفردية والسيطرة الكاملة المهيمنة على وسائل الإنتاج .

ب . ظهور بيروقراطيات سياسية ودينية بجانب البيروقراطيات الإدارية.

ج . ظهور أصحاب التخصصات المختلفة والتي يعتمد أصحابها على الخدم والحشم وفالحي الأرض .

ويزيد بعض العلماء على هذه الدلائل ، ظهور الكتابة والتوثيق ، والمدائن الكبيرة ، إلا أن الحفريّات الآثارية قد أظهرت في جهات كثيرة من العالم إمكانية نشأة الحضارة دون هذين العنصرين الأخيرين . فالأمر أصلا متعلق بتشعب احتياجات وتنظيمات ورؤى مجتمع ما تشعبا يؤدي إلى ظهور طبقات حاكمة وأخرى محكومة ووجود شبكة علاقات فاعلة بين المجموعات المختلفة في المجتمع الواحد والمجتمعات المختلفة فيما بينها. حيث تتجسد دلالات ظهور مثل هذه الشبكة في الثقافة ! وهذا يعني أن الثقافة تتطور إلى حضارة ثم تتبدى الحضارة في صورة أخرى تكون في الغالب في إبداعات الحضارة المعنية. أي إبداعات الحضارة من منتجها ومنتج ما يتصل بها من حضارات أخرى، قريبة أو بعيدة، شبيهة أو مختلفة كما يوضح الشكل هنا (١ - أ) . واعلم عزيزي القارئ أن هذا هو الذي يجلي الثقافات وينصعها فتكون أكثر بهرجًا وتقدمًا من التي تسبقها



شكل رقم (١ - أ)

وتستمر العملية هذه ما دامت هناك حضارات، لتؤدي في النهاية إلى ظهور حضارة عالية فيها معظم ما كان في الحضارات التي كانت تتداخل معها.

فهي عملية تطورية تراكمية استمرت حتى أراد لها الله سبحانه وتعالى أن تنتهي.

الأمر الهام هنا، أن هذه العملية التطورية التراكمية تنفي الصدام بين

الحضارات المتقابلة أو المختلفة فلا صدام بين الحضارات بل حوار متصل يؤدي إلى تطور ونصوع واكتمال، هذا عكس مانادى به هنتقتون تماماً.

إن اللقاء ، ثم الصدام و / أو الحوار يتم على مستوى الثقافات في الحضارة الواحدة ، إذا تنوعت وتعددت، أي أن حدوث الصدام داخل الحضارة الواحدة أمر محتمل إن لم يكن هو الأمر الغالب . حيث أن ذلك التفاعل ، أي الصدام، هو الذي يؤدي إلى الحوار ثم إلى المراحل المختلفة من التصالح حتى التوحد ثم الانتصار ، أو إلى الحرب ثم الافتراق المرحلي أو الأبدي .

وقد شرحت هذه العملية الثقافية وبتفاصيل كثيرة في مقالي المعنون : « مناهج دراسات الثقافات وضرورة التجديد : نظرية الحوار الثقافي : منهاج أفضل لدراسة الثقافة السودانية » . وفيه ، وقد نشر في مجلة **حروف** العدد ٢ مزدوج ديسمبر / مارس ١٩٩٠/١٩٩١ صفحات ٣٩ – ٤٩ ، تحدثت مطولاً عن تعريفات الثقافة (ص – ٣٩-٤٠) . وعن منهجيات دراستها وتطورها (ص ٤٠ – ٤٣)، ثم كتبت عن دراسات الثقافة السودانية (ص ٤٣ – ٤٦) ثم بسطت منهج الحوار الثقافي بعد أن أوضحت أهم العناصر التي يجب أن تكون جوهر تعريف الثقافة لمن يريد دراستها بمنهج الحوار، وأتبعت ذلك بعض الاعتبارات الأساسية التي يجب أن تراعى في فهم الثقافة عموماً وفي دراستها. وتقوم نظرية الحوار الثقافي على الاعتبار الأهم وهو: أن الالتقاء بين ثقافتين يولد سلسلة من التفاعلات، تتدرج من الفعل، أي الالتقاء، إلى رد الفعل المباشر. الذي يكون إما سلامًا أو حربًا. ثم تعايش على إحدى الحالتين، حيث يولد ذلك التعايش إحدى الاحتمالات الآتية منفردة أو مجتمعة، تجمعًا جزئيًا أو كليًا. والاحتمالات هي:

أ – التكامل ثم التوحد ثم الانصهار ثم السلام الدائم.

ب – الانتصار أو الهزيمة أو الطغيان ثم التباعد ثم الحرب ثم الافتراق المرحلي أو الأبدي.

وأوضحت كل ذلك في هذا الشكل المصاحب (شكل رقم)



شكل رقم (٢) التفاعلات التي تصحب لقاء ثقافتين

وقد أعددت الصورة الأولى من هذه النظرية عام ١٩٨٥ وقدمتها في مؤتمر جمعية الدراسات النوبية الذي انعقد في مارس من ذلك العام في معهد الدراسات الأفريقية والآسيوية تحت شعار «**الإنسان والإبداع في بلاد النوبة**».

وكان بحثي لذلك المؤتمر «**الحوار الثقافي كأسلوب لدراسة الثقافة السودانية**» ثم صنعت صورة متقدمة من ذلك المقال وقدمته لمؤتمر **المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية** الذي انعقد عام ١٩٨٧ م .

وقد كان موتمرًا محضورًا كما أنه كان مؤدلجًا. وكانت تلك فرصة ثمينة لامتحان تماسك النظرية من ذلك الحضور المميز الذي جاء به إلى السودان المعهد العالمي للفكر الإسلامي في واشنطن وقسم علم النفس بكلية الآداب جامعة الخرطوم.

وقد قدمت النظرية فيه بعنوان «**منهجية دراسة الثقافات: دور البيئة والمجتمع والخلفية الحضارية في تشكيلها**». وتمت مناقشتها بصورة دقيقة(٧).

والحضارة ليست آلية سياسية كما أراد لها هنتنقتون أن تكون. فالمعروف أن الإيديولوجيات هي التي تدور حولها القضايا السياسية كما كانت الرأسمالية والاشتراكية في القرن الماضي. أما الحضارة فهي مرحلة ثقافية أعلى ولها قدرة عالية على الحوار والتبادل مع الحضارات التي تكون في نطاقها البيئي والمناخي وهي تنتشر إما عن طريق الحوار أو الانسياب والاختراع أو الغزو.

على أن التاريخ لم يسجل غزو حضارة لأخرى إن لم تكن في نطاقها، أي في إقليمها أو إن لم تكن تجاورها. فقد حاربت حضارات النيل بعضها البعض، كما حاربت حضارات الرافدين وحضارات الهلال الخصيب وحضارات هضبة الأناضول بعضها البعض.

وعندما امتد نفوذ حضارات الشرق الأوسط إلى حدود مصر الشرقية حاربتها حضارات النيل والعكس صحيح. وتبادلت حضارتا الروم والفرس الحروبات وقد سجل التاريخ ثلاثة غزوات عابرة للنطاق الإقليمي للحضارة الممتدة وهي حروبات الاسكندر الأكبر وما تلاها وحروب التتار وحروب الأتراك. فقد تم في هذه الحالات التقاء حضارات الشرق الأدنى وحضارات الشرق الأقصى وحضارات البحر المتوسط. ولكن لم يؤدي ذلك إلى موت أي من الحضارات المتصارعة وإن أدى إلى التقائها وتبادل التجارب بينها ثم تقهقرت كل منها إلى بيئتها الطبيعية. فالشرق الأقصى إقليم بيئي ومناخي واحد، كما أن الشرق الأدنى إقليم بيئي ومناخي واحد.

أما الغرب فهو ما يسمى بالشمال الآن، إن كـان ذلك في أوروبا الشـرقـيـة أو أوروبا الغربية أو أمريكا الشمالية ويتداخل معها إقليم البحر المتوسط وأقاليم الحضارة الآيبيرية في أمريكا الجنوبية، لأن حضارة الشمال الآن هي حضارة حوض المتوسط القديم.

كـان كل ذلك حتى تشكلت الحضارات العالمية الكبرى . بعد ذلك عمت الدنيا الصراعات الدينية اليهودية - المسيحية - الإسلامية ثم الصراعات الإيدلوجية فتولدت الكيانات السياسية المتناحرة أو المتكاملة أو المتآلفة حتى يومنا هذا.

٣ - نظرية حوار الحضارات، الرؤية الجديدة:

أولى أساسيات نظرية حوار الحضارات الجديدة التي أدعو لها هنا هي:

أن شبكة العلاقات الفاعلة بين المجموعات المختلفة في المجتمع الواحد والمجتمعات المختلفة فيما بينها في إطار حيز مكاني وزماني يكبر أو يصغر - أي الحضارة. بمعناها الأسمى، تواجه المتغيرات الطبيعية الكونية والتي لا سيطرة للإنسان عليها وعندها تولد مقاومتها ومضاداتها لتلك العوامل المناخية أو البيئية حتى تتأقلم مع الحالة الجديدة. وتتجسد تلك الحالة في إبداعات وسلوكيات تصبح هي ثقافة تلك الحضارة، لتبدأ دورة جديدة من التفاعلات الثقافية لتلد حضارة تكون اقوى وأجود وأنصع من سابقتها، كما أنها تكون أقدر على مواجهة كل التغيرات الطبيعية التي يؤقلم الإنسان حياته عليها ليصبح هذا السلوك الثقافة الجديدة وتستمر الدورة.

وتتشكل الدائرة كالآتي (شكل ١ - ب):



شكل رقم (١ - ب)

وهذا هو تطور الشكل السابق (١-أ) ونهاية تطور الحضارات بمعنى أن هذا النظام يعمل في الأقاليم المتشابهة بيئيًا ومناخيًا والحضارة العالمية لذلك الإقليم.

الأساسية التالية لهذه النظرية: إن الحضارات تطورت عبر حقب زمانية طويلة وعبر أمكنة متعددة. تطورت الحضارات من الأبسط إلى المعقد ومن الكثرة إلى

القلة كما تطورت الثقافات على نفس الشاكلة من ثقافات العصر الحجري القديم إلى ثقافات العصر الحجري الوسيط إلى ثقافات العصر الحجري الحديث إلى الحضارات الإقليمية الصغرى في أنحاء مختلفة على البسيطة.

تطورت الحضارات كما تطورت الثقافات وتطورت الكائنات من الأدنى إلى الأعلى، حتى كان الإنسان في أحسن تقويم.

تطورت الحضارات كما تتطور الأجنة من مضغة إلى علقة إلى خلق سوي إلى أرذل العمر وتستمر الإنسانية على هذا، إرادة الله الغالبة والحمد لله رب العالمين.

تطورت الحضارات مع تنزل كلمة الله للخلق عبر الرسالات وعبر رسل لا نعرفها أن نحصيهم وأن نعدهم وإن كنا قد اتفقنا على عدد منهم معلوم.

والتطور استمرارية، فلا يتطور شيء من عدم.

الأساسية الثالثة لهذه النظرية: أن الحضارات الإنسانية تطورت من حضارات إقليمية صغرى إلى ثلاثة حضارات عالمية كبرى، هي:

أ - حضارة الشرق الأقصى.

ب - حضارة الشرق الأدنى.

ج - حضارة الغرب.

تطورت حضارة الشرق الأقصى الحالية، وهي حضارة عالمية، من حضارات الصين والهند والأقاليم المجاورة الصغرى. وتطورت حضارة الشرق الأدنى العالمية الحالية من حضارات وادي النيل وحضارات الرافدين وحضارات هضبة الأناضول وحضارات الهلال الخصيب وحضارات جنوب الجزيرة العربية. وكلها كانت حضارات إقليمية صغرى.

وتطورت حضارة الغرب العالمية الكبرى من حضارات حوض الدانوب، وحضارات بحر البلطيق وحضارات حوض المتوسط وحضارات ايبيريا وكانت كلها حضارات إقليمية صغرى.

تطورت هذه الحضارات عبر قرون عدداً وعبر صراعات دامية وحوارات طويلة بذات الحركية التي تطورت بها الثقافات كما شرحتها هنا. فهذه الحضارات الإقليمية الصغرى هي في حقيقتها ثقافات أعلى تتصف بكثير من صفات الثقافات وتحمل بعض سمات الحضارات الكبرى أو بداياتها. وتتم دراسة تطور هذه الحضارات بجدولتها بالتراتبية الزمانية ومتابعة توافقاتها مع بعضها البعض و / أو اختلافاتها. ومن الأفضل عزل أهم منتج مادي وأهم منتج غير مادي في كل حضارة على حدة ومتابعتها عبر حضارات الإقليم لدراسة الاستمرارية والتغير فيها وتحديد

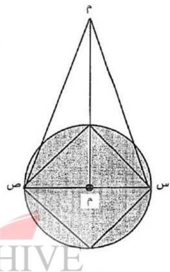
مـراحلهـا المفـصليـة أي لحظات التـحـور الحضاري نحـو الثقافـة العـالمية الواحدة المعاصرة.

تقـودنا مـثل هذه الدراسـة إلى الدليل المادي لاكتمال الحضارات العالمية الثلاثة آنفـة الذكـر. وهي دراسـة يمكن أن تتم من خـلال الجـهـد الجـبـار الذي يبـذله علمـاء الآثار وعلمـاء التاريخ القديم وعلماء اللغات القـديمة وعلمـاء الأنثروبولوجـيا الثـقـافـية والانثروبولوجيا الطبيعية وكثيرون غيرهم وكلهم يدرسون دراسات تطبيقية وميدانية ومعملية.

أمـا الدليل الفكري لاكـتـمـال تطور الثقافات العالمية الثلاثة فلا يكون مصدره إلا القـرآن الكريم. بسم الله الرحـمن الرحـيم﴿ إنّا نحن نزلنا الذكـر وإنا له لحافظون﴾ (الحَجر)(٩)* . ذلك لأن مبلغ العلم الوضعي وهو مـا نقـرأه من مجلدات تعدد بالملايين لأخبار الأولين وعنهم : بسم اللّه الـرحمن الـرحيـم ﴿ ياأيها النـاس إنا خلقناكم من ذكـر وأنثى وجـعلناكم شـعـوبًا وقـبـائل لتـعـارفـوا إن أكـرمكم عند اللّه أتقـاكم﴾ (الحـجـرات :١٣). وقلت لنفسي هذا هو التطور المدني للإنسان فهو فرد ثم قـبـيلة ثم هو شـعب. فـمـاذا عن التطور الثقـافي والحضـاري وجـدت مقـالتي في الآية: بسم اللّه الرحمن الرحيم ﴿ وكـذلك جـعلناكم أمـة وسطًا لتكونوا شـهـداء على النـاس ويكون الرسـول عليكم شـهـيـدا﴾ . والأمة هي جماعة المسلمين ، المؤمنين باللّه ربًا واحـداً لا شـريك له وبمحـمـد رسـولاً لانبي بعده، وبالإسـلام دينًا جامعًا لادين سواه . أي، هي جموع المسلمين وفكرهم ، وهذا لعمري لا يعني شيئاً سوى الحضاره . فالأمة الإسلامية هي الحضارة الإسلامية، وكفى .

وهي حضارة وسطى . أما لماذا ؟ فلأنها : بسم اللّه الرحمن الرحيم (كنتم خير أمة أخرجت للناس) (آل عمران : (١١٠) أما كيف ؟ فذلك ما يحتاج إلى شرح .

الوصف الوارد في بداية الآية الكريمة للأمة الموصوفة يقرر وضع زماني ومكاني للأمة الإسلامية كما قدر لها الخالق عز وجل . تصـــوير هذا التـــوسط في شكل مبسط يستوفي الشروط الرياضية يكون بوجود حدين أو طرفين أو نقطتين في خط مستقيم ووجود نقطة مركزية لهما (شكل رقم ٣) . وتكون النقطة المركزية هي الأمـة الإسـلاميـة ، أي الحضـارة الإسـلاميـة ، والنقطتين الحديثين (س و ص) مثلاً هما حضارتاالعالم القديم اللتان شهدتا مولد هذه الحضارة .



شكل رقم (٣)

ويجيز المنطق الرياضي أن تتعدد هذه النقاط في خطوط أخرى مستقيمة متقاطعة على النقطة المركزية لتكوين دائرة . وهذه الدائرة أيضاً نقطتها المركزية (م) هي الحضارة الإسلامية (الأمة) وجميع النقاط المأخوذة من محيط هذه الدائرة تمثل الحضارات الإنسانية أو الأمم منذ بداية الخلق . هذا إذا نظرنا إلى هذه الدائرة على المستوى السطحي ، أي ذو البعد الواحد ، فتكون هذه الدائرة بنقطتها المركزية (م) التي قرر الخالق عز وجل أنها وسط هذه الأمم التي قدرت الآية الكريمة أيضاً أنها محيط هذه الدائرة ، هي البعد المكاني للوصف القرآني .

أما إذا ارتفعت النقطة المركزية عمودياً من وسط الدائرة واتصلت بها النقاط على محيط الدائرة بخطوط مستقيمة أي مثلث (الشكل المخروطي) فإن البعد الزماني يتجلى واضحاً من التجسيد الهندسي خاصة وإن استخدام التكنولوجيا التي تمثل الأبعاد الثلاثية والذي صار مستخدماً في العلوم الحديثة يقرب إلى الأذهان فهم هذه الصورة الزمانية ويكاد يجسدها .

إذاً فإن قاعدة الشكل المخروطي هو الأفق المكاني وارتفاع الشكل المخروطي، هو الأفق الزماني الطيه تمثل النقطة المركزية (م) قمة الشكل المخروطي، أي المثلث ، الحضارة الإسلامية ، ويمثل حدي قاعدة المثلث (س و ص) حضارتي الشرق الأقصى والغرب ، حيث أن الظروف المناخية والبيئية جعلت استحالة لقيام الحضارات في القطبين الشمالي والجنوبي وإن كان فيهما حياة .

ولعل القراءة المتانية للآية الكريمة التي تصنف الأمة الإسلامية بأنها أمة وسط توضح أن المعنى كذلك يوحي بأنها «خياركم المعتدلين الذين لا تفريط فيهم »كما أوردها محمد حسن الحمصي في كتابه تفسير

وبيان مفردات القرآن، عن السيوطي، والله أعلم.

أما عن متى اكتملت عملية تطور الحضارات الإقليمية الصغرى لتكون هذه الحضارات الثلاثة والتي جاءت الرسالة المحمدية لواسطتها؟ فذلك مبحث آخر طويل ومتشعب. إلا أنني أطرح هنا حدسي بأن الرسالة الخاتمة كانت كذلك لكل أشكال التطور. فقد شاءت القدرة الإلهية أن تنزل الرسالة المحمدية في حضارة الشرق الأدنى لتحقق وسطيتها وتتقدم بذلك على الحضارتين ويبدأ الحوار بين الحضارات الثلاثة بعد رد الفعل المباشر للفعل الذي هو بداية الرسالة المحمدية.

أما رد الفعل فقد تمثل في عمليتين رئيسيتين. الأولى هي دخول كل واحدة من الحضارات الثلاثة حركية التقوى والتجويد والنصوع كما هي مشروحة أعلاه وموضحة بالشكل المصاحب.

والثانية هي دخول كل واحدة من الحضارات الثلاثة مرحلة المفاضلة في الصراع الأبدي والحاد بين: الحق والباطل، وبين الخير والشر، وبين المادة والروح بحسب أن هذه قيم مشتركة بين كل الحضارات والثقافات بإرادة الله الخالق العظيم. وقد تشكلت تلك المفاضلة بأن جعلت كل واحدة من الحضارات الثلاثة ذاتها الحق، والخير ثم تخيرت بين المادة والروح، فاختارت حضارة الغرب «المادة» واختارت حضارة الشرق الأقصى «الروح» واختارت حضارة الشرق الأدنى أن توازن بين المادة والروح، كما تتبدى من معطيات الحضارات الثلاثة المعاصرة.

وكان وما زال العامل الحاسم في أمر العلاقات الحوارية بين هذه الحضارات عامل الخيار بين المادة والروح. فقد اختارت الحضارة الغربية «المادة» وتقوت بها وأصبحت ذات قدرة لهزيمة الحضارتين الأخريين بل والتحكم في شأنهما. أما حضارة الشرق الأقصى فقد اختارت الروح فأقعدتها بسبب الإيغال في أمرها. كما أقعدت حضارة الشرق الأدنى الفشل في إحداث التوازن الصحيح والمطلوب بين المادة والروح. وكذلك حضارة الغرب التي بدأت تشعر بالخسران بالمادة فأخذت تظهر فيها مظاهر التحول إلى الروح متمثلة في كثير من الحركات الدينية التي تبدت أخيرًا في أمريكا وأوروبا الغربية.

وما زال سبيل التطور في هذا الأمر متاحًا وخاصة لحضارة الشرق الأقصى التي عليها أن شعرت بالخسران في خيارها الأول أن تذهب للخيار الثاني المتاح أي «المادة» ادعى لجعلها أن تتشبه بحضارة الغرب. وبدايات هذه بادية في بعض مناطقها مثل اليابان كمثل أقوى وأوضح.

أما حضارة الشرق الأدنى فلا سبيل

لديها إلا إحداث التوازن الأدق والمطلوب بين «المادة» و «الروح» فإن نجحت في ذلك فسوف تعلو شأنًا على الحضارتين الأخريتين لأن «حقها» و «خيرها» منصوص في القرآن الكريم وهما أشد وأقوى من «حق» و «خير» أي حضارة أخرى.

وسوف يستمر الحوار بين هذه الحضارات الثلاثة كما سوف تزداد كل واحدة منها قوة وإجادة ونصوعًا بحركتيها. ولا شك أن ترتيبها المعاصر الذي يضع الحضارة الغربية في المقدمة وحضارة الشرق الأدنى في المؤخرة سوف يتغير أو سوف ينقلب رأسًا على عقب. أو ربما يحدث فعل جديد يتطلب رد فعل مغاير مما شرحناه هنا.

ولكن، وفي كل الأحوال، فإن حضارة الشرق الأدنى هي الأوفر حظًا للعلو، لأن طبيعتها تختلف كثيرًا عن الحضارتين الأخريتين. فهي أقدم منهما زمنًا وأكثر منهما رسوخًا. ثم هي أقرب إلى الصفات الإنسانية الأصيلة لأن تطورها كان من الثقافات الإنسانية الأولى أو الابتدائية إلى حضارات إقليمية صغرى ثم إلى حضارة عالمية كبرى عبر الرسالات الإلهية العديدة التي جاءت إليها دون غيرها، وعبر الإبداع الإنساني الفاعل المتمثل في التعددية والتنوع والحركة.

ذلك في حين أن حضارة الغرب تطورت من الثقافات الإنسانية الأولى عبر الفكر والمنطق والفلسفة إلى حضارات إقليمية صغرى. فتباعدت المسافة والعلاقة بين هذه الحضارات الإقليمية الصغرى والثقافات الإنسانية الأولى مما جعليا حضارات آلية أكثر من كونها إنسانية. وذلك هو الذي جعلها تختار «المادة» عندما أصبحت حضارة عالميه كبرى، تتبني عليها مجدها.

الهوامش

١ - Fukuyama, Francis: La fin de Le histoire ?- commetaire. No. 47, p 458(1989)

٢ - Samuel p . Huntington, The clash of civili-zations and the Remarking of world order. Simon and Schuster, New york, 1996.

٣ - حضر مؤتمر استكهولم أربعة آلاف وخمسمئة عضو من الدول الأعضاء ومئة آخرين يمثلون تنظيمات المجتمع المدني. وتكون وفد السودان من السيد انجلوبيدا، نائب رئيس مجلس الجنوب، الدكتور إسماعيل حاج موسى، الدكتورة سمية ابو شتوة، الأستاذ أحمد كمال الدين وشخصي بالإضافة إلى سفير السودان في السويد وأعضاء سفارته.

كل أوراق هذا المؤتمر بما فيه خطاب السودان الذي ألقاه السيد انجلو بيدا رئيس الوفد مودعة لدى اللجنة الوطنية السودانية.

٤ - Unesco and the Issue of cultural Diversity: Review and strateqy 1946 2000.Ed. Katerina stenou,Director, Division of cultural policies, uNEsco 2000.

٥ - إدوارد سعيد «استعمالات الثقافة» في نهاية عملية السلام: أوسلو وما بعدها.. دار الآداب، بيروت ٢٠٠٢. ص ١٠٣.

٦ - راجع مقالي: نظرية الحوار الثقافي.. لتفصيل أكبر لمعنى الثقافة وتطور نظريات دراستها.

٧ - سوف تجد مناقشات الحضور على الصفحات ٤٣٣ - ٤٣٨ من الجزء الثاني من بحوث ومناقشات المؤتمر، الذي حرره الدكتور الطيب زين العابدين (انظر المصادر والمراجع العربية لهذا البحث).

المصادر والمراجع العربية

١- د . عبد النبي اصطيف: «دعم الحوار بين الحضارة / الثقافة العربية - الإسلامية والحضارات / الثقافات الأخرى» في السياسات الثقافية من أجل التنمية في الوطن العربي. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس. ٢٠٠٢ . ص ٣٩٣ - ٤٢٨.

٢ - د . حمادى بن جد الله «في معاني الحوار وشروطه». في السياسات الثقافية من أجل التنمية في الوطن العربي. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم . تونس. ٢٠٠٢ . ص ٣٢٧ - ٣٤٨.

٣ - د . عبد الله عبد الدائم، العرب والعالم وحوار الحضارات. دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر. دمشق . ٢٠٠٢.

٤ - فيليب سوغان « أوروبا والعالم العربي في مواجهة تحديات العولمة» في الحوار الثقافي العربي الأوروبي: متطلباته وآفاقه. المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم. تونس . ٢٠٠٢ . ص ٣١ - ٤٤ .

٥ - جيزوس غونز لاس لوياز «الثقافة والآخرية» في المرجع السابق. ص . ٦١ - ٦٦ .

٦ - دودو ديان ، «الحوار الثقافي الأوروبي - العربي أو لبس الهوية». في المرجع السابق . ص ٦٧ - ٧٢.

٧ - جابر عصفور، «متطلبات الحوار بين الثقافات وشروطه» في المرجع السابق. ص ١٢٥ - ١٤٤.

٨ - منير بوشناقي، «التراث وحوار الثقافات» في المرجع السابق. ص ١٨٧ - ١٩٤.

٩ - صموئيل هنتنغتون، «صدام الحضارات» في الغرب وبقية العالم بين صدام الحضارات وحوارها . مركز الدراسات الاستراتيجية والبحوث والتوثيق، بيروت ٢٠٠٠. ص ١١ - ٤٠.

١٠ - صموئيل هنتنغتون، «إن لم تكن حضارة، فماذا تكون؟» في المرجع السابق . ص ٧٣ - ٨٥.

١١ - صموئيل هنتنغتون «الغرب فريد وليس عالميًا» في المرجع السابق. ص ١٥٧ - ١٧٣.

١٢ - وجيه كوثراني« صدام حضارات أم إدارة أزمات» في المرجع السابق. ص ٨٩ - ١٠٠.

١٣ - عصام العامري ، «الثقافة والديمقراطية في

مواجهة العولمة» في المرجع السابق. ص ١٩٩ - ٢٢١.

١٤ - سويم العزي «مستقبل الديمقراطية بين نهاية التاريخ وصراع الحضارات». في المرجع السابق. ص ٢٢٥ - ٢٣٧.

١٥ - محمد سليم العوا «حوار الحضارات: شروطه ونطاقه» في المرجع السابق. ص ٢٤١ - ٢٤٨.

١٦ - الشيخ السيد أبو الحسن الندوي. «ألا تفعلوه تكن فتنة في الأرض وفساد كبير. في الدور الحضاري للأمة المسلمة في عالم الغد». الدوحة ٢٠٠٠ . ص ١٥ - ٢٦.

١٧ - الدكتور أحمد الريسوني «الأمة هي الأصل» في المرجع السابق. ص ٢٧ - ٤٣ .

١٨ - الدكتور شافي بن سفر الهاجري، «الإنسان معيار الحضارة» في المرجع السابق. ص ٢٣٣ - ٢٥٤.

١٩ - عمر عبيد حسنة «الوراثة الحضارية».

٢٠ - مختار عزيز «الدين والحضارة» في المرجع السابق. ص ٥٥٧ - ٥٦٨.

٢١- الدكتور نعمان عبد الرزاق السامرائي، «الإنسان صانع الحضارة» في المرجع السابق ص ٦٢١ - ٦٣٦.

٢٢- الدكتور حسن عبد الله الترابي «المشروع الحضاري الإسلامي: تأملات وبصائر» في المرجع السابق ص . ٧٢١ - ٧٤٧.

٢٣ - الدكتور أحمد علي الإمام، «حاجة الحضارة العالمية للرؤية الإسلامية» في المرجع السابق ص . ٧٧ - ٩٤.

٢٤ - الدكتور المنجي بوسنينة . مدارات . تونس ٢٠٠١م.

٢٥ - الدكتور المنجي بوسنينة، رؤى ومواقف. تونس ٢٠٠٢م .

٢٦ -الصادق المهدي. جدلية الأصل والعصر. دار الشماسة للنشر. الخرطوم .٢٠٠١ م.

٢٧ - د. جعفر شيخ ادريس. «العولمة وصراع الحضارات» في البيان. السنة السادسة عشر. العدد ١٧٠ . شوال ١٤٢٣ هـ . يناير ٢٠٠٢م. ص ٣٦ - ٣٣

٢٨ - د . علي عثمان محمد صالح. «منهجية دراسة الثقافات: دور البيئة والمجتمع والخلفية التاريخية في تشكيلها». في المنهجية الإسلامية والعلوم السلوكية والتربوية. بحوث ومناقشات المؤتمر العالمي الرابع للفكر الإسلامي المنعقد في الخرطوم، يناير ١٩٨٧. الجزء الثاني. ص . ٤٠٧ - ٤٢٨. تحرير الطيب زين العابدين. المعهد العالمي للفكر الإسلامي. هيرندن. فرجينيا . الولايات المتحدة. ١٩٩٢.

٢٩ - د . علي عثمان محمد صالح. «الثقافة السودانية - الماضي والحاضر». في : في الثقافة السودانية: دراسات ومقالات. إعداد د . علي عثمان محمد صالح، أ . البشير سهل جمعه. مطبعة جامعة الخرطوم. ١٩٩٠.

٣٠ - د . علي عثمان محمد صالح: « مناهج دراسة الثقافات وضرورة التجديد: نظرية الحوار الثقافي: منهاج أفضل لدراسة الثقافة السودانية». مجلة حروف. العدد (٢ - ٣) مزدوج. ديسمبر - مارس ٩٠ / ١٩٩١م. السنة الأولى. دار جامعة الخرطوم للنشر. ص ٢٩ - ٤٩.

٣١ - د. عبد الله صالح أبو بكر: حوار الحضارات: تحليل نقدي لظاهرة الاسلاموفوبيا . هيئة الأعمال الفكرية. الخرطوم. ٢٠٠٢م.

المصادر والمراجع باللغات الأوروبية

1- Samuel p . Huntington, The clash of civilizations and the Remarking of

world order. simon and schuster, New york, 1996

2- Ali osman Moh. salih.Historical ArchaeologY: An African viewpoinT.

In,Nile valleY counTries: continuity and change, vol. I(ed) dy M.o. Beshir (1984). pp. 123 - 142

3-The SUdan: Land amd Two Civlizations. Manuscript of Rapublic Lecture given to the British council.

4- Marvin Harris, cannibals and kings: The origins of cultures . tures. Fontana, collins. 1978

5- The Rice of Anthropological TheorY: A HistorY of Threories of cultures. New York: Thomas Y. crowell. 1968.

6- HaWKEeS, jaguetta. The First Great civilizations. New York. Alfered A. Knopf.

7- Marbhack, Alexander, The Roots of civilizations. New York. McFrew- Hill. 1972.

8 - Polanyi, karl. The Gret Trans formation. New York. Rinehart. 1944.

9- polanyi, karl, c. Arensberg, H.pearson (eds) Trade and Markets in the Early Empires. Glencoe, Ill:The Free press. 1957.

10-Lamberg- karlovsKY and sablott. Ancient civilizations: The Near East and Mesoamerica The Beni- jamjn/Cummings puplishing companY INc. 1979.

❖ ❖ ❖

١٦٣

الجامعة وتحديات المستقبل

د. أحميد فرج الصغير (*)

الملخص:

يحاول الباحث في هذه الورقة البحثية أن يلقي الضوء ويناقش بإيجاز النقاط الرئيسية التي تدخل في إطار الجامعة وتحديات المستقبل، وهذه النقاط يمكن إجمالها في الآتي:

١) مفهوم الجامعة.
٢) وظائف الجامعة.
٣) التحديات.
٤) دور الجامعة المنتظر.

(*) د. أحميد فرج الصغير: باحث من القطر الليبي الشقيق. أستاذ في جامعة سبها - كلية الآداب.

١ - مفهوم الجامعة:

إن كلمة جامعة بمنظور لغوي هي كلمة مشتقة من الفعل (جمع) وجاء في لسان العرب جمع: بمعنى جمع الشيء عن تفرقة يجمعه جمعًا... وقدر جماع وجامعة عظيمة، وقيل: هي التي تجمع الجزور؛ قال الكسائي: أكبر البرام الجماع ثم التي تليها المثكلة ويقال: فلان جماع لبني فلان إذا كانوا يأوون إلى راية وسؤددة كما يقال مرب لهم [1].

ومن هذا المفهوم اللغوي جاء لفظ الجامعة وهي مؤسسة تضم في قاعاتها أشخاصًا تختلف اتجاهاتهم فتعمل على التأليف بينهم برباط من الأهداف المشتركة والتطلعات المشتركة وتروي عطشهم بما تقدمه لهم من العلوم والمعارف.

وهذه مؤسسات المجتمع عرفت تطورات عدة في تسميتها عبر العصور، «فسميت بمدرسة أمراء طيبة في مصر القديمة، أو الكلوكيوم في العصر الروماني، أو الدير مع نشأة المسيحية، أو حلقات الدرس في المسجد الجامع، أو دار الحكمة في العصر الأموي والعباسي، أو بالجامع الأزهر وجامع الزيتونة في فترة العصور الوسطى الإسلامية، أو بنقابات المتعلمين التي تأسست في باريس وبولونيا وأكسفورد وكمبردج في العصور الوسطى المسيحية، وظل المجتمع الإنساني حريصًا على قيام تلك المؤسسة... حتى استقرت تسمية هذه المؤسسة بالجامعة في العصور الحديثة» [2].

وعرفت هذه المؤسسة عبر اختلاف الأزمنة والأمكنة بأداء رسالة متميزة في مجالات المعرفة والفكر وفق احتياجات المجتمع وثقافته.

٢ - وظائف الجامعة:

مع تعقد الحضارات الإنسانية وتشعبها أصبح التعليم الجامعي يتحمل مسؤولية بناء الإنسان الذي يمثل القوة الدافعة لعملية تطور المجتمع ولهذا انصب اهتمام الجامعات على تنمية القدرات البشرية التي يحتاجها المجتمع في مختلف القطاعات. فالإنسان هو محور التنمية وهدفها، والتعليم بجميع مراحله له تأثيره الإيجابي وهو بوابة التقدم للمجتمع ويعول على التعليم الجامعي في إحداث التنمية الاقتصادية والاجتماعية والثقافية من خلال وظائفه التي أكدت عليها كثير من الدراسات والتي حددتها في ثلاث وظائف هي [3]:

وظيفة التدريس، ووظيفة البحث العلمي، ووظيفة خدمة المجتمع.

أ - وظيفة التدريس:

تعد وظيفة التدريس هامة لكل المراحل التعليمية ومنها الجامعة فهي الوظيفة التي

يتم بواسطتها توصيل المعرفة ونقل التراث الثقافي للمجتمع واطلاع المتعلمين على كل جديد وتنمية استعداداتهم وقدراتهم العقلية والروحية والنفسية والوجدانية والاجتماعية، وتعتبر هذه الوظيفة مهمة في بناء شخصية الطالب الجامعي بكل أبعادها وهذا ما جعل فردريك هاربسون (١٩٧٣) يؤكد على أهمية تنمية الموارد البشرية بقوله:

«إن الدولة التي لا تستطيع أن تنمي القدرات والمعارف لدى شعبها وأن تستخدم هذه القدرات والمعارف بشكل فعال لخدمة الاقتصاد القومي، إن مثل هذه الدولة لن تستطيع أن تطور أي شيء آخر»(٤).

ولكي تنجح الجامعة في تحقيق هذه الوظيفة عليها إيجاد عضو هيئة التدريس الجيد باعتباره العمود الفقري للعملية التعليمية، فحتى يتمكن الطالب من تحصيل أكبر قسط تعليمي ممكن لا بد أن يساعده أستاذ على فهم قدراته وميوله ورغباته وتنميتها من خلال عدة أمور يحددها إسماعيل محمد دياب (١٩٩٠) في الآتي(٥):

- الاهتمام بتوفير التوجيه والإرشاد الأكاديمي لأنه البداية السليمة للتفاعل الناجح بين الطالب والأستاذ والذي ينتج تعليمًا أكثر جدوى وفاعلية.

- الاهتمام بالكشف عن ميول واهتمامات الطلاب وتنميتها ولهذا يجب أن لا تقتصر العملية التدريسية على التحصيل القائم على التلقين والاستظهار ولكن يجب الاهتمام بالكشف عن المواهب والقدرات وصقلها وتنميتها بصفة مستمرة من خلال استخدام طرق التدريس والوسائل التعليمية المختلفة للنجاح في توصيل المعلومة بما يتناسب مع قدرات الطلاب، والاهتمام أيضًا بالربط بين الجوانب النظرية والتطبيقية من أجل تكوين الخبرة التربوية المتكاملة وتشجيع الطلاب على حب الاطلاع للكشف عن كل جديد ومستحدث في مجال تخصصهم.

- تقديم برامج تعليمية تتسم بالمرونة والاختيار وبحيث تعطي الفرصة لكي يقوم الطالب باختيار بعض المقررات التي تتناسب مع ميوله واهتماماته ورغباته، بحيث يشمل برنامج الدراسة مقررات إجبارية وأخرى اختيارية.

هذه النقاط المتعلقة بوظيفة التدريس والتدريب تهدف إلى إكساب الطلاب المعارف والمهارات والاتجاهات التي يحتاجونها لبناء أنفسهم وإعدادها للمهن المتجددة والمتغيرة التي تنتظرهم في مجتمعهم.

ب - وظيفة البحث العلمي:

لم تعد تقتصر مهمة الجامعة العصرية على وظيفة التدريس فقط، بل أصبح

للتعليم الجامعي وظائف متعددة ومنها وظيفة البحث العلمي التي يرى عمر محمد التومي الشيباني (١٩٩٢) أنها «تستطيع بها الجامعة أن تساعد في الكشف عن كثير من أسرار الكون والمادة والحقائق الاجتماعية والاقتصادية والسياسية، وما إلى ذلك من الحقائق، وفي الاستعانة بالمعلوم من الحقائق والمعارف في اكتشاف المجهول منها، وفي تفسير الظواهر ووصفها، وفي الاستغلال الأمثل للموارد البشرية، والأرضية، والطبيعية بصورة عامة» [٦].

وتؤكد بعض الدراسات التربوية على العلاقة ما بين التنمية والبحث العلمي وتوصلت إلى: «أن معدل النشاطات في الأبحاث وكثافتها ذا علاقة إيجابية بمعدل التنمية وكثافتها أيضاً» [٧].

وعليه فإن المجتمع العربي في حاجة ماسة للأبحاث العلمية التي تجريها الجامعات وإن كانت هناك صعوبات تعرقل قيام الجامعات بمهامها البحثية، ولضمان نجاح وظيفة الجامعة العلمية، يجب أن تمنح الجامعات التمويل المالي والدعم المعنوي وأن تتوفر لها التسهيلات المناسبة وأن تتمتع بقدر كاف من الحرية الأكاديمية.

وعرفت الدول الصناعية أهمية البحث العلمي في التقدم فخصصت له ميزانيات مقدرة من دخلها القومي، حيث تشير بعض الاحصاءات «أن ميزانية البحث العلمي في عام ١٩٩٠ في كل من اليابان ٣٪، وفي الولايات المتحدة الأمريكية ٢,٨٪ وفي ألمانيا ٢,٩٪. أما في البلاد العربية فإن ما يخص البحث العلمي لا يتعدى في أحسن الأحوال ١٪، من الدخل القومي ... وهذا ما جعل توصيات مؤتمر وزراء التعليم العالي في الوطن العربي عام ١٩٨١ م، تنادي بدعم البحث العلمي حتى تتم الاستفادة من الكفاءات العلمية العربية وأساتذة التعليم العالي في مشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية» [٨].

وبصفة عامة فإن الاهتمام بالبحث العلمي لا يساعد فقط على الاكتشاف والاختراع والتعرف على الحلول للمشكلات المختلفة للمجتمع، بل يساعد كذلك على تطوير العملية التدريسية، والتي هي إحدى وظائف الجامعة، وبالتالي فإن النجاح في العملية التدريسية مرتبط بوظيفة البحث العلمي للجامعة لأن كلاً منهما لازم ومكمل وهام لتطوير الوظيفة الأخرى.

ج - خدمة المجتمع:

تعتبر خدمة المجتمع الوظيفة الثالثة للجامعة باعتبارها إحدى مؤسسات المجتمع التي تنبع من حاجاته وتعبر عن آماله وتساهم في حل مشكلاته، وتزوده باحتياجاته من القوى البشرية المدربة التي تساعده في ترقية ثقافته وتراثه وتجددهما

وتطورهما وتنقيهما من الشوائب التي تكون قد لحقت بهما. وبالتالي فإن وظيفة خدمة المجتمع تعد هي الوسيلة الضرورية لتحقيق رسالة الجامعة. وإن النجاح فيها يسهم في إنجاح الوظيفتين الأخريين، وفي حالة عدم ارتباط الجامعة بالمجتمع ومشكلاته فإن ذلك يؤدي إلى مشكلات الهدر والفاقد التعليمي لمخرجات النظام التعليمي، وبالتالي تظهر مشكلات سوق العمالة ومشكلة التخطيط السليم لإعداد القوى البشرية.

وكل مشكلة من المشكلات المذكورة أعلاه تترتب عليها مشكلة أو مشكلات اجتماعية واقتصادية ونفسية أخرى سواء على مستوى الفرد أو الأسرة أو المجتمع.

تلك هي أبرز وظائف الجامعة التي أوجز الباحث القول عنها. وهي وظائف مترابطة ومتكاملة مع بعضها البعض، وكلما زاد الترابط والتنسيق بينها زاد ذلك من فاعلية كلاً منها، ومكن الجامعة من تحقيق رسالتها «فالجامعة الصالحة - مثلاً - لا تستطيع من ناحية أن تقتصر على التدريس أو التدريب وحده وتنفصل عن المجتمع الذي نبعت منه ونشأت فيه، بل لا بد أن يكون لها - بجانب ذلك - دور فعال مباشر وغير مباشر في خدمة المجتمع والمساهمة في تنمية وفي حل مشاكله، خاصة بعد أن يتسع حجمها ويكتمل بناؤها وجهازها من أعضاء هيئة التدريس الوطنيين الملمين بمشاكل مجتمعهم، القادرين أكثر من غيرهم على خدمته والتفاعل معه»[٩].

٣ - التحديات:

أولاً: التحديات المحلية:

١ - تحدي الانفجار السكاني:

يعد تحدي الانفجار السكاني ليس مشكلاً محلياً، بل هو من التحديات التي تواجه العالم بأسره، حيث أن من المتوقع أن يرتفع عدد سكان العالم من ٥,٥ بلايين نسمة إلى ٨,٢ بلايين نسمة بحلول عام ٢٠٢٥، وأن ٩٥٪ من هذه الزيادة ستكون في الدول النامية التي يمثل العالم العربي جزءاً منها. فجوهر حقيقة تحدي الزيادة السكانية بالدول النامية ومنها الدول العربية لا تتناسب مع زيادة الدخل القومي.

ومن الأمثلة الواضحة لذلك زيادة السكان بمصر، وأن عدد سكان مصر كان يتضاعف كل نصف قرن تقريباً منذ بداية القرن التاسع عشر حتى منتصف القرن العشرين، ثم أصبح يتضاعف كل ٢٨ عاماً تقريباً بعد ذلك، وتزداد حدة المشكلة إذا أدركنا أن الموارد وخاصة الزراعية والغذاء لا تتضاعف بنفس المعدل. ومن هنا، توجد فجوة حقيقية بين كل من نمو السكان ونمو الموارد[١٠].

٢ - تحدي التأخر الصناعي والموارد البشرية:

لقد ظلت الصناعة في معظم البلاد العربية في مراحلها الأولى، على الرغم من توفر مصادر اقتصادية وفي مقدمتها النفط في الوطن العربي فهو لا يزال يعاني من التخلف الاقتصادي وإن كان يتفاوت من قطر لآخر. إضافة إلى النفط هناك مصادر طبيعية أخرى منها المعادن. والتي لم تستغل بعد بالشكل المطلوب وبطبيعة الحال إن استغلال هذه الثروات يحتاج إلى رأس المال من ناحية وإلى القوى البشرية المدربة من الناحية الأخرى، فلو نظرنا إلى رأس المال فهو موجود لدى بعض الأقطار العربية ونخص منها الدول النفطية، والتي يمكن أن تسهم في تمويل المشروعات الاقتصادية وإن كانت الدول العربية تعاني من مشكلة قلة رؤوس الأموال، أما فيما يتعلق بجانب القوى البشرية المدربة فلا تزال محدودة في الوطن العربي وتحتاج إلى تنمية كبيرة، ويوضح محمد منير مرسي (١٩٧٤) ذلك بقوله:

«يملك العالم العربي ثروة بشرية كبيرة بحساب الأعداد... فهو عدد يزيد على ضعف سكان كل من إيطاليا وبريطانيا... لكن الغالبية العظمى لهذه المجموعة البشرية الكبيرة أميون أو لا يجيدون أي مهارات فنية ومعنى هذا أن هناك فاقداً كبيراً في الثروة البشرية في البلاد العربية»[١١].

وهذا يوضح عمق المشكلة، وبالتالي لابد للبلاد العربية من التعاون في المجالات الاقتصادية وتبادل الخبرات فيما بينها وتعمل على محو الأمية لأبنائها وعلى تنمية الموارد البشرية لأنها مسألة ضرورية للتنمية والبناء، وهذا لا يتحقق إلا بالتعليم الجيد. تلك من جملة التحديات التي تواجه الأمة العربية وهي تخطو نحو القرن الحادي والعشرين، وعلى الرغم من قناعة الباحث بأن هناك تحديات محلية أخرى إلا أنه اكتفى بأهمها من حيث علاقتها القوية بالتعليم والتنمية الاقتصادية والبشرية.

ثانياً: التحديات الدولية:

١ - العالمية:

يمر العالم حالياً بفترة غاية في الأهمية، فهو ينتقل من نهاية قرن إلى بداية قرن جديد، وينتقل من نظام اقتصادي وسياسي إلى نظام مختلف تماماً. وبفضل ثورة الاتصال أصبح العالم قرية صغيرة وتجاوز حواجز الزمان والمكان والقطرية. فالعالم يتجه نحو نظام عالمي جديد، يتغير فيه نمط الحياة تماماً، وأصبح يعيش نوعية جديدة من الثقافة، والتي تحتاج لمواطن على درجة عالية من الإعدادوالتأهيل والقدرة على التكيف مع أي مهن جديدة، وبالتركيز على إعداد

الإنسان لما له من أدوار ومسؤوليات سيقوم بها في المجتمع لابد أن يضع في الاعتبار أمرين أساسيين[١٢].

الأمر الأول: ويتمثل في البعد المستقبلي للتعليم، وهذا يعني إعداد إنسان ليس للسنوات القليلة القادمة، بل للعيش في هذا العالم في العقود الأولى من القرن القادم أي بعد ١٥، أو ٢٠ عامًا أو أكثر، في نفس الوقت الذي ستتغير فيه كل الظروف التي كانت موجودة.

الأمر الثاني: عند التخطيط لإعداد الشباب العربي لمواجهة الحياة أن يكون في مفهومنا - البعد العالمي... هذا يعني، أنه لابد أن نفكر بطريقة عالمية، ونتصرف بطريقة محلية، بحيث يكون البعد العالمي جزءًا أساسيًا من تفكيرنا، بما يستتبعه ذلك من نتائج تتصل بالمناهج وطرق التدريس واللغة التي نستخدمها، والأساليب التي نتبعها والتخصصات التي نحتاج إليها، ونخطط لها.

هذه الأساليب لابد من تطبيقها في إعداد أبناء الأمة العربية ليكونوا مسلحين بلغة العصر الجديد، ومفاهيمه بالقدر الذي يؤهلهم للتعامل الجيد مع آليات العصر، واحترام الوقت واستثماره والقدرة على التكيف مع الظروف القادمة.

٢ - تحدي ثورة الثقافة:

يمر العالم بثورة جديدة يطلق عليها اسم (الثورة الثالثة) وهو مزيج بين التقدم التقني والثورة المعلوماتية، وتتميز هذه الثورة عن الثورة الزراعية والثورة الصناعية بالسرعة الفائقة وإنتاجها خدمات وأفكار والقدرة الكبيرة على مواجهة تغير أذواق المستهلكين وهذه السرعة تتطلب التسلح بنظام معلوماتي فائق السرعة لمعرفة ما سيحدث في المستقبل لمتطلبات المجتمع، ويحدث هذا التعديل في خطوات الإنتاج لملاحقة التغير، ولإنتاج خدمات وأفكار جديدة.

وهذا يحتم على التعليم الجامعي العربي الاستعداد لكل هذا التحدي بمخرجات تتصف بقدرات عالية ولها القدرة على التعامل مع آليات العصر من تقنية واستعمال الرياضيات المعقدة وأجهزة الحاسوب واتخاذ القرارات وتقييم جودة الإنتاج وفي مواجهة التقدم بما يفرضه من احترام التقانة المتقدمة واستعمالها لابد من حماية المجتمع العربي من سيطرة التقانة المتقدمة على الحضارة والثقافة، وهذه المشكلة يعاني منها حاليًا المجتمع الغربي وهي الظاهرة التي تعرف بسيطرة التقانة على الثقافة والحضارة ونتج عنها مشاكل اجتماعية وأخلاقية أدت إلى التفكك الأسري وانتشار الجريمة والإدمان والانتحار.

وفي مواجهة هذا التحدي لابد من أن تصبح مهمة المؤسسات التربوية ومنها الجامعة في مجتمعاتنا «متعاونة مع المؤسسات الثقافية الأخرى من أجل اختيار القيم الأخلاقية التي تتناسب مع الظروف الجديدة كما تساعد على بناء القيم الأخلاقية التي تدعم التغيرات المختلفة التي تهدف إلى خلق المجتمع الاشتراكي الديمقراطي»[١٣].

ويتضح من هذا الاستعراض السريع أن الأمة العربية أمامها جملة من التحديات المحلية والدولية غير التي أشار إليها الباحث، ومنها التلوث البيئي وتحدي المنافسة العالمية والاحتكارات الدولية، تحدي استقلالية القرار الوطني، وكل هذه التحديات وغيرها تفرض حتمية تطوير التعليم ودعمه بكل مراحله وبخاصة التعليم العالي منه كخيار استراتيجي يعول عليه في هذه المواجهة.

٤ - دور الجامعة المنتظر:

في ضوء ما تقدم يرى الباحث أن دور الجامعة المستقبلي يحتاج إلى مجهود جاد ومتواصل لإيجاد توازن وتنسيق بين العمل والفكر وتشجيع البحث العلمي وربط الجامعة بقضايا المجتمع ومشروعات التنمية الاقتصادية والاجتماعية. ولكي تقوم الجامعة بدورها على الوجه المطلوب تجاه مشكلات المجتمع كما يرى كثير من المربيين ومنهم بوتكين الذي يقول إنها: كمختبر (معمل) يجري فيه تحليل الماضي واختيار الحاضر، في إعداد البدائل للمستقبل. ولكي تنجح الجامعة في هذا العمل الضخم الشاق، فإن عليها أن تندمج بصورة أوثق وأعمق في مجالات اختصاصها وهذه هي العمليات الخاصة بنمو المجتمعات وتنميتها، ويتطلب هذا حد أدنى من الاستقلالية[١٤].

فالجامعة ومن خلال مسيرتها التاريخية مع حركة الحضارات الإنسانية تظل في موقع الصدارة ناقلة ومراجعة للعلوم ومنقبة في الحاضر ومتطلعة إلى المستقبل وآفاقه الكونية.

وعلى ضوء الأدوار التي قامت بها الجامعة في الماضي يمكن أن تتصورنموذجًا طموحًا لمجموعة من الخصائص يمكن للجامعة مستقبلاً القيام بها والنموذج التصوري كما يراه حامد عمار (١٩٩٥) هو تلك المؤشرات المعيارية التي سوف نسعى إلى بلوغها والاقتراب منها على الأقل إلى أكبر قدر ممكن. وهذا النموذج المعياري المقترح تتخذه إطارًا مرجعيًا لتشخيص واقع جامعاتنا، ومدى إسهامها في الإعداد للمستقبل ومواجهة التحديات وبناء الإنسان.

وقبل عرض النموذج لابد من طرح بعض الأسئلة:

ما هي الجامعة التي نريد؟ وأي إنسان نريد إعداده للمستقبل المنتظر؟

هذان السؤالان ليست الإجابة عليهما

بالشيء اليسير، ولكن في حدود تصور النموذج المقترح لدور الجامعة المستقبلي على ضوء أفكار وآراء خبراء التربية والتعليم، التي يتفق معها الباحث، نرى أن هذا النموذج يرمي إلى دلالات ومقومات مفهوم الجامعة لأمور متعددة هي [١٥]:

١ - جامعة لعناصر التميز في إعداد النخب، واعتبار ذلك مهمة أساسية من مهماتها في المنظومة التعليمية وفي السياق المجتمعي العام.

٢ - جامعة لمعارف عامة مشتركة تمثل قاعدة لمعارف ومهن متخصصة والتخصص السليم لابد أن ينطلق من قاعدة عامة وهي تجمع إلى جانب ذلك مجالات معرفية يختارها الطالب على هدى من ميوله واهتماماته الذاتية التي يريد أن ينميها لتضيف إلى رأس ماله العلمي والثقافي.

٣ - جامعة لشتات المعارف التي لا يقتصر نموها منعزلة في امتدادات خطية إنما تتلاقى وتتشابك في تكامل معرفة بعضها مع بعض من خلال مختلف الخصوصيات المنهجية لمجالات المعرفة.

٤ - جامعة لالتقاء الثقافة الوطنية بخصوصياتها مع الثقافات التي تشاركها في القيم والمعاني والمصائر الحياتية، ومع الثقافات الإنسانية الأخرى، بما يؤدي إلى إثراء حصيلةطلابها.

٥ - جماع مختلف الفكر والتصور والخيال الإنساني.

٦ - هي مكانًا لتعبئة الطاقة المكونة والمحركة لوعي المتعلم، وعيًا بالنفس، ووعيًا بمحيطه ومكوناته ووعيًا بما يضطرب به العالم من حوله ووعيًا بحاضره وتحسبًا لاحتمالات المستقبل ومتغيراته.

٧ - جمع لتأثير المجتمع الذي يؤسسها، كما تكون مسؤولة في الوقت ذاته عن التأثير الإيجابي في مسيرته. ومن ثم فإنها تسعى إلى ترسيخ خصوصيته المتميزة بما يدعم التماسك الاجتماعي، ويعزز الاستقرار وإكساب المجتمع الحيوية للتطوير والتجديد، بل والإسهام الفعال في الحضارات الإنسانية الأخرى.

٨ - فيها يكتسب المتعلم مجموعة من القدرات العقلية ومهارات العمل وقيمه وعاداته... ونقد المعرفة والاستقلال في بلورتها والحكم عليها، وتطبيق المعرفة واستثمارها الأمثل.

٩-هي مجتمع بما فيه من مقومات الحياة الديمقراطية من حيث توسيع مشاركة الطلاب في تنظيم الحياة الجامعية من خلال التواصل الخصب بين الأساتذة والطلاب والتواصل مع الإدارة الجامعية وبالتواصل بين أساتذة الجامعة أنفسهم وهم يمثلون فريقًا من فرسان العلم يتبارزون مع مجالات تخصصهم ومع الحياة بأسلحة المعرفة والبحث العلمي، وتتألف مدارسهم الفكرية خدمة لطلابهم تعليمًا وتعلمًا وخدمة لمجتمعهم أيضًا.

هذا النمـوذج الذي يطرح أفكارًا وآراء تربوية الرسالة الجامعة في خدمة الإنسان وإعـداده المعـرفي والحـضـاري لخـدمـة المجتمع. قد يتحقق تطبيق جزء من هذا النموذج في بعض الجامعات بينما تتحقق معايير أخرى منه في جامعات أخرى،وقد تتحقق جميعها في جامعة واحدة. المهم أن تكون هناك الجدية في محـاولة الوصـول لتنفيذ تلك المقترحات للجامعة، وأن يستمر الجهد حتى يظل التحسن مطردًا، وأن تظل الجامعة على اتصال دائم بحركة الحياة وآفاقها المتطورة، وأن لا تعزل نفسها عن المجتمع حتى لا يفقد العلم قيمته الاجتماعية والمعرفية. وهذا النداء لجامعاتنا العربية لا يتعارض مع أهمية الاطلاع والتفاعل مع المنتجات العلمية للجامعات الأخرى، بل ذلك الاتصال ضرورة للحيوية الفكرية فقط أن لا يكون ذلك بديلاً عن متابعة قضايا المجتمع وإيجاد الحلول المبدعة من أجل تحريك الحاضر إلى المستقبل المنشود.

والأمة العربية والإسلامية تواجه تحديات العصر وبخاصة وهي تمر مع نهاية هذا القرن - كما سبقت الإشارة- بمرحلة دقيقة تستوجب على جامعاتنا أن تستمر في الابتكار والإبداع في إطار حضاري وفي تفاعلاتها مع الثقافات الأخرى وتستوعب لغة العصر وأدواته، بل وتسهم في صنع التقدم على هدى من قيم المجتمع الروحية والتراثية. وهذا لا يتحقق إلا بالإنسان المعد الإعداد العلمي السليم القادر على المنافسة العالمية المحتدمة في السوق العالمية بخاصة مع بداية الألفية الثالثة.

وفي الختام نقول كما قال أحمد علي الفنيش « أن الجامعات العربية مطالبة اليوم أن تجعل من العملية التعليمية عملية مستمرة وأن تطور العملية التعليمية ذاتها وتمد نطاقها خارج مجالها المحدود، وأن تقوم بالبحوث في مختلف المجالات النظرية والتطبيقية، وتتعاون مع جهات العمل المختلفة وتتسق معها على مختلف المستويات »(١٦).

ونضيف إلى هذا أن قيام الجامعات بدورها يبني مستقبل الأمم، ولعل هذا ما عبر عنه فيلسوف وشاعر الصين كوان تسو قبل أكثر من ألفي سنة بقوله: «إذا أردت أن تحصد بعد عام فازرع قمحًا، وإذا أردت أن تحصد بعد عشر سنوات فازرع شجرة، وإذا أردت أن تحصد بعد قرن فعلم الشعب، لأنك إذا زرعت قمحًا فإنك تجني مرة واحدة، وإذا زرعت شجرة فإنك تجني مرة واحدة كل عام، وإذا علمت شعبًا فإنك تحصد دائمًا».

الهوامش

١ - ابن منظور المصري : لسان العرب، (باب جمع) المجلد الثامن، بيروت، دار صادر، ص ٥٢ - ٥٧.

٢ - حامد عمار: دراسات في التربية والثقافة، الجزء (١)، مصر ، مكتبة الدار العربية للكتاب، ١٩٩٥، ص ٩٤.

٣ - انظر : إسماعيل محمد دياب: العائد الاقتصادي المتوقع من التعليم الجامعي، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٩٥، ص ٣٨.

٤ - F.H.Harbison "Human Resources as the Wealth of nation. New York, Oxford university Press, 1973, P.3

٥ - إسماعيل محمد دياب: مرجع سابق، ص ٣٩ - ٤٠.

٦ - عمر محمد التومي الشيباني: التربية وقضايا التنمية والتحديث في المجتمع العربي، طرابلس، الهيئة القومية للبحث العلمي، ١٩٩٢، ص ٤١٣.

٧ - عبد الله رمضان بوبطانة: دور التعليم العالي والجامعي في التنمية العربية المجلة العربية لبحوث التعليم العالي ، العدد الثاني، ديسمبر ١٩٨٤، ص ٣٩ - ٤٠.

٨ - انظر: فخرالدين القلا - محمود السيد - عدنان الأحمد: التربية في الوطن العربي، دمشق، منشورات جامعة دمشق، ١٩٩٨، ص ٢٢٦.

٩ - عمر محمد التومي الشيباني: مرجع سابق، ص ٤١٤.

١٠ - انظر : حسين كامل بهاء الدين: التعليم والمستقبل، القاهرة، دار المعارف، ١٩٩٧، ص ٥٨.

١١ - محمد منير مرسي: التعليم العام في البلاد العربية، القاهرة، عالم الكتب، ١٩٧٤ ، ص ١٨.

١٢ - حسين كامل بهاء الدين: مرجع سابق ، ص ٣٥ - ٣٦.

١٣ - لطفي بركات أحمد : التربية ومشكلات المجتمع، القاهرة، دار النهضة العربية، ١٩٧٨، ص ٣٢٧.

١٤ - جيمس بوتكن وآخرون: التعليم وتحديات المستقبل، ترجمة عبد العزيز القوصي، القاهرة، المكتب المصري الحديث، ١٩٨١، ص ١٧٥.

١٥ - انظر: أحمد عمار: مرجع سابق، ص ٩٦ - ٩٨.

١٦ - أحمد علي الفنيش: التربية بين المجتمع والجامعة، ليبيا، المنشأة الشعبية للنشر والتوزيع والإعلان والمطابع، ١٩٨١، ص ١١٥ - ١١٦.

❖ ❖ ❖

الترجمة للطفل العربي

د. سمر روحي الفيصل (*)

لا أشكّ في أن تاريخ الترجمة للطفل العربي يحتاج إلى تحليل موضوعيّ قادر على الإجابة عن السؤال الآتي: هل نشأ أدب الطفل العربي في بدايات القرن العشرين نتيجة ترجمة النصوص الأدبية من اللغات الأجنبية إلى اللغة العربية، أو بدأ هذا الأدب بتأليف النصوص الأدبية نتيجة شعور المربين العرب بحاجة أطفال المدارس إلى غذاء أدبي ملائم لهم، ثم استعانوا بتعريب النصوص الأجنبية ليرسّخوا هذا الأدب، وأهملوا الترجمة لأنهم رأوها غير ملائمة للأطفال العرب؟ إن الإجابة عن هذا السؤال ضرورية في أية محاولة لقراءة نشأة أدب الأطفال عند العرب قراءة نقدية تخدم حاضر هذا الأدب، وتسمح بتقديم حكم قيمة على ترجُّحه بين الترجمة والتعريب.

(*) الدكتور سمر روحي الفيصل: باحث من سورية. دكتوراه في الأدب العربي. عضو اتحاد الكتاب العرب.

وكنتُ قدّمتُ إجابتي الخاصة عن سؤال النشأة[1]، ومـا زلتُ أعتـقـد بأن هناك وجهات نظر أخرى. ذلك لأن الروّاد الأوائل بدؤوا بكتابة الشعـر للأطفـال ولم يبـدؤوا بكتابة النثر لهم. والشعـر الذي بدؤوا به مـوزون مـقـفّى ذو لغـة بسـيطة واضـحـة، وإيقاع موسيقي بارز، وشكل حكائي غالبًا، ومضمون وعظي مباشر، بل إن تصريحاتهم ومقدّماتهم نصّتْ بوضوح على أنهم كتبوا هذا الشعـر تلبيـة لحـاجـة الطفل العربي، وكان بعضهم يعمل في حقل التربية، ويُقدّم شعـره في الكتب المدرسـيـة[2]. وهذا يعني أن أدب الأطفـال نشأ نشـأة عربيـة صـرفًا بعيدة عن الترجمة، وما قيل عن تأثُّر أحمد شوقي وعثمان جلال بلافونتين[3] يجب أن يُفهَم في حدود (المثاقفة) لا الترجـمـة. فلافونتين كتب حكاياته شعـرًا نتيجة تأثره بكتـاب (كليلة ودمنة) لابن المقـفّـع بعـد ترجمته من الفـارسـيـة إلى الفـرنسـيـة، مما يشير إلى أن بضاعتنا رُدّتْ إلينا عن طريق (المثاقفة). يُعزّز ذلك ما فعله كامل الكيلاني حين عـرّب عـددًا من قـصـص الأطفـال ولم يتـرجـمهـا، كمـا هي الحـال في (السندباد البحري) عام ١٩٢٧. فقد عادت بضاعتنا إلينا عن طريق كـامل الكيـلاني مرّة أخـرى لأن النصـوص الأجنبـيـة لهـذه القـصـص مستمدّة من (ألف ليلة وليلة). ولهذا السبب لم يترجمها الكيلاني، بل راح يقتبس منها، ويُعدّل ويُبدّل فيهـا، ويصوغ ذلك كله بلغة عربيـة ناصعـة، مما يؤكّد أن الروّاد العرب كـانوا راغبين في (التـعـريب) لإيمانهم بأنه أكثر ملاءمة للطفل العربي.

والحقُّ أن قضية نشأة أدب الأطفال لم تُحلَّل تحليـلاً موضوعيًّا يُوضِّح طبيعتها، وبالتـالي لم يفـد منهـا الأدباء والبـاحـثـون العرب المهـتـمـون بثقـافـة الطفل. ذلك لأن هذا الأدب اتسع في العقود الثلاثة الأخيرة من القـرن العـشـرين، وشـرع يُشكّل رويدًا رويدًا ثقافة متكاملة للطفل العربي، فيها أنواع الفنون والعلوم والآداب، واسـتـخـدام واضح للـتـقـنيـات الحـديثـة، وتنويع في الوسـائط المقـروءة والمسـمـوعـة والمرئيـة، ومحاولات لرعاية الموهوبين والمبدعين من الأطفـال، وعناية بالدراسـات وحلقـات البحث والندوات الخاصة بثقـافة الطفل العربي، وأحاديث عن حـقـوقه، ومجـالس وجمـعـيـات للبـحث في شـؤونه.. ومـا كـاد القرن العشرون يلفظ أنفاسه الأخيرة حتى نُسختْ من الأذهان فكرة (الراشد المصغَّر) وحلَّت محلّها فكرة المرحلة العمرية. وكانت التـرجـمـة، في أثناء ذلك كله، تنمـو وتتسع وتصبح رافـدًا رئيسًـا من روافـد ثقـافـة الطفل العربي. أما (التعريب) فشرع يضمر كلما ابتعدنا عن مرحلة الروّاد، ويضمر معه مفهوم (المثاقفة)، حتى إن ثقافة الطفل أصبحت مقصورة على الترجمة والتأليف. ولهـذا الوضع الجـديد مـشكلات مـغـايرة لمشكلات النشـأة الأولى وأكثر تعقيدًا منها.

ومن المفيد بعد دخولنا القرن الحادي والعشرين ألا ندفن رؤوسنا في الرمال ثانية، ونتجاهل إيجابيات الوضع الجديد وسلبياته. وسأحاول، هنا، الانصراف إلى الترجمة دون التأليف في محاولة لفهم مسوّغاتها وواقعها ومشكلاتها وآثارها في الطفل العربي.

١- مسوّغ الترجمة وواقعها:

لا شكّ في أن الثقافة حاجة من حاجات الطفل، لأنها تُسهم في تكوين شخصيته، وتُعين المجتمع على إعداد أبنائه للمستقبل. والمجتمع، في العادة، يُنشئ عدداً من المؤسسات كوزارات الثقافة والتربية والإعلام وغيرها لتنوب عنه في تجسيد هذه المهمة. ومن البديهي أن يكون الأداء السليم لهذه المهمة منوطاً بتكامل عمل المؤسسات والأفراد، لأن ثقافة الطفل مزيج متقن من التربية والفن. وهذا المزيج يُقدَّم بوساطة مجموعة من العلوم والفنون والآداب والمهارات والقيم التي يستطيع الطفل استيعابها وتمثُّلها في كل مرحلة من مراحله العمرية الثلاث، ويتمكن -استناداً إليها- من توجيه سلوكه داخل المجتمع توجيهاً سليماً. وهذا يعني أن ثقافة الطفل ثقافة خاصة مغايرة لثقافة الكبار وإنْ شاركتها في بعض الجوانب. على أن المجتمع العربي -في بدايات اهتمامه بأدب الأطفال- لم يكن يملك قدراً كبيراً من النصوص الصالحة للطفل، فاستعان بالترجمة. ومن ثمَّ كانت ندرة النصوص العربية مسوِّغاً للترجمة للطفل العربي. ولمّا نما التأليف أُضيف مسوِّغ آخر هو الانفتاح المعرفي على آداب العالم وعلومه وفنونه وعدم التقوقع على الذات الثقافية العربية. وما زال مفهوم الانفتاح المعرفي -نظريّاً على الأقل- سائداً في المجتمع العربي، ومسوِّغاً رئيساً للترجمة للطفل العربي. وهذا أمر مشروع، لأن الأمم بدأت تُقاس بما تُقدِّمه لأطفالها من غذاء ثقافي، وبمقدار مراعاتها حقوق هؤلاء الأطفال.

بيد أن واقع الترجمة مغاير للهدف النظري الموضوع لها. فقد اتصفت هذه الترجمة في بداياتها بالفردية، واستمرت على هذا النحو دون تعرف التنظيم أو تخضع للرقابة الناقدة أو تقترب من التخطيط العلمي، مما جعل العشوائية سمة بارزة فيها. ومن أبسط تجليات العشوائية الاهتمام الكبير بترجمة النصوص الأدبية وإهمال النصوص العلمية، بل إن لترجمة الأدب القصصي سيادة بين النصوص الأدبية المترجمة، وكأنّ الترجمة للطفل العربي تعني لدى المترجمين العرب ترجمة القصص والحكايات وحدها، مما جعل مكتبة الطفل العربي تفتقر إلى التناسب بين الكتب الأدبية والكتب العلمية، وتتصف بالصفة القصصية غالباً، وهي الصفة نفسها التي يمكن أن نصف بها الترجمة للطفل العربي.

ولا يقتصر الأمر على ما سبق، فقد تُرْجِم أدب الأطفال عن إحدى اللغتين الإنكليزية والفرنسية غالبًا، لأن هاتين اللغتين كانتا لغة المستعمر الأجنبي الذي احتل الوطن العربي، وفرض لغته، وحصر البعوث التعليمية العربية في بلاده. ولم تتغير الحال بعد استقلال الدول العربية، إذ بقيت السيادة في الترجمة لهاتين اللغتين، لأن مترجمي أدب الأطفال تلقوا تعليمهم بهما، ولم يكن العدد القليل من المترجمين الذين أتقنوا لغات أخرى قادرًا على تعديل السيادة أو التخفيف منها كما هي حال الترجمة للطفل العربي عن اللغة البلغارية[٤]. وربما كان أدب الأطفال المترجم عن الروسية في بعض الدول العربية كسورية ومصر مثلاً مؤهلاً لاحتلال المرتبة الثالثة بعد الإنكليزية والفرنسية، تبعًا لانصراف العائدين من البعوث إلى الاتحاد السوفييتي (سابقًا) إلى الترجمة عن الروسية، إضافة إلى أن داري التقدُّم ورادوغا الروسيتين كانتا تترجمان أدب الأطفال من اللغة الروسية إلى اللغة العربية وتُصدِّرانه إلى الوطن العربي مترجمًا بأثمان بخسة، دون أن تتوانى إحداهما أحيانًا عن إهمال تدوين أسماء القاصين الروس والمترجمين إلى اللغة العربية على غلاف المجموعة القصصية[٥]، وكأنهما تغرسان في الطفل العربي بشكل غير مباشر قيمة سلبية هي إهمال حق الكاتب والمترجم في ذكر اسميهما إلى جانب عملهما. ولسبب ما امتد هذا الإهمال إلى الوطن العربي، فتُرجِمتْ كتبٌ للأطفال تضم عبارة (عدد من المؤلفين)[٦]، دون أي انتباه إلى القيمة السلبية التي تكمن وراء ذلك، ودون أي تعليل للمقولة السائدة وهي أن الطفل يهتم بالقصة ولا يهمه اسم صاحبها.

وقد قادت سيادة الترجمة عن الإنكليزية والفرنسية إلى أن يتعرَّف الطفل العربي نصوص أدب للأطفال نابعة من بيئة مغايرة لبيئته، معبِّرةٍ عن أيديولوجيا هذه البيئة وفهمها الطفل، وما يرتبط بذلك من قيم وموضوعات. فالأخوان جريم الألمانيان اللذان عاشا بين ١٧٨٥-١٨٦٣ جمعا الحكايات والأقاصيص الشعبية الألمانية ليستندا إليها في ترسيخ عملهما اللغوي الذي يهدف إلى توحيد الأمة الألمانية المجزَّأة آنذاك. ومن ثَمَّ لم يكن في موضوعات هذه الحكايات وأساطيرها وقصصها الشعبي وقيمها ما يخدم الطفل العربي بعد ترجمة المختار من هذه النصوص إلى اللغة العربية[٧]. وثمة أمر آخر هو أن فوضى الترجمة واعتمادها على الرغبات الفردية للمترجمين وفقدان التخطيط العلمي لها قاد إلى خلل واضح في تلقّي الطفل العربي الأدب المترجم عن الإنكليزية والفرنسية. إذ تداخلت النصوص التي تنتمي إلى تاريخ أدب الأطفال

بالنصوص التي صدرت بعد الثلاثينيات، وهو العقد الذي أعلن بداية الفهم العلمي الحقيقي للطفل، وبداية الكتابة له وليس عنه[8]. وهكذا قرأ الطفل العربي نصوص الكاتب الفرنسي شارل بيرو (١٦٢٨-١٧٠٣) من القرن السابع عشر قبل أن يقرأ نصوص الكاتب الإغريقي ايسوب الذي عاش في القرنين السابع والسادس قبل الميلاد. كما قرأ الطفل العربي نصوص الكاتبة الإنكليزية اينيد بلايتون (١٩٠٠-١٩٦٨) التي عاشت في القرن العشرين قبل أن يقرأ نصوص الكاتب الدانماركي هانز اندرسون (١٨٠٥-١٨٥٧) الذي عاش في القرن التاسع عشر، أو نصوص الكاتبة الفرنسية صوفي دي سيغور (١٧٩٩-١٨٨٤) التي عاشت في القرن الثامن عشر.

ومن المفيد القول إن هناك نصوصاً تُرجمتْ عن الإنكليزية أو الفرنسية لكُتّابٍ من الهند والصين وكوريا وألمانيا وإسبانيا وغيرها من الدول الأجنبية[9] وكان لذلك أثر سلبي آخر، هو أن النصوص تُرجِمت أول الأمر من لغتها الأصلية إلى الإنكليزية أو الفرنسية، ثم تُرجمت من الإنكليزية أو الفرنسية إلى اللغة العربية، وفقدت تبعًا لذلك كثيرًا من روائها وجمالها وإيحاءاتها ودقتها، وخصوصًا النصوص الشعرية التي فقدت إيحاءات اللغة التي كُتبتْ بها حتى تُرجمت أول مرة، ثم فقدتها ثانية بعد انتقالها عبر اللغة الوسيطة إلى الطفل العربي.

٢- أثر الترجمة في الطفل العربي:

لا أملك دراسات علمية نهضت بمهمة تحديد أثر النصوص المترجمة في الطفل العربي. وكلُّ ما يُقال في أثناء غياب هذه الدراسات يُعبِّر عن وجهات نظر فردية، تختلف قوّةً وضعفًا بحسب صلة الباحث بالطفل العربي وبطبيعة الثقافة المقدَّمة له. وإنني أعتقد - في حدود تجربتي ووجهة نظري- بأن هناك تأثيرين للنصوص المترجمة في الطفل العربي، أولهما لغوي وسأوجز الحديث عنه، وثانيهما قيمي وسأفصِّل القول فيه لإيماني بخطورته وحاجته إلى التحليل.

أ- الأثر اللغوي:

إن النظرة الفاحصة إلى النصوص المترجمة للطفل العربي في النصف الأول من القرن العشرين، والنصوص المترجمة له في النصف الثاني من القرن نفسه، وخصوصًا بعد العام الدولي للطفل (١٩٧٩)، تشير إلى تباين لغة الترجمة. ففي الترجمات الأولى كان هناك حرص واضح على نقاء اللغة العربية ودقتها والتمسُّك بسننها والتنويع في صورها وحوارها. بل إن الروّاد الأوائل اتُّهِموا بالمغالاة في التقيُّد باللغة العربية، فترجموا نصوص أدب الأطفال الشعرية والنثرية بلغة راقية يعجز الطفل العربي أحيانًا عن التواصل السليم معها. وعلى الرغم من

ذلك فإن التأثير اللغوي لهذه النصوص في الطفل العربي بقي إيجابيًا. فهذه النصوص كانت تُعلّم الطفل اللغة بشكل غير مباشر، فتزيد حصيلته اللغوية، وتُرسّخ فيه الأنماط اللغوية العربية، وتُقدّم له فرصًا وافرة لملاحظة الاستخدام الحقيقي والمجازي للمفردة، وللتنويع في أساليب تقديمها وتأخيرها في الجملة، وللبحث في إيحاءاتها ضمن التراكيب. ولا ريب في أن الروّاد والذين جاؤوا بعدهم حتى سبعينيات القرن العشرين لم تشغلهم قضية المعجم اللغوي للطفل العربي[10]، فترجموا لهذا الطفل بلغة اعتقدوا بأنها ملائمة له، قادرة على تنمية مهاراته القرائية، ولم يسمحوا لأنفسهم بأن تشوب لغة نصوصهم المترجمة للطفل شائبة من خطأ أو ضعف أو ركاكة في الأسلوب. فاللغة العربية بالنسبة إليهم هوية، ولا أدب عربيًا للأطفال إذا لم يُعبّر عن هذه الهوية ويسعى إلى الإسهام فيها.

أما الترجمات التي بدأت تترى في العقدين الأخيرين من القرن العشرين فقد ضمر حرصها على اللغة العربية، وبات تقيّدها بها فرديًا تابعًا لقدرة المترجم اللغوية. ولم يبق غريبًا أن يتصدّى للترجمة مترجمون ليس لهم نصيب وافر من اللغة العربية يداني نصيبهم من اللغة التي يُترجمون منها، كما هي حال الترجمة التي قدّمتها ربابٌ هاشم لمجموعة (الأرنب المخملي)[11]، فهي ترجمة لمجموعة من قصص الأطفال لا تتقيّد كثيرًا بسنن اللغة العربية في بناء الجملة، ولا تحرص على انتقاء المفردات الدالة، ولا تهتم بالبناء الكلي لنص القصة، ولا تراعي أدبية النص المترجم. كما لم يبق غريبًا أن نلاحظ الجنوح إلى الترجمة الحرفية التي لا تُراعي -غالبًا- الدلالة الكلية للنص المترجم، ولا الخلفيات الثقافية للطفل العربي المتلقّي، إضافة إلى عدم حرصها على نقاء اللغة العربية وأدبيّتها. ولا شكّ في أن هذه العيوب تبقى خاصة بأصحابها، غير قابلة للتعميم على المترجمين العرب جميعًا. بيد أنه من الملاحظ -بشكل عام- أن الترجمة للطفل العربي جنحت -في العقود الثلاثة الأخيرة- إلى بساطة اللغة وسهولتها اعتقادًا من المترجمين بأنها اللغة الملائمة للطفل العربي. وهم محقّون في ذلك شريطة الحفاظ على أدبيّة الأدب المترجم -كما هي الحال في كتب الأطفال التي ترجمها سعد صائب- بحيث يبقى النص المترجم للطفل نصًا أدبيًا لم يفقد شيئًا من إمكانية تأثيره اللغوي غير المباشر في الطفل العربي. ولعله من المفيد أن تخضع النصوص المترجمة للمراجعة اللغوية قبل تقديمها للطفل.

ب - أثر القيم والموضوعات والاختراق الثقافي:

من المرجّح أن يتأثر الطفل العربي بموضوعات الأدب المترجم وقيمه. والظن

بأن هذا التأثُّر ذو وجهين: وجه إيجابي يكمن في اطّلاع الطفل العربي على عادات الأمم الأخرى وتقاليدها، وعلاقة أطفالها بمجتمعهم وأسرهم وأوطانهم. وهذا ما عزّز لدى الطفل العربي مجموعة من القيم المعرفية والاجتماعية والوطنية والإنسانية، إضافة إلى المتع الفنية النابعة من الحكايات الشائقة والشخصيات المحبّبة التي تستجيب لتطلُّعات الطفل وحاجاته.

أما الوجه السلبي فقد تجلّى في التركيز على العوالم العجيبة والغريبة، والشخصيات المستمدة من الحكايات الخرافية، وخصوصًا السحرة والكائنات الغريبة وما يرتبط بذلك من خوارق كطيران الأبنية والحيوانات الضخمة واختراق باطن الأرض ومسخ الإنسان حيوانًا وانقلاب الحجارة نارًا[12] وما إلى ذلك مما يفتقر إلى السند العلمي وإنْ كان مفيدًا لتنمية مخيِّلة الطفل. وليس هذا الوجه السلبي خاصًا بالقصص التي ترجع إلى ما قبل ثلاثينيات القرن العشرين، بل هو عام، لاحظته في قصص (الأرنب والتمساح) لاينيد بلايتون[13] حين منحت القاصة الأرنب القدرة على المكر والخديعة للإيقاع بحيوانات الغابة.

ويختلط الوجهان الإيجابي والسلبي أحيانًا، فترى في قصة (أليس في بلاد العجائب) للكاتب الإنكليزي لويس كارول (١٨٣٢-١٨٩٦) شخصية محبّبة ومغامرات شائقة وتعاطفًا إنسانيًا وعلاقات اجتماعية راقية. وترى في الوقت نفسه الخوارق والأشباح وعوالم باطن الأرض وتحوُّل الطفل إلى خنزير والبائعة إلى عنزة، وتلاحظ قيم القلق والخوف والاضطراب والخجل والتردُّد. وقد تخلَّصت القصص المترجمة عن البلغارية والروسية من مأزق الوجهين السلبي والإيجابي فقدَّمت قصصًا تُعْنَى بالوظيفة التربوية دون أن تتخلّى عن الحكايات والمغامرات والشخصيات المحبّبة والأنسنة وتزويد الطفل بقيم الحب والوطنية والمعرفة العلمية والتعاون، كما هي حال قصص (الأرنب قصيرِ الأذن) لكيريل أبو ستولوف[14]، و(الخاتم المعدني) لباوستوفسكي[15]، و(الضفدعة السائحة) لغارشين[16]، و(دنيا الحكايات) لمجموعة من المؤلِّفين[17].

ويهمني القول إن تأثُّر الطفل العربي بالموضوعات والقيم السلبية السائدة في النصوص المترجمة يؤدي إلى الاختراق الثقافي للوظيفة التربوية التي يعمل العرب على تجسيدها في أطفالهم، ويعدُّونها هدفهم الأساسي. وقد بدأ هذا الاختراق الثقافي بالأدب المترجم المعبِّر عن أيديولوجيا مغايرة للأيديولوجيا العربية، وفي توقيت مبكّر نسبيًا. ولكن تأثيره ضعف قليلاً بعد ذلك نتيجة اهتمام الأدباء العرب بالكتابة للطفل، وزيادة عدد

النصوص التي تراعي البيئة العربية وتُربّي الطفل من خلال الأدب على التكيُّف معها والارتقاء بها.

ولا شكّ في أن مصطلح (الاختراق الثقافي) يدل على مفهومين متناقضين إيجابي وسلبي. ذلك أن أدب الأطفال المترجم يسهم في اتساع أفق الطفل العربي ومعارفه حين يُطلِعه على عادات الشعوب وأحوالها وتاريخها ونضالها ومفاهيمها للكون والحياة وما إلى ذلك من أمور إيجابية. ولكنه في الوقت نفسه يُهدِّد قيم الطفل العربي وعاداته وتقاليده وارتباطه بأسرته ومجتمعه ووطنه وأمته حين يطرح قيمًا مناقضة لها، نابعة من أيديولوجيته وبيئته وتاريخه. والواضح بالنسبة إليّ أن الدلالة الإيجابية لمفهوم (الاختراق الثقافي) انتقلت إلى مصطلح آخر هو (المثاقفة)، وبقيت الدلالة السلبية لصيقة بمصطلح (الاختراق الثقافي). ومن ثَمَّ أصبح الاختراق الثقافي دالاً على مفهوم العمل الثقافي الذي يُراد منه خلخلة ثقافة معيَّنة، وجَعْل معتنقيها يشعرون بضعف الثقة بثقافتهم، وبالحاجة إلى تبديلها باعتناقهم ثقافة القوي الغازي، والتماهي بقيمها وعاداتها وتقاليدها، دون أي تمييز بين الحضارة والمدنيَّة.

وإذا كان الأدب ذا طبيعة إيجابية دائمًا فلماذا نخاف على أطفالنا من الاختراق الثقافي بوساطة الأدب المترجم؟ أعتقد بأن كل أمة تُنتج أدبًا لأطفالها ملائمًا لها، معبِّرًا عن نظرتها إلى الطفل في حاضره ومستقبله، عاملاً على إمتاعه ومساعدته على التكيُّف مع مجتمعه وإعداده للمستقبل. ولا يتوقَّع أحد أن يكون هذا الأدب سلبيًا من وجهة نظر أصحابه ومنتجيه، ولكنه يتوقَّع أن تتباين الأمم في ثقافاتها، وأن تسعى الأمم القوية إلى فرض ثقافاتها على الأمم الضعيفة لتمحو هويتها وتجعلها تابعة لها. وهذا ما نشهده اليوم في عصر العولمة والمعلومات والتقنيات والأقمار الصناعية. وهو عصر يجعل الأدب المترجم وسيلة لتغريب الطفل العربي عن واقعه ومجتمعه وأمته، لأن هذا التغريب هو الهدف الأساسي للاختراق الثقافي ببعديه السياسي والاجتماعي. وهذا إيجاز لهذين البعدين.

- البعد السياسي للاختراق الثقافي:

يُقدِّم الأدب المترجم موضوعات وقيمًا تُعبِّر عن أيديولوجيا منتجيه. فالأرنب شخصية عالية محبَّبة للطفل، ولكن اينيد بلايتون في مجموعتها (الأرنب والتمساح) جعلت الأرنب يتفوّق على التمساح ويخدعه في مكمنه فيأكل بيوضه وينجو بنفسه دون أي عقاب(١٨). ولا يختلف ذلك عمّا فعله الأرنب بالثعلب في قصة (الثعلب والخوخات البيض)(١٩). أي أن الأرنب

يستخدم دائمًا المكر والخديعة في التفوّق على الحيوانات الكبيرة في الغابة. أما الأرنب في مجموعة (الأرنب قصير الأذن) للكاتب البلغاري كيريل أبوستولوف فهو أرنب مسالم صديق للحيوانات، يحاول أن يتعلَّم ويفهم كما هي حاله في قصة (حديث مع النجمات)[٢٠].

ماذا يعني ذلك على المستوى الأيديولوجي؟ إنه يعني اختلاف أيديولوجيتين، ويتجسَّد التعبير عن هذا الاختلاف في فكرة (الصغير)، فالأيديولوجيا الأولى الرأسمالية تمتنق فكرة تغلُّب الصغير على الكبير بالمكر والخديعة. وهذا واضح من أن الأرنب صغير في حجمه، ولكنه يتفوّق بالمكر على التمساح والثعلب وهما كبيران. وهذا نفسه ما نشاهده في أفلام الرسوم المتحركة المصنوعة في الولايات المتحدة، (كتوم وجيري) و(ميكي ماوث) وما إلى ذلك. أما فكرة (الصغير) في الأيديولوجيا الثانية (البلغارية-الاشتراكية سابقًا) فهي المرحلة العمرية التي يعيش فيها الصغير، ويحاول في أثنائها تعرُّف العالم المحيط به، ويسعى إلى التجربة التي تقوده إلى معرفة الحياة. وهذا يعني أنه صغير لا يناهض الكبير ولا يعاديه، بل يصادقه ليتعلَّم منه. ولهذا السبب تكثر في هذه الأيديولوجيا صور الأرنب العجوز، وهي صور معبِّرة عن فكرة (العجوز) الحامل للمعرفة، الراغب دائمًا في نقلها إلى (الصغار).

وإذا كانت الأيديولوجيا الأولى (الرأسمالية المهيمنة الآن في عصر العولمة) تُعبِّر ضمن خطابها عن شخصيات مماثلة للأرنب، كالفأر ميكي وبوباي، فإن تعبيراتها الأخرى لا تختلف عن ذلك، سواء أكانا نتحدَّث عن أشرطة حرب الكواكب أم السوبرمان أم غرينداريزر. ذلك أن الهوية التي تطرحها من خلال الأدب المترجم هوية معبِّرة عن أيديولوجيتها. تلك أيضًا حال الأيديولوجيا الثانية (الاشتراكية التي توقَّف إنتاج النصوص الإيجابية فيها وبدأت تعاني مما نعاني منه). فهي تُعبِّر ضمن خطابها عن شخصيات مماثلة للأرنب، كالقنفذ والكلب، دون أن تختلف تعبيراتها الأخرى عن الدعوة إلى السلام والتعاون وحب الناس والطبيعة وما إلى ذلك مما هو معبِّر أيضًا عن هويتها النابعة من أيديولوجيتها.

وإذا كانت الأمم تُعبِّر عن هويتها من خلال أدبها فإن سيادة أدب ما في موطن أدب آخر ستعني واحدًا من أمرين: محاولة سلب الهوية الحضارية العربية الإسلامية إذا كانت قيم الهوية في الأدب المترجم تناهض قيم الهوية العربية الإسلامية. وبالتالي تعزيز الهوية العربية الإسلامية إذا كانت قيم الهوية في الأدب المترجم تنسجم وقيم الهوية العربية الإسلامية. ويُخيَّل إليَّ أن البعد السياسي للاختراق الثقافي كامن في سيادة الأدب المترجم المستمد من الأيديولوجيا الرأسمالية، لأن سيادة هذا

الأدب تُعين على إغــراء الطفل العــربي بالعالم الغربي، وتجعله شيئًا فشيئًا يغترب عن هويته ويسعى في مستقبله، مراهقًا وراشدًا، إلى اللحاق بالهوية التي رسخت فيه من خلال الأدب المترجم الذي قرأه.

- البعد الاجتماعي للاختراق الثقافي:

تخلق موضوعات الأدب المترجم المستمد من الأيديولوجيا الرأسمالية عالمًا وهميًا، تضع الطفل العربي فيه، وتدفعه إلى التغرّب من خلاله. قد يكون العالم في هذا الأدب عالم الغابات والبحيرات والكهوف وناطحات السحاب والكواكب والجزر المأهولة والنائية والأسطورية.. ولكن هذا العالم وهميّ بالنسبة إلى الطفل العربي، لأنه لا يعثر عليه في واقعه، فينقم على هذا الواقع ويحاربه[٢١]. وضمن هذا العالم يرى أبطالاً وهميين بدلاً من أبطال الواقع العربي، كما يرى أوهامًا علمية بدلاً من العلم. وتكرار هذا العالم الوهمي في الأدب المترجم يجعل الطفل العربي يغترب عن مجتمعه وثقافته، ويرنو إلى ثقافة وهوية أخرى، مما يسلبه هويته الحضارية ويُلحقه بأخرى لا أمل له في الوصول إليها خارج الخيال. وإذا كان مجتمع الطفل العربي لا يُقدّم له ما يساعده على بلوغ الهوية المرجوّة فإن هذا الطفل يستعد للاغتراب عن مجتمعه عندما يصبح مراهقًا، ويغدو - وهو راشد- بعيدًا عن هذا المجتمع، قريبًا من الجنوح.

والسؤال الآن: كيف نستطيع مواجهة الاختراق الثقافي؟. أعتقد بأنه لا شيء في عصر العلم والتقنيات الحديثة وثورة المعلومات وسيادة الأقمار الصناعية والعولمة يستطيع تحصين الطفل العربي من الغزو الثقافي إذا بقيت الأمة العربية في موقع المنفعل، ولم تبادر إلى مواجهة هذا الغزو بعقلانية وعمل علمي دؤوب. وإذا قصرتُ الحديث على مواجهة الاختراق الثقافي من خلال الأدب لاحظت أن المواجهة تفرض الأمور الآتية:

١- الانفتاح على أدب أطفال الأمم المجاورة لنا، وخصوصًا الإفريقية والآسيوية، بترجمة نصوص أدب أطفالها من لغاتها إلى اللغة العربية دون اللجوء إلى اللغة الوسيطة. وهذا الانفتاح كفيل بتعزيز قيم الطفل العربي، لأن أدب الأطفال عند هذه الأمم يجاهد جهادنا للتحرُّر من السيطرة الثقافية، ويُعبِّر بوساطة أدبه الموجَّه للطفل عن واقع لا يختلف كثيرًا عن واقعنا العربي. ولابأس في أن يمتد هذا الانفتاح إلى الأمم المتقدّمة التي لا ترغب في السيطرة الثقافية، كاليابان والصين مثلاً. فأدب الطفل في اليابان -على سبيل التمثيل لا الحصر- يغرس قيم التضحية والعمل الجماعي والتفاني في سبيل

الأسرة، وهي القيم التي نعمل على أن نغرسها في الطفل العربي. أما الدول الغربية التي ترجمنا عن لغتيها الإنكليزية والفرنسية كثيرًا من نصوص أدب الأطفال فقد آن الأوان للاكتفاء بترجمة نصوص أدب أطفالها المعبِّرة عن القيم الإنسانية ليس غير، لأن هذه القيم مشتركة لا تخص ثقافة دون أخرى.

٢- التجويد الفني للأدب الموجَّه للطفل العربي. ذلك لأن السمة الإيجابية الواضحة في أدب الأطفال في الولايات المتحدة وانكلترة وفرنسا هي الحرص على تقديم نصوص فنية شائقة تشد الطفل إليها بما تطرحه من حوادث وشخصيات. وهذا أمر نرنو إليه بعيدًا عن القيم التي يعبِّر الأدب نفسه عنها. فالحكاية الماتعة هدف يتقدَّم على الوظيفة التربوية ولا يتخلّى عنها. ولابدَّ -من أجل هذه الحكاية الماتعة- من العناية بالصوغ الفني للأدب الطفلي، فهذه العناية التي يجب أن نتعلَّمها من الأدب المترجم للطفل العربي تضمن لنا تحقيق الهدفين الجمالي والتربوي من خلال الأدب العربي المكتوب للطفل.

٣- من المفيد إنجاز منظومة القيم العربية الإسلامية إذا أردنا لأدب الطفل أن يُعبِّر عن قيم متكاملة، تخلق شخصية قادرة على التكيُّف مع مجتمعها ووطنها وأمتها وتاريخها، والتحلّي بهويتها الحضارية وبالقدرة على مواجهة الاختراق مهما تكن مؤثراته قوية.

٤- لابدَّ من السعي إلى بناء صناعة ثقافية راقية يندرج الأدب المترجم فيها، بحيث يحب الطفل ما نترجمه من أدب، ويُقْبِل على قراءته، لأنه مناسب له شكلاً ومضمونًا. وهذه الصناعة الثقافية تكفل مراقبة الموضوعات والقيم، وتتشبَّث باللغة العربية المستمدة من معجم الطفل، وتعرقل السهولة في ترجمة الأدب ونشره.

٥- من المفيد التخلُّص من الانتقاء الفردي للنصوص الأجنبية المترجمة للطفل، والانتقال إلى المشروعات الكلية التي تُشرف عليها إحدى الدول العربية، أو المؤسسات الكبرى كالجمعية الكويتية لتقدُّم الطفولة العربية، أو جامعة الدول العربية، وتصطنع لها خطة للترجمة على غرار المشروع القومي للترجمة في مصر، بحيث تتكامل جهود المترجمين في خدمة ثقافة الطفل العربي، وفي تحريرها من سيطرة الترجمة من الإنكليزية والفرنسية، ومن المركزية الأوروبية، وتربي الطفل العربي على قيم أمته وعلى المثاقفة دون الخضوع للغزو الثقافي.

٦- من المفيد تربية جيل جديد من المترجمين العرب، يتقن اللغات الإفريقية والآسيوية، ويُترجم أدب الأطفال المكتوب بها إلى اللغة العربية.

٧- لا شكَّ في أن الترجمة للطفل العربي تعني -في الغالب الأعم- ترجمة النصوص الإبداعية. وهذه الترجمة تحتاج إلى مترجمين أدباء يشعرون بإيحاءات اللغة الأدبية المترجم منها، ويستطيعون نقلها إلى اللغة العربية بأسلوب شائق سليم دقيق لا يعوزه الإبداع. فالأدب لا يُتَرجَم إلا أدبًا، وإلا فإننا سنخسر كثيرًا من تربية الطفل بوساطة الأدب، تلك التربية الجمالية التي تُنمّي الشخصية وتجعلها أكثر قدرة على النمو السليم والتكيُّف مع المجتمع. ومن ثَمَّ فإنني أقترح العودة إلى (التعريب) الذي لجأ إليه روّاد أدب الأطفال، فهو وحده الذي يتيح لنا تقديم النص الأجنبي للطفل العربي بلغة أدبية. ولابأس في أثناء تعريب النصوص من شيء من التعديل والإضافة والتبديل لتصبح النصوص الأجنبية أكثر ملاءمة للطفل العربي، شريطة ألا يؤثّر ذلك في دلالة النص الأجنبي.

* * *

ولا يفارقني الاعتقاد -أخيرًا- بأن مواجهة الاختراق الثقافي ليست مقصورة على الاقتراحات السابقة، لأنها قضية الحاضر والمستقبل. ومن ثَمَّ فإننا نحتاج إلى أن تُنعم الهيئات والوزارات والمؤسسات النظر فيها، إضافة إلى الأفراد الأدباء والباحثين في علم النفس والاجتماع. وقبل ذلك يحسن النظر إلى هذه المواجهة نظرة كلية لا تختلف بين التلفاز والكتاب والإذاعة والمسرح، كما أن الجهود المبذولة من أجلها يجب أن تتكامل بين الأدب والتربية ووسائل الإعلام، بغية تحقيق التكامل والانسجام في الثقافة المقدمة للطفل العربي.

الإحالات

١- انظر ص ١٢١ وما بعد من: الفيصل، د سمر روحي -ثقافة الطفل العربي- اتحاد الكتاب العرب -دمشق ١٩٨٧، وص ٧٩ وما بعد من: الفيصل، د سمر روحي- أدب الأطفال وثقافاتهم، قراءة نقدية -اتحاد الكتاب العرب- دمشق ١٩٩٨.

٢- أول هؤلاء الرواد أحمد شوقي الذي ضمت الطبعة الأولى من ديوانه الصادرة عام ١٨٩٨ شعره للأطفال. ثم كان لعبد التواب يوسف فضل جمع ما تناثر من شعر شوقي للأطفال، وتقديمه في كتاب مستقل بعنوان (ديوان شوقي للأطفال). انظر الط/٢ دار المعارف -القاهرة ١٩٨٩. ولعبد التواب يوسف فضل إصدار عدد من دواوين رواد شعر الأطفال. كالرصافي (وزارة الثقافة والإعلام-بغداد ١٩٨٧)، وإبراهيم العرب (الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة ١٩٩٠)، وكامل الكيلاني

(الهيئة المصرية العامة للكتاب-القاهرة ١٩٨٨)، وغيرهم.

٣- صرّح أحمد شوقي في مقدمته لشعره الخاص بالأطفال في الشوقيات عام ١٨٩٨ بأنه جرى على أسلوب لافونتين. ولم ينف المعنيون بشوقي هذا الأمر، بل إن عبد التواب يوسف حرص على أن يذكر في الجزء الأول الذي اقتطعه من هذه المقدمة اسم لافونتين. انظر ص ١٠ من: يوسف، عبد التواب -شموع، كتاب في ثقافة الأطفال- دار المعارف- القاهرة- اقرأ ٥٦٤- ١٩٩١.

٤- من ذلك ترجمات حسين راجي وميخائيل عيد. انظر -على سبيل التمثيل لا الحصر مجموعة: أطفال المأثرة -الكسندر كوستوف - ترجمة: حسين راجي- دار مجلة الثقافة- دمشق ١٩٨٤. ومجموعة: الشموس الثلاث- ترجمة: ميخائيل عيد -وزارة الثقافة- دمشق ١٩٧٦.

٥- من أمثلة ذلك مجموعة (الصبي المطّاط)، وهي مجموعة من قصص الأطفال لعدد من الكُتّاب الروس، لم يذكر القائم بالاختيار- وهو ايفور موتياشوف- أسماءهم مجتمعة أو منفردةً. كما لم تذكر (دار التقدُّم) التي نشرت هذه القصص في موسكو عام ١٩٨١ اسم القائم بالترجمة إلى اللغة العربية.

٦- ترجمت هيفاء طعمة أجمل حكايات الحيوان (وزارة الثقافة-دمشق ١٩٨٦) مستخدمة عبارة (عدد من المؤلفين)، دون أن ترى ضرورة لتدوين إشارة -ولو موجزة- إلى جنسيات الكُتّاب ولغاتهم. كذلك الأمر بالنسبة إلى المجموعات الآتية: النمس الوفي (ت: عيسى فتوح) -شجرة الأمنيات السحرية (تر: توفيق الأسدي) -فقراء بلغوا المجد (تر: علي الخش) -اربع رغبات (تر: شوكت يوسف) -الأخوة الثلاثة (تر: هاشم حمادي)...

٧- اختارت جيزيل فاليري تسع أقاصيص للأخوين جريم وترجمتها إلى اللغة الفرنسية، ثم ترجم حنين حاصباني هذه الأقاصيص التسع إلى اللغة العربية عام ١٩٨٢.

٨- يرجع وضوح علم نفس الطفل وانفصاله عن علم النفس العام إلى ثلاثينيات القرن العشرين. وثمة فرضية نقدية مرتبطة بذلك، وهي أن الأدب المكتوب للطفل قبل ولادة علم نفس الطفل كان يعتمد على المعرفة والفردية عند الكاتب، في حين بدأ هذا الأدب بعد ولادة علم النفس وتطوره يستند إلى معرفة علمية عن الطفل. وهناك وجهات نظر في هذه الفرضية، يمكن الاطلاع على إحداها في ص ١٢٨ وما بعد من: الفيصل، سمر روحي-ثقافة الطفل العربي. كما يمكن الاطلاع على عرض لتاريخ علم نفس الطفل في ص ١٦ وما بعد من: لوبلينسكايا -علم نفس الطفل- ترجمة: د بدر الدين عامود ود.علي منصور -وزارة الثقافة- دمشق ١٩٨٠.

٩- من أمثلة ذلك قصص الكاتبة الإسبانية (آنا ماريّا ماتوتي) المولودة عام ١٩٢٦. فقد ترجم علي جابر مجموعتها القصصية (الجدجد الأخضر وطالب العلم) عن الفرنسية، ونشرها عام ١٩٨٧ في وزارة الثقافة بدمشق. كما ترجم عيسى فتُّوح عن الإنكليزية (وزارة الثقافة-دمشق ١٩٧٩) مجموعة (النمس الوفي) وهي لمجموعة من القاصين الهنود. وترجم شوكت يوسف عن الروسية (وزارة

الثقافة-دمشق ١٩٧٩) مجموعة (أربع رغبات) وهي لقاصين كوريين..

١٠- صدر الرصيد اللغوي العربي لتلاميذ الصفوف الستة الأولى من مرحلة التعليم الأساسي عام ١٩٨٩، وهو مشروع حضاري عظيم أنجزته المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (تونس)، ووضعته بين أيدي العاملين في التربية والثقافة والإعلام ليفيدوا منه في شكل خطابهم للطفل العربي. وهذا الرصيد نواة معجم الطفل العربي. انظر حول ذلك ص ٩٢/٩١ من: الفيصل، سمر روحي -أدب الأطفال وثقافتهم. وهناك أعمال جليلة نهضت بها الجمعية الكويتية لتقدُّم الطفولة العربية، منها -في هذا الحقل- الثروة اللغوية للأطفال العرب ورعايتها -صباح حنا هرمز (١٩٨٧).

١١- وزارة الثقافة -دمشق ١٩٧٨.

١٢- انظر ص ٢١٠ من: جمعة، د.عبد الرزاق- أدب الأطفال- اتحاد الكتاب العرب- دمشق ١٩٧٩.

١٣- ترجم المجموعة إلى اللغة العربية وجيه توفيق جبر، وصدرت ضمن منشورات وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٧٨.

١٤- ترجم المجموعة إلى اللغة العربية ميخائيل عيد، وصدرت ضمن منشورات وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٧٨.

١٥- ترجم القصة إلى اللغة العربية بكر يوسف، وصدرت ضمن منشورات دار التقدّم بموسكو عام ١٩٧٦.

١٦- ترجم القصة إلى اللغة العربية ماجد علاء الدين، وصدرت ضمن منشورات دار التقدّم بموسكو عام ١٩٧٥.

١٧- ترجم المجموعة إلى اللغة العربية عيسى فتّوح، وصدرت ضمن منشورات وزارة الثقافة بدمشق عام ١٩٧٨.

١٨- انظر القصة في المجموعة المسماة باسمها - ص ٩ وما بعد.

١٩- انظر القصة في مجموعة (الأرنب والتمساح) -ص ٢٩ وما بعد.

٢٠- انظر القصة في مجموعة (الأرنب قصير الأذن) -ص ١٧ وما بعد.

٢١- فكرة العالم الوهمي بفروعها مستمدة من د.شاكر مصطفى. انظر تعقيبه على محاضرة (الطفل العربي ومشكلة الاغتراب الثقافي) للدكتور قاسم الصراف، ضمن كتاب: الطفولة في مجتمع عربي متغيّر -الجمعية الكويتية لتقدُّم الطفولة العربية- الكويت ١٩٨٣.

❖ ❖ ❖

الدراسات والبحوث

١٨٨

إدوارد سعيد وبنونة الاستشراق

أ. علي موسى الحسن *

لا ريب أن محاولة تحديد مفهوم البنية في الفكر والنقد الغربي يثير بعض المشكلات التي تتصل بطبيعة هذا المفهوم وخصائصه، وامتداداته إلى حقول معرفية مختلفة ومن ثم آلية عمله وتوظيفه إضافة إلى تطور مدلوله. ولعل ذلك يعود إلى اتساع المفهوم وإلى اختلاف النزوعات الفكرية لممثلي البنيوية، وكان من الطبيعي أن ينعكس هذا الاختلاف على مفهوم البنية وبالتالي البنيوية، وإذا ما قبلنا البنيوية بوصفها منهجاً للبحث فإنها على أية حال لم تطبق بطريقة واحدة وأعمال فرسان البنيوية تظهر بوضوح

(*) علي موسى الحسن باحث من سورية، ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

مسألة تباين تطبيق البنيوية كمنهج للبحث فالنتائج التي انتهى إليها كلود ليفي شتراو تختلف عما انتهى إليه كل من فوكو وبارت ولاكان والتوسير، وهذا ما انسحب بدوره على البنيوية المهاجرة -إن جاز التعبير- حيث جرى تطبيقها وتوظيفها؛ فما انتهى إليه محمد عابد الجابري يختلف عما انتهى إليه إدوارد سعيد وكمال أبو ديب وسواهم ممن يمكن تسميتهم بالبنيويين العرب. وبعد فإنه يمكن القول إنه كان للفكر العربي مع البنيوية شأن غريب، والغرابة في ذلك أكثر ما تكون عليه هي في انتصار كثير ممن أرادوا أن يكونوا بنيويين، في انتصارهم لهذه الحركة، فلا هم استطاعوا إنتاج بنيويتهم ولا هم فسروا لنا لماذا فضلوا العيش في الفضاء البنيوي، ومع إقرارنا بوجود نفر من المفكرين استطاعوا بحق أن يوظفوا المنهج البنيوي في قضايا فكرية ونقدية هامة، والمثال الممتاز لهذا النموذج الرفيع للمثقف الإنساني الحر المتأهب أبدا للانشقاق عن الخطاب السائد وعن كل ما هو مألوف ينطبق بتقديرنا أكثر ما ينطبق اليوم على كتابات ودراسات مثل الاستشراق والثقافة والإمبريالية وغيرها، وعلى مفكر من طراز إدوارد سعيد.

«بعد سنوات من حياتي خارج العالم العربي، هي سنوات دراسة وتعليم وعيش وكتابة.. اتخذت قراري، بعيد حرب ١٩٦٧، بأن أعود سياسيًا إلى العالم العربي الذي كنت قد أغفلته خلال سنوات التعليم والنضج.. لكن لما عدت إليه لم يكن له أن يكون عالم طفولتي، تلك الطفولة التي دمرتها أحداث ١٩٤٨ والثورة المصرية والاضطرابات الأهلية اللبنانية التي بدأت عام ١٩٥٨ كان العالم العربي الجديد عالمًا سياسيًا وثقافيًا على الصعيدين الشخصي والعام يتكون من عناصر عديدة، لكن علاماته الفارقة عندي كانت الهزيمة العربية وانبثاق الحركة الفلسطينية والدروس الخصوصية في اللغة والأدب العربيين التي كنت أتلقاها..»[1]

هذه المقدمة التي اضطررنا لسردها هنا كانت من كتاب إدوارد سعيد (خارج المكان) وهو نوع من السيرة الذاتية وقد وقع اختيارنا على هذه المقدمة بالذات لأننا نهدف إلى إبراز أهم العوامل التي شكلت خلفية لمعظم كتاباته الفكرية والنقدية، وفي مقال له بعنوان الخيال والذاكرة والمكان يرى سعيد «أن تمثيل الذاكرة يمس أسئلة

في غـايـة الأهمـيـة كـالهـوية الذاتيـة، والجنسيـة، والقـوة والسلطة...»[٢] ويذهب للقول إلى «أن دراسة التاريخ التي هي جزء من الذاكرة في الجامعات والمدارس وبعيدًا عن كونها ممارسة طبيعية.. هي لدرجة ما جهد قومي ومقدمة للحاجة لبناء الولاء المطلوب لفهم الإنسان لبلده وعاداته..»[٣] وإذا مـا مـا توخينا الدقـة، نقـول بدءًا من مـؤلفـه الهـام (الاسـتـشـراق)، بدأت تلك الأحداث والتواريخ التي ذكرها سعيد تلقي بظلالها وتحتل مواقع متباينة على كتاباته أمـا بشـأن (الاسـتـشـراق) فنعـتـقـد أننا لن نجـاوز الحـقـيـقـة في شيء إذا مـا قلنا إنه بظهـور كتـاب إدوارد سـعـيـد (الاستشراق) عام ١٩٧٨ ظهـرت مـعـه طرق جديدة لفهم العلاقـة بين الشرق والغرب، هذه العـلاقـة التي طالما اعـتـبـرت أنهـا عـلاقـة طبـيـعـيـة علاقة مقروءة سلفًا، قراءة بريئة، وحيث لا وجـود لقـراءة بريئـة كـمـا هـو الحـال عند لويس ألتوسير، فإن الجديد الذي جاء مع استـشـراق إدوارد سـعـيـد هو آليـة رفع الأقـواس عن خطاب الاسـتـشـراق وجـعله مـوضـوع قـروء، والمساءلة عن مـاهيـة هذا الخطاب من حـيـث هـو خطاب لا يمكن بحال من الأحوال أن يبقى معلقًا، على أنه من البـداهة في شيء. وبكلمـة، إن جـديد إدوارد سـعـيـد هـو طريقـة فض النص في الاستشراق وفك رموزه، وتعريته وكشف بناه المتـخـفـيـة تحت سـديم اللغـة والأدب والاجـتـمـاع والتـاريخ والسـيـاسـة والأنثروبولوجيا. وتتحدد مهمتنا هنا في محاولة رصد هذا الجديد الذي افترضنا وجوده، أي طريقة عمل إدوارد سعيد في خطاب الاستشراق وتسمية المفاهيم وآليات العـمل مـا أمكن، وبالتـالي مـحـاولة رصـد تجليات البنيوية الثقافية منها بشكل خاص، سيما وأن إدوارد سعيد نفسه يعترف بمثل هذا الدين الذي ترتب عليه لجـهـة بنيـوي كبير مثل ميشيل فوكو، الذي وجد أنه كان «أعظم تلاميذ نيتشه المعاصرين. كما أنه كان أبرز صورة تجلى فيها ازدهار الحركة الفكرية المعارضة في الغرب، أثناء القرن العشرين. فإلى جانب سارتر، ومرلو-بونتي، وجورج كانجيلم وجان بيير فرنان ولوسيان غـولدمـان، وألتـوسـيـر، ودريدا، وليـفـي شـتـــراوس، وورولان بارت وجــيـل ديلوز، وبورديو نفسه، انبثق فوكو عن خليط ثوري غريب من التيارات الجمالية والسياسية البـاريسـيـة، التي أفـرزت على نحـو ثلاثين عامًا نخبة من الأعمال الباهرة لا ينتظر أن

تتكرر لمدة أجيال»[٤].

لا شك أن ما تقدم ينطوي على قدر كبير من الإعجاب بشخص مثل ميشيل فوكو وسواء من أعلام الحركة البنيوية، ولكن إلى أي حد استطاع إدوارد سعيد أن يوظف جهاز المفاهيم الذي أوجد هؤلاء، أو بعضهم على أقل تقدير وهذا حسبنا؟

بدايةً يجب أن نلحظ أن إدوارد سعيد يعترف بدينه العظيم لجهة ميشيل فوكو[٥]، لكننا لن نأخذ هذا بمعنى التوظيف أو الاقتباس الجزئي والمباشر، حتى وإن بدت البنية الفكرية التي تصوغ منظور فوكو والتصورات الأساسية التي يتكون عمله في بؤرتها، ومنهج التحليل المعتمد لديه، هي البنية والتصورات والمنهج التي تشكل في بؤرتها منظور سعيد في تحليله الاستشراق، وبالرغم من كل شيء فإن ثمة مسألة هي من الوضوح بمكان تبدو في عمل إدوارد سعيد (الاستشراق) وهي أنه يتناول بنى علائقيه وأكثر شمولية، بنى موزعة في الشرق والغرب في حين أن أعمال فوكو كانت تدور حول بنى في الغرب والحضارة الغربية أولاً وأخيراً، ولكن قبل المضي في محاولة إيضاح ذلك وغيره وإن قليلاً عند السياق السياسي والتاريخي لكتاب (الاستشراق) بغض النظر عن ردود الفعل التي أثارها ومناقشات وتوضيحات إدوارد سعيد التي أعقبت ذلك، نقول بغض النظر عن ذلك مع إدراكنا لأهميته إذ أن هذا ليس مما يدخل في أهداف البحث، وأما بشأن السياق السياسي والتاريخي لكتاب (الاستشراق) وبشكل موجز وكما جاء على لسان إدوارد سعيد نفسه الذي كتب يقول: «وبين التعبيرات التي تناولت هذه الوضعية ثمة واحدة سخية في نظرتها الثاقبة وبالغة الذكاء في التميز وردت ضمن مراجعة للكتاب نشرها باسم مسلّم في مجلة (Merip) عام ١٩٧٩، إنه يبدأ بمقارنة كتابي مع حالة أبكر من كشف أستار الاستشراق كتبها عالم لبناني يدعى ميشيل رستم عام ١٨٩٥ تحت عنوان (كتاب الغريب في الغرب) لكنه يمضي ليقول إن الفارق الرئيسي هو أن كتابي يدور حول الفقدloss بعكس كتاب رستم. يقول مسلّم: «يكتب رستم كرجل حر ينتسب إلى مجتمع حر: إنه سوري، عربي، عربي اللسان مواطن في دولة عثمانية ولكنها مستقلة» ثم يضيف مسلّم «ولكن على العكس من ميشيل رستم، لا يملك إدوارد سعيد هوية ذات قبول عام، إذ أن شعبه بالذات موضع

نزاع، ومن المحتمل أن إدوارد سعيد وأبناء جيله يشعرون أنهم لا يقفون على شيء أكثر صلابة من بقايا المجتمع المدمر في سوريا الخاصة بميشيل رستم»[٦]، وهذا يفيد القول بأن كتاب إدوارد سعيد (الاستشراق) هو عمل علمي مسكون بعاطفة كاتب حر قوامها تجربة الفقد الشخصي أو الاغتراب القسري، وقد يصح القول أيضًا أن إدوارد سعيد يتكلم في استشراقه لغة قومية ساهمت إلى حد ما في صدوره على النحو الذي جاء عليه، وفي هذا الجانب يطالعنا إدوارد سعيد بالقول: «وهكذا في الوقت الذي أستطيع فيه قبول الصورة الإجمالية القائلة بأن (الاستشراق) كتب انطلاقًا من تاريخ جد ملموس قوامه الفقد الشخصي والتفكك الوطني (وأشير هنا إلى حقيقة أن (الاستشراق) صدر بعد سنوات قليلة من تعليق جولدا مائير السيئ الصيت والاستشراقي في العمق، حول عدم وجود شعب فلسطيني) فإنني أيضًا أود القول بأنني لم أكن راغبًا في اقتراح برنامج سياسي لهوية مستعادة ونزعة قومية منبعثة وحسب»[٧]وإذا لم يشأ إدوارد سعيد لمشروعه الفكري أن يتوقف عند حدود النزعة القومية في الكتابة، فلأنه كان يهدف خصوصًا في (الاستشراق) أن يكون بحثًا في التطبيق النقدي والمعرفة النقدية، وبحثًا في بنية خطاب الاستشراق بالذات وليس تأكيدًا لأيديولوجيات متنازعة لقد وجد إدوارد سعيد في نص الاستشراق أنه لغة خطاب (discourse) شاءت معرفة الشرق وفقًا لآليات هذا الخطاب، الذي هو أولاً وقبل أي شيء خطاب قوة، وخطاب القوة هذا يكافئ القول بأنه خطاب الغرب «فمعرفة الشرق لأنها وليدة القوة، تخلق، بمعنى من المعاني، الشرقي وعالمه»[٨]، ويرصد إدوارد سعيد هذه العلاقة التي تراد بين الغرب والشرق والتي تسير وفقًا لاستراتيجيات القوة، فيجد على سبيل المثال أنه «في لغة كرومر وبلفور يقدم الشرقي في صورة شيء يحاكمه المرء (كما في مدرسة أو سجن)، وشيء يوضحه المرء ويمثل عليه (كما في دليل وجيز في علم الحيوان) والنقطة المثارة هنا هي أن الشرقي في كل من هذه الحالات، يحتوى، ويمثل بأطر طاغية»[٩] وهنا نجد مفهوم القوة يجري تحريكه عند إدوارد سعيد وعلى طريقة فوكو إذ أن القوة لا تكون سلطة إلا بتحريكها، وهذا التحريك يتخذ شكل حيل وتدابير ووسائل، وتقنيات،

وعندما يقول إدوارد سعيد عن الاستشراق إنه «معرفة بالشرق تضع الشرقي في قاعة التدريس في محكمة، في سجن، أو في دليل موجز لأعراض التحليل المدقق، والدراسة، والمحاكمة والتأديب، أو الحكم»[١٠] فهو بذلك يتبنى إحدى طروحات فوكو الأساسية حول السلطة، إذ ليس بالضرورة أن تكون القوة سلطة قامعة، وإنما يجب رصدها من حيث النقاط أو البؤر التي تنشرها، والمهم عند إدوارد سعيد كما هو الحال عند فوكو، ضبط مفهوم المعقولية الذي تنبثق عنه الممارسة الإنسانية أو إذا شئنا الممارسة العقوبية، ويغدو المطلوب هو ملاحقة مجموع التقنيات التي يتم عبرها إخضاع الشرق كجسد، وإعمال استراتيجيات القوة فيه، وإدوارد سعيد يرى أن أهم ما يميز خطاب الاستشراق، وهو دائمًا خطاب صنعه الغرب من أجل الغرب، أنه خطاب منتج، وهذا الأخير كان أحد طروحات فوكو الأساسية حول السلطة، «إذ ليست القوة بالضرورة سلطة قامعة لأنها تحرض تحث أو تثير وتنتج»[١١]، وهنا تكمن محاولة هامة لتوسيع حقل السلطة كيما يجري إلحاقه بالحقل المعرفي، وفي هذا الموضع يعمل إدوارد سعيد على توظيف هذا المفهوم، أو هذه العلاقة بين المعرفة والسلطة بحيث تنسحب على خطاب الاستشراق بعمومه، وبعد ذلك تجري موضعة العلاقة بين المعرفة والسلطة، ويريد إدوارد سعيد بهدي من فوكو «أن يبين كيف أن تطبيق معارف صادرة عن العلوم الإنسانية، في إطار معالجة أو تقنية ينتج عنها آثار ضابطة مماثلة لتلك التي تحصل بعون تكنولوجيات السلطة»[١٢]

وبهذا يريد إدوارد سعيد أن يوضح كيف يؤدي خطاب الاستشراق وظائفه التعبوية والسياسية والتخيلية، وكيف يمارس هذا الخطاب القوة من خلال المعرفة التي يطرحها، هذه القوة تتسرب باتجاهات ثلاثة، على الشرق، وعلى المستشرق، وعلى قارئ الخطاب (المستهلك الغربي) الذي صنع الخطاب من أجله بالذات، وبعد أن يقوم إدوارد سعيد بتسمية طرق إنسراب هذه القوة يجد أنه من الخطأ «أن نقلل من شأن العلاقة ذات الاتجاهات الثلاثة التي تتأسس بهذه الطريقة، ذلك أن الشرق (في الخارج هناك) باتجاه المشرق يصوب، بل يعاقب، لوقوعه خارج حدود المجتمع

الأوروبي»[١٣]. ومبعث اهتمام إدوارد سعيد باتجاهات القوة هو أن يبين لنا كيف يجري إقصاء الشرق هناك، أي وضعه خارج دائرة كل ما هو أوروبي ليجري قمعه وممارسة القوة عليه، إذ أن كل ما هو خارج هذه الدائرة هو من مرتبة أدنى يجب ترويضها بسبب وقوعها خارج إطار الشرعية الغربية، ولأن الشرق (في الخارج هناك) يجب مأسسة القوة ليتمكن الغرب من تأديب الشرق أو عقلنته، مع المحافظة على وجوده (في الخارج هناك) وهكذا يحيلنا إدوارد سعيد إلى مفهوم فوكو الهام عن الثقافة الغربية بأنها ثقافة قوة، ففي مؤلفه (تاريخ الجنون) يبين فوكو أن تاريخ الجنون يعني وضع حد فاصل، أو إجراء قسمة بين العقل واللاعقل وبأن الإنسان الأوروبي يتملكه تراث بعيد الأمد منذ العصور الوسطى يدعوه بشيء من الإبهام بالجنون أو المرض العقلي، وبالتالي فإن ما يميز الثقافة الغربية هو هذه العلاقة مع غياب العقل أو الجنون، لذلك فإن تاريخ الثقافة الأوروبية ومنذ زمن بعيد قائم على ثنائية، العقل وغيابه وتتجلى هذه الثنائية بأشكال مختلفة، فالطب على سبيل المثال «كمؤسسة تخضع لقانون منظم لها، وكمجموعة من الأفراد يكونون الهيئة الطبية، الطب كمعرفة وممارسة.. أصبح في القرن التاسع عشر الهيئة العليا في المجتمع، إليها يرجع الفصل بين الأسوياء وغيرهم، وأمر تعيين من هو أحمق ومن هو ليس كذلك، وتسمية الحمق وتحديده كموضوع غير أنه لم يكن الوحيد الذي ينفرد بذلك الدور»[١٤]وهذا ما يريد إدوارد سعيد استبناءه في خطاب الاستشراق لكشف أطقم من الإجراءات والممارسات أو تكنولوجيا القوة التي تمارس على الشرق، أو على جسد الشرق، وإذا كان فوكو في دراسته للجنون والمقال الطبي قد كشف عن العلاقة بين أشكال الخطاب والسلطة، باعتباره أن إرادة الحقيقة في الثقافة الغربية هي في العمق منها إرادة قوة مستنداً في ذلك إلى افتراض مؤداه، «أن إنتاج الخطاب في كل مجتمع هو في نفس الوقت إنتاج مراقب ومنتقى ومنظم، ومعاد توزيعه من خلال عدد من الإجراءات التي يكون دورها هو الحد من سلطاته ومخاطره، والتحكم في حدوثه المحتمل وإخفاء ماديته الثقيلة والرهيبة»[١٥]، فإن إدوارد سعيد قد قرأ خطاب الاستشراق بمقتضى تلك العلاقة التي كشف عنها

فوكو بين إرادة المعرفة وإرادة القوة، وفي النهاية وفق نزعة التقسيمات التي تسم المنهج البنيوي، وقد رأى إدوارد سعيد أن خطاب الاستشراق خطاب تتحكم به نوازع تقسيمية، غرب وشرق، عقل ولا عقل، وبحيث يصير كل ما هو خارج دائرة الغرب، خارجيًا على الدوام لكي يصوب، ويعاد إنشائه، ولكنه وبالرغم من كل آليات التأديب والتعقيل يبقى الشرق، شرقًا خارجيًا كما بقي الجنون حالة شاذة أو خارجية حتى بعد أن تمت مأسسته خلال انتقاله في مراحل مختلفة من العصر الكلاسيكي، من سفينة المجانين إلى المشفى الحديث، إلى الطب العقلي، إلا أن الجنون ظل خارجيًا بالنسبة للمجتمع المعافى، وهكذا يكون بوسع إدوارد سعيد أن يقول: «كانت آسيا ذات يوم قد مثلت لأوروبا النأي والاغتراب الصامتين، وكان الإسلام العدائية الهجومية بالنسبة للمسيحية الأوروبية، ومن أجل التغلب على ثوابت مهيبة كهذه، كان على الشرق أولاً أن يعرف، ثم أن يعاد خلقه على أيدي الباحثين، والجنود، والقضاة الذين أخرجوا إلى الضوء لغات، وتواريخ، وأعراقًا، وثقافات منسية من أجل أن يطرحوها.. بوصفها الشرق الكلاسيكي الحق الذي يمكن أن يستخدم من أجل محاكمة الشرق الحديث وحكمه»[١٦]، إن إدوارد سعيد يعتقد بانتشار السلطة على شكل نقط مواجهة لا حصر لها، كما هو الحال عند فوكو، وتشكل بؤر السلطة وتقنياتها عددًا من المؤسسات المتعالقة فيما بينها، كمؤسسات البحث والقضاء، والجنود الخ.. وهكذا يدخل الشرق في نظام المعرفة الذي هو نظام مؤسسي وسلطوي، والشرق هنا هو المادة الخام، الشرق الانفعالي الذي لم يتم انتظامه في معرفة، وهنا تجري عملية تمثيل الشرق وإعادة إنتاجه باعتباره الآخر، والآخر يعني كل ما هو غير أوروبي والذي يجب تمثيله. وعملية الإنشاء أو التمثيل تتم عبر آلية الخطاب الرسمي، أي اللغة الرسمية المؤسساتية، «فاللغة هذه وحدها تمتلك تلك الأدوات، لأنها وحدها المبنية في قول جمعي يحدد لكل معرفة طابعها المؤسسي، من حيث هو حقل وجود المعرفة، هذا يعني أن الوافد إلى المعرفة، وهو الفردي بجديده الحدسي، يجد المعرفة قائمة كمؤسسة لغوية ترغمه على الدخول فيها وعلى استخدام مفرداتها ومفاهيمها، إن هو أراد أن يصل إلى مرتبة القول في

المعرفة»[17] ووفق هذه الرؤية لابد لكل آخر أو وافد أن يخضع لهذا العبور ومنطق هذا العبور حتى يشرعن، وإذا ما رفض هذا الوافد إجراءات العبور عندئذ يجري ترويضه، كما جرى ترويض السجين في (الرقابة والعقاب) لميشيل فوكو ١٩٧٥ الذي درس في تكنولوجية السيطرة، ووجدها قائمة بالدرجة الأولى على نظريات تؤسس كل القوى القمعية وتضعها بين يدي الحاكم[18]، والحاكم عند إدوارد سعيد في (الاستشراق) يعني الغرب، وفي سيرورة إنتاج المعرفة السلطة هذه قد «يعثر المرء على استثناءات وعلى حالات، إن لم تكن استثناءات فهي تعقيدات وتشابكات شيقة لهذه الشراكة اللامتساوية بين الشرق والغرب»[19].

والاستثناء هنا هو حالة مثل كارل ماركس ورؤيته في مسألة الاستعمار البريطاني للهند، وفي هذا الموضع من (الاستشراق) تعرض إدوارد سعيد لانتقادات حادة انصب معظمها على النظرية التي اعتمدها إدوارد سعيد في تقييده؟ لنصوص ماركس، حيث تبين أنه يستعيرها من فوكو، وكان حري به أن يجابه هذه النظرية ويتابعها في أعمال فوكو نفسه بدلاً من أن يأتي النقد موارية من خلال النص السعيدي[20]، وثمة من يعتقد أن النزعة المركزية الأوروبية لدى ماركس وغيره من المفكرين كانت بسبب من إسناد ماركس وأنجلز التطور في المجتمعات إلى ذلك النوع الذي يحدث في الكائنات الحية، وقد كان من نتيجة ذلك أن هيمن تأويل تطوري للماركسية، وهذا ما قد يفسر موقف ماركس من الاستعمار البريطاني للهند ويجعله منخرطًا في دائرة الاستشراق[21]، وغالبًا ما جاءت مثل هذه الانتقادات من ماركسيين وهذا ما يعيد إلى الأذهان مرة أخرى تلك الخصومة التي اشتجرت بين الماركسية والبنيوية، حيث جرى تبادل الاتهام بين كلا الفريقين، حول اختزال الماركسية حقل الثقافة بشكل عام إلى العلاقات الاقتصادية، واختزال البنيوية الحقل الثقافي في فضاء اللغة دونما رابط بقواعد مادية، ومهما يكن من أمر هذا الخلاف فإن أحد الانتقادات التي وجهت لمنطق إدوارد سعيد في الاستشراق كان يدور حول إمكانية وجود علاقة موضوعية بين المواقع الفكرية والمواقع الاقتصادية أم عدم وجودها، وهذا يحيل إلى مفهوم البنية الاجتماعية من حيث هي كل اجتماعي

موحد معتقد بالمفهوم الألتوسيري للبنية الاجتماعية، ذلك أن الإقرار بوجود الكل الاجتماعي في عناصره البنيوية المختلفة، لا في تساوي هذه العناصر في وحدتها المثالية أو الفكرية كما هو واقع الحال في البنيوية هو الذي يستلزم القول بضرورة وجود علاقة بين تلك المواقع والتي بها يتحدد الطابع الطبقي لمواقع الفكر في سيرورة الإنتاج المعرفي[22]، وقدرأينا أن سيرورة المعرفة -السلطة عند إدوارد سعيد تحدث في إطار اللغة الرسمية وبآلياتها فيتم تمرير الفردي الحدسي عبر نظام اللغة لإخضاعه لآلياتها، واللغة الرسمية مؤسسة أو منظومة ذات سلطة كلية، يتم إنتاج المعرفة داخلها وبأدواتها ومخرجات عملية إنتاج المعرفة الجارية تظل دائمًا ضمن مجال آلية ضبط المنظومة الكلية، «وهكذا فإن كل إسهام فردي يؤدي أولاً، إلى تغييرات ضمن الحقل، ثم يعين على خلق استقرار جديد بالطريقة التي يؤدي بها إدخال بوصلة جديدة على سطح توجد عليه عشرون بوصلة إلى اهتزاز البوصلات الأخرى جميعها، ثم إلى استقرارها في تشكيل جديد قادر على الاستيعاب»[23].

وهذا الذي تقدم يفيد تمامًا معنى البنية الذي يسحبه إدوارد سعيد على خطاب الاستشراق ويجعل منه بنية كلية (توتا ليتاريه) إمبريالية وبسبب من هذا التصور البنيوي لخطاب الاستشراق انتقد إدوارد سعيد في (الاستشراق) بأن الفكر الذي يحكمه هو فكر تماثلي بنيوي «لا يكتفي بنفي قدرة الفكر المختلف (أو النقيض) على إنتاج أدوات إنتاجه المختلفة،بل إنه ينفي مبدئيًا كل إمكانية لحدوث مثل هذا الأمر، الذي هو بحسب منطق ذاك الفكر، فضيحة منطقية في المعرفة، وهو كذلك، لأن منطق الفكر التجريبي في الفكر البنيوي ليس له من أدوات يتمثل بها المختلف أو يتعقله، سوى أداة الطرد من العقل، هذا ما يؤكد طابعه القمعي،أو الإرهابي الامبريالي»[24]،وبسبب من هذا انتُقد إدوارد سعيد بأنه يقع بميتافيزيقا الاستشراق المعكوس الذي هيمن على كثير من الدراسين العرب المعاصرين الذين نحو منحىً معاكسًا جعلهم يتمركزون على ذاتهم محاولة منهم للتحرر من مركزية الذات الأوروبية وإلى طرح مفهوم لا تاريخي للخصوصية والهوية»[25].

بعد ذلك يمكن القول إن البنيوية في طبعتها العربية جاءت في أغلب الأحيان

منفصلة عن سياقها الأيديولوجي التاريخي بحكم النشأة الأولى للبنيوية التي لم تكن نشأة عربية بحال من الأحوال، وبعد أن تم استيرادها وتوطينها جرى توظيفها بطرق مختلفة فجاءت النتيجة في النهاية بأن أصبح العديد من البنيويين العرب أسرى لوهم البنيوية والمنهج البنيوي، وعمومًا يمكن القول أن البنيوية في نسختها العربية كانت بنيوية قاصرة إن لم تكن عاجزة عن تمثل ودراسة العديد من القضايا التي طرحها الفكر العربي قديمه وحديثه، وقد تباينت المواقف تجاه البنيوية كحركة ومنهج للبحث من موقف رافض بشدة كما الحال مع جمال باروت ومهدي عامل إلى موقف معتدل مع يمنى العيد، إلى موقف متحمس بشدة مثل مواقف كمال أبو ديب وحسن قبيسي ومحمد عابد الجابري، ونادرًا ما نجد موقف المتفهم والواعي لآليات وحدود تطبيق المنهج البنيوي وتوظيفه كما رأينا من قبل عند إدوارد سعيد.

هوامش

١- سعيد، إدوارد، خارج المكان، ترجمة فواز طرابلسي، دار الآداب، بيروت، ط١، ٢٠٠٠، ص ٩.

❖- ولد إدوارد سعيد في مدينة القدس عام ١٩٣٥ لوالدين فلسطينيين، الأم من مواليد مدينة الناصرة والأب واسمه وديع إبراهيم سعيد من مواليد مدينة القدس، تلقى تعليمه الأول في القدس ثم في مدرسة سانت جورج، ثم غادر مع أسرته فلسطين عام ١٩٤٧ إلى القاهرة، وتابع تعليمه في كلية فكتوريا في القاهرة، ولكنه ما لبث أن غادرها عام ١٩٥١ لمتابعة دراسته في الولايات المتحدة الأمريكية، ونال درجة الدكتوراه في الأدب الإنكليزي عام ١٩٦٤ على رسالته التي أعدها عن الروائي جوزيف كونراد بإشراف هاري ليفين وهو الآن أستاذ للأدبيين الإنكليزي والمقارن في جامعة كولومبيا.

2- Said, Edward, «Invention, Memroy, and Place», Critical Inquiry, The University of Chicago, Winter 2000, Vol 26, No 2, P 176.

3- Ibid: p176.

٤- سعيد، إدوارد، «ميشيل فوكو»، مجلة الكرمل، دار بيسان، العدد ١٥، قبرص، ١٩٨٥، ص ٢٨١.

٥- سعيد، إدوارد، الاستشراق، ترجمة، كمال أبو

ديب، مؤسسة الأبحاث العربية، بيروت، ط٢، ١٩٨٤، ص ٥٦.

٦- سعيد، إدوارد، تعقيبات على الاستشراق، ترجمة صبحي حديدي، المؤسسة العربية للدراسات بيروت، ط١، ١٩٩٦، ص ص ١١٠-١١١.

٧- المصدر نفسه، ص ١١١.

٨- سعيد، إدوارد، الاستشراق، ص ٧١.

٩- المصدر نفسه، ص ٧١.

١٠- المصدر نفسه، ص ص ٧١-٧٢.

١١- ديلوز، جيل، المعرفة والسلطة، ترجمة سالم يفوت، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٧، ص ٧٨.

١٢- هبرماس، يورغن، القول الفلسفي للحداثة، ترجمة فاطمة الجيوشي، وزارة الثقافة، دمشق، ط١، ١٩٩٥، ص ٤١٩.

١٣- المصدر نفسه، ص ٩٥.

١٤- فوكو، ميشيل، حفريات المعرفة، ص ص ٤٠-٤١.

١٥- فوكو، ميشيل، نظام الخطاب، ترجمة محمد سبيلا، دار التنوير، بيروت، ط١، ١٩٨٤، ص ٩.

١٦-سعيد، إدوارد، الاستشراق، ص ١١٧.

١٧- عامل، مهدي، هل القلب للشرق والعقل للغرب، دار الفارابي، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ص ١٥.

١٨- هبرماس، يورغن، القول الفلسفي للحداثة، ص ص ٤١٦-٤١٧.

١٩- سعيد إدوارد، الاستشراق، ص ١٧٠.

٢٠- عامل، مهدي، هل القلب للشرق والعقل للغرب، ص ٤٩.

٢١- يفوت، سالم، حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي، المركز الثقافي العربي، بيروت، ط١، ١٩٨٩، ص ص ١٤-١٥.

٢٢- المرجع السابق ص ص ٥٧-٥٨.

٢٣- سعيد، إدوارد، الاستشراق، ص ٢٧٥.

٢٤- المرجع السابق، ص ٦٥.

٢٥- يفوت، سالم، حفريات الاستشراق في نقد العقل الاستشراقي، ص ٢٧.

❖ ❖ ❖

٢٠٠

صورة الصهيوني لدى غسان كنفاني

د. ماجـــدة حمـــود *

عانى كنفاني مرارة التشرد عن وطنه طفلاً صغيراً، إذ أجبر على النزوح (عام ١٩٤٨) مع أهله وعمره لا يتجاوز اثني عشر عاماً بسبب احتلال الصهاينة لفلسطين، ولا شك أن هذه التجربة تركت بصماتها على شخصيته، وجعلته يكوّن صورة سلبية عن الآخر (الإنكليزي والصهيوني) فقد انتزعه هذا الآخر من جنة الطفولة وألقى به إلى جحيم المخيم.

نلاحظ في إبداع كنفاني أنه لم تقدم لنا صورة الآخر بمعزل عن صورة الفلسطيني، فقد عمد إلى تقديم صورة إيجابية تبرز تلاحم الفلسطينيين وتوادّهم في مقابل صورة

(*) د. ماجدة حمود: باحثة من سورية، دكتوراه في الأدب العربي، أستاذة الأدب العربي الحديث في جامعة دمشق.

سلبية تبرز همجية الصهاينة، مثال على ذلك في قصة «كان يوم ذاك طفلاً» كتبها (١٩٦٩) وقدّم لنا فيها مشهداً من التاريخي الروحي للفلسطينيين (قبيل عام ١٩٤٨) حيث عايشنا عدة ركاب فلسطينيين في سيارة نقل عامة، ينتمون إلى مناطق مختلفة، ولا يعرف الواحد منهم الآخر، لكنهم اجتمعوا **«في ذلك الكون الصغير المطوق بمعدن السيارة، باللحن الكامد كانت علاقة من نوع ما، غير منطوقة، وغير مرئية، تربط عشرين إنساناً لم يتبادلوا، خلال حياتهم كلها،** إلا تحية الصباح وهم **ينتظرون السيارة** في شارع الملك **فيصل بحيفا...»**

يبدو لنا الطفل الوحيد في السيارة، الذي أرسلته أمه ليستخبر عن أبيه، وقد ألقى برأسه في حضن عجوز، غريبة عنه، تجلس قربه «وحضّرت امرأة أخرى، لاتعرفه رقاقة محشوة ببيض مسلوق مبهّر، وجعلت تنتظر لتطعمه... كما أن رجلاً خلع معطفه وغطى الطفل...» (١)

بدا ركاب السيارة الفلسطينيين وكأنهم أسرة واحدة في الاعتناء بالطفل وفي تبادل الطعام، والإحساس عند سماع الموسيقى الشجية يعزفها أحد الركاب، وعند سماع غناء السائق العذب، كل ذلك أشاع جوّاً من الودّ والأمان فانسابت الأحاديث التي تتعلق بالهموم الخاصة والعامة، وكان من بينها حديث «امرأة بدينة، كانت قد ذهبت إلى **الحج قبل عام واحد [التي روت] كيف نسف اليهود في يافا داراً للأيتام، وكيف تناثرت جثث الأطفال على فوّهة شارع «اسكندر عوض» ممزوجة بحبات البرتقال المفزورة، فقد وضع اللغم في سيارة شحن مملوءة بالبرتقال أوقفت أمام درج الميتم...»** (٢)

وبذلك أصبح أطفال الميتم الفلسطيني هدفاً عسكريّاً لدى الصهاينة، والكاتب يريد أن يؤكد صحة هذه القصة التي تجسّد وحشية الأعداء، لذلك جعلها على لسان امرأة مؤمنة لا يمكن أن تكذب (فقد حجّت قبل عام).

لم يكتف الكاتب بالسرد ليخبرنا عن وحشية الصهاينة، بل قدّم لنا مشهداً تصوريّاً حيّاً لإحدى الممارسات الوحشية، حيث يجمع الجنود ركاب السيارة المسالمين الذين عايشنا إنسانيتهم ورهافة شعورهم وحبهم للموسيقى والغناء، وبعد أن يتمّ تفتيشها، يعلن الجنود الصهاينة أنهم لم يعثروا على قطعة سلاح واحدة فيها، رغم ذلك نجدهم يصفّونهم باتجاه خندق مستثنين الطفل، ثم يقول لهم القائد «إنها الحرب، أيها العرب.. وأنتم كما تقولون دائماً شجعان، أما نحن فمجرد فئران...»

تتضح لنا نبرة السخرية من العرب العاجزين الذين يدّعون الشجاعة، كما اتضح لنا مدى الاحتقار الذي يكنه العرب

للصهاينة فيصفونهم بالفئران، وقد بلغت السخرية من عجزهم أقصاها حين نادى صبية تلبس سروالاً قصيرًا، وتعلق على كتفيها رشاشًا وطلب منها قتلهم كالفئران، بعد أن قام أحد الجنود بعدّهم (خمسة عشر راكبًا) قائلاً: «هذه حصتك اليوم!

سقطوا في الخندق، وغرقت وجوههم وأكفهم في الوحل، وقد تكوموا هناك كتلة متراصة واحدة مختلطة اختلاطًا دمويًا، فيما كان خيط من الدم الأحمر يتسرب من تحت أجسادهم، ويتجمع، وينساب مع جدول المياه إلى الجنوب.»

يبدو لنا مشهد استشهاد الفلسطينيين معززًا لمشهد حياتهم، فقد عاشوا توحّدهم المودة وحين قـتلوا توحـدت دمـاءهم وأجسـادهم، لكن دمـهم لن يذهب هدرًا سينساب مع جدول الماء ليروي الأرض!

كانت الغاية من إبقاء الطفل حيًّا، أن يكون شاهدًا وراويا لهذه المجزرة، وقد تعمدوا اختيار هذا الراوي الصغير لأنه سينقل الرعب بلغة حارة باكية، تؤثر ببراءتها، مما سيضاعف الذعر في قلوب الفلسطينيين، ويدفعهم إلى ترك أرضهم، لذلك التفت القائد إليه قائلاً: هل رأيت؟ **تذكر هذا جيداً وأنت تحكي القصة. «لكن الطفل الذي صعقه هول المشهد لم يتحرك، فتلقى ضربة بالعصا موجعة عندئذ انطلق، وهو يسمع «أصوات ضحكاتهم الصاخبة، فوقف، لم يدر كيف حدث ذلك ولماذا، ولكنه وقف، ووضع كفيه في جيبي سرواله وسار بخطوات هادئة وسط الطريق دون أن يلتفت إلى الوراء. وبينه وبين نفسه فقط أخذ يعدّ عداً بطيئًا: واحد، اثنين، ثلاثة...»**

لو تأملنا هذه الخاتمة الموحية التي ترسّخ الصورة الوحشية للصهاينة الذين يقتلون العرب وهم يضحكون بصخب كأنهم في احتفال، عندئذ يتولد رد فعل يناقض ما تسعى الصهيونية لغرسه في وجدان الفلسطينيين، إذ نجد حتى الطفل رغم رؤيته لمشهد المجزرة يستطيع تجاوز الهول والدوار والرعب، ويمشي بخطوات هادئة وسط الطريق، وهو بذلك يقوي نفسه ويستعد للمواجهة، ويبدأ بالعد، فما هي إلا خطوات محدودة في المعاناة، يستطيع بعدها أن يتجاوز ضعفه، ويبدأ مرحلة المواجهة مع عدوه!

وفي رواية «ما تبقى لكم» (كتبت ١٩٦٤) وجدنا إرهاصات العمل الفدائي، الذي انطلق بعد عام من كتابة الرواية، فقد التقى (حامد) بعدوه الجندي الصهيوني في الصحراء، بعد أن امتلك الفلسطيني القدرة على المبادرة، فقد بدا له الجندي «خيالا **لتمثال حجري دبّت فيه روح شبحية.»**

يتعمد كنفاني في المواجهة الأولى بين العدو الصهيوني والفلسطيني أن يقدم الصهيوني محاطا بصفات تصغر حجمه

(خيال، تمثال حجري، شبح) وبذلك تؤكد في لا شعور الفلسطيني حقيقته، فيبدأ نزاله مع عدوه بعيدًا عن دلالات وهمية تحيط عادة بالقوة المنتصرة! صحيح أنه لم يملك السلاح بعد، لكنه بدأ يملك إرادة المواجهة و «**القدرة على مفاجأته فقط.» مما أورثه شعورًا بقوة مجهولة تعمل إلى جانبه، لحظة الصدام مع العدو «وفجأة صار أمامي تمامًا، فدفعتني الأرض دفعًا إلى فوق ووقعنا معا، وفي اللحظة التي أمسكت فيه عضديه بكفيّ، وأنا أضغط جسدي فوقه، تيقنت أني أقوى منه.»**

تم، هنا، رسم مشهد يحلم به كل فلسطيني، ويكاد يشكل اللاشعور الجمعي لدى الشعب الفلسطيني أن يكون الصراع مع العدو صراعًا جسديًا، عندئذ يتسم بالندية، لذلك ألقى حامد الرشاش بعيدًا، فهو يحمل دلالات ترمز للأسلحة الحديثة، على نقيض السكين التي احتفظ بها، لكونها تحتاج شجاعة بدأ يمتلكها الفلسطيني، بعد أن أحس ثقة في نفسه، فبات متأكدًا من تفوقه على عدوه.

ولم تقف الأرض الفلسطينية في هذا الصراع مكتوفة الأيدي، فقد ساعدت رمال الصحراء الفلسطيني في مواجهة عدوه، فأربكته حين قذفها حامد في وجهه، واستطاع أن يخلّصه من سلاحه، عندئذ يتجسد أمامنا، بصوت الفلسطيني الذي يروي، وقع الصدمة على العدو «**قذف جملة مقطّعة كأنها شتيمة فقلت له اخرس، وضع كفيه بتحفز فوق التراب، وأخذ يحدق حواليه مذهولاً، وبسرعة لا تصدق انتصب واقفًا وتعلق بعنقي بكفيه الدقيقتين القاسيتين، ولكن حين أحس بالسكين تضغط فوق بطنه تراجع...»**

لم يظهر العدو في صورة سلبية، فلم نجده إنسانًا ضعيفًا مستسلمًا، أو يكتفي بالصراخ أو الشتائم! بل رأيناه يقاوم العربي، فيحاول خنقه بيديه، بعد أن انتزع حامد سلاحه، وأصبح رهينة بيده، وهنا تظهر واقعية كنفاني إذ لم يلغِ شخصية العدو، ولم يجعله جبانًا، لذلك لم يصرعه الفلسطيني دون أية مقاومة! ومثل هذه الدلالة تشير من جهة أخرى إلى شجاعة الفلسطيني، الذي لم يواجه عدوًا سهلاً!

لم يخل الصدام بالعدو الصهيوني من مشاعر إنسانية، إذ نلمح في أعماق حامد شفقة على العدو تكاد تمنعه من قتله أو تجعله مترددًا في ذلك! «**ربما كان من الأفضل لو ذبحته فورًا أثناء صراعنا القصير. أما الآن فيبدو ذلك مستحيلاً وفوق طاقتي ولا جدوى منه على الإطلاق، وكنت أحسّه وأتتبع أنفاسه إلى جانبي، فيبدو متعبًا وضائعًا ومحتارًا، ولكنه متحفز بانتظار مفاجأة تنبع من بين قدميه.»** (٣)

نلمح في أعماق الفلسطيني انفتاحًا إنسانيًا حتى على العدو، فنجده يحس بمعاناته، لذلك اجتمع في فعل واحد أنا الفلسطيني وهاء الغائب التي تدل على الآخر (أحسه، أتابع أنفاسه) وهذا دليل على القدرة في الجمع بين الأنا والآخر، وعدم نفي العدو رغم أنه في حالة صراع معه!

بل نجده يحاول أن يقيم حوارًا معه، فيسأله حامد عن منطقة الظاهرية، يجيبه بأن يهزّ كتفيه ويفرش يديه أمامه، عندئذ **يقول له: «قد تكون لا تعرف غير العبرية، فهذا لا يهم. فقط اسمع، أليس من المثير حقًا أن نلتقي في هذا الخلاء، مباشرة، بالشكل الذي حصل، ثم لا نستطيع أن نتحدث؟»**

لعل مما يثير الدهشة أن يلتقي مغتصب الأرض مع صاحبها الأصلي وجهًا لوجه، ثم لا يستطيعان الحوار، الذي من أهم غاياته إثبات الحق ودحض الباطل.

رغم استحالة الحوار لافتقاد اللغة المشتركة بينهما، لم يستطع أن يمنع نفسه من السؤال عن أشياء ملحة: يسأله عن صديقه الفدائي الذي قتله أحد الصهاينة، مرددًا بينه وبين نفسه: ربما كان هذا الجندي قاتله **«عندها فقط التفت إليّ ومضى يحكي دون توقف.. فأجابه حامد بأن دفع رأس السكين إلى خاصرته، فسكت، ثم قال له: لا تستعمل صوتك بعد أن فقدت مسدس الضوء، ثم إني لا افهم حرفًا مما تقول، وليس هنا من يفهم حرفًا مما تقول. فلماذا تضيّع وقتك؟**

ليس هناك لغة مشتركة تؤسّس لبناء التفاهم مع العدو، لذلك فإن أي حوار معه مضيعة للوقت، لذلك كان السلاح اللغة الوحيدة التي يمكن التفاهم معه على أسسها، وقد بدت لنا اللغة صماء، لا تؤدي حروفها أي معنى، من هنا كان جواب الفلسطيني بأن دفع رأس السكين في خاصرة عدوه، وقد أثبتت **تجارب الحوار** مع العدو دقة هذا الكلام وعمقه، لذلك يقول حامد مخاطبًا العدو **«إن حياتي وموتك يلتحمان بصورة لا تستطيع أنت، ولا أستطيع أنا فكهما.».**

رغم إدراكه هذه الحقيقة، لم يستطع أن يمنع نفسه من سؤال الجندي حين يكتشف من هويته أنه من سكان (يافا) فقد دفعه الحنين إلى الحي الذي عاش طفولته فيه (المنشية: وهو الحي نفسه الذي نشأ فيه كنفاني) فقد رأى مثل هذا السؤال **«حديثًا مفيدًا، فأنا أعرف ذلك الحي تمامًا... لكن ذلك كله بدا عبثًا في نظره.»** إذ لم يتلقّ جوابا، سوى نظرة مراقبة إلى السكين «فتناولتها وسحبت نصلها من جديد فوق حافة حذائي، فانطلق الصرير المحذّر كأنه عويل أخير..»

حين يلتقي الفلسطيني بالصهيوني لا بد من طرف ثالث يستطيع حسم الحوار بينهما (السكين) التي هي رمز للغة السلاح، هذه اللغة الوحيدة التي يفهمها العدو الصهيوني، لذلك حين تغمره موجة من الحنين إلى مرابع الطفولة في (يافا) لا يستطيع الصمت، بل نجده يسأل الصهيوني عنها، فيتلقى جوابًا موحيًا هو النظر إلى السكين!

وهناك طرف رابع في هذا الحوار لا يحسب حسابه (هو الأرض المغتصبة) لذلك سعى كنفاني إلى إبراز صوته، ومنحه شخصية مستقلة، لذلك سمعنا صوت الصحراء (الرياح) يعلن حقائق غابت عن ذهن المتصارعين «انطلقت بصفير خافت تسابق نفسها نحو الجنوب فذكرتهما معًا أنني هنا وأنني الطرف الذي يحسب حسابه الأول في هذا الانتظار المرّ [لأنها]... الجسد اللانهائي الذي يحب ويكره ولا ينسى المنتسب. المطويّ على زمن مشوش إلى أعمق أعماقه، الحب والصمت، العنف والغضب، وقبل كل شيء وفوقه: الخضوع.»(٤)

تبدو الأرض في هذا الصراع طرفًا منسيًا، لذلك تعلن عن نفسها باتجاه رياحها نحو الجنوب، أي تبرز انتسابها للأرض العربية، في حين ينتسب الصهيوني لأرض الشمال، لذلك تبدو متعاطفة مع من ينتسب إليها، ويجمعها به تاريخ مديد يشكل ترابها وحضارتها، كما يشكل وجدانه وهويته، فيمتلئ حبًا صامتًا يكمن في الأعماق وتمتد جذوره إلى بداية التاريخ، يتجلى هذا الحب في ذلك الغضب لاغتصاب الأرض ومحاولة العنف لاستردادها، وهو لا يعرف إلا الخضوع لها، لهذا كله تشارك الأرض (حامد) انتظاره المرّ لتلك اللحظة التي يبدأ بها القتال مع العدو.

وهي تسانده في معرفة عدوه، فتمنحه الضوء كي يستطلع مشاعره، ويتأكد من خوفه، فيحس ثقة في نفسه «واستطعت ان التقط في أعماق عينيه اللامحتين، اللتين بدتا سوداوين في حمام الضوء الرمادي الكامد الذي كان يغسلنا معًا، خوفًا حقيقيًا وانتصارًا مهيضًا يائسًا.»

شتان بين انتظار الفلسطيني المر مع أرضه للحظة الفعل والثورة، وبين انتظار العدو المهيض واليائس للموت! في لحظة المواجهة مع العدو يتطهّر الفلسطيني من ضعفه، فيغادره إحساس الهزيمة إذ لم يعدّ الزمن ضده، عندئذ ينطلق في التعبير عن ذاته، التي ولدت من جديد بفضل هذه المواجهة، فيخاطب عدوه (الذي لا يفهم العربية، والذي لسنا استحالة الحوار معه) فيبدو كلامه أشبه بحوار داخلي «إننا ندور في حلقة مفرغة، والوقت لا يمكن أن يكون

ضدنا نحن الاثنين معًا، بصورة متساوية، فقد يكونون أقرب إليك مما أتصور ولكنك أقرب إلي مما يتصورون.. المسافة لصالحي فأنت أقرب إلى نصل سلاحي مما أنا إلى فوهات بنادقهم.»

تبدو علاقة الفلسطيني مع الزمن انعكاسًا لعلاقته بالسلاح، فهو حين يبتعد عن سلاحه، يحس أن الزمن ضده، ويسير في صالح عدوه الصهيوني، لكنه حين يحمل سلاحه فإن الزمن يتعاطف معه ويقف إلى جانبه ضدّ عدوه، كما تعاطفت الأرض، لذلك نلاحظ في هذه الرواية أن الزمن بدأ يسير في صالح البطل بعد أن حمل السكين وبات قادرًا على قتل عدوه، فابتعد به عن الموت المجاني الذي لحظناه في «رجال في الشمس» وهكذا يبدو الزمن أكثر فاعلية وجدوى كلما اقترب الفلسطيني من سلاحه! مما يسهم في بناء إنسان جديد يثق بنفسه وينأى عن الهزيمة! وعن الخوف من الآخر!

إذًا المكان والزمان يقفان إلى جانب الفلسطيني حين يحمل سلاحه، أي حين يملك إرادة التحدي، فيعزز كنفاني انتماء الفلسطيني إلى أرضه وتاريخه، وتبرز غربة الصهيوني عن المكان وعن الزمان، حين يمتلك الفلسطيني الجرأة على الاقتحام، لذلك يقول له حامد «ان تقتل انت هنا... على بعد خطوات من معسكرك، ربما، هو عمل أخطر من ان اقتل انا، مجرد عدو اقتحم قلعتكم وكان وحده تمامًا، بلا سلاح.. الأمور هنا نسبية تمامًا، وهي لصالحي أيضًا.» (٥)

من الطبيعي أن يقتل الفلسطيني على يد الصهيوني المدجج بالسلاح والمحصّن بالقلاع، لكنه بعد مرور ستة عشر عامًا من النكبة، استطاع الفلسطيني أن يتجاوز الإطار الذي وضع فيه إثر النكبة (الإنسان المهزوم المقتول دون أية مقاومة) فبدأ يمتلك جرأة اقتحام قلاع العدو وانتزاع سلاحه منه، وبات باستطاعته قتله، قدّم لنا الكاتب مقارنة بين قتل الفلسطيني على يد الصهيوني المدجج بالسلاح والمحصن بالقلاع وبين قتل الصهيوني الذي لا يملك سلاحًا ويسير وحيدًا في الصحراء! إذ ثمة فرق بين الفعل العادي (قتل الفلسطيني) والفعل الاستثنائي (قتل الصهيوني) على مقربة من معسكره وبالسلاح نفسه الذي يحمله، مما يعني بزوغ مرحلة جديدة بدأ فيها الفلسطيني بدق جدران الخزان، ليستطيع تقرير مصيره، خاصة بعد أن صار الزمن يعمل لصالحه، وصارت الأرض مملكة له!

كان الفلسطيني مجرد شيء، إثر النكبة، أشبه بكرة لفوا فوقها خيوط الذل المتراكم عامًا إثر عام، فيحس أنه يعيش في عالم معاد، ويقف «في بقعة محاطة بالخسائر

من كل جانب» فقد خسر الفلسطيني كل شيء: الوطن، الكرامة، الأهل، الأصدقاء... لم يعد لديه ما يخشى عليه في هذه الحياة، فهو يعيش الموت، لذلك نما إحساسه بالشجاعة «فتعالَ اقل لك شيئًا مهما: ليس لدي ما أخسره الآن، ولذلك فاتت عليك فرصة أن تجعلني ربحًا.» فقد خسر كل شيء، في حين نجد الصهيوني متمسكًا بحياته المليئة بالانتصارات، من هنا يتفوق الفلسطيني على خصمه في أية معركة، مادام لا يحرص على حياة أشبه بالموت! وقد اختزل لنا كنفاني علاقة الفلسطيني بعدوه في مقولتي الربح والخسارة فيجعلها المعادل الجمالي للحياة والموت، فموت الفلسطيني يؤدي إلى ربح الفلسطيني لذاته لكنه لن يكون ربحًا للعدو، في حين يبدو موت العدو ربحًا للفلسطيني وحياة جديدة له!

وهكذا نجد (حامد) في الصحراء بدأ يتجاوز إحساسه بالضعف والهزيمة، فيتحرر على أرضه من كل خساراته، ليستطيع النهوض من بؤسه، لذلك استطاع حامد أن يقيد عدوه تمهيداً لقتله «انتزع حزامه ومضى يعقد كفيه وراء ظهره، بحرص وعناية دون أن يواجه أي نوع من المقاومة..»

ومثل هذا الإحساس بالتفوق جعل العدو يشعر بالرهبة أمام الفلسطيني، لذلك عجز، بعد المواجهة الأولى، عن أي فعل مقاوم «وعندها فقط نظر إلى عيني، ولمحت في وجهه من جديد تلك المسحة الخرساء من الرعب العاجز» وهذا العجز من قبل العدو منحه الثقة بالنفس «فأدركت انه سيكون بوسعي ذات لحظة ان أجزّ عنقه دون رجفة واحدة.»

باتت لحظة الفعل قريبة، وقد تهيأ لها الفلسطيني بما يملك من شجاعة يحتاجها السلاح البسيط (السكين) الذي يملكه، وقد سلط كنفاني الضوء على لحظة المواجهة وما اختلج فيها من مشاعر: إحساس الفلسطيني بقدرته على ذبح عدوه دون خوف، في حين بات العدو يرتعش رعبًا أمام تلك الشجاعة المباغتة!

بعد هزيمة حزيران (عام ١٩٦٨) نجد كنفاني يقدم لنا علاقة متوترة معادية بين الفلسطيني المهزوم وعدوه الصهيوني، ففي قصته القصيرة «صديق سلمان يتعلم أشياء كثيرة في ليلة واحدة» يختار الكاتب افتتاحية تجسد هذه العلاقة العدائية، فقد بدأ السرد بفوهة بندقية يوجهها الصهيوني إلى الفلسطيني فتبدو «مثل محجر نزعت منه العين» قد تثير الفزع للوهلة الأولى لكن سرعان ما يزول، حين يستخدم الفلسطيني عقله، يستطيع تجاوز الرعب الذي يثيره السلاح، أي ذلك التأثير المدمر للروح!

تتجلى وحشية الصهاينة في هذه

القصة، فقد هاجم الصهاينة القرية الفلسطينية ليلا، بحثًا عن الفدائيين، فأيقظوا جميع الأهالي من النوم، وبدؤوا يحققون معهم، وكان من بينهم صديق سلمان الذي استجاب لنداء أمه ولم يشارك في المقاومة كي لا ينسف الصهاينة البيت، ومع ذلك يتلقى الفلسطينيون عقابًا جماعيًا، إذ ينسفون جميع البيوت «اسمع بعد قليل سترى كيف ينبغي أن تنسف البيوت، لا كما تفعلون... إنكم لا تعرفون، الآن سنعلمكم كيف يشال البيت من أساسه باللغم، وكيف يطير كطابة الزجاج.»

إنهم لم يفرقوا بين مسالمين ومقاتلين، لأن الفلسطيني في نظرهم متهم سواء قاوم أم لم يقاوم «وكان ضجيج الانفجارات يتوالى فيتحطم هذا الليل الراكد، وأخذ يضحك ملء صدره، وكان صوت الرعد عاليًا، فلم يسمع الجندي ضحكاته، ولكن أمه سمعت.»(٦) وفهمت عمق المأساة التي يعيشها الفلسطينيون، فهم مدانون في نظر الأعداء لمجرد بقائهم على أرضهم، إننا أمام كوميديا سوداء، تثير ضحكًا أشبه بالبكاء، فالصهاينة نسفوا البيت الذي خافت عليه الأم ومنعت ابنها من استخدام سلاحه، كصديقه الفدائي (الفدائي سالم) فالجميع متهم لدى الصهاينة سواء حملوا السلاح أم لم يحملوه!

لذلك تفقد الكلمات، في هذه الحالة، دلالاتها الحقيقية! لتنزاح إلى دلالات نقيضة! فتبدو الجملة التي تتلفظ بها الأم «الحمد لله أنك بريء» جملة قاسية «صدمته الكلمة كمسمار، وأحس بجسده ينتفض، وفي اللحظة التالية بدت الكلمات عديمة الجدوى، ولا معنى لها، وأنها خاضعة بعبودية لا مثيل لها للمسافات، وقال في نفسه: إن للكلمة ذاتها معنى آخر على بعد ثلاثة أمتار فقط، أمام ذلك الجندي المكسو بزغب أشقر...»

تتغير دلالات الكلمة بتغير الناطق بها، ومدى قربه من الفلسطيني أو بعده عنه، فكلمة البراءة، التي تصدر عن العدو: تعني تهمة الجبن الذي يتمتع به الفلسطيني ويمنعه عن مواجهة عدوه، في حين لفظة البراءة لدى الأم خلاصًا من الموت وشعورًا بالأمان: أي أن ابنها سيبقى حيًا بيتها لن يهدم!

تبدو لنا صورة الجندي الصهيوني، التي يرسمها الكاتب، أقرب إلى الصورة الهزلية ذات دلالات سلبية، فهو «كمن يلبس بذلة مستعارة ليست له... ويضع فوق رأسه خوذة مفكوكة الحزام...، ويبدو وكأنه ممثل سينمائي، جاهزًا لتكون صورته مؤثرة إلى أبعد مدى في المشاهدين.»

لعل الكاتب يريد أن يوحي للمتلقي بعدم أصالة القضية التي يدافع عنها الجندي الصهيوني، لذلك يرتدي بذلة مستعارة،

وخوذة مفكوكة الحزام مما يدل على عدم مبالاته، إنه أشبه بممثل يحاول أن يتقن دوره، كي يؤثر بالمتفرجين!

تبدو صورة الجندي وقد انسلخت عن حقيقتها الإنسانية، فابتعدت عن كل القيم التي تحفظ حياة الإنسان وكرامته! وبذلك يبدو ممثلاً لدور منوط به، الغاية منه إرهاب الفلسطينيين وإهانتهم!

ولو تأملنا الأثر النفسي الذي يتركه لدى الفلسطينيين للاحظنا أنه يستطيع بث الرعب في قلوبهم، حتى بدت فوّهة بندقيته مثل محجر نزعت منه العين، لن تستطيع إخافة الفلسطيني!

ويبدو الجندي الصهيوني يتحدث اللغة العربية، لهذا يسألهم ألم تروا أحداً منهم؟ (أي من الفدائيين) فتقول الأم هامسة «الكلب يتكلم العربية.» يظهر لنا لغة العداء بين الفلسطيني والصهيوني المعتدي، لذلك ينعت الصهيوني بـ (الكلب) فقد أخرج الأبرياء من بيوتهم ليلاً، ولم يكتف بذلك بل نسفها دون تمييز!

كما تبدو اللغة التي يستخدمها الفلسطيني في الحوار حذرة، تتسم بالشموخ، فحين يسأله الصهيوني: أين كنت قبل ساعتين؟ يجيبه كنت نائمًا، فيقول له: حين أسألك أجبني بسرعة، فهمت. فأجابه: «فهمت يا... وكان على وشك «أن يقول: يا سيدي، ولكنه لم يستطع، وراوده ارتياح كبير أن الجندي لم يلحظ ذلك.» رغم ما يمثله الصهيوني من قوة، وما استحوذ من سيادة على الأرض، فإنه لن يكون سيدًا على الإنسان، لذلك لم يستطع الفلسطيني أن يخاطب الصهيوني بلفظة: سيدي، رغم حالة الضعف التي يعيشها! ورغم أن فوهة الصهيوني تحفر ظهره!

لا نجد حوارًا عاديًا، يتسم بالندية بين الفلسطيني والصهيوني وإنما نجد استجوابًا تطغى فيه لغة الاستعلاء الصهيوني الذي يتبدى في تعليقه على السؤال التالي: أين تعلمت المشية العسكرية، يقول له الفلسطيني: الآن أيها الجندي منك. فيجيبه «مني؟ إنك رجل تفكر بسرعة، وهذا لا يعجبنا كثيرًا.»

تبدو صورة العربي في مخيلة الصهيوني صورة مشوّهة، إنه يفترض أن الفلسطيني عاجز عن استخدام عقله، تغلب عليه العاطفة، وحين يفاجأ بذكاء الفلسطيني ينعته مستهزئًا بـ أيها الغبي وذلك حين يسأله، ألم تلاحظ شيئًا؟ يجيبهم: «كالعادة، فيردّ عليه الصهيوني مستفزًا «أسألك أيها الغبي.. ماهي العادة.. هناك آثار خطوات أيها الطفل.» يجيبهم «كلنا نمشي، وصفعه، فدوت التلال الغربية بصوت أشبه بسقوط، وعاء من النحاس، وقال الجندي: إذا كنت غبيًا فأنت تستحق القتل، وكذلك إذا كنت ذكيًا...»

في هذا التحقيق الذي يبرز استعلاء عنصريًا فالآخر بالنسبة للصهيوني إما غبي وإما طفل، فإذا خرج عن هذه القاعدة، وأثبت أنه ذكي، فهو يستحق القتل لهذا السبب، بل يستحقه في كل الأحوال!

تشيع في خطاب الصهيوني أثناء تعامله مع الفلسطيني أو بالأحرى أثناء استجوابه، إما لغة الاستعلاء العنصري والسخرية، وإما لغة الصفع والقتل.

يلاحظ المرء أن أي لقاء، لدى كنفاني، بين الفلسطيني وعدوه سواء في الرواية، أم في مجموعاته القصصية كان بصحبة السلاح، حتى رواية «عائد إلى حيفا» التي لاحظنا فيها عودة الفلسطيني، إثر نكسة حزيران، إلى بيته مهزومًا، تؤرقه قضايا فكرية تتعلق بماهية الإنسان، وقد تمّ الحوار داخل جدران البيت الذي كان يسكنه البطل (سعيد س) ثم احتلته العائلة الصهيونية (عام١٩٤٨) رغم ذلك لاحظنا حضورًا رمزيًا للسلاح، إذ وجدنا الصهيوني يرتدي بذلته العسكرية، في حين بدا الفلسطيني المهزوم رافضًا أي تعامل مع السلاح، لذلك منع ابنه من حمل السلاح، لكنه غيّر موقفه إثر لقاء الصهيوني، وتمنى أن يكون ابنه قد حمله أثناء غيبته.

ثمة محاولة لدى كنفاني أن ينتقل من الحوار من حيز المستحيل إلى حيز الإمكانية بين العربي والصهيوني، فيتجاوز مرحلة الاستجواب والاستعلاء التي شهدناها في القصة إلى حوار موضوعي هادئ بين شخصين تجمعهما الندية الإنسانية، لذلك يقول سعيد لدوف الصهيوني «أتحدث إليك مفترضًا أنك في نهاية الأمر إنسان. يهودي أو فلتكن ماتشاء، ولكن عليك أن تدرك الأشياء كما ينبغي.» (٧)

يريد أن ينشئ حوارًا يتسم بشيء من الموضوعية مع إنسان يختلف عنه بالدين والعرق والانتماء، لكنه يلتقي معه في الإنسانية، وهذه خطوة إيجابية في بناء حوار مع الآخر المختلف، ولكن هل يمكن ذلك مع آخر معتد ومتعصب؟! هل يستطيع الإنسان أن يحاور الآخر بعيدًا عن الأفكار المسبقة، حتى لو كان عدوه؟!

لو تأملنا الظرف المكاني والزمني الذي جرى فيه الحوار للاحظنا أنه ظرف متوتر، لا يسمح بحوار موضوعي! فقد اختار مكانًا مغتصبًا جعله فضاء مكانًا للحوار (بيت سعيد الذي اغتصبته العائلة الصهيونية) وقد حصر الحوار في فضاء مغلق (داخل جدران غرفة) لا يمكن أن يكون مناخًا مناسبًا لأي حوار هادئ! كما اختار فضاء زمنيًا كئيبًا أعقب الهزيمة الحزيرانية مباشرة، إنه زمن ملأ الفلسطيني غصة وعارًا! فزادت أوهامه وتكبلت إرادته فضيّع اتجاهه الصحيح.

لعل الكاتب يهدف من هذه الرواية أن يهاجم النظرة الضيقة للوطن لدى الفلسطيني، إذ يختزله إلى أشياء صغيرة تافهة (كرسي ومقعد وريش طاووس...) كما تختزل الإنسان إلى لحم ودم، فقد ظن الوالدان أن بإمكانهما أن يستعيدا طفلهما في فلسطين بعد عشرين سنة بريئًا طاهرًا كما لو كان رضيعًا! في حين تحول هذا الطفل العربي إلى شاب يهودي إذ ربّته عائلة يهودية، وقامت بتغيير اسمه من خلدون إلى دوف! وهذا تصرف له دلالة، فتغير الاسم لابد أن يؤدي إلى تغيير الروح، لذلك تنكّر لسعيد وزوجته صفية اللذين جاءا لاستعادته قائلاً: «انا لم أعرف ان ميريام وإيفرات ليسا والدي إلا قبل ثلاث أو أربع سنوات، منذ صغري وأنا يهودي، أذهب إلى الكنيس وإلى المدرسة اليهودية وآكل الكوشير وأدرس العبرية.. وحين قالا لي- بعد ذلك- إن والديّ الأصليين هما عربيان، لم يتغيّر أي شيء. لا. ذلك شيء مؤكد. إن الإنسان في آخر الأمر قضية.» (٨)

ثمة مقارنة خفية بين النظرة المتخلفة للإنسان لدى العربي (مايشغله في العلاقات الإنسانية هو رابطة الدم) وبين الصهيوني الذي ينتبه إلى بناء الإنسان من الداخل (عن طريق الدين، التعليم، العادات والتقاليد، اللغة) ولم يعرف سعيد هذا الأمر إلا بعد أن التقى بالصهيوني، فقد جعله العجز الفكري يظن أن بإمكانه استرجاع طفله بعد عشرين عامًا، لأن الرابطة الدموية هي الأساس، وينسى أن التربية التي تلقاها خلدون تربية يهودية تعتمد في بناء الإنسان على الدين واللغة والتعليم والعادات المتوارثة، فتصب في روحه ما شاعت من قيم وأفكار وأوهام، فتبني وجدانه ليكون مخلصًا في انتمائه للدولة الصهيونية، وبفضل هذا الحوار يكتشف الفلسطيني تفاهة الفكر الذي اعتمده إثر النكبة، لذلك يتساءل: «أليس **الإنسان هو ما يحقن فيه ساعة ويوماً وراء** يوم وسنة؟ إذا كنت نادمًا **على شيء فهو** انني اعتقدت عكس **ذلك طوال عشرين** سنة!»

لقد بدأ التغيير إثر سماعه لرأي طرف آخر نقيض له، فتجلى تقصيره الفكري كما تجلى تقصيره النضالي، وقد سمع التأنيب على الضعف من ابنه الذي أصبح عدوه، بسبب التربية التي تلقاها! إذ يقرعه قائلاً: «**بعد أن عرفت أنكما عربيان كنت أتساءل بيني وبين نفسي: كيف يستطيع الأب والأم أن يتركا ابنهما وهو في الشهر الخامس ويهربان؟ وكيف يستطيع من هو ليس أمه وليس أباه أن يحتضناه ويربياه عشرين سنة؟ عشرين سنة؟...**» (٩)

وبذلك أعلن انتماءه الصريح لوالديه اليهوديين وأنكر رابطة الدم التي تجمعه بالعرب، بل بدأ محاسبة عسيرة لوالديه

وللفلسطينيين جميعًا، فيتهمهم بعدم التحضر، وبضعف التفكير والوعي! لذلك يستخدم ضمير الجماعة في لغة التقريع «كان يمكن لذلك كله الا يحدث لو تصرفتم كما يتعين على الرجل المتحضر الواعي ان يتصرف.» ثم يوضح لهم كيف يتصرف الإنسان الواعي: كان عليكم الا تخرجوا من حيفا، وإذا لم يكن ممكنًا فقد كان عليكم بأي ثمن الا تتركوا طفلاً رضيعًا في السرير، وإذا كان هذا أيضًا مستحيلاً فقد كان عليكم الا تكفوا عن محاولة العودة.»

يطرح المحاور الصهيوني ثلاث تهم تدين الفلسطيني: الهروب من الوطن، وترك طفل رضيع في البيت! والتهمة الأخيرة الجبن الذي تجلى في البقاء بعيدًا عن الوطن وعدم محاولة العودة إليه!

نلاحظ هنا لغة الاستعلاء والإملاء إذ تتكرر جملة (كان عليكم...) ثلاث مرات! كما نلاحظ نبرة الاستهجان، إذ تجاوز الفلسطيني كل الاحتمالات الممكنة ورضي بالمستحيل (أن يعيش بعيدًا عن وطنه وابنه دون أي فعل مقاوم يرد إليه ما فقده)

نجد (سعيد) يدافع عن نفسه ويبيّن أن السبب في هذه التهم يعود إلى جذر المشكلة أي الإرهاب الصهيوني، فيقول مخاطبًا ميريام (أم دوف بالتبني) «إنه يتساءل كيف يترك الأب والأم ابنهما الرضيع في السرير ويهربان... أنت لم تقولي الحقيقة وحين رويتها له كان الوقت قد مضى، أنحن الذين قتلنا الطفل قرب كنيسة بيت لحم؟ الطفل الذي كانت جثته، كما قلت لنا، أول شيء صدمك في هذا العالم الذي يستحق العدل بحقارة كل يوم... ربما كان ذلك الطفل هو خلدون! ربما كان ذلك الشيء الصغير الذي مات ذلك اليوم التعيس هو خلدون... بل إنه خلدون، وأنت كذبت علينا إنه خلدون، وقد مات، وهذا ليس إلا طفلاً يتيماً عثرت عليه في بولونيا أو انكلترة.»

يظهر تطور وعي (سعيد) حين بدأ يتنكر لرابطة الدم التي تربطه بـ (دوف) ويسلط الأضواء على الإرهاب الصهيوني الذي تمادى إلى حدّ قتل الأطفال، لذلك رأى في جثة الطفل العربي ابنه الذي تركه مجبرًا، وتأكد أن (دوف) لا يمكن أن ينتمي إليه، لذلك يتهم مريام بالكذب، فقد جلبت الطفل معها من أوروبة، فهو غريب مثلها عن المكان الفلسطيني!

لم تظهر الشخصية الصهيونية بمظهر سلبي دائمًا، فقد بدت ذات سمات إيجابية (ميريام) مرهفة الحس يصدمها مقتل طفل عربي، فيغمرها إحساس بفقدان العدالة في هذا العالم!

لكن كنفاني لم يستطع أن يلتزم بمثل هذه الإيجابية حين وصف الجندي الإسرائيلي (دوف) إذ بداشابا طويل القامة منكفئًا على نفسه محطوم.

وقد حاول الأب أن يتأكد من تلك الرابطة الدموية، بصورة لا شعورية، فبحث عن شبه بين (دوف) وبين ابنه خالد إلا أنه **لم يجد «بل رأى بصورة ما تضادا بينهما، يكاد يكون متعاكسًا تمامًا واستغرب أن يكون قد فقد أيما عاطفة إزاءه».**

وهكذا فقد (سعيد) ابنه إلى الأبد، وماتت عواطفه تجاهه، وتبدّت له الصورة الحقيقة للصهيوني، إنها صورة نقيضة عدوة لابنه الفدائي (خالد) فاتجهت عواطفه نحوه، مفتخرًا بأبوته، إذ وجد فيه **تعويضًا عن فقده لخلدون!**

لم يبدُ لنا الصهيوني، إثر هذا اللقاء، شخصية مسطحة جامدة المشاعر، إذ لاحظنا أن الشاب يعاني قلق الانتماء، وبدأ يفقد نفسه، لذلك نسمع سعيد يقول له: **أنا لا أشعر بالاحتقار إزاءك، والذنب ليس ذنبك وحدك، ربما سيبدأ الذنب منذ هذه اللحظة ليصبح مصيرك.»**

غلب على الحوار الجانب الإنساني، لذلك لم يحتقر سعيد محاوره الصهيوني، وربما للمرة الأولى نجد الفلسطيني يحاول فهم الآخر عن طريق فهم نفسه! فلم نجده يحمّله وحده مسؤولية الهزيمة، إذ ثمة شركاء عرب يحملون وزر هذا الضعف!

من الواضح أن مثل هذا الحوار الموضوعي سيترك أثرًا ما في نفس الشاب، ولن ينجو من عقدة الذنب أي من ذلك الاضطراب الداخلي بين الثوابت التي تربى عليها وبين الحقائق التي تربى عليها وبين الحقائق التي اطلّع عليها.

ومما زاد في درامية هذا المشهد أن الكاتب تعمّد أن يتمّ اللقاء مع الفلسطيني في حضور القوة العسكرية، التي رمز لها بارتداء الصهيوني (دوف) للملابس العسكرية، فكان يقف منتصبًا **كأنه يتصدر طابورًا من الجنود المختبئين.»**

لا تتجسد الشخصية الصهيونية في مخيلة الكاتب بعيدًا **عن الآلة العسكرية** وعن منطق القوة، **الذي يبدو مسيطرًا على** المنطق العربي الضعيف، **فقد وجّه (دوف)** سؤالًا صاعقًا يفضح التخاذل العربي (الذي تجسده شخصية سعيد) ماذا فعلت خلال عشرين سنة مضت كي تسترد ابنك، لو كنت مكانك لحملت السلاح من أجل هذا، ولكنكم عاجزون مقيدون بسلاسل من **التخلف والشلل! واجهتم مصائبكم بسلاح الدموع طيلة عشرين سنة.»**

يتجلى عجز الفلسطيني في أبشع صورة: لم يستطع حمل السلاح من أجل ابنه وهو أعز ما يملك، ويريد الكاتب أن يبيّن أن حالة سعيد ليست حالة فردية، فينتقل في خطابه من استخدام ضمير المخاطب المفرد (ماذا فعلت؟...) إلى ضمير الجماعة الذي نجده محاطًا بدلالات سلبية (عاجزون، مقيدون، بسلاسل من التخلف

والشلل) وبصورة ساخرة تكاد تلخص ردود الفعل العربي إثر النكبة، على مدى عشرين عامًا، فكان السلاح الوحيد الذي أجاد العرب استخدامه من أجل استعادة أرضهم هو سلاح الدموع!!

يستقبل سعيد هذه اللغة الاستفزازية بهدوء، إذ يعترف بأن العرب كانوا «جبناء... ولكن ذلك لا يبرر لك شيئًا، إن خطأ زائد خطأ لا يساويان صحًا... ولكن متى تكفّون عن اعتبار ضعف الآخرين وأخطائهم مجبرة لحساب ميزانكم؟ لقد اهترت هذه الأقوال العتيقة، هذه المعادلات الحسابية المترعة بالأخاديع ...» (١٠)

يستخدم سعيد في الرد على الاتهام الصهيوني بلغة الحسابات المنطقية (خطأ زائد خطأ لا يساويان صحًا) وبذلك يبتعد عن لغة الانفعال دون أن يتنصل من المسؤولية، إذ إن غايته أن يبيّن خلل المنطق الذي يعتمده الصهيوني:، فعجز الآخرين وضعفهم لا يبرر انتهاك إنسانيتهم واغتصاب أرضهم، ومثل هذا المنطق سينعته الكاتب بصفات سلبية: اقوال عتيقة، معادلات مترعة بالأخاديع.

هنا نتساءل هل يفيد حوار هذه صفات لغته في خلق تفاهم مع الآخر أم يزيد الهوة بينهما؟ ويمكن أن يلاحظ المرء أن العربي بدأ يتأكد من عدم جدوى الحوار مع الصهيوني «وشعر أنه لن ينجح في الوصول إلى مقصده، ثمة ارتطام قدري لا يصدق، وغير قابل للتجاهل، وهذا الذي يجري مجرد حوار مستحيل.» لأنه لا يجري بين ندين متكافئين وإنما بين غالب ومغلوب، أو بالأحرى بين جلاد وضحية! لذلك لم نجد أية نقطة لقاء تصلح لبناء جسر التفاهم بين العربي والصهيوني، حتى النظرة إلى أشياء البيت (الذي تركه الفلسطيني واحتله الصهيوني) تبدو مختلفة «يا للغرابة! ثلاثة أزواج من العيون تنظر إلى شيء واحد.. ثم تراه مختلفًا!»

في مثل هذه الظروف سينشأ حوار مستحيل بين ذليل مهزوم رغم الحق الذي يملكه، وبين مغرور منتصر رغم الباطل الذي يعتمده! من هنا كان لقاء الفلسطيني (بالمرأة اليهودية ثم بالابن) ومحاولة بناء حوار أشبه بالعبث، إذ تنصل الابن من رابطة الدم العربي وتحول من خلدون إلى دوف، بعد أن تغذى بالمبادئ الصهيونية عشرين سنة! فأعلن انتماءه لمنطق القوة، خاصة أن العربي يرزح تحت عبء ثقيل من العجز المنفّر!

مثل هذه العلاقة المتوترة بالآخر أثّرت في الشخصية الفلسطينية، وطوّرت وعيها، فقد أدرك (سعيد) أنه بعودته المهزومة إلى بيته في حيفا عاكس المنطق والتاريخ، فعاد إلى الوراء، وبقي أسيرًا لزمن مهزوم، ولاشك أنه بفضل هذا الحوار الفاشل مع

العدو اتضحت معالم الحقيقة أمامه! إذ ليس هناك من عودة مشرّفة إلا عن طريق واحد هو المقاومة، وبذلك اتضحت ملامح شخصيته عبر مرآة الآخر، وتبيّن مقدار عجزه، إذ لم يقدم شيئًا لفلسطين سوى الانتظار، عندئذ بدأ يعي حقيقة الصراع مع الآخر المعتدي: مادمنا ضعفاء لا يحق لنا أن نكون أبناء فلسطين، ولا يحق لنا العودة إليها! إثر ذلك تغيّر موقفه السلبي من العمل الثوري، وتأكد أنه الأمل والكرامة، خاصة بعد أن تبيّن له أن لغة الحوار الوحيدة التي يفهمها العدو هي لغة السلاح، فاستعادة الابن السليب كاستعادة الوطن لن يكون بالدموع، لذلك نسمعه يقول: «إن دوف هو عارنا، ولكن خالد هو شرفنا الباقي.»

نعتقد أن (دوف) رمز لاستعادة الماضي أي فلسطين عن طريق التفاهم مع العدو، بعيدًا عن المقاومة، لذلك جسّد عاره، في حين كان (خالد) رمزًا للمستقبل، الذي نصنعه بأنفسنا بفضل السلاح، ويبدو لنا أن هذا المنطق هو الذي تبناه الكاتب، لذلك اختار للشاب اسمًا ذا دلالة تاريخية إيجابية تمت بصلة وثيقة إلى البطولة التي حققها (خالد بن الوليد) أثناء الفتح الإسلامي، ولو تأملنا الدلالة اللغوية للاسم لـلاحظنا أنه يوحي لنا بخلود المنطق وأصالته، هذا المنطق الذي بات يؤمن به الجيل الجديد، لذلك صوّره كنفاني أكثر نضجًا من جيل الآباء، إذ رأى أن العودة إلى الوطن لا تكون إلا بالسلاح، ومثل هذا التفكير جعله الكاتب معادلاً للشرف والأمل.

إذًا أتاح الحوار بين الفلسطيني وعدوه الفرصة إلى فهم الذات العربية بعيدًا عن سفح الدموع! فتهاوى منطق الضعف والخوف، حيث يمنع فيه الأب ابنه من حمل السلاح مسلطا عليه سيف الأبوة!

وقد بنى كنفاني روايته «عائد إلى حيفا» كما يرى د. فيصل دراج على **ثنائية المقاتل واللا مقاتل**، وثنائية **الإنسان السوي والإنسان** الشاذ، ويرى **سواء الإنسان في** دفاعه عن كيانيته وكرامته **الإنسانيتين**، هذه الثنائية هي التي تؤكد «دوف» شرفًا حقيقيًا، وترى في الفلسطيني «خالد» شرفًا محتملا.

لم يوضح الناقد أن الصهيوني (دوف) شخصية ثنائية الانتماء (خلدون العربي/ دوف الإسرائيلي) كان عارًا على العربي، وشرفًا للإسرائيلي، في حين مازال خالد في طور التكوين، لذلك بدا شرفًا مستقبليًا!

من هنا تأخذ الرواية، كما يرى د. دراج، بإرجاع مزدوج، فهي ترجع القضايا **الإنسانية إلى إرادة الإنسان، وهي ترجع الإنسان** بدوره إلى قضية، يساوي هذا الإرجاع المزدوج، منطقيًا، بين الفلسطيني

والصهيوني، فلكل منهما قضية، وعلى كل منهما أن يدافع عن قضيته، وهذا ما يجعل في التحليل الأخير من الصهيوني فلسطينياً بالفعل، ومن الفلسطيني صهيونياً بالقوة بلغة أرسطو..» (١١)

لم يستطع الناقد، هنا، أن يفصل الفكر عن الانتماء، أي جعل الفكرة التي تقول «إن الإنسان في نهاية الأمر قضية» بعيدة عن التجريد والعمومية، تصلح لأي إنسان بغض النظر عن هويته!

صحيح أن الفلسطيني تعلم من الصهيوني لدى كنفاني، وشاركه الإيمان ببعض القضايا (ضرورة حمل السلاح، الإنسان قضية، الوطن ليس ذاكرة..) لكن ذلك لا يعني أن الفلسطيني يسعى للمساواة مع الصهيوني، على مستوى الرؤية الفكرية والشعورية، وإلا ما معنى قول سعيد «إن دوف هو عارنا، وخالد هو شرفنا الباقي.»

لعل من إيجابيات هذه الرواية تقديم صورة الآخر اليهودي ببعدها الإنساني بعيداً عن كونها شخصية عدوة، تجسيد الشر بالمطلق! إذ استطعنا أن نلمس طيبتها، حتى إننا وجدنا (ميريام) تعتذر من أصحاب البيت الفلسطيني «أنا آسفة، ولكن ذلك كان ما حدث. لم أفكر بالأمر كما هو الآن.»

وقد وجدنا الكاتب يبالغ في طيبتها وحساسيتها فقد قررت العودة إلى إيطاليا، وترك فلسطين بعد أن رأت جثة طفل فلسطيني! لكنها حين وجدت طفلاً رضيعاً وهي المرأة العاقر، قررت البقاء.

وحين يأتي الزوجان الفلسطينيان لرؤية البيت والاستفسار عن الطفل الذي تركاه قبل عشرين عاماً، تستقبلهما بلباقة، وتعتذر منهما لأنها استولت على بيتهما!

وهذه الطيبة ليست مقصورة على المرأة، بل وجدنا الكاتب، على لسان الراوي، يجسّدها في الرجل أيضاً (زوجها: أفرات كوشن) «فهو لم يفكر كثيراً في أن شيئاً مرعباً يحدث آنذاك (آذار ١٩٤٨) فهو لم يعرف بوحشية الصهاينة إلا في وقت متأخر، بعد أن استقر في فلسطين، لكن الكاتب لم يستطع أن يستمر في تصوير الآخر بصورة إيجابية، فقد أبرز كيف أن (أفرات كوشن) لم يتأثر حين رأى آثار الدمار، ورفض بينه وبين نفسه «أن يجعل ذلك مبعثاً للقلق.» وتابع حياته في الأرض المغتصبة! في مجال يتجسد فيه العداء للآخر (الجيش الصهيوني) ونجده يربي (دوف) تربية صهيونية عسكرية، تدافع عن وجودها فكرياً وعسكرياً!

رغم ذلك لم نجد الشخصية الصهيونية شخصية مشوّهة، فهي أقرب إلى الإنسان العادي الذي يحتوي الخير والشر معاً! وهذا نقيض لما وجدناه لدى الكتاب الصهاينة الذين صوروا الإنسان العربي **«وضيعاً وغير إنساني وخاطئاً، إن اليهودي هو دائماً بطل وإنسان، وعلى حق فكرياً وبدنياً وحضارياً.» (١٢)**

الحواشي

١- غسان كنفاني (الآثار الكاملة: القصص القصيرة) المجلد الثاني، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٣، ص٨٧١.

٢- المصدر السابق، ص٨٧٢.

٣- غسان كنفاني (الآثار الكاملة: الروايات) المجلد الأول، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٢، ص٢٠٨.

٤- المصدر السابق، ص٢١٨.

٥- المصدر السابق، ص٢٠٩.

٦- (الآثار الكاملة: القصص القصيرة) ص٧٥١.

٧- (الآثار الكاملة: الروايات) ص٤١٠.

٨- المصدر السابق، ص٤٠٠.

٩- المصدر السابق نفسه، ص٤٠١

١٠- المصدر السابق، ص٤١٠.

١١- د. فيصل دراج «ذاكرة المغلوبين: الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني» المركز الثقافي العربي، بيروت، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢، ص٦٢.

١٢- غسان كنفاني «الآثار الكاملة: الدراسات الأدبية» المجلد الرابع، مؤسسة غسان كنفاني الثقافية، دار الطليعة، بيروت، ط١، ١٩٧٧، ص١٠٩.

مدخل إلى نظرية التعقيد والشواش

أ. معين رومية *

ازدهرت في الأعوام الأخيرة طرق جديدة للتفكير في حقل الرياضيات العائد لنظرية التعقيد / الشواش، هذا الحقل الذي استمر في النمو والتطور بسرعة في اتجاهات عديدة بكل ما تحمله من إمكانيات للتطبيق على مدى واسع ومتنوع من الظواهر. تمثّل التبصرات والأدوات والمفاهيم التي تزودنا بها هذه النظرية قطعاً جذرياً مع الأساليب الرياضية السائدة التي أسست للعلم الحديث منذ غاليليو وديكارت ونيوتن وتمكننا من رؤية العالم بشكل مختلف جذرياً عن السابق ومن فهم أفضل لقواه المحركة وتنظيمه الذاتي وتطوره.

(*) معين رومية: باحث من سورية يهتم بالدراسات العلمية وفلسفة العلوم. له عدة أعمال منشورة في مجلة المعرفة.

❖ المبادئ الأساسية:

ربما ظهرت الكلمة شواش «Chaos» لأول مرة في العام ٧٠٠ ق.م لدى الشاعر هزيود في قوله «في البدء كان الشواش، لا شيء سوى الخلاء والهيولى والفراغ اللا محدود». ثم وردت فيما بعد في «الفردوس المفقود» لـ ميلتون: «في البدء برزت السماوات والأرض من الشواش» وأشار إلى الشواش كل من شكسبير في «عطيل» وهنري ميلر في «ربيع أسود». يستنتج المرء من هذه الأمثلة أن الشواش كان خاصية للفوضى غير المرغوبة وقد دمجت اللغة العامية عبر التاريخ فكرة الفوضى في فكرة الشواش. وعرفت القواميس الشواش بأنه الاضطراب أو الاهتياج أو اللج الأولي، وإشارات الكتاب المقدس إلى Bohu وTohu تستند إلى المفهوم ذاته عن العشواء غير المرغوبة. من الناحية العلمية، يتضمن الشواش العشواء randomness غير المرغوبة، لكن مفهوم التنظيم الذاتي Self - organization عند حافة الشواش يشير إلى انبثاق النظام من الشواش. عبّر المؤرخ والكاتب الأمريكي هنري آدامز عن المعنى العلمي للشواش بشكل بليغ في قوله: «الشواش غالبًا ما يولد الحياة بينما النظام order يولد العادة».

وضع العالمان لي li و يورك York في العام ١٩٧٥ مصطلح الشواش في سياق علمي للإشارة إلى مشكلة رياضية فحواها وصف التطور الزمني الذي يعتمد بشكل حساس على الشروط الابتدائية. وقد استخدم البيولوجي والرياضي روبرت ماني Robert MaNy المصطلح ونشره في الأوساط العلمية حتى أصبح شهيرًا. هكذا دخلت نظرية الشواش إلى عالم البحوث من الباب الخلفي كما يقال. لم تكن النظرية قانونًا كما هو الحال في الترموديناميك أو الفيزياء الكوانتية لكنها مكنت الباحثين من تحليل الحوادث والميادين ذات التشابك الإشكالي. وفي العام ١٩٧٧، حاز إيليا بريغوجين Ilya Prigogin جائزة نوبل في الكيمياء وهو رائد العمل على أنتروبية المنظومات المفتوحة، أي تبادل المادة والطاقة والمعلومات بين المنظومة وبيئتها. استخدم بريغوجين مفهوم البنى المبددة dissipative structures كي يبين أن البنيات الأكثر تعقيدًا يمكن أن تنشأ عن البنيات الأبسط وأن النظام ينبثق عن الشواش.

ما هي إذًا نظرية التعقيد / الشواش complexity / chaos؟ في تقديمه للمجلد الأول من المحاضرات التي ألقيت في المؤتمر الأول حول المنظومات المعقدة في جامعة نيو مكسيكو ١٩٨٨، يشبه دانييل ستين Daniel Stein التعقيد / الشواش بـ «مفهوم غيبي» لأن الكثير من الناس يتحدثون عنه لكن لا أحد يعلم ما هو

حقيقة. ثمة تفسيرات متعددة لنظرية الشواش تتطلب استخدام كلمات مثل: تركيب، تقاطع مناهج، حافة الشواش، ديناميك، شبكات عصبية..... لكن هذه التفسيرات جميعها تحمل معها مفهوم المنظومات المعقدة. مضامين نظرية الشواش عويصة، لأنه ليس ثمة من يستطيع معرفة الشروط المطلقة لأية منظومة من أجل التنبؤ التام بسلوكها.

بدايات التفكير حول التعقيد والشواش:

لاحظ البشر طوال آلاف السنين أن أسبابًا صغيرة يمكنها أن تحدث نتائج كبيرة غير متوقعة. وما أثار العلماء أنه في بعض المنظومات، يمكن أن تقود تغيرات طفيفة في الشروط الابتدائية إلى توقعات متباينة جدًا بحيث أن التوقع (أو التنبؤ) بحد ذاته يصبح بلا فائدة. برهن الرياضي الفرنسي جـــاك هـادامــــر Jacqes Hadamard في أواخر القرن ١٩ على النظرية التالية: إن حركة نقطة مادية بلا احتكاك على سطح تعتــمــد بشكل حــســاس على الشــروط الابتدائية. والمثال الشهير عن هذه النظرية هو كرات البليارد وكيف أننا لا نستطيع التنبؤ الدقيق باتجاهاتها عندما تصطدم ثلاث منها على الطاولة. فهم العالم بيير دوهم Pierr Duhem مغزى نظرية هادامر ونشر في العام ١٩٠٦ ورقة بحثية وضح فيها بسهولة أن التنبؤ في هذه الحالات «غير مفيد أبدًا» بسبب الحاجة إلى معرفة ضرورية بالشروط الابتدائية غير المؤكدة. لم ينتـــبـــه، أو ربما لم يلاحظ، هنري بوانكاريه Henri Poincareهذه الأبحـــاث وهو من يدعى أب نظرية الشــواش. نشــر بوانكاريه في العام ١٩٠٨في كتابه «العلم والمنهـج science and method» الـذي احتوى فقرة تعتبر أن فكرة المصادفة هي العامل الحاسم في المنظومات الديناميكية لأننا نجهل بعض العوامل الابتدائية. أهملت أعمال الثلاثة الذين ذكرناهم بسبب مجيء النظرية الكمومية التي عطلت أفكار عالم الفيزياء كله وكذلك بسبب عدم توفر أدوات بحثية مثل نظريات الشغل ergodic في رياضيات القياس، أيضًا بسبب عدم وجود حواسيب تحاكي تجريبيًا ما هو مبرهن نظريًا.

في العام ١٨٤٦ اكتشف الكوكب نبتون، وأحدث اكتشافه فرحًا كبيرًا في أوساط مؤيدي الميكانيك النيوتوني الكلاسيكي، لأن هذا الكشف كان متوقعًا من ملاحظة الانحرافات الطفيفة في مدار الكوكب أورانوس، وكان قد حدث أمر غير متوقع في العام ١٨٨٩ عندما أنشأ ملك النروج جائزة لمن يجد حلاً للمشكلة التالية: هل المنظومة الشمسية مستقرة أم لا؟ قدم بوانكاريه حلاً للمشكلة وفاز بالجائزة، لكن زميلاً له اكتشف لاحقًا أن ثمة خطأ في

الحسابات فأعطى بوانكاريه مهلة ستة أشهر كي يعالج المسألة إذا أراد الاحتفاظ بالجائزة. وجد بوانكاريه، مذهولاً، أنه لا يوجد حل للمشكلة، وتوصل إلى نتائج قلبت النظرة المقبولة عن الكون الحتمي الخالص التي سُلِّمَ بها منذ أن وضع إسحاق نيوتن الرياضيات الخطية linear mathematics. بيّن بوانكاريه في بحثه عام ١٨٩٠ أن قوانين نيوتن لا تقدم أي حل «لمشكلة الأجسام الثلاثة» أي كيف يمكن التنبؤ بحركات الشمس والأرض والقمر، ووجد أن تباينات طفيفة في الشروط الابتدائية تحدث تباينات هائلة في الظواهر النهائية وتتحدى الحالة التنبؤات. صرفت اكتشافات بوانكاريه النظر عن النموذج الخطي النيوتوني الذي كان يهمل التغيرات الطفيفة التي تبرز على نحو غير متوقع.

أحدث الجواب السلبي الذي وصل إليه بوانكاريه عواقب إيجابية على إبداع نظرية الشواش، إذ بعد ثمانين عامًا وفي أوائل عام ١٩٦٢ استخدم إدوارد لورينز Edward Lorenz رياضيات بوانكاريه ووصف نموذجًا رياضيًا مبسطًا لمنظومة الطقس مؤلفًا من ثلاث معادلات تفاضلية غير خطية مترابطة استطاع من خلاله إظهار نسب التغير في درجة الحرارة وسرعة الرياح. بينت بعض النتائج المدهشة سلوكًا معقدًا ناجمًا عن المعادلات البسيطة المفترضة، وكذلك أظهرت أن سلوك منظومة المعادلات كان يعتمد بشكل حساس على الشروط الابتدائية للنموذج الرياضي. أوضح لورينز بلا لبس مضامين اكتشافه قائلاً إنه إذا كان ثمة أخطاء في ملاحظة الحالة الابتدائية المنظومة، وهذا الأمر يتعذر اجتنابه في المنظومات الواقعية، فإن التنبؤ الدقيق بالحالة المستقبلية لمنظومة يكون مستحيلاً. دعا لورينز هذه المنظومات التي تظهر اعتمادًا حساسًا على الشروط الابتدائية بأنها تحمل «أثر الفراشة butter-fly effect».

وهذا المصطلح الفريد يعود إلى العبارة الشائعة: عندما تحرك فراشة جناحيها في هونغ كونغ يمكنها أن تحدث سلسلة من الزوابع في تكساس.

تكون المنظومة الشواشية chaotic system حساسة للشروط الابتدائية ويتسبب الشواش في نقل المنظومة إلى حالة غير مستقرة. يعرّف كامبل Camble الشواش بأنه يلازم تعقيد الطبيعة وتعقيد المعرفة. يستلزم الجانب الطبيعي من الشواش تضافر العلوم الطبيعية كافة، بينما تعالج العلوم الإنسانية الجانب المعرفي من الشواش. يجد الشواش تعبيرًا عنه إما في شكل صيغة أو دالة أو كليهما. وهو يدرس الاعتماد المتبادل بين الأشياء في حالة البعد عن التوازن. عندما تكون منظومة مبددة غير خطية مفتوحة مرتبطة ببعض

العلاقات مع منظومة مفتوحة أخرى فإن كلا المنظومتين تتقاطعان وتتشابكان وتتقاربان. عندما ينشأ اضطراب من مصدر داخلي أو خارجي في المنظومات الشواشية فإنها تظهر سلوكًا شواشيًا يتضح على المستوى الميكروي أو الماكروي (يتضاءل أو يتعاظم).

جرت بحوث إضافية على المنظومات الديناميكية غير الخطية التي تظهر اعتمادًا حساسًا على الشروط الابتدائية، من قبل إيليا بريغوجين الذي بدأ عمله على المنظومات البعيدة عن التوازن في حقل الترموديناميك. قادته بحوثه حول البنى المبددة غير الخطية إلى طرح مفهومي التوازن equilbrium والبعد عن التوازن far - from - equelibrium كي يصف حالة المنظومة. وقد كشفت بحوثه عن شروط البعد عن التوازن التي تقود إلى سلوك منظوماتي مباين للسلوك الذي يتوقعه التفسير المألوف للقانون الثاني في الترموديناميك. تنبثق ظواهر التشعب والتنظيم الذاتي عن المنظومات المتوازنة عندما تخضع للاضطراب أو التقلقل. وقد كانت دراسات الاضطراب الخطوة التي قادت إلى نظرية التعقيد / الشواش التي تحدث عنها بريغوجين كما لو أنه أرسطو: يمكن للمنظومة البعيدة عن التوازن أن تمضي «من الوجود إلى الصيرورة» وتبين هذه الصيرورة كيف يولد النظام من الشواش في المنظومات الحرارية والكيميائية وكذلك في المنظومات الحية.

من دراسته لبحوث المحاكاة عند لورينز، اقترح الرياضي رينيه توم Rene Thom ما يعرف حاليًا باسم «نظرية الكوارث catas-troph theory» أو الوصف الرياضي لكيفية تشعّب أو تفرّع المنظومة الشواشية. ومن دراسة منظومات التكيف المعقدة التي استخدمها بوانكاريه ولورينز وبريغوجين، طور نورمان باكارد وكريس لانغتون نظريات «حافة الشواش edge of chaos» إذ تسبب الطاقة المتدفقة وتقلباتها عبر المنظومة تغيرات لانهائية إما عن تضخم الآثار الناتجة أو تضاؤلها. يحدث هذا عند التحول الطوري phase transtion لتيار الشواش (يصف التحول الطوري المنظومة عندما تتغير من حالة إلى أخرى) وقد يؤدي إلى إعادة تنظيم كاملة للمنظومة كلها بأسلوب غير متوقع أبدًا.

بعد هذه الدراسات، عصفت نظرية الشواش (أو العلم اللا خطي non - linear science) بعالم العلم كالريح وتدفقت البحوث من مختلف الميادين العلمية والإنسانية وظهرت مفاهيم نظرية التعقيد والشواش في البيولوجية والإحصاء وعلم النفس وعلم الاجتماع والاقتصاد والحواسيب وفي كل حقل تقريبًا.

خصائص التعقيد:

يُنتج التعقيد (أو حافة الشواش) تنظيمًا ذاتيًا يحدث تلقائيًا في المنظومة البعيدة عن التوازن. ليس ثمة تعريف متفق عليه للتعقيد لكنه يظهر في حياتنا اليومية وتستخدم الدراسات من ميادين متعددة طرقًا بينمناهجية interdisciplinarity كي توضح كيف أن التعقيد في مجال معين قد يرتبط مع مجال آخر، وقد عبّر إيروين لازلو من أكاديمية فيينا العالمية عن الوصف الأفضل للتعقيد كما يلي:

في الواقع، بين جميع المصطلحات التي تحتويها نظرية الشواش ونظرية المنظومات العامة، يبدو أن مصطلح التشعب bifurcation هو الأهم، أولاً لأنه يصف بشكل مناسب النوع الأهم من الخبرة التي يتشاركها أغلب الناس في عالم اليوم، وثانيًا لأنه يصف بدقة الحدث الفاصل الذي يشكل مستقبل مجتمعاتنا المعاصرة.

يعني التشعب لغويًا الانفصال إلى فرعين أو أكثر. أما في نظرية الشواش فهو يعني: عندما تصبح منظومة ديناميكية شواشية معقدة غير مستقرة في بيئتها بسبب الاضطراب أو التشوش أو «الضغط» فإن حالة جاذبة (جاذب attractor) تقود مسارات هذا الضغط، وفي نقطة التحول الطوري، تتشعب المنظومة وتُدفع إما إلى حالة من نظام جديد new order عبر التنظيم الذاتي أو إلى الانحلال (الفوضى).

بدأ فون نيومن Von Neuman الدراسات على التحول الطوري للمنظومة عند حافة الشواش في بحوثه على الآلات الذاتية التحكم وقد كشف بحثه أن حافة الشواش هي الموضع الذي تتعاظم فيه العمليات المترافقة ضمن المنظومة ويكون أداء المنظومة خلاله أعظميًا وتجري فيها أشد الحسابات تعقيدًا. تدخل المنظومة في مرحلة التشعب إلى منطقة افتراضية (مجال افتراضي)، حيث تصنع الخيارات أو الممكنات، قد يمكن للمنظومة هنا أن تختار الجاذب الأكثر تأثيرًا أو يمكن أن تقفز من جانب إلى آخر، في هذه المرحلة تصنع الخيارات المستقبلية للمنظومة وتسمى المرحلة بالشواش العميق deep chaos فإما أن تعيد المنظومة تنظيم ذاتها في مستوى أعلى من التعقيد أو تنحل وتتلاشى. تدعى مرحلة التحول الطوري بـ Transuent، وهي الموضع حيث تحصل الأحداث التحولية. وهو مصطلح يعني نظريًا أن هناك مؤثرًا على المنظومة بكاملها ينتج عن داخلها وله آثار تحولية، أمّا عمليًا فإنه يعني إشارة لتذبذب أو اندفاع مفاجئ.

قد تستقر المنظومة بعد التشعب في نسق ديناميكي جديد يحوي مجموعة من الجوانب الأكثر تعقدًا وشواشًا، لذلك فهي تصبح أكثر تعقيدًا من حالتها الابتدائية.

هناك ثلاثة ضروب من التشعب: ١- هادئ يكون التحول فيه سلساً -٢- كارثي، يكون التحول حاداً والنتيجة مزيد من الاضطراب -٣- انفجاري، يكون التحول مفاجئاً وتتحكم فيه عوامل متقطعة تقلب المنظومة وتدفعها من نظام إلى آخر. وقد أدخل بيير باك مفهوم ثبات الطبيعة عند حافة الشواش أو ما يسمى الحرجية المنتظمة ذاتياً self - organized criticality.

نواجه التعقيد / الشواش في حياتنا اليومية في حركة السير، تبدلات الطقس، الحراك السكاني، السلوك العضوي، تغيرات الرأي العام، نمو وانحلال المدن، عدم الاتساق في رسومات تخطيط القلب، انتشار الأوبئة، ونجده أيضاً في تكنولوجيا الاتصالات والحواسيب التي نعتمد عليها، وفي عمليات الاحتراق الداخلي ضمن مركبات السير، التخليق الخلوي، بحوث المناعة، صناعة القرار......

وقد وصف كامبل الشواش وسريانه في الموجودات كما يلي:

١- يحدث التعقيد في المنظومات الطبيعية والمصنوعة من قبل البشر، كذلك في البنيات الاجتماعية والشؤون البشرية.

٢- قد تكون المنظومات الديناميكية المعقدة كبيرة أو صغيرة، وتتعايش سوية في بعض المنظومات المعقدة عناصر صغرية وكبرية.

٣- لا تكون المنظومة محددة حتمياً بشكل كامل ولا عشوائية بشكل كامل بل تبدي كلا الخاصيتين.

٤- الأسباب والنتائج في الحوادث التي تختبرها المنظومة تكون غير متناسبة.

٥- ترتبط الأجزاء المختلفة ضمن المنظومات المعقدة بشكل متأثر وتفاعلي.

٦- هناك تلقيم راجع feedback سالب وموجب. ويعتمد مستوى التعقيد على خصائص المنظومة وبيئتها وطبيعة التفاعل بين عناصرها.

النظام واللا استقرار في الشواش:

النظام order: اكتشاف النظام في شيء ما أمر ضروري بالنسبة للعلماء والمؤرخين والفنانين والموسيقيين واللاهوتيين، بل حتى بالنسبة للنادلات في المطاعم أو الطباخين أو الجدات اللواتي يرتبن دمى عيد الميلاد. يمكن التعبير عن النظام رياضياً أو باستعمال المخططات البيانية. المثال البسيط عن النظام هو الخط المستقيم. نستطيع فهم النظام في الخط المستقيم بسهولة لأننا نستطيع إنشاء هذا الخط عبر سلسلة من القطع المستقيمة المتساوية. يمكن أن نجد النظام في العشواء أيضاً، يقول بوهم: أي حدث يقع، يمتلك شيئاً من النظام، لذلك فإن فكرة الافتقار الكلي للنظام ليس لها معنى واقعي. بالفعل، إن ما

ندعوها أحداثًا عشوائية تقع في تعاقب موصوف ومعرّف ويمكن تمييزها عن أحداث عشوائية أخرى. وبهذا المعنى الأولي من الواضح أن لهذه الأحداث نظامًا. يكون النظام حاذقًا دقيقًا في اللغة والفن والموسيقى والألعاب والعمارة والبنى الاجتماعية والشعائر والأعراف لأنه يعتمد على المحيط، وعلى المشارك في هذه الميادين أن يفهم كل تعقيداته كي يصل إلى إدراك مقنع وذي معنى لها. يتسم النظام في الطبيعة والأشياء غير الحية والمنظومات الفيزيائية بأنه غير محدود، لكنه نظام دقيق وحاذق أيضًا. يمكن للماء أن يتدفق بشكل سلس عندما لا يعترضه عائق، لكن الدوامات تنشأ عندما تكون هناك عوائق تتسبب في حدوث نظام شواش يثور ويجيش بشكل متطرف، ويمكن أن تنشأ العشواء أيضًا ويجب أن نفهمها هنا كنتيجة لفعل العناصر الأصغر جدًا في السياق الإجمالي الذي تقرره حدود الثوران الأولي للماء. هنا تنطبق نظرية الشواش على فكرة النظام، إن جريان الماء يعتبر منظومة ديناميكية تعطي مثالاً عن نظرية المنظومات اللا خطية.

إن «المسرح» الذي تجري فيه أحداث وتحولات المنظومة يسمى فضاء الحالة أو فضاء الطور phase space . ينظر رياضيًا إلى فضاء الطور بأنه الفضاء حيث كل بعد يقابل متغيرًا في المنظومة. لذلك، كل نقطة من فضاء الحالة يمكن أن تقدم وصفًا كاملاً للمنظومة عن أحد حالاتها الممكنة (المحتملة)، وإن تطور المنظومة يظهر نفسه كارتسام في أحد طرق أو مسارات فضاء الحالة. لذلك عندما نتقصى ونبحث فضاء الحالة (منطقة السلوك المنظوماتي) في منظومة ديناميكية سيبدو لنا أن تشوشات أو اضطرابات بالغة الصغر وخارجية يمكنها أن تسبب تغيرًا للمنظومة بأكملها. يمكن تعريف هذه الخاصية اللا خطية كمايلي: عندما يكون دخل المنظومة input غير متناسب مع خرجها output ندعوها منظومة لا خطية. تبين لنا نظرية الشواش أن المنظومات اللا خطية تظهر سلوكًا شاذًا وغير منطقي. يمكننا أن تخضع لتقييمات راجعة سالبة أو موجبة، وقد تنتج الاستقرار أو اللا استقرار. ويمكنها أن تنتج التلاحم والتماسك من خلال التقارب والتقارن أو تنتج الاختلالات والتشعبات بل وحتى التغيرات الانفجارية. إذن، كي يحدث الشواش ينبغي أن تكون لدينا منظومة حساسة للشروط الابتدائية وعلى ترابط (تداخل) وثيق مع بيئتها المحيطة. عندما نفهم المنظومات اللا خطية ستبدو لنا متطابقة مع ما يجري في عالم الحياة اليومية الذي نعيشه.

اللا استقرار instability: يتضمن التعقيد / الشواش الديناميكية dynamics أو ما دعاه لورينز «حالات البعد عن التوازن»

تذكرنا كلمة توازن بمشهد البحيرة الهادئة، إن حالة السكون أو الاسترخاء هي إحدى تعريفات التوازن، لكنه يتطلب أيضًا فكرة الاتزان (BALANCE). يعدّ التوازن نادرًا في المنظومات الديناميكية المعقدة أو نوعًا من «مرحلة رجحان مؤقتة». وكي تبدأ السيرورات الديناميكية يلزم أن تنحرف المنظومة عن حالة التوازن. يرى بريغوجين وستينغر أنه كلما كانت المنظومة أكثر تعقيدًا، كانت التشوشات والاضطرابات والتقلبات التي تهدد استقرار المنظومة أكثر عددًا. عندما تصبح المنظومة عرضة للتأثر بهذه الاضطرابات فإن متطلباتها من الطاقة تتعاظم كي تحافظ على تماسكها. يحدث الاستقرار في جميع أنواع البنيات، الجوامد والغازات، المنظومات الحية وغير الحية، العضوية وغير العضوية كذلك في المؤسسات والأعراف. تسبب التقلبات الخارجية أو الداخلية تحولاً في المنظومة من الاستقرار إلى اللا استقرار، لكن هذا لا يحدث بالضرورة بسبب أيّ تقلب عاديّ يحدث، إنه يعتمد على: نمط وقدْر التقلب أو الاضطراب بالإضافة إلى درجة حساسية المنظومة للتأثر. هذا الأمر يجب أن يؤخذ بالحسبان قبل أن تعتبر المنظومة غير مستقرة. وفي بعض الأحيان، قد تحتاج المنظومة إلى أكثر من نوع من الاضطراب كي تتحول إلى حالة غير مستقرة. يتحدث بريغوجين وستينغر عن «التنافس بين الاستقرار من خلال الاستمرارية، واللا استقرار من خلال التقلب، وحصيلة هذا التنافس تحدد **عتبة الاستقرار** threshlod of stability».

بكلمات أخرى، يجب أن تتضح الشروط الملائمة كي يحدث «الجيشان». يمكن أن نعطي أمثلة عن اللا استقرارية من ميادين عدة كالأمراض والقلاقل السياسية والاختلالات الاجتماعية والأسرية. يستخدم كاميل القول المأثور عن أنه ربما تكون القشة التي قصمت ظهر البعير هي ما يجعل المنظومة تذروها الرياح.

تتحرى نظرية الشواش عن المنظومة بالتساؤل حول الخاصية العامة لسلوكها في المدى الطويل وتبحث الحلول الشواشية عن التفسير الكيفي quality لسلوك منظومة في المستقبل. إن الحلول الكمية quality القريبة ربما تخبرنا متى تتراصف ثلاثة كواكب في مدارات اهليلجية. بينما تخبرنا الحلول الكيفية كيف تتشكل هذه المدارات في أهليلج وليس في دوائر أو قطوع مكافئة. وتبحث خصائص جميع الحلول لهذه المنظومة وكيف ستغير المنظومة سلوكها. إن منظومة من قبيل كرة صغيرة (كلة) في أسفل وعاء، قد تستثار وعندها تبدي بعض السلوكيات المضطربة ولكنها في النهاية تستقر في أسفل الوعاء. الساعة أيضًا، عندما تتعرض لارتجاج أو صدمة خفيفة مفاجئة قد تتوقف للحظة

لكنها تستأنف دورانها بعد ذلك. ونقول بأن هذه المنظومات مستقرة بينما المنظومات اللا مستقرة (وغير الدورية) لا تستطيع أن تقاوم هذه الاضطرابات الطفيفة وسوف تبدي بسببها سلوكًا معقدًا يجعل التنبؤ مستحيلاً وتكون القياسات عنها في هذه الحالة عشوائية. التاريخ الإنساني هو المثال الممتاز عن المنظومات غير الدورية. تبزغ الحضارات وتتلاشى لكن الأشياء لاتحدث أبدًا بالطريقة ذاتها. أحداث صغيرة أو أشخاص مفردون قد يغيرون العالم من حولهم. تحتوي الأمثلة المعروفة عن السلوك غير الدوري واللا مستقر تجمعًا ضخمًا من الوحدات المتفاعلة. قد تتركب المنظومة من عوامل بشرية متنافسة أو جزيئات غاز متصادمة. قد تحدث التغيرات بشكل متعاقب في المنظومات المعقدة البعيدة عن التوازن، وتؤدي إلى تفكيك الرباط بين القوى الداخلية التي تعطي المنظومة تماسكها والقوى الخارجية التي تمثل بيئة المنظومة. يتيح الرباط، في أغلب الأحيان، للمنظومة أن تعمل بسلاسة، ولكن عندما تتصاعد حدة الاضطرابات وتخضع المنظومة إلى «ضغوط» تتجاوز عتبات محددة، تبرز دلائل حادة على القلقلة وقد يحدث شواش لا خطي مفاجئ. تبدأ الأشكال الحادة للشواش بسلوك زائغ. ويسبب الانتقال أو الانزياح من جانب إلى آخر تضاربًا في سلوك المنظومة. مثلاً، ما الذي يستطيع فعله أحد البشر عندما يجد نفسه على حين غرّة أمام مشكلات كثيرة ينبغي في ظلّها اتخاذ قرار ما؟ يرى أحد العلماء أن المنظومة البشرية ينبغي أن تعير يقظة وانتباهًا وعناية أكبر كي تحفظ روابطها الداخلية وشبكات التواصل فيها. تتسم سيرورة اتخاذ القرار عند الإنسان ببصمات الشواش الواضحة، إذ يكون هناك الكثير من الدوافع والمسلمات والمضامين التي ينبغي اعتبارها عند اتخاذ قرار. هنا، يساعد الجاذب الطارئ strange attractor في هذه السيرورة ويدفع في اتجاه أحد الممكنات. قد يكون الجاذب الطارئ عقدة نفسية أو قد يتخذ شكل المنظومة الاعتقادية للإنسان.

الجاذب الطارئ (الغريب): ليس سهلاً أن نعرّف الجاذب. أعطى أحد العلماء التعريف التالي: الجواذب هي مجموعة محدودة تحتوي المسارات. الجاذب الطارئ هو ببساطة نموذج للمسار الذي يرسمه سلوك المنظومة عندما نعبر عنه تخطيطيًا. يميل سلوك المنظومات اللا خطية للتقلص أو الانقباض ضمن مناطق محددة من فضاء الحالة، نسمي هذا الانقباض بـ «الجاذب» وهو يعبر من الناحية الفعلية عن «مجموعة من النقاط التي تتقارب جميع المسارات متجهة نحوها». يعد مفهوم الجاذب الطارئ مركزيًا في نظرية الشواش. عندما نفتح

صنبور الماء كي نحصل على تيار مائي أسرع وأسرع، يمكننا أن نلاحظ تطور فعل التيار المائي من الانطلاق السلس وصولاً إلى الجيشان. تمثل هذه الأنواع المختلفة من الجريان نماذج متنوعة ينجذب إليها جريان الماء. وثمة ثلاثة نماذج من الجواذب التي نشاهدها في المنظومات:

١- الجاذب النقطي: ويتعلق بالمنظومات التي تصل إلى توازن مستقر. تمثله حالة نواس يتأرجح ثم لا يلبث أن يتوقف في نقطة.

٢- الجاذب الدوري: يتعلق بالمنظومات التي تكرر ذاتها في تأرجحات دورية. مثلاً، إذا أضفنا إلى النواس السابق نابضاً كي يتغلب على قوى الاحتكاك، تصبح للنواس دورة محدودة في فضاء الطور الخاص به. ونقول إن الجاذب الدوري يرسم سيرورات تكرر ذاتها.

٣- الجاذب الطارئ (الغريب): ويتعلق بالمنظومات الشواشية. ويدل اسمه على أنه يطرأ على المنظومة (بعد أن تدخل في مرحلة التحول التطوري) بشكل غير متوقع وغير قابل للتنبؤ مما يوحي بأنه غريب عن فضاء الطور الخاص بالمنظومة.

التحول الطوري:

يحدث التحول الطوري للمنظومة عند حافة الشواش، إنه الموضع حيث تتشكل خيارات المنظومة. ثمة اضطراب في الكون على الدوام وقد اعترف العلماء بذلك منذ أبحاث بوانكاريه ولورينز حول تغيرات المناخ وعلاقة ذلك بالتنبؤ الجوي. قبل ذلك كان التعامل مع الاضطراب في التجارب العلمية يتم إما بإهماله أو بتبسيطه أو التصريح بفشل التجربة. لكن العلماء أثبتوا فيما بعد أن الاضطراب يمكن مواجهته وصياغته رياضياً بواسطة المعادلات اللا خطية وكذلك فهو يتصل مباشرة بمسألة الحساسية للشروط الابتدائية ويمكن وصفه بواسطة الجاذب الطارئ.

قبل التحول الطوري تدخل المنظومة في مرحلة الشواش العميق deep chaos ويحدث هذا التعقيد في المنظومات الطبيعية وتلك المصنوعة من قبل البشر وكذلك في البنيات الاجتماعية. هنا، في الشواش العميق، تدخل المنظومة إلى أعقد حالاتها ويمكن وصف هذه المرحلة بأنها مصنع الممكنات.

عندما تكون الشروط المفروضة على المنظومة قوية إلى درجة كافية (أي أن هناك الكثير من التقلقلات المتعارضة الاتجاهات بحدة) يمكن للمنظومة أن تتكيف مع بيئتها بطرق متعددة ومتباينة. قد تكون هناك حلول متعددة ممكنة ولا يمكن للمصادفة وحدها أن تقرر ما هو الحل الذي سيتحقق (أي ما هو المسار

الفعلي الذي سوف تسلكه المنظومة). يلعب الجاذب الطارئ دوراً كبيراً في تحقق أحد هذه الحلول. إذن، ليس ثمة اتجاه أو مسار مسبق وحتمي كي تسير عليه المنظومة بل إن الأمر أشبه بقرار من الشكل إما / أو. هنا يحدث التحول الطوري للمنظومة ويصاغ مستقبلها اللاحق.

يمكن أن نقارن التحول الطوري مع معنى الآن NOW الذي أقلق الفلاسفة والعلماء واللاهوتيين عبر التاريخ. اعتبر كارل بوبر أن الآن يشبه لقطة مفردة من شريط مصوّر متسلسل - الماضي والمستقبل معروف في السياق الإجمالي للسلسلة. وقد أقلق مفهوم الآن أينشتاين إذ أن الفيزياء كانت تعتبر أن سؤال الآن يخص الإنسان وحده ولا معنى له في الفيزياء. أما في نظرية التعقيد / الشواش فالآن هو حالة التحول الطوري حيث تكون الخيارات جميعها مفتوحة. يتحدث الفيلسوف بول تيليش Paul Tillich ببلاغة عن الإنسان الذي يعيش في الآن الأبدي The Eternal Now. ربما هذا بالضبط ما نفعله كبشر، إذ أن كل لحظة من حياتنا هي حالة تحول طوري ينقلنا إلى اللحظة التالية، إن خياراتنا تحدد لحظة بلحظة الحياة التي نعيشها.

يمكننا أن نعطي أمثلة عن التعقيد في البيئة والمجتمع.

❖ التعقيد البيئي

يعيش البشر وسط أزمة، فقد استثمر الناس البيئة كما لو أنها مورد لاينضب. لكن الضغوط التي يؤثر بها النشاط البشري على البيئة أصبحت بادية للعيان في كل مكان. إن حماية الغطاء النباتي والحياة الحيوانية واحد من التحديات الكبيرة لزماننا. إن التلوث وخسران التنوع الحيوي وتدهور المنظومات الإيكولوجية بضعة فحسب من المشكلات البيئية على كوكب الأرض. ويجعل تزايد عدد السكان وتفاقم نزعة التصنيع ضرورياً إلقاء نظرة فاحصة ومعمقة على هذه المشكلات في مدى العقود الزمنية القادمة.

يغيّر تطبيق تقنية المعلومات على المسائل البيئية كلاً من النظرية والممارسة. تزودنا فكرة «حوسبة عالم الطبيعة» بطرق جديدة لفهم التعقيد البيئي في مستوياته كافة، من المستوى الفردي إلى الجغرافيا الحيوية. إن فهم الطرق التي تؤثر بها التفاعلات المحلية على التركيب العالمي وعلى دينامية التجمعات ككل، يعد أمراً حاسماً من أجل نجاح تطبيق استراتيجيات إدارة المنظومات الإيكولوجية، خصوصاً المواقع الطبيعية التي تخضع للتبدل بفعل النشاط البشري. تعتمد الإدارة والتخطيط البيئي بشكل متزايد على أحدث المعلومات الدقيقة التي تضع القرارات المحلية في

سياق عالمي، وتجعل الإنترنت من الممكن تركيب البيانات البيئية التي ترد من مصادر مختلفة وتبرز إمكانية إنشاء مستوعب معلوماتي عالمي يتوزع ويبوّب على عدد كبير من مواقع الشبكة.

لم تعد المقاربات والأفكار التقليدية كافية لمواجهة هذا الوضع المتسم بالتغيّر السريع. لنقل إن إدارة «حديقة» تتطلب معرفة ما هو ببساطة أكثر مما يحدث ضمن الحديقة. ينبغي وضع المسائل المحلية في سياق المنطقة المحيطة وكذلك في سياق التطورات القومية والعالمية والتغيرات الكوكبية والتأثيرات الاقتصادية الاجتماعية إضافة إلى جملة من المسائل الأخرى.

يمكن للمخططين الذين يتعاملون مع المشكلات البيئية أن يلاحظوا انبثاق نموذج إرشادي جديد يكامل الميدان التقليدي لعلم البيئة مع التكنولوجيا الحديثة، ويقوم بالربط بين البحث العلمي وإدارة المشكلات البيئية والتخطيط لها. كما يربط المصادر الهائلة المتنوعة للمعلومات سواء أتت من بحوث علم البيئة أو من صور الأقمار الصناعية. يمكن التوسل بمثل هذه المقاربات الجديدة لمواجهة جملة من المشكلات العملية تبدأ بالتخطيط لاستعمال الأراضي الزراعية وتصل إلى مسألة الدفيئة العالمية. سوف نشرح باختصار طبيعة التعقيد في البيئة التي أدت إلى نمو الحاجة إلى التعامل مع هذا التعقيد. وبالتالي ظهور ما يسمى المعلوماتية البيئية كنموذج جديد في البحوث.

مصادر التعقيد البيئي:

تعد المنظومات الإيكولوجية، اعتباراً من أبسطها، على درجة عالية من التعقيد. وهذا يعود إلى الكثير من الأسباب التي يمكن تجميعها وتبويبها كما يلي:

❖ المقياس المكاني:

تأتي تأثيرات عديدة على البيئة العالمية من مصادر تقع خارج المحيط الحيوي للأرض. إذ يؤثر القمر والشمس والنيازك والشهب والمجال المغناطيسي على الحياة على الأرض. وحتى لو اقتصرنا على محيطنا الحيوي، سيبدو المقياس المتضمن في البيئة العالمية ضخماً جداً. إن المساحة الكلية لسطح الأرض تفوق ٥٠٩ مليون كيلومتر مربع. إن مراقبة عامل واحد (درجة حرارة الأرض على سبيل المثال) عبر هذه الأصقاع الفسيحة يعد مهمة هائلة. إن المراقبة الكاملة للعوامل البيئية كافة، بل حتى دراسة استهلاكية للسطح الكلي للأرض، يعد مهمة مستحيلة حالياً. صحيح أن التكنولوجيا الحديثة يمكنها المساعدة على ذلك، لكنها تولد حجوماً هائلة من البيانات التي ينبغي بطريقة أو بأخرى تخزينها وتفحصها بدقة ومن ثم تفسيرها.

❖ **المقياس الزمني:**

يحدث الكثير من السيرورات البيئية على مقياس زمني جيولوجي أو تطوري. تستغرق السيرورات المتوالية أو السيرورات التطورية الميكروية فترات زمنية أطول بكثير من حياة الإنسان. (أو من المدة الزمنية المخصصة لمشروع بحث إيكولوجي نموذجي والتي تتراوح بين ٣-١٠ سنوات). لقد قاد هذا الأمر إلى كثير من الافتراضات غير الدقيقة في علم البيئة من قبيل استقرار بنى التجمعات الإيكولوجية.

❖ **عدد الكائنات الحية:**

وصف علماء التصنيف حتى الآن ما يقرب من ١،٥ مليون نوع حي. لكن العدد الكلي للأنواع الحية غير معروف بدقة ويقدر بأنه يتراوح بين ١٠ مليون و ١٠٠ مليون. وإذا بقينا بالسرعة البطيئة الحالية فإن الأمر يستغرق على الأقل ٣٠٠ سنة أخرى من البحث التصنيفي كي يتم توثيق هذه الأنواع كلها. لكن، ليس العدد الصرف للأنواع الحية ما يجعل العالم الحي معقدًا،، بل التنوع الهائل في طرق ائتلاف وتفاعل وتعايش هذه الأنواع.

❖ **الحرجية:**

أحد مظاهر التعقيد، ، خصوصًا في المواقع الطبيعية، يتمثل في التحول الطوري من التوزعات المترابطة إلى التوزعات المتشظية. مثلاً، عندما نقتطع أجزاء صغيرة من غابة في أحد المواقع الطبيعية، فإن الغابة تحافظ على تكاملها. ولكن ، إذا استمر قطع الأشجار عشوائيًا، بدلاً من التوقف عند أجزاء صغيرة فحسب، فإن المنظومة الكلية تبقى مترابطة إلى أن تصل إلى نقطة حرجة تتفكك أو تتحول بعدها إلى قطع أو شظايا منعزلة عن بعضها بعضًا. وقد جرى توثيق مثل هذه التحولات الطورية المفاجئة في الكثير من المنظومات الطبيعية، من انتشار الأوبئة الممرضة إلى سلوك الحرائق في الغابات.

❖ **التأثيرات اللا خطية وحلقات التغذية الراجعة:**

إن إحدى النتائج البالغة الأهمية التي تنجم عن الدراسات الإيكولوجية القطاعية، تتمثل في أن العوامل البيئية لا تفسر بشكل تام لوحدها التوزعات المكانية للكائنات الحية. على سبيل المثال. غالبًا ما يؤدي التنافس بين الأنواع إلى بتر التوزعات في السلّم البيئي المتدرج. تعني هذه النتائج أن المنظومات الإيكولوجية ليست محكومة بشكل خطي مبسط بالعوامل الخارجية (غير الحية) بل بالتآثر بين العوامل الحيّة وغير الحيّة ضمن المنظومة.

إن شبكات التآثر بين الأنواع مصدر رئيسي للتعقيد في المنظومات الإيكولوجية.

ويمكن أن تأخذ هذه التأثرات أشكالاً كثيرة مثل الافتراس أو التنافس وتكون حلقات التغذية الراجعة شائعة بالضرورة في المنظومات عديدة الأنواع. وفي التجمعات ذات التكاثر الموسمي تميل التأخيرات الناجمة عن التغذية الراجعة إلى إنتاج سلوك دوري ويمكنها أيضًا أن تقود إلى ديناميات شواشية ولا خطية.

التعقيد في منظومة إيكولوجية (مثلاً التعقيد المقاس بمعيار غنى المنظومة بالأنواع الحية) لا يقتضي الاستقرار بشكل ضروري، وأحد أسباب ذلك أن أي تجمع عشوائي من الأنواع الحية المتأثرة من المرجح أن يحتوي على حلقة تغذية راجعة موجبة واحدة على الأقل تفقد المنظومة استقرارها وتقود إلى انقراض واحد أو أكثر من الأنواع الحية ضمنها.

❖ التأثير البشري على المنظومات الطبيعية:

تميل التأثيرات البشرية على المنظومات الإيكولوجية إلى إحداث اضطرابات (تشوشات) تمزق أي أثر ضئيل للتوازن. ويعدّ قطع أشجار الغابات وإقحام أنواع حية دخيلة على منظومة ما، مثالين عن الآثار البعيدة لمثل هذه الاضطرابات. وفي كثير من الأحيان تكون التأثيرات تأثيرات جانبية غير مقصودة. تتضمن الأمثلة عن هذا النوع، الحرائق الهائلة وانتشار الأوبئة والتلوث والتصحّر وتملّح الأراضي الزراعية. في كل حالة من هذه الحالات، تجبر الاضطرابات المنظومات الإيكولوجية على الابتعاد عن حالة التوازن ويمكن أن تقود إلى انقراض محلّي للأنواع أو إلى تغيرات مفاجئة غير متوقعة من نمط آخر.

بالإضافة إلى جعل المنظومات الإيكولوجية أكثر تعقيدًا (أو أكثر صعوبة في إدارتها) يؤثر البشر على إدارة المنظومات الإيكولوجية بتوجههم نحو أهداف وبرامج تتطلب قرارات بيئية مؤسسة على ما هو أكثر من مجرد المعرفة النظرية الإيكولوجية وقد قاد هذا الأمر إلى التزايد السريع الحالي في الاستفادة من نماذج دعم القرار.

بعض دروس التعقيد البيئي

على الرغم من أن نظرية التعقيد ماتزال في أوائل عهدها، إلا أنها تحمل دروسًا هامة ينبغي على الباحثين في حقل إدارة البيئة معرفتها، وهي في نهاية المطاف تلقي الضوء على الحاجة إلى طرق جديدة في إجراء البحوث في ميدان البيئة، ويمكن تلخيص هذه الدروس بالنقاط التالية:

❖ يمكن للتأثرات المحلية أن تنتج آثاراً عالمية:

لقد خدم المذهب الاختزالي العلم جيدًا، لكن ينبغي على الرغم من ذلك أن نعترف

بأنه يفشل على نحو سيئ في محاولته إدراك السيرورات البيئية. وقد أوضحنا فيما سبق بضعة أمثلة حول الطرق التي يمكن فيها للتأثرات بين مجموعات مختلفة أن تعطي نتائج غير متوقعة. إن إحدى الممارسات الاختزالية الشائعة في علم البيئة تتمثل في دراسة المجموعات بشكل معزول ودون الرجوع إلى الطرق التي تتأثر فيها مع مجموعات أخرى. وثمة ممارسات اختزالية أخرى تتضمن تفكيك ديناميكية المستوى الجمعي إلى دراسات فيزيولوجية واستجابات أخرى محصورة في مستوى الأفراد.

ثمة مثال واضح عن ذلك في الطريقة التي يؤثر فيها التشتت على ديناميكية المنظومات الإيكولوجية الكلية. تميل الأنواع الحية النادرة إلى تشكيل تجمعات تساعدها في الاستمرار في مواجهة منافسين أقوى منها. وتقترح بحوث المحاكاة أن هذه السيرورة تقدم آلية (ميكانيزم) تحفظ التنوع الكبير في الغابات الاستوائية المطيرة. وتؤكد الدراسات الحقلية أن الغابات المطيرة تضم عددًا محدودًا من الأنواع الشائعة وواسعة الانتشار بينما عدد الأنواع النادرة أكثر. وجميع هذه الأنواع النادرة تكون موجودة في تجمعات. إن عدم الفهم الكامل لهذه الديناميكية سوف يجعل الحفاظ والإدارة والبحث غير مؤثرة أو غير حصيفة.

❖ قد تكون المنظومات غير قابلة للتنبؤ:

تعد الحساسية للشروط الابتدائية ظاهرة معروفة جيدًا في المنظومات اللاخطية وهي إحدى العلامات البارزة للشواش، وهي شائعة جدًا في الإيكولوجيا حيث تتصف الكثير من التأثرات بأنها لا خطية. مثلاً لنأخذ ما يحدث عندما تصل خاصية الترابط في موقع طبيعي إلى الحد الحرج. في هذه الشروط يتعرض حجم وتركيب المساحات الجزئية في الموقع إلى تغير مفرط بحيث أن حصيلة هذه السيرورة الناجمة عن حدث يقع في إحدى المساحات (حريق أو وباء أو تعديات) تصبح غير قابلة للتنبؤ. وبشكل مشابه فإن إقحام نوع حي دخيل على منظومة إيكولوجية يبدل شبكة التأثرات بين الأنواع الحية فيها وربما يؤدي إلى نشوء حلقة تغذية راجعة موجبة تخرب التوازن ضمن المنظومة.

توضح خاصية عدم القدرة على التنبؤ والحاجة للتغلب عليها، الأهمية البالغة لأدوات بحثية من قبيل نماذج المحاكاة التي تسمح لنا بإجراء تجارب افتراضية، ذلك أن التجارب الفعلية في ميدان إدارة البيئة غالبًا ما تكون مستحيلة، إما لأنها تتطلب زمنًا طويلاً جدًا (مثلاً متابعة تغيرات غابة استوائية) أو لأنها ستسبب الأذى والضرر (مثلاً قد يؤدي إحداث حريق جزئي لمعرفة

كيفية انتشاره إلى حرق غابة بأكملها). على الرغم من أن التنبؤ الدقيق قد يكون مستحيلاً، إلا أن المحاكاة تجعل من الممكن تفحص طرق التعامل مع عدة بدائل ممكنة.

❖ **عدم توازن الطبيعة:**

انبعث فكرة توازن الطبيعة (وهي حجر زاوية عند كثير من المفكرين في الحركة البيئية) من مصادر مختلفة وربما يكون من أهمها المدى الزمني الطويل الذي تستغرقه الكثير من السيرورات البيئية، مثل منظومة الغابات. تعيش الأشجار المفردة لمئات من السنين، ويمكن لسيرورة استبدال تجمع إيكولوجي بتجمع آخر، أن يأخذ زمنًا يقدر بآلاف السنين. وإن حقيقة كون التغير في الغابات يتم ببطء شديد أعطت الانطباع الخاطئ بأنها في حالة توازن دائمة.

تستبطن مسلمة التوازن العديد من الأفكار في الإيكولوجيا النظرية. على سبيل المثال، هناك نظرية في الجغرافيا الحيوية للجزر، تقترح أن أية جزيرة تحتوي على عدد متوازن من الأنواع التي تعيش بشكل مستدام sustainable . لكن نموّ الفهم لدينامية المدى الزمني الطويل في المنظومات الإيكولوجية يجعل مسلمات التوازن في وضع لا يمكن الدفاع عنه. فقد تراكمت الأدلة حول ديناميات المنظومات الإيكولوجية، مثل دراسة تاريخ المنظومات الإيكولوجية التي تعرضت للدمار، واللااستقرارية على المدى الطويل في تاريخ الحياة النباتية.

❖ **أثر المصادفات:**

في أغلب الأحوال يقود تركيب مجموعات البيانات المختلفة إلى اكتشافات غير متوقعة، ويحدث ذلك بالمصادفة. وتزداد احتمالات المصادفة بشكل كبير مع تزايد عدد مجموعات البيانات المختلفة المتوفرة للبحث. لذلك تعتبر الكميات الضخمة من البيانات مصدرًا غنيًا لتبصرات جديدة حول السيرورات البيئية.

❖ **التعقيد الاجتماعي والمتلازمة الاضطرابية:**

ثمة في نظرية التعقيد / الشواش ما يسمى المتلازمة الاضطرابية diversity syndrom . تعني المتلازمة (خصوصًا في علم الطب) أن مجموعة من الأعراض المرضية تتزامن مع بعضها في حالة مرضية معينة. وفي دراسة المنظومات الاجتماعية، تدل متلازمة الاضطراب على أن مجموعة من الشروط أو الظواهر تتضافر وتترافق وما تلبث أن تظهر للعيان مؤدية إلى حرف المنظومة عن حالة الاستقرار السائدة ودفعها نحو سلوك غير قابل للتوقع أو التنبؤ الدقيق. ويبدو سلوك المنظومة للوهلة الأولى شاذًا أو مواريًا لكن نظرة مدققة و إعادة تمحيص سوف تظهره مفسرًا تمامًا بشرط أن نستخدم طرائق جديدة في التفكير.

تخضع المفاهيم والآراء والأحكام والتوقعات البشرية إلى تغيرات وتطورات عميقة في سياق السيرورة الدينامية للتعقيد الاجتماعي. ويبدو هذا التعقيد ملغزًا وشواشيًا بامتياز. إنه ملغز لأن مجموعة من القوى والاتجاهات المتناقضة والمتعارضة غير المنظورة في كثير من الأحيان، تعمل سوية وفي الوقت نفسه بحيث أن أية محاولة لحل خيوط هذه التشابكات قد تخلق سيرورات دائرية يمكنها أن تشل الأفعال الفردية والجماعية. إن تدبر التعقيد الاجتماعي يعني تدبرًا للطابع الملغز الملازم له ولما ينجم عنه من تأثيرات وبالتالي لتفادي خطر العجز عن مواجهته.

يبدو التعقيد الاجتماعي شواشيًا أيضًا بمعنى أن تجمع التقلقلات وحالات عدم الاستقرار في السيرورات الاجتماعية هو ظاهرة تنمو داخليًا وتتواصل بعناد حتى في غياب الصدمات المفاجئة. ويعتمد ظهور السلوك الشواشي على كل من الشروط الابتدائية التي تنشأ وتتطور فيها دينامية السيرورة الاجتماعية، وكذلك على القيم الحرجة للمتغيرات الفاعلة في تطور هذه السيرورة.

يتضافر الطابع الملغز والشواشي للسلوك الاجتماعي ويتجلى في المتلازمة الاضطرابية التي تحكم حالة المنظومة الاجتماعية أثناء التغيرات التي تخضع لها (المنظومة قد تكون مجتمع ما أو عدة مجتمعات ذات سمات مشتركة أو منظومات صغرى كالأسرة أو القرية...) وتشير المتلازمة الاضطرابية وتعمل كسبب أيضًا للخلخلة في النسيج الاجتماعي للمنظومة وينتهي الأمر إما إلى تلاشي المنظومة أو إلى إعادة تنظيم لها تقود إلى مستوى جديد من التعقيد.

تصف المتلازمة الاضطرابية الحالة الحرجة التي تصل إليها المنظومة الاجتماعية. وترى نظرية الحرجية المنتظمة ذاتيًا أن المنظومات الدينامية النشيطة (ومنها المنظومات الاجتماعية) تندفع مع الزمن إلى حالة حرجة تترافق بانهيارات من كافة المقاييس والأحجام. تعد الحرجية حالة جاذبة للدينامية إذ تسحب المنظومة وتدفع بشكل يتعذر اجتنابه نحو حالة حرجة تحت طيف واسع من الشروط الابتدائية القادرة على فعل ذلك. كانت دراسات التوازن (الدراسات الخطية) ترى أن الحرجية هي الحالة النموذجية للوجود المادي والاجتماعي وللتغيرات التي تطرأ عليها.

للوهلة الأولى، يبدو تيار الأحداث الاجتماعية اليومية تيارًا خطيًا حيث المنظومات الاجتماعية الكثيرة بكل ما يتجسد فيها من أفكار وسياسات وفعاليات

تمضي قدمًا متبعة في أغلب الأحيان مسارات متوازية. يمكننا، مجازيًا، أن نشبه تيار الحياة الاجتماعية بالنهر حيث طبقات متنوعة من المياه المختلفة في لزوجتها ودرجة حرارتها ولونها وطعمها... تتدفق سوية وهي تبدو كتلة واحدة متماسكة مع أنها في الحقيقة تجري بشكل منفصل نسبيًا. تتعرض المسارات الاجتماعية المتوازية للفوضى والاضطراب بشكل دوري سواء عبر التدخل البشري المقصود أو عبر انبثاق غير متوقع لقوى وعوامل شواشية. يمكن أن ننظر إلى هذا الأمر كتجلّ اجتماعي للمتلازمة الاضطرابية. عندما يحدث الاضطراب تصبح الحالة المستقرة لتيار الأحداث الخطي واقعًا تحت تأثير «دوامات» الخلخلة الاجتماعية ويمكن وصفها مجازيًا بأنها «جريان عكس التيار» أو دوامات في مجرى النهر. إنها القوى التي تجذب وتمزج خيوط الأفكار والأحداث والتوازنات في المنظومة الاجتماعية في لحظة التحول من طور إلى طور آخر. تمثل هذه «الدوامات» المواضع التي تنبع منها التغيرات الاجتماعية الرئيسية المدفوعة نحو اتجاهات جديدة غير قابلة للتنبؤ من حيث قوتها أو عواقبها. إنها بعبارة أخرى منابع ما هو جديد.

يمكن أن نرى أثر متلازمة الاضطراب في أحداث بارزة من قبيل تفكك الاتحاد السوفياتي والمنظومة الشيوعية الملحقة به. إذ على الرغم من وجود توازن واستقرار اجتماعي إلا أن تشعبات واتجاهات متعارضة لم تلبث أن ظهرت وكانت تبدو طفيفة في بداية الأمر ثم تضخمت وتسارعت بتأثير الشروط الداخلية والخارجية ودخلت المنظومة الشيوعية في مرحلة أزمة عميقة (تحول طوري أو شواش عميق) ولم تستطع إعادة تنظيم ذاتها مما أدى إلى تلاشيها وبروز تنظيم جديد ذي مستوى أكثر تعقيدًا. لقد ترافق تفكك المنظومة مع انهيارات من مقاييس وأحجام مختلفة. حدث على الصعيد الداخلي نمو حرج في البنى الاقتصادية - الاجتماعية الشبيهة بالمافيا كما انقلبت رأسًا على عقب حياة الأفراد والأسر ومصائرهم، و على الصعيد الخارجي حدثت عدة حروب ملحقة مثل الحرب في الشيشان والبوسنة وكذلك حرب الخليج الثانية.

قد لا تكون المجتمعات الغربية بمنأى عن تجلي المتلازمة الاضطرابية إذ تبدي هذه المجتمعات إشارات متزايدة على أزمة وشيكة في المدى المتوسط بدأت تظهر في المستويات السياسية والاقتصادية والبيئية. يمكن أن نرصد من هذه العلامات، الإهمال المتزايد للدعم البنيوي في مجالات التربية والصحة والبنى التحتية ونمو الاختلالات الوظيفية في البنية التنافسية لنمط الاقتصاد وأسلوب الحياة في هذه

المجتمعات، وصعود اليمين المتطرف إلى الحياة السياسية وكذلك العامل المتمثل في الأضرار البيئية غير العكوسة التي ينتجها نمط الحياة والتنظيم في الحضارة الحديثة مما أدى إلى استقطاب جماعات متزايدة إلى صف المعارضة واليأس من الحلول المطروحة. يعتقد الكثير من المفكرين حاليًا أن أزمة تشق طريقها في هذه المجتمعات لأن مستوى التداخل والتعقيدات والتباينات وتسارع التغيرات يتطلب طريقة أخرى مختلفة جذريًا في إنجاز الأشياء والأهداف وبنى تنظيمية وأنماطًا جديدة من العلاقات.

يبدو أثر المتلازمة الاضطرابية حاسمًا في تحديد مصائر بعض الأفراد الذين يطلقون أو يثيرون التغيرات الاجتماعية القوية. عندما يقدم هؤلاء أفكارًا أو أفعالاً «مخلخلة» فهم قد لايتوقعون أو لا يفهمون أو لا يستطيعون ضبط الاضطراب الكسراني fractal (غير السلس) الناجم عن ذلك، لذا فقد يصبح هؤلاء ضحايا القوى غير الحصيفة التي يخلقونها. قد يفقد بعضهم رؤوسهم على المقصلة كما حصل مع روبسبيير أو يحصلون على ٥٪ من الأصوات ويعزلون من الحياة الاجتماعية كما حصل مع ميخائيل غورباتشوف. يمكن أن نقول مجازيًا إن مياه الدوامات التي يتسببون في إحداثها تغرقهم أو أنهم يختنقون تحت انهيارات الحالة الحرجة التي يطلقونها وهذا ما يسمى «ظاهرة غورباتشوف» لأن غورباتشوف أكثر من أي شخص في التاريخ المعاصر تتجسد في حالته الأوصاف التي سبق ذكرها.

المراجع

1- Cambel, A. B. Applied Chaos Theory: Aparadigm for Complexity. Academic Press, Inc. San Diego, CA, 1993.

2- Stein, Daniel L. (ed) Lectures in the Sciences of Complexity. Vol. 1, Redwood City, CA, Addison - Wesley Pub;ishing Co, 1989.

3- Li, T. Y. and York, J. A, Period Three Implirs Chaos, American Mathematical Monthly, Vol. 8, 1975.

4- Laszlo, Ervin, the Age of Bifurcation: Understanding the Changing World, Philadelphia, Pa, Gordon and Breach Science Publishers, 1991.

5- Kauffman, Stuart A. The Origins of Order: Self - Organization and Selection in Evoluyion, New York: Oxford Universuty Press, 1993.

6- David, G, Complexity International, Vol. 6, 1998.

7- Wilson, E. O, The Diversity of Life, Penguin New York, 1992.

8- Vladimir Dimitrov, Robert Woog and Lesley Luhn - White, complexity International, Vol. 3, 1995.

ما القـــراءة؟**

تأليف: فانسا جـوف
ترجمة: جمال إسماعيل*

- نشاط متعدد الوجوه:

- القراءة نشاط معقد ومتعدد يتطور باتجاهات عدة. ومن بين أطروحات عديدة مقترحة سنرتكز على أطروحة جيل تيريان *Gilles Thérien* (من أجل سيميائية القراءة)[1] التي ترى في القراءة سيرورة لها أبعاد خمسة:

(*)جمال اسماعيل: باحث من سورية، يعمل في مجال الترجمة. له عدة أعمال منشورة.
(**) - الدراسة المترجمة مستقاة من كتاب: القراءة، لفانسا جوف، باللغة الفرنسية، صادرة عن آشيت Hachette، باريس 1993.

١ - سيرورة عصبفيزيولوجية:

القراءة قبل كل شيء هي فعل محسوس قابل للملاحظة ويتطلب من الكائن الإنساني استعدادات محددة. والقراءة غير ممكنة في الواقع دون استخدام الجهاز البصري ومختلف وسائط الدماغ، فهي وبشكل سابق على أي تحليل للمضمون عملية إدراك ومطابقة وتذكر للعلامات. وقد حاولت دراسات مختلفة من بينها دراسة فرانسوا ريشودو Francois Richaudeau (القروئية)[٢] La Lisibilité أن تصف بدقة مثل هذا النشاط فأظهرت أن العين لاترى العلامات الواحدة تلو الأخرى وإنما بشكل حزم من العلامات، كما أن حركة النظر ليست خطية ولا منتظمة، بل هي قفزات مفاجئة وغير متواصلة (متقطعة) تتخللها وقفات تطول أو تقصر تتراوح بين ثلث الثانية و(ربعها) تسمى بعملية الإدراك، تسجل العين بدقة خلال هذه الوقفات ست أو سبع علامات مستبقة بقية العلامات بفضل رؤية «دائرية» فضفاضة. هذا ويسهل على القارئ فك الرموز بقدر ما يتضمن النص كلمات موجزة وقديمة وبسيطة ومتعددة المعاني. من جانب آخر، تتأرجح قدرة الذاكرة المباشرة للقارئ (Empan) بين ثماني كلمات وست عشرة، والجمل الأكثر تكيفًا مع الأطر الذهنية للقارئ هي الجمل القصيرة المبنية. وبيّن ريشودو أن المؤلف حينما لا يراعي هذه المبادئ الهامة للقروئية تصبح كل الانزلاقات الدلالية ممكنة، بالتالي لا يعود النص (المقروء) هو نفس النص (المكتوب) وظاهرة كهذه، وهي بالتأكيد ليست نادرة في الحقل الأدبي (لنفكر بحالة بروست كواحدة من حالات أخرى) تظهر أن فعل القراءة نفسه ذاتي جدًا. ويتفحص عملية القراءة في مظهرها المادي تبدو دفعة واحدة وكأنها حركة استباق وبناء وتفسير.

٢ - سيرورة فكرية:

ما إن يفهم القارئ ويحلل العلامات حتى يسعى إلى فهم المقصود من الموضوع. وتحويل الكلمات ومجموعات الكلمات إلى عناصر الدلالة يتطلب جهدًا من التجريد كبيرًا.

يمكن لهذا الفهم أن يكون في حده الأدنى فينصب فقط على الحدث الجاري، لذا فإن القارئ المهتم تمامًا بالوصول إلى الخاتمة يركز انتباهه على تتابع الأحداث. فالنشاط الفكري يفيده في التقدم الحثيث في الحبكة وهذا عين ما يحدث عمومًا عند قراءة الروايات البوليسية أو قصص المغامرات لكن حين تكون النصوص أكثر تعقيدًا، فالأمر يبدو معكوسًا، إذ يستطيع القارئ أن يضحي بالتقدم في القراءة لمصلحة التفسير. فالقارئ حين يتوقف عند هذا المقطع أو ذاك، يحاول الإمساك

بجميع العلامات التي ينطوي عليها. ويصف بارت Barthes بدقة هاتين الممارستين للقراءة في كتابه (لذة النص) :plaisir du Texte

«ثمة قراءة تتجه مباشرة إلى مفاصل القصة، تهتم بامتداد النص وتجهل ألعاب اللغة (فإذا قرأت جيل فيرن، فإنني سأمضي سريعًا، سأضيّع أطرافًا من الخطاب، مع ذلك فقراءتي لن تفتن بأي ضياع للكلام - بالمعنى الذي تستطيع هذه الكلمة أن تعنيه في فن استكشاف المغاور) أما القراءة الأخرى فلاتعطي شيئًا لأنها تزن النص وتلتصق به وتقرؤه، إذا جاز القول، حرفيًا وبحماسة وتلتقط في كل نقطة من نقاط النص ما حُذف من أدوات الوصل التي تقطع اللغات، دون أن تقطع القصة، إذ ليس الاتساع المنطقي هو الذي يأسرها ولا نزع أوراق الحقائق، ولكنه تقليب أوراق المعنى»(٣).

بين «التقدم» و «الفهم» يوجد بالتأكيد أنظمة وسيطة، فهذان المتغيران يستطيعان أن يأتلفا في نسب جد متنوعة. في جميع الحالات، تتطلب القراءة الكفاءة، ويحتاج النص إلى حد أدنى من المعرفة على القارئ امتلاكها إن أراد مواصلة قراءته.

٣ - سيرورة انفعالية:

تتعلق جاذبية القراءة في جانب كبير منها بالانفعالات التي تثيرها فينا. فإذا كان تلقي النص يستدعي قدرات القارئ الفكرية فإن القراءة تؤثر أيضًا -وربما بشكل خاص- على انفعاليته. فالانفعالات في الواقع هي في أساس مبدأ المطابقة وهي المحرك الضروري لقراءة الحكاية. والشخصيات الروائية تشغلنا بمصيرها لأنها تثير فينا مشاعر الإعجاب والشفقة والضعف أو التعاطف. وكان توماتشفسكي Tomachevski قد بيّن مع مطلع القرن العشرين أولوية هذا الانفعال في اللعبة النصية : «كلما كانت موهبة الكاتب عظيمة، صعبت مقاومة توجهاتها الانفعالية، وبالتالي يصبح العمل الأدبي أكثر إقناعًا، وقوة الإقناع هذه، باعتبارها وسيلة تعليم وتبشير، تبقى مصدر انجذابنا نحو النص»(٤). وكان فرويد قد أشار أيضًا إلى قابلية القارئ للتأثر العاطفي والتي تتعلق بها مشاركتنا في عالم النص، وبالتالي بالخبرة التي نستمدها منه:

«أمام ما يحدث لنا في الحياة، نتصرف جميعًا وبشكل عام، بنفس الانفعالية ونبقى خاضعين لتأثير الوقائع، بيد أننا ننقاد إلى نداء الشاعر:

بالحالة التي يضعنا فيها وبالتوقعات التي يوقظها في داخلنا، يستطيع أن يحول مشاعرنا من تأثير ما ليوجهها إلى آخر»(٥) ومن السهولة بمكان الإحاطة بدور الانفعالات عند القيام بدور القراءة:

فالتعلق بشخصية ما يعني الاهتمام بما يحدث لها أي بالقصة التي تجسد هذه الشخصية. إذن لأن صلة عاطفية تربطنا بلوسيان روبيجيري نهتم ونحن نواصل قراءة أوهام ضائعة، بالأسباب النفسية والاجتماعية التي أودت بها إلى الهلاك، ولأن شخصيات بروست تبدو بالتناوب جذابة ومنفرة أو مسلية فنحن نجوب عالم البحث عن الزمن المفقود بلذة ونتقبل في الوقت ذاته رؤية الحياة والفن التي تجسدها الرواية لذا فإن السعي إلى إفراغ المطابقة النفسية -وبالتالي ما هو انفعالي من التجربة الجمالية يبدو أمرًا محكومًا بالفشل. هذا هو الدرس الذي استخلصه كل من ج. لينهاردت و ب. جوزا في دراستهما المقارنة لقراء فرنسيين وهنغاريين.

وعند تحليلهما من منظور سوسيولوجي عملية تلقي روايتي (الأشياء Les choses لجورج بيريك Georges Perek ومقبرة الصدأ Cimetiere de rouille لأندريه فيجيس (بدا جليًا أن سيرورة المطابقة التي أراد بعض الكتاب ومنظرو الأدب استبعادها، ما تزال حاضرة في قلب الأساليب الأساسية لعملية القراءة التي ظهرت أثناء بحثنا وسنشير إليها كأسلوب قراءة تطابقية - انفعالية)[٦].

نشير إلى الصلة الوثيقة القائمة بين المطابقة والانفعال، إذ كلما كان أسلوب المطابقة شديد الخصوصية، بدا الالتزام العاطفي بشكل عام مكونًا أساسيًا للقراءة.

٤ - سيرورة إقناعية:

بما أن النص حصيلة إرادة مبدعة ومجموعة عناصر منظمة فهو قابل للتحليل دائمًا حتى في حالة الشخص الثالث الغائب، «كخطاب» مستمد من موقف الكاتب من العالم والكائنات. وفي مصطلحات البراغماتية نقول إن الهدف الخطابي (إرادة التأثير على المرسل إليه وتغيير سلوكه) ملازم للنصوص القصصية كما أشار لذلك ج.م.آدم J.M.Adam في دراسته للقصة «يسعى السرد إلى إيصال المفسر المحتمل (حالة الاتصال المكتوب) أو الراهن (حال الاتصال الشفوي) إلى نتيجة محددة أو صرفه عنها»[٧] إن نية الإقناع هي بطريقة أو بأخرى حاضرة في كل قصة. هذا وإذا كانت الوظيفة الإقناعية تظهر واضحة على وجه الخصوص في الرواية - القضية Romanâthèse (رواية الأمل Espoir لأندريه مالرو مثلاً، تسعى إلى إقناع القارئ بعدالة قضية الجمهوريين الإسبان) فإننا نجد هذه الوظيفة في أنماط النصوص الأخرى أيضًا. ففي رواية جاك القدري Jacques le Fataliste لديدرو diderot يلعب ديدرو على وجهات النظر المختلفة محاولا التأثير على القارئ: إذ أن

وجهة نظر جاك الذي يعتقد أن الحرية وهمية وأن كل شيء مقدر تتعارض مع رأي معلمه المتفائل والمقتنع بوجود حرية اختيار.

ومن العسير أن نؤسس لإحدى الأطروحتين بالمعيار المطلق (إذ كل منظور يبطل الآخر) وبالتالي القارئ ملزم كما يريد ديدرو بالاستنتاج أن لا مرجعية مطلقة. بطريقة مغايرة، ألا يسعنا القول أن عوليس Ulysse جويس Joyce يكثر من الغموض والإبهام في نفس الفقرة متنقلاً من وجهة نظر إلى أخرى دون أن يظهر ذلك بوضوح بحيث يدفع بالقارئ إلى الشك في قدرته على التحليل؟

في حالة كهذه، ربما يقود الهدف الخطابي القارئ إلى التساؤل عن طريقة تصوره للمعنى. أيًا كان نمط النص فإن القارئ يميل وبوضوح إلى رأي ما. مع ذلك يؤول الأمر إليه في تبني مجموع الأدلة المبثوثة في النص أو رفضها.

٥ - سيرورة رمزية:

سيتخذ المعنى الذي نستخلصه من القراءة (التفاعل مع الحكاية، والأدلة المطروحة، واللعب على وجهات النظر) مكانه مباشرة في السياق الثقافي الذي يتطور فيه كل قارئ. فكل قراءة تتفاعل مع الثقافة والترسيمات المهيمنة في بيئة وعصر ما. كما تؤكد القراءة بعدها الرمزي وذلك بالتأكيد على نماذج الخيال الجمعي سواء رفضت هذه النماذج أو أكدتها (ويقوم المعنى في سياق كل قراءة بالعلاقة مع أشياء العالم الأخرى التي يقيم القارئ صلات معها، ويثبت المعنى على مستوى خيال كل قارئ لكنه، وبسبب الطابع الجمعي الحتمي لتشكله، ولخيالات أخرى موجودة، يضم أيضًا المعنى الذي يتقاسمه مع الأعضاء الآخرين لجماعته أو مجتمعه)(٨). وهكذا تتأكد القراءة كجزء مستمد من ثقافة ما. كما نعلم إلى أي مدى ترك الدوي الهائل لمؤلفات عصر الأنوار آثاره على التطور الفكري للقرن الثامن عشر. لنذكر أن بين أعوام ١٧٤٨-١٧٥٤ تعاقب ظهور كتب **روح القوانين**، **رسالة حول العميان**، والجزء الأول من **التاريخ الطبيعي**، والمجلد الأول من **الموسوعة**، ومقالة عن الاحساسات مما يسمح بأن نكون فكرة عن الطريقة التي تستطيع القراءة أن تبدل العقليات خلال بضع سنوات.

❖ اتصال مؤجل

- شرط النشاط القرائي:

تكمن الخاصة الهامة للقراءة مقارنة بالاتصال الشفوي في وضعها كعملية اتصال مؤجّل. فالمؤلف والقارئ - في أغلب الحالات - متباعدان مكانيًا وزمانيًا، والعلاقة بين المرسل والمتلقي ليست متماثلة تمامًا أثناء عملية القراءة. يتحصّل من هذه

الميزة بالتأكيد بعض النتائج. ففي حين يتجنب الملفوظ الشفوي غالباً الغموض وذلك بالإحالات المباشرة والمستمرة إلى الموقف المكاني - الزماني المشترك بين المتحاورين، فإن النص يحضر أمام القارئ منقطعاً عن وضعه الأصلي، وليس للمؤلف أو القارئ إطار من المرجعية مشترك وبالتالي سيعيد القارئ بناء سياق النص الضروري لفهم العمل الأدبي مستنداً على بنية النص أي على لعبة علاقاته الداخلية. وهكذا حين يرتكز حوار ما مثلاً وباستمرار على الموقف الذي يستخدم كإطار للتبادل،يقبض القارئ على النص كموضوع مستقل ومنغلق على نفسه حيث يتم تلقي المرسلة الأدبية المنقطعة عن سياقها كنظام مغلق ولن تأخذ مكوناتها المختلفة معنى إلا ضمن علاقاتها المتبادلة. ونظراً لتعذر ربط عنصر معزول بسياقه الذي نجهله نسعى لمعرفة وظيفته ضمن البناء الكلي الذي يكونه العمل الأدبي بالنسبة للقارئ. يحدث هذا كما لو أن النص يخلق نظام مرجعيته الخاص به. وكان إيزر Iser قد لاحظ أن خصوصية الاتصال ليست سلبية (فالخطاب التخييلي مجرد من الحالة المرجعية حيث التحديد الدقيق لما يضمن للفعل اللغوي تحققه التام، ولا يؤدي هذا النقص الواضح إلى إخفاق الخطاب التخييلي، بل يمكن استخدامه كنقطة انطلاق من أجل فهم أفضل لما يشكل خصوصية الخطاب التخييلي)[9] إن ما هو نقص في الخطابات التي وظيفتها الأولى الإخبار، ليست غائباً حتماً عن النصوص الجمالية التي غايتها، كما نعلم، مختلفة جداً.

❖ قانون النص المقروء:

إن طابع الإرجاء الذي يحكم النص الأدبي هو تماماً ما يمنح النصوص الغنى. فالكتاب الذي يصلنا منقطعاً عن إطاره الأصلي ينفتح على تعددية التفسير. وكل قارئ جديد يحمل معه تجربته وثقافته وقيم عصره. لذا يمكن لبييريابيري أن يفسر بلزاك على ضوء الماركسية ولشال موران أن يعيد قراءة مالا رميه بالاستناد على التحليل النفسي. فالمعنى في العمل الأدبي المكتوب إذا استخدمنا عبارة بول ريكور P.Ricceur هو (عبر حدثي) -Trans événemetiel بتعبير آخر إنه يتفلّت من وقتية الخطاب الشفوي بطرق أربع:

- بالتثبيت الذي ينقذه من الزوال.

- بالفصل الذي يخرجه عن مقصد المؤلف الفكري.

- بالانفتاح على العالم الذي ينتشله من حدود حالة الحوار.

- بشمولية الاستماع اللامحدودة[10].

توضح هذه الخاصيات الأربع الإمكانيات الكبيرة للمرسلة المكتوبة. فبينما

يتـلاشى الكلام في الخطاب الشـفـوي بمجـرد تلفظه، فـإن النص المكتوب يقـاوم الزمن، ومـا يزال يسـمح لنا حـتى اليـوم بالاسـتـمـاع إلى هومـيـروس وأفـلاطون. وبتوسيع الصلة توحد المتكلم مع خطابه في الحـالة الشـفـوية، يسـمح النص المكتوب للقـراء أن يروا منه شيـئًا آخر غيـر قـصد المؤلف.

هذا ويعـزى تنوع التـفـسـيـرات التي تقدمها أعمال شكسبير الأدبية في قسم كبير منها إلى جهلنا شبه التام بشخصية هذا الكاتب المسرحي. فهو لم يعد موجودًا كي يتنصل من هذه القـراءة أو تلك، وهكذا فـإن حـقل الدلالات يكاد يتطور إلى مـا لا نهاية. وبالتحرر من الحالة الخاصة التي تؤطر تبـادل الكلام الشـفـوي دومـًا، يقـوم النص بتوسيع أفق القـارئ فاتحًا له عـالمًا جديدًا. في الواقع غالبا ماتكون مرجعيات هذا العـالم غـيـر واضـحـة. فـمـا يكتـشـفـه القارئ المعاصر حين يقرأ شيـشـرون ليس الجمهورية الرومانية القديمة بل ما يمكن الوصـول إلى مـا تبـقى بعـد عـدة قـرون فاصلة: وهي مجموعة سمات ما تزال، بعد أن تخطت الزمن، قابلة للاستثمار رمزيا.

أخيرًا عند استبدال مجموع مستمعي الاتصـال الشفوي المحدودي العدد حـتمـا بقراء يفوق عددهم التقدير، يكتسب النص بعدًا شموليا. وهو كتاب بامتياز، يعرف قراء منتمين إلى جميع العصور والقارات وكافة الطبقات الاجتماعية.

وهكذا نرى أن نزعة سياقية -décontex tualisation المرسلة المكتـوبة هي بحق شرط تعددية النص.

-هل كل قراءة مشروعة؟

- نظرًا لخـصـوصـيـة الاتصـال الأدبي، يمكن أن نتساءل أليس لكل قارئ الحق في تفسير النص كما يتبدى له؟

وباعـتـبـار أن العمل الأدبي منقطع عن سيـاقـه، فنادرًا مـا يُقـرأ العمل كمـا أراد مؤلفه، لذلك أليس منطقيـا أن نتخلى عن استخلاص نية أولى أيا كانت؟ وأن نرى في النص فقط ما نريد رؤيته فيه؟

ومـا دمنا لا نسـتطيع اخـتـزال العـمل الأدبي إلى تفسيـر وحيـد، كمـا أوضحنا ذلك، فهناك معـايير للتقويم. يسمح النص بالتأكيد بقراءات متعددة لكنه لايجيـز أية قراءة.

تشـيـر كـاترين كيـربرا – او كـشـيـوني Catherine Kerbrat - Orcchioni إلى (أن القراءة ليست إطلاق العنان لأهواء رغبتنا/ هذياننا في التـفـسـيـر) لأنه (لو استطعنا قــــراءة أي شـيء فـي أي نـص (........) لأصبحت النصوص كلها متشابهة) (١١)، ولكي تكون قراءة مامشروعة ينبغي أن تلبي برأي رولان بارت R-Barthes مـــعـــيـــار

التماسك الداخلي) تقوم موضوعية الناقد إذا ليس على اختيار الشيفرة، بل في الدقة التي يستخدم بها النموذج الذي اختارها في العمل الأدبي)[١٢].

يوجد ثلاث قواعد كبيرة للتقويم:

ينبغي أن تكون شبكة التفسيرات قابلة للتعميم على مجموع العمل الأدبي، وأن تلتزم بالمنطق الصوري (كما استخلصه التحليل النفسي) وأن تسير دائمًا في نفس الاتجاه، باختصار إن مقياس القراءة (دقتها).

وهذا ما اقترحه بارت Barthes في قراءته الخاصة لراسين: فبرأيه لا يتعلق الأمر باستخلاص حقيقة ما للعمل الأدبي، بل بمقابلة هذا العمل بلغة ما (في حالة بارت هذه بلغة البنيوية والتحليل النفسي) وإلى مبدأ التماسك الداخلي يضيف بول ريكور Paul Ricour مبدأ التماسك الخارجي: لا يمكن للقراءة مخالفة بعض المعطيات الموضوعية (سيرة ذاتية، تواريخ أو غيرها) التي نملكها عن النص. وما دام أن جميع القراءات ليست أيضًا متكافئة ينبغي لتفسير ما ألا يكون مرجحًا فقط، بل هو أكثر رجوحا من تفسير آخر، فهناك معايير الأفضلية النسبية)[١٣]. مع ذلك قدمت المقاربة السيميائية للقراءة الإجابة الأكثر إقناعًا وهي ترتكز على الأطروحة التالية: يقوم النص ببرمجة جزء كبير من عملية التلقي، حينها لا يستطيع القارئ القيام بشيء. لنستعد عبارة امبرتوايكو Umberto eco[١٤] يخضع القارئ في مواجهة النص لالتزامات (فيلولوجية) وعليه أن يكشف تعليمات المؤلف بالدقة الممكنة. متحاشيًا المجازفة في تحليلات للرموز خاطئة. ويستشهد امبرتوايكو بحالة أسرار باريس Mysteres de Paris، وهي رواية لأوجين سو Eugene Sue، أعدت في البداية لجمهور ميسور كان مؤلف المسلسل يأمل تسليته بلوحة تصويرية مثيرة عن أحياء باريس، لكن الطبقة العمالية في القرن التاسع عشر وجدت فيها نقدًا لظروف حياتها البائسة.

وما إن يدرك سو هذه الظاهرة حتى يحاول إقناع هذا الجمهور الشعبي بأن تحسين ظروف حياته يمر عبر طريق الإصلاح والخضوع للطبقات الحاكمة. لكن (خطأ القراءة) يتواصل وسيكون له برأي امبرتوايكو نتائج هامة: عندما يفسر قرّاء أوجين سو تفسيرًا ثوريًا، رواية هي موضوعيًا إصلاحية، فهم بطريقة مايدلّسون النص، وبالتالي ليست جميع القراءات مشروعة، وكما يشير ايكو هناك اختلاف جوهري بين (استخدام) نص (يؤوله القارئ تأويلاً تعسفيًا) وبين (تفسير) نص (يلتزم القارئ بمسار قراءة برمجها النص).

❖ **القراءة البسيطة والقراءة النقدية:**

الأخذ بعين الاعتبار جمهور القراء الأول:

من بين مختلف القراءات التي يسمح بها النص ما القراءة الواجب اعتمادها في التحليل؟

الإجابة الممكنة هي للمنظر الألماني هـ. ر. ياوس الذي أراد ألا يقيم قطيعة مع المذهب الموضوعي للتاريخ الأدبي، فاقترح أن نأخذ بعين الاعتبار القراءة الأولى للعمل الأدبي. والطريقة الوحيدة لإدراج دراسة التلقي في التاريخ الأدبي هو إبراز القراءة السائدة في العصر الذي كتب فيه النص (لوصف عملية تلقي العمل الأدبي والأثر الناتج عن هذا العمل الأدبي والأثر الناتج عن هذا التلقي فإن تحليل التجربة الأدبية للقارئ سيتخلص من النزعة النفسانية التي تهدده، إذا أعاد تكوين أفق توقع جمهوره الأول)(١٥).

في الواقع، ينبغي على الإطار العام للفهم الذي يحكم القراءة -«أفق التوقع»- أن يعاد بناءه إذا أردنا الحكم على الجدة والأهمية والأثر الحاسم للعمل الأدبي في لحظة ظهوره. هذا وقد حدد ياوس أفق التوقع من خلال معايير جمالية أساساً، وهي المعرفة التي يمتلكها الجمهور عن الجنس الأدبي الذي ينتمي إليه العمل الأدبي، والتجربة الأدبية الموروثة عن قراءات سابقة (والتي جعلت جمهور القراء يألف بعض الأشكال الأدبية وبعض الموضوعات)، ثم التمييز الدقيق بين اللغة الشعرية واللغة العملية. وهكذا فإن عملية تلقي رواية مدام بوفاري يتطلب التذكير بما كانت عليه الرواية الأخلاقية في عام ١٨٥٧/ وتحليل توقعات جمهور سئم الرومانتيكية فانجذب لموضوعات أكثر واقعية (كالخيانة الزوجية). ثم تحديد ما يصنع اللغة الأدبية أيضاً: بالأحرى أسلوب متألق مفروض أنه يشكل الجانب الجميل في الدفق الغنائي.

نلاحظ أن المقوّم السوسيولوجي مهمل قليـلاً، إذا لم تتم دراسة التكوين السوسيولوجي للقيم الجمالية، على أية حال في إطار منظور تاريخي. وإذا لم تأخذ بعين الاعتبار الجمهور الأول أي كتلة القراء العاديين فقد لا نفهم شيئاً عن مصير هذا العمل الأدبي أو ذاك ولا عن تطور الأدب ولا عن تاريخ الأنواع الأدبية في نهاية المطاف.

❖ **القراءة الخطية:**

إن الانتقال من نظرية التلقي التي ما تزال تتسم بالمنظور التاريخي إلى سيميولوجيات القراءة المهتمة بالبنى النصية، يقود إلى طرح المسألة بعبارات مختلفة. ما إن يتم التمسك بابراز مسارات القراءة المدونة في النص حتى يصبح

الاختيار النظري الأساسي يعارض القراءة (البسيطة) (أي القراءة الأولى التي تتطابق مع المسار الخطي للكتاب) بالقراءة (الواعية) (حيث القارئ أو بالأحرى، القارئ الذي يعاود القراءة، يستطيع استخدام معرفته المعمقة للنص في تحليل الصفحات الأولى على ضوء خاتمة النص)، هذا وتبقى القراءة البسيطة الأكثر شيوعًا، إذ يتم تصور النص أولاً كي يقرأ في تطوره الزمني (لنفكر بآثار «التشويق في الرواية البوليسية»، وإذا أردنا معرفة كيفية عمل النص لا يسعنا إلا أن نعلق أهمية على ذلك. لنتفحص على سبيل المثال مقطعا من مؤلف نابوكوف Nabokov الحياة الحقيقية لسيباستيان كنايت. حيث يقوم الراوي بعملية بحث عن أخ غير شقيق وهو كاتب متوفى حديثا، بقصد كتابة سيرته الذاتية. فيعلم أن حياة سيباستيان قد تحطمت حبًا لامرأة تدعى هيلين فون جرون، فيزورها الراوي للمرة الأولى في منزلها: تستقبله السيدة لوسيرف، صديقة السيدة فون جرون وتقترح عليه تدبير لقاء معها. وفي الفصل السابع عشر من الكتاب يُطرَح على القارئ ما يشبه السؤال التالي: هل سيلتقي الراوي أخيـرًا بهلين فون جرون، هذه الشخصية المفتاحية في حياة سيباستيان كنايت؟ سيجيب القارئ على الفور ولا سيما لمن يعرف أعمال نابوكوف جيدًا بـ«لا» إذ أن إثارة توقع سردي يرجأ لبعض الوقت قبل إشباعه هو تقنية مطروحة كثيرًا. مع ذلك وفي حركة ثانية، على القارئ أن يقر بأن رفض إشباع التوقع قد وصل هو أيضًا إلى الثبات في نموذج الرواية المعاصرة، وإذ لا يجهل نابوكوف ذلك، يقوم باختيار مخرج ثالث: يجد الراوي نفسه وحيدًا مع مدام لوسيرف في منزلها الريفي (للوهلة الأولى لا يُشبَع توقع القارئ) بل يكتشف في خاتمة الفصل أن مدام لوسيرف ليست إلا هيلين فون جرون نفسها (يشبع التوقع إذًا، لكن كما كان ينتظر القارئ الذي فقد كل أمل). هذه اللعبة بين النص والقارئ - وهي إحدى المتع الأساسية للقراءة - ارتكزت تماما على خطية القصة، ويعود المجال اللعبي للنص غالبًا إلى **القراءة البسيطة**.

❖ إعادة القراءة:

إذا كانت القراءة الخطية هي الأكثر التزاما بقواعد اللعب، فهي ليست بالضرورة الأكثر أهمية، حيث الاطراد ليس البعد الوحيد للقصة: ليس النص «الظاهر» منه وحسب، بل هو «مجلد» أيضًا لا تفهم بعض ملاحقه إلا عبر القراءة الثانية. لذلك فالتفكير بإعادة القراءة هي الممارسة الأكثر ملاءمة للنصوص الأدبية المعقدة. هي خطوة واحدة فقط، يبدو أن ميشيل بيكارد M.Picard مهيأ لكي يخطوها. إن ممارسة التفسير المفصل للنص باب الدراسات الأدبية (حيث المنهج ولا سيما الحقول المرجعية قد تغيرت بالطبع) يقود إلى التساؤل ما إذا كانت إعادة القراءة، دون أن تكون هذه الإعادة مصادفة أو جزئية، بسبب الهفوات وضعف الانتباه. أو أنها منهجية وشاملة لكنها تخص متذوقي الفن،

ضـرورية على وجـه الدقـة، ووفق المنطق السليم، خلال مجرى القراءة العادية، وذلك من أجل فهم عائد معلومات بسيط لمستوى أفضل بالمحصلة. أكثر قصدية وأكثر وعياً(١٦).

حقـاً إن «آثار العودة» التي تسمح بهـا إعادة القراءة هي غالبًا ضرورية لتقييم أو حتى ببساطة لفـهم أي مقطع نصي. فالجملة الأولى من قصة صديق وسيم لموباسان Maupassant (بعد أن أعاد له أمين الصندوق ما تبقى من نقود من فئة مئة فلس، خرج جورج دوروا من المطعم)، لا يمكن تذوقها كليًا إلا إذا عرفنا بقية القصة، إن جورج دوروا وبفضل النساء - حيث الدعم المالي سيكون ضروريًا له - سيتسلّق سلم التراتبية الاجتماعية. بالطريقة نفسها، لن يأخذ اسم الشخصية جورج دوروا كل قيمته إلا في النظام الذي يشكل مع التسميات الأخرى المخصصة لتكون بديلة لهذا الاسم: بالتأكيد إن لقب (صديق وسيم) يشهد بالنجاحات النسائية للشخصية، لكن اللقب (بارون جورج دوروا دو كانتل) الذي يوحي بتشريف البطل، يبرز قمة نجاحه. تبدو (آثار المعنى) المختلفة هذه (الجملة الاستهلالية، والاسم الاستهلالي) غير مفهومة إلا إذا عرفنا (سابقًا) ما سيحدث أي عند القراءة الثانية. وهكذا، فعندما يكون عمل أدبي مبنيًا في الحد الأدنى، تصبح إعادة القراءة، ليست مرغوبة فحسب، بل ضرورية.

هوامــش

❖ النص المترجم هو الفصل الأول من كتاب («القراءة»، فانسا جوف، هاشيت،١٩٩٣). بالفرنسية:

(La Iecture.Vincent Jouve. Hachette. 1993)

١ - جيل تيريان، من أجل سيميائية القراءة، بروتيه، ٢-٣، ١٩٩٠، ص ١-٤.

٢ - فرانسوا ريشودو، القروئية، دونويل، ١٩٦٩.

٣ - رولان بارت، لذة النص، سوي ١٩٧٣، ص ٢٢-٢٣.

٤ - توما شفسكي، الموضوعي، ضمن كتاب ت. تودوروف، نظرية الأدب، سوي ١٩٦٥ ص ٢٩٦.

٥ - فرويد، الغرابة المقلقة، ترجمة فرنسية غاليمار، ١٩٨٥ ص ٢٦٢.

٦ - ج. لينهاردت، ب جوزا، قراءة القراءة، لوسيكومور، ١٩٨٢ ص ٣٨.

٧ - ج.م آدام، النص السردي، ١٩٨٥ ص ٦-٧.

٨ - جيل تيريان، مصدر سابق ص ١٠.

٩ - ف إيزر، فعل القراءة، مارداغا، ١٩٨٥ ص ١١٧.

١٠ - بول ريكور، الحدث والمعنى في الخطاب، ضمن م. فيليبر، ريكور أو الحرية بمقتضى الأمل، سيرس، ١٩٧١ ص ١٨٣.

١١ - كاترين كيربرا - اوكشيوني، التلفظ، الذاتية في اللغة، آرمان كولان، ١٩٨٠ ص ١٨١.

١٢ - رولان بارت، نقد وحقيقة، سوي ١٩٦٦ ص ٢٠.

١٣ - بول ريكور، من النص إلى الفعل، سوي ١٩٨٦.

٢٤٩

حوار مع الدكتور رياض عصمت

إعداد وحوار :
عبيـر عـوض

من أبرز الكتاب والنقاد في سورية وفي الوطن العربي، بدأ مشواره الإبداعي ككاتب قصة ومسرح، ثم أضاف إلى ذلك دراسات نقدية في شتى ميادين الأدب والفن: المسرح، والدراما التلفزيونية، والسينما، متسلحا بالدراسة العلمية والموهبة الحقيقية، ليغدو صاحب تجربة إبداعية أصيلة ومتميزة.

- ولد الدكتور رياض عصمت في دمشق عام ١٩٤٧ درس في مدارسها وتخرّج من جامعتها (كلية الآداب - قسم اللغة الإنكليزية) عام ١٩٦٨، ونال بعدها درجة ماجستير إخراج مسرحي من بريطانيا عام ١٩٨٢، وشهادة في الإخراج التلفزيوني من الـ «B. B. C» في لندن، عام ١٩٨٣، ثم حصل على شهادة الدكتوراه في الفنون المسرحية من الولايات المتحدة، عام ١٩٨٨.

(*) عبير عوض: محررة في مجلة المعرفة.

- كما تدرّج الدكتور رياض عصمت في دراسته، تدرّج في عمله الوظيفي بشكل منطقي وسلس مما يدل على عمق التجربة وصحة المسيرة. فقد عمل رئيسًا لدائرة البرامج الثقافية في التلفزيون السوري بين أعوام (١٩٧٤ و ١٩٧٦)، ومعاونا لمدير الإنتاج التلفزيوني، رئيسًا لدائرة الدراما في التلفزيون، ورئيسًا للجنة النصوص (١٩٨٤ - ١٩٨٦)، ثم عميدًا للمعهد العالي للفنون المسرحية منذ عام (٢٠٠٠ وحتى عام ٢٠٠٢)، كما شغل منصب معاون وزير الثقافة في عام٢٠٠٢، ويشغل حاليًا منصب مدير عام الهيئة العامة للإذاعة والتلفزيون في وزارة الإعلام.

- إلا أن هذه المهام الوظيفية الكبيرة لم تشغله يومًا عن العمل في الأدب والنقد والفن، فقد نشر الدكتور رياض عصمت ٣٢ كتابًا، تنوعت موضوعاتها بين النقد والمسرح والقصة القصيرة. نذكر منها في مجال النقد:

بقعة ضوء: دراسات تطبيقية في المسرح العربي، نشر عام ١٩٧٥

البطل التراجيدي: في المسرح العالمي، نشر عام ١٩٨٠.

شيطان المسرح: كتاب نقدي عن المسرح في العالم، نشر عام ١٩٨٧.

ضوء المتابعة: دراسة تطبيقية في المسرح العربي، نشر عام ١٩٩٣

المسرح في بريطانيا، نشر عام ٢٠٠٢، وغيرها

ومن مؤلفاته في مجال الكتابة المسرحية:

النجوم والليل الطويل، الحداد يليق بأنتيغون، السندباد، طائر الخرافة، ليالي شهريار، لعبة الحب والثورة، وغيرها.

ومن كتاباته في مجال القصة، والدراما التلفزيونية:

مجموعة قصصية بعنوان شمس الليل، وقصة الذروة البعيدة، وسيناريو مسلسل هولاكو، ومسلسل تاج من شوك، وغيرها.

وقد ترجمت بعض قصصه وإحدى مسرحياته إلى لغات أجنبية وحوّلت قصة (واحة لا تحب العصافير) إلى تمثيلية إذاعية بالألمانية مرتين.

- أخرج الدكتور رياض عصمت حوالي ١٥ مسرحية منذ عام ١٩٧٢ وحتى عام ٢٠٠٢، شارك بعضها في مهرجانات عالمية.

- منح الجائزة الأولى لأفضل قصة عربية عام ١٩٩٣ في مسابقة إذاعة (دوتشيه فيلله) الألمانية، وكرّمه مهرجان القاهرة الدولي للمسرح التجريبي عام ١٩٩٣، ومنح ميدالية ضيف شرف في

مهرجان المسرح العربي في عمان - الأردن عام ١٩٩٩، وميدالية تقدير من مهرجان المسرح الخليجي (قطر) عام ٢٠٠١، وميدالية عضو لجنة تحكيم مسابقة أنجال الشيخ هزاع لثقافة الطفل (الإمارات) ٢٠٠٢.

تستضيفه اليوم مجلة المعرفة لتناقش معه بعض القضايا النقدية والإعلامية، عبر أربعة محاور: أولها المسرح، ونتناول فيه مسألة راهنية العمل المسرحي وخلوده، ومدى دور الموهبة والعلم في الإخراج المسرحي، وعن الاقتباس في المسرح، وتدريب الممثلين، والعمل لإيجاد مسرح ناجح في سورية. أما المحور الثاني: فيدور حول القصة والدراما: بدايات القصة عند الدكتور رياض عصمت، وقضية تنبؤ الكاتب المبدع بأحداث المستقبل، ودوره في تحذير المجتمع مما هو قادم. ونناقش في المحور الثالث عدة مسائل نقدية منها: نخبوية النقد وشعبيته، علاقة المبدع بالمتلقي، النقد المسرحي في سورية، وغيرها من الآراء النقدية. ونفرد المحور الرابع للحديث عن العمل الرسمي، كيف يؤثر على العمل الإبداعي، وعن موقع ودور ومبادئ التلفزيون السوري ضمن عملية التطوير والتحديث في سورية.

أولاً في مجال المسرح:

١- اختلف الكتاب والنقاد في طريقة نظرهم إلى المسرح، فبعضهم رأى أن المسرحية لا تكون مسرحية حقيقية إلا على المسرح، وبذلك تكتسب خلودها كأثر فني وأدبي في ذهن المتلقي، بينما رأى آخرون أن المسرحية تحدث أثرها دون الاعتماد على التمثيل، بل إن خلودها يتحقق وهي مكتوبة على الورق. هل تؤمن بخلود العمل المسرحي، أم براهنيته؟

❖ المسرحية، في الأصل وإلى الأبد، نص كُتب كي يمثَّل. بالتالي، فإنها على الورق مشروعٌ لعرض حي. لذا، فالحديث عن مسرحيات صنعت للقراءة وحسب هو تبرير لضعف فني، سواء في قدرة المؤلف، أو ربما في قدرات المخرجين والممثلين على تجسيد نص طموح. ولكن، النقيض المتطرف لذلك هو مسرحيات تؤلف جماعيًا خلال ارتجالات، تجسّد على المنصة ثم تتلاشى مع الزمن كأنها لم تكن، لتبقى أطيافها في ذاكرة مئات أو آلاف المتفرجين الذين حظوا بفرصة حضورها. المسرح، في الحقيقة، يحتاج إلى استمرارية كي يخلد، وهذه الاستمرارية لا يحققها سوى وجود المسرحية على الورق، كي تصبح مثل ما تبقى من أعمال الإغريق التي يجري إحياؤها حتى اليوم، بينما اندثرت أعمالهم الأخرى التي جسدّت أمام جمهور،

ولكن نصوصها ضاعت. ليس في الأدب المسرحي قديم وجديد. هناك جيد ورديء. ما زالت نصوص شكسبير في أرجاء العالم تحظى بتفسيرات متباينة، وإسقاطات فريدة. لكن على النص المسرحي أن يحمل سمات خلوده في داخله، فكرة فلسفية إنسانية، خيالاً واسعًا، شخصيات مقنعة، حوارًا رشيقًا، بنية تتنامى عضويًا، وشكلاً جذابًا. مشكلة المسرحيات الأدبية الخالصة لم تكن في موضوعها الفلسفي، التي أطلق عليه وصف «ذهني»، بل في شكلها الفني وعدم مواءمتها للتجسيد أدائيًا وإخراجيًا على المسرح، لأنها تصبح مدعاة للملل، وبالتالي تصرف المتفرجين عن تكبد ثمن التذاكر وتجشم عناء الذهاب إلى المسرح.

ولا ننسى أن بعض المسرحيات المكتوبة بلغات أجنبية هي باللغة المحكية، وأحيانًا بالعامية المغرقة، ومع ذلك تنشر في كتب، وتعتبر أدبًا. تبنت مصر هذا التوجه خاصة، وكذلك بعض كتاب لبنان والعراق وتونس. في سورية، ارتبطت فكرة المسرح الجاد بالفصحى، وبالطابع الأدبي، وكان هذا في رأيي خطأ جسيمًا، لأنه أبعد الجمهور الشعبي العريض عن «المسرح القومي»، وجعل المسرح التجاري بالمعنى السيئ للكلمة يزدهر. يفترق المسرح عن الأدب في أنه كتب ليمثّل، وبالتالي فالحكم عليه يستند إلى قواعد وأسس مختلفة عن الأدب المحض. يتسع الجانب الأدبي في المسرح لاستخدام الفصحى والعامية، فالمسرحيات التاريخية والشاعرية تتطلب الفصحى بالتأكيد، والمسرحيات الواقعية تتطلب المحكية. بل أقوالها كمخرج: حتى المسرحيات المترجمة يجب أن تترجم إلى اللغة المناسبة لطبيعتها وثقافة شخصياتها وطرازها الفني، ولا ضير أحيانًا عديدة إذا ترجمت لعامية معادلة لعاميتها الأصيلة، لأن على المترجم أن يلتقط نبض الإنسان العادي وطريقته في التعبير القابل للتمثيل في تلك النصوص، بينما تكون الشخصيات في المسرحيات التاريخية والشاعرية أكبر من الحياة، فتعبر عن نفسها بلغة فصحى متينة وبليغة. أخطأ بعض المصريين حين ترجموا شكسبير إلى العامية، وكذلك حين أصر بعض السوريين على ترجمة تنيسي وليامز وكليفورد أوديتس وآرثر ميلر إلى الفصحى. ليس ثمة صواب أو خطأ، صعب أو سهل في المقارنة بين الفصحى والعامية في المسرح، بل هناك ما هو أنسب لهذا الموضوع أو ذاك، ولهذه الشخصيات أو تلك. ختامًا: أعتقد أن التوازن ضروري بين أن تحمل المسرحية طابع الخلود كنص تتناقله الأجيال، وبين إمكانيات تجسيدها على منصة المسرح أمام الجمهور كعرض

حي. إنني أؤمن بخلود المسرح، ولا أرى أن هذا يتناقض بالضرورة مع راهنيته.

٢- بعد تجربتك في الإخراج المسرحي التي بدأت - كما نعرف - من الإيماء، ثم انتقلت إلى تقديم مسرحيات أجنبية وعربية. برأيك: هل الإخراج المسرحي علم أم موهبة؟

❖❖ أعتقد أن المخرج البارع حقًا يجب أن يتحلى بالموهبة والعلم معًا. الإخراج مثل الطيران، يحتاج إلى جناحين، والنسر المهيض الجناح لا يمكنه التحليق. صحيح أن الموهبة هي الأساس، فالعلم يصقل الموهبة، لكنه لايخلقها من العدم إذا لم تتوفر. مشكلة بعض مخرجينا أنهم يعتزون بشهادة الدكتوراه أو الماجستير، ويغضون النظر عن أهمية، بل ضرورة الموهبة. بالمقابل، نجد عديدًا من مخرجينا دخلوا معترك الإخراج بعد إخفاق في التمثيل، انطلاقًا من اعتقاد (قد يكون صحيحًا أو واهمًا) بأنهم يمتلكون الموهبة، ولكن مشكلتهم أنهم لم يتسلحوا كفاية بالعلم، لذلك تجد رؤيتهم الإخراجية مضطربة وفاقدة الجوهر. الإخراج ليس سهلاً، فهو يتطلب إنسانًا شموليًا في معرفته بالأدب المسرحي، والتمثيل، والإضاءة، والموسيقا، والفن التشكيلي. أذكر ذات مرة، حين كنت أجري البروفات في الويلز على مسرحيتي «ليالي شهريار» بالإنكليزية، أنني كنت أرسم بعض المشاهد بدقة، كما في أفلام هوليوود، وذلك لكوني رسامًا هاويًا. جاءني أحد الممثلين الإنكليز مندهشًا وقال: «هذه ليست طريقة مألوفة لرسم الحركة، فالغالبية لا تتقن الرسم مثلك». ضحكت، وقلت: «ليسوا مضطرين. إنني أتسلى بتصور جماليات التكوين المسرحي». في معظم المسرحيات التي أخرجت، قمت بوضع التصور الأساسي للديكور، (ما عدا حين عملت مع نعمان جود)، كما اخترت الموسيقا التصويرية (ماعدا حين كلفت رعد خلف في «الموت والعذراء»). باختصار، وكي لا نتشعب بالموضوع، فإن الإخراج المسرحي يجب أن ينطلق من «تصور» ما، كما يفترض أن يتضمن تفسيرًا لنص المؤلف، بحيث لا يلوي عنقه ويقسر عليه نقائض من خارجه، بل يطوره من الداخل ليلائم شروط الزمان والمكان المتجددين والمتنوعين. هناك عديد من المخرجين الشباب يخلطون «التفسير» أو يفتقدون «التصور». في الحالتين، نكون أمام عمل ناقص، مهما برع في استعراض العضلات واستخدام التقنيات. في فن المسرح، كل شيء موظّف، حتى أدق التفاصيل. وأي عنصر مجاني، مهما صغر، يشكّل عبئًا على العرض المسرحي. لذلك، فالإخراج

المسرحي أحد أصعب أنواع الإخراج قاطبة، لأن الحد الفاصل بين النجاح والفشل فيه دقيق جدًا، ومهمة المخرج كثيرًا ما تكون مثل مهمة بهلوان يسير على سلك مشدود. وأقولها بصراحة: سواء أخرجت نصًا لشكسبير أم لمؤلف محلي فإنني أتعامل مع روح النص باحترام النص، وأتعامل مع كاتبه على أنه عبقري. الإخراج المسرحي موهبة وعلم معًا، وقد مارسته هاويًا، ثم تعلمته أكاديميًا، ثم علَّمته بشكل محترف. ولا أظنها مهمة سهلة أن تحيي نصوصًا مضى على بعضها قرون بشكل يجني النجاح. وحين أخرجت «رؤى سيمون ماشار» لبرشت، و«ترامواي الرغبة» لوليامز كانتا في مثل حرارة موضوع «القناع» لممدوح عدوان في تأثيرها على المتفرج السوري المعاصر. صحيح أن المسرح يخاطب قلّة قليلة من البشر، على عكس التلفزيون والسينما، لكن عمق تأثيره وتنويره وتثويره أكبر.

٣- برأيك الإعداد والاقتباس، سواء للمسرح أو للتلفزيون تعتبره ضروريًا، أم أنه يفرغ طاقة الإبداع ويصبح بديلاً لها؟

❖❖ الإعداد لا يلغي دور التأليف، ولكنه ضروري للمخرج، وأحيانًا كثيرة لكاتب السيناريو. هذا أمرٌ متعارف عليه عالميًا، فمعظم ما يقدم على خشبات المسارح في العالم يخضع لإعداد «دارماتورغ» أو مخرج، لأن النص الكامل لمسرحية «هاملت» شكسبير مثلاً يمتد عرضها زهاء خمس ساعات. كذلك، فإننا حين ننوي اقتباس الأدب العربي والأجنبي إلى شاشة السينما أو التلفزيون لا بد من أن يجري إعداد له للغة السيناريو. ذات مرة، اتفقت والملحن رعد خلف على اقتباس حكاية «سندريلا» مسرحيًا في عمل غنائي استعراضي، ولكننا غيرنا الحذاء إلى عقد، وألفت حوارًا كوميديًا خالصًا من بنات أفكاري، وظهرت «سفر النرجس» كعرض ممتع جذب جمهورًا غفيرًا من المتفرجين طيلة أسابيع عرضها. أما تلفزيونيًا، فاستلهمت «تاج من شوك» من مجمل أعمال شكسبير استلهامًا حرًا، وجذّرت المسلسل ذي الثلاثة والعشرين حلقة في بيئة الصحراء العربية. كذلك اقتبست «المجهول» عن رواية بوليسية لأغاثا كريستي. ولكن ذلك لم يحد من إبداعي سابقًا أو لاحقًا حين لا تكون ثمة ضرورة للإعداد. وأقولها بصراحة: ليس كل نص يستدعي إعدادًا أو اقتباسًا، فالدرجة تتفاوت. في «ترامواي الرغبة» لوليامز مثلاً غيرت الزمان والمكان من الجنوب الأمريكي إلى دمشق الخمسينيات. أما في «الحيوانات الزجاجية» للمؤلف نفسه فلم

أجد ضرورة لتغيير المكان، لأن المسرحية أشبه بسيرة ذاتية، ولكنني غيرت الزمان بعض الشيء لأجعله قريبًا من المشاهد، وذلك باستخدامي لألحان أجنبية كانت شائعة في الستينيات، مما ترك صدى مؤثرًا من الذكريات لدى الجمهور. وعندما أخرجت مسرحية برشت «رؤى سيمون ماشار» اختصرتها، وجعلت موسيقاها وأغنياتها سورية وطنية، فخرج الإسقاط واضحًا من زمانها ومكانها إبان الغزو النازي لفرنسا إلى الغزو الإسرائيلي لجنوب لبنان. وحين أعددت «يقظة الربيع» لفيديكند، كثفت أحداثها دونما تغيير جذري، استخدمت لغة نابضة بالحياة تتلاءم مع النبض الداخلي لشخصياتها. أما في «الموت والعذراء» لدورفمان، فلم أغيّر سوى القفلة (باتفاق مع المؤلف التشيلي نفسه)، وجعلت لغتها ثالثة، أي محكية، إنما بعيدة عن العامية، لأن مستوى شخصياتها الثقافي عالٍ. في كل الحالات، فإن مسألة تعامل الإعداد مع اللغة أمرٌ هام جدًا، فالعامية درجات متباينة، ولكل مسرحية عاميتها، بل لهجتها المحكية. لكنني لا أميل إلى إعداد أو اقتباس الأعمال الشعرية والتاريخية إلى لغة سوى الفصحى، وأرى أن هذه البنية الأدبية من أسرار تأثيرها ونجاحها وتفاعل الجمهور معها. إن الإعداد والاقتباس والاستلهام حاجات أساسية لعمل المخرج والسيناريست، إنما دون إلغاء أو تهميش لدور التأليف، فهي لاتغني عنه إطلاقًا، وإن كانت في أحيان كثيرة قادرة على ردم الهوة بين العمل المترجم والمتلقي، بحيث تخلق تفاعلاً عاطفيًا وحميميًا بينهما، وذلك هو هدف الفن: التعبير بقصد التأثير، إن لم نقل التغيير الممكن أحيانًا. لا شيء يغني عن الإبداع الأدبي، أو يحل محله. ولكن علينا ألاّ ننسى أن المسرح والسينما والدراما التلفزيونية هي فنون أولاً، وبالتالي فهي قد تستند أو لا تستند إلى أصول أدبية، ولكنها تكتسب مزيدًا من العمق والغنى في استلهامها للأدب بأجناسه المختلفة.

٤- عملت طويلاً في تدريب الممثل المسرحي.فما كان منهجك في ذلك؟

❖❖ سؤال مهم، أشكرك عليه. الحقيقة أنني لم أعمل طويلاً كفاية في هذا المجال رغم أنني أعطيت عميقًا فيه. لم آت إلى مهنة تدريب الممثل إلا بعد تجربة تجاوزت (١٢) عامًا في التأليف والنقد والإخراج للهواة، إذ قدمت مسرحيتي «أنتيغون» لسوفوكليس و «هاملت» لشكسبير في دمشق قبل التخصص في مجال تدريب الممثل والإخراج في بريطانيا على يدي السويدي يات ملمغرن وسواه. ثم تابعت

اكتساب الخبرة في تدريب الممثل في الولايات المتحدة على أيدي أساتذة كبار جدًا، مثل جو تشيكن وجين شلتون ومارك إيبستين وأستاذي البريطاني الراحل جون لينستروم، الذي لعب تحت إخراجي دور «شهريار». يمكنني أن ألخص منهجي في التدريب على النحو التالي: الأساس هو منهج ستانسلافسكي كما تطور في أواخر حياته، وكما طوره بعض مريديه فيما بعد في أمريكا، وخاصة عبر عمل إيليا كازان الإبداعي. يعتمد هذا المنهج على تحليل الأفعال جسديًا. وهو أمر تبناه بقوة المخرج ذائع الصيت بيتر بروك. ولكن يمكن وصف منهجي بأنه «انتقائي» أيضًا، وذلك نتيجة دراستي في الغرب، والخبرة التي نلتها في الإيماء الإيهامي الفرنسي والتعبيري الأمريكي، خاصة الثاني على يدي آدم داريوس في لندن. اكتسبت، في الواقع، خبرة عملية في المسرح التجريبي من خلال عملي مساعدًا للمخرج الأمريكي الشهير جوزيف تشيكن في ورشة عمل وعرض في سان - فرنسيسكو عن « الجلطة الدماغية». كما استفدت من معرفتي بالإيطالي المقيم في الدانمارك يوجينيو باربا، وهو الذي سبق أن عمل مع غروتوفسكي ثلاثة عشر عامًا قبل أن يؤسس مسرحه الشهير «أودين» ويؤسس لصلة المسرح بالأنثروبولوجيا، (وأنا بالمناسبة من أتى بباربا ومسرحه إلى سورية). باختصار، مجمل الأعوام التي علمت فيها في «المعهد العالي للفنون المسرحية»، الذي شغلت منصب عميده قرابة عامين، تصل إلى ست سنوات كاملة، أخرجت خلالها ثلاثة عروض تخرج هي: «الحيوانات الزجاجية» لتنيسي وليامز، «الموت والعذراء» لآريال دورفمان، و«حلم ليلة صيف» لشكسبير. وأفخر بأنني درّست خريجين أصبحوا نجومًا لامعين، مثل: جيانا عيد، سوزان صالح، مازن الناطور، قصي خولي، رغدا الشعراني، ناديا حمزة، أسامة تيناوي وسواهم. ولكنني فخور أيضًا بأنني قدمت مسرحيًا بشكلٍ محترف مع «مسرح دمشق القومي» بعض الخريجين المتميزين، مثل حلا عمران، سمر كوكش، محمد آل رشي، ميلاد يوسف، رائفة أحمد، إياس أبو غزالة وسواهم، كما قدمت ممثلين شبابًا احترفوا المهنة مثل أمجد طعمة وغيره. أخرجت لفرقة المعهد المحترفة أيضًا ميوزيكال «سفر النرجس» من تأليفي وتلحين رعد خلف وتصميم رقصات معتز ملاطيه لي وأزياء آنا تشومبيلكوفا، وكذلك مسرحية «القناع» لممدوح عدوان بالتوازي مع عرض إنكليزي أجمع الجمهور على أن عرضنا السوري

تفوق عليه في التفسير والأداء. يكفيني فخراً كمخرج أن أتوارى في الظل، وأبرز النص والممثلين. ليس لدي أسلوب واحد، فأنا أتكيف مع روح المؤلف وضرورات الزمان والمكان: هذا هو أسلوبي.

٥- تمتلك سورية تقريباً جميع مستلزمات النجاح المسرحي، بدءاً من المسارح المجهزة، ومروراً بالكتاب والممثلين والمخرجين المعدين اكاديمياً، وانتهاءً بالجمهور المثقف المحب للفنون. لكننا نلاحظ أن أغلب الذين ذكرناهم غير راضٍ عن المسرح في سورية. برأيك، ما هي الحلقة المفقودة لخلق مسرح ناجح يرضي الجميع؟ وما هو أساس النجاح والفشل في المسرح عموماً؟

❖❖ المسرح السوري ليس جنة عدن ولا الفردوس. عملت في الإخراج المسرحي حوالي اثنتي عشرة سنة، وصدقاً كانت المعاناة المادية والتقنية لاتحتمل. أخرجت ميوزيكال «سفر النرجس» و «ليالي شهريار» من تأليفي، «حكاية الشتاء» لشكسبير، و«يقظة الربيع» لفيديكند، و «رؤى سيمون ماشار» لبرشت، و «ترامواي الرغبة» لوليامز، في ظروف صعبة لدرجة غير إنسانية. رغم ذلك، التزم عديد من الممثلين والممثلات معي وضحّوا بكسب ومجد التلفزيون، ومنهم: سلاف فواخرجي وصباح بركات ووفاء موصللي ونورا رحّال ومحمد خير الجراح وجهاد الزغبي وبسام لطفي ووضاح حلوم وحسام عيد وسواهم. الآن، هناك آفاق واعدة جداً بتحسن ملموس في عدد من مسارح دمشق وتجهيزاتها، ولكن ليس ثمة بوادر على تحسن في القوانين والأنظمة الراعية للإبداع المسرحي، والتي توفّر للفنان في هذا المجال دخلاً لائقاً يحرضه على التفرغ والبذل والعطاء. الرهان الحقيقي الوحيد على نهضة محتملة ومأمولة للمسرح في سورية يعتمد على العنصر البشري، أي على الإنسان. هنا، بالفعل، مواهب واعدة، لكنها نادرة وضائعة وسط ركام من الغثائة، ومن متوسطي المواهب أو حتى متطفلين بلا مواهب، خاصة في الإخراج والتمثيل. وأعترض في هذا السياق على كلمة «أكاديمي»، فهي الصفة التي تطلق على الدراسات النقدية الأدبية فقط. في الفن، ليس هناك أكاديمي وغير أكاديمي، بل هناك محترف أو هاوٍ. إحدى أهم المعضلات في المسرح هي ضياع بوصلة التوجه في الخطاب المسرحي، فإما تجريب مقحم يعيق التواصل مع الجمهور بسبب الهوس الشكلي والتعبير المجاني المسرف، وإما إسراف في استجداء استحسان الجمهور بتنازلات تجارية وشعاراتية قد

تصل أحياناً إلى درجة الابتذال أو الوعظ. أنا أرى أن خلاص المسرح يكمن في التحرر من هذا الانسحاق بين حجري رحى. لا بد من التعبير بغرض التأثير، ولا بد من تواصل العرض المسرحي مع جمهوره. بالتالي، على المبدع المسرحي أن يعي تماماً مضمون خطابه، وشكل هذا الخطاب، انطلاقاً من حجم المسرح الذي سيعرض عليه، ومن طبيعة جمهوره. هل هو مسرح للجماهير العريضة، أم هو مختبر للنخبة، أم مسرح للأطفال أم مسرح عمالي، أم فرقة جوالة في الأرياف؟ لا توجد غضاضة أبداً من طرح هذه التساؤلات، والسعي للتأقلم مع متطلبات إجاباتها. بل إن طرحها يشكّل ضرورة وضمانة للنجاح. النجاح أو الفشل ليس رهناً بالجمهور وحده، بل بالزمن. لكن المسرح لا يستطيع أن يتفاخر بأنه يغض الطرف عن الجمهور المختار الذي يود مخاطبته، مهما كبر أم صغر، فالمسرح واحة وسط صحراء من المشاغل والتسلية، لأنه يقدم جرأة وحميمية ومتعة لا يضاهيه فيها أي جنس فني آخر.

ثانياً في مجال القصة، والدراما:

٦- لو تحدثنا عن تجربتك في القصة.. بداياتها، بمن تأثرت؟ وبمن أثرت؟ ولماذا أقلعت عن كتابتها؟

❖❖ هذا السؤال يفتح صفحة منسية من ذكرياتي أعتز بها كثيراً. الواقع أنني لا أذكر بالضبط متى كتبت أول قصة قصيرة. ربما كنت أدرس الثانوية آنذاك. ولكن أول قصة نشرتها، فيما أعتقد، كانت في عام ١٩٦٧، عقب النكسة مباشرة، أي بعد بضع سنوات من ممارستي الخجولة في الظل. كنت ما أزال طالباً يدرس الأدب الإنكليزي في جامعة دمشق. ولكنني بدأت أدبياً أنشر في «الآداب» اللبنانية و «المعرفة» السورية، أي أنني دخلت المهنة من الباب العريض وليس الضيق. نشرت ثلاث مجموعات هي: «الذروة البعيدة»، «غابة الخنازير البرية» و «الثلج الأسود»، كتبت بعد ذلك قصة واحدة في لندن ولم أنشرها، أي أنني انقطعت عن كتابة القصة (١٧) عاماً، قضيت بعضاً منها في بريطانيا والولايات المتحدة وقطر. في الدوحة، نتيجة الفراغ والتأمل، وجدتني أعود إلى كتابة القصة القصيرة، وهناك كتبت قصتي «واحة لا تحب العصافير»، التي أرسلتها إلى واحدة من أكبر المسابقات للقصة العربية، وهي مسابقة إذاعة «دويتشه فيلله» التي شارك فيها ١٠٩٥ كاتب قصة من المحيط إلى الخليج، ووجدتني أفوز بالجائزة الأولى لأفضل قصة عربية عام ١٩٩٣ في احتفال رسمي أقيم في معرض الكتاب الدولي بفرانكفورت. نشرت القصة

بالألمانية، وأنتجت إذاعيًا مرتين هناك، ومرة بالعربية لإذاعة «صوت العرب» في القاهرة. ونشرتها ضمن مجموعتي «شمس الليل». بعد ذلك، كتبت ونشرت قصصًا متفرقة، لم تصدر بعد، ولكنها عمومًا قصص أشباح أو قصصًا غرائبية وضعت لها عنوان «ليلة شاب الغراب». أما إذا أردت سؤالي عما أضفت إلى القصة القصيرة السورية والعربية، فهذا السؤال أجدر بكتاب جيلي وبالقرّاء. لكنني كنت مهتمًا بالشكل، أي بالبناء القصصي، ومركزًا على عنصري الشاعرية والدرامية في القصة القصيرة، كما حاولت التأكيد على جانب الإيحاء البصري والمشهدي المحرض للخيال. لا أستطيع أن أقول بمن تأثرت، فتأثري لم يكن مباشرًا، وإنما نجم عن إعجابي بهذا الكاتب أو ذاك من خلال مطالعتي الغزيرة آنذاك. لذا يمكنني القول إنني أحببت قصص إدغار ألن بو وكافكا وموباسان وتشيخوف وهنري وكالفينو وساكي من الأجانب - وسأكتفي بذكر هؤلاء كنماذج - ونجيب محفوظ ويوسف إدريس وزكريا تامر وجبرا إبراهيم جبرا وغسان كنفاني وإدوار الخراط وغادة السمان ومحمد خضير. أقول لك: إنني أحب أكثر مما أكره في الأدب، وإذا لم يعجبني الكتاب أرميه جانبًا، فالمرء ليس مضطرًا لالتهام البيضة بأكملها كي يتأكد أنها فاسدة. حاليًا، أنا مقل بسبب المشاغل المهنية اليومية والمسؤوليات، لكنني أحن إلى كتابة القصة، وأجدها جنسًا أدبيًا بالغ الأهمية لما يتطلبه من بلاغة وجمالية وإقناع.

٧- شعر المشاهد العربي بعد متابعته مسلسل «هولاكو» انك ككاتب للمسلسل قد قرأت الماضي، لتحذّر الناس من إعادة المأساة في المستقبل.

هل سعيت إلى ذلك فعلاً في «هولاكو» وسواه؟

❖ بالتأكيد. وأنا سعيد لملاحظتك هذه النقطة. إن مقاربتي للأعمال التاريخية، سواء استندت إلى أصل موثق أم كانت من بنات الخيال، تشبه تجربتي في التأليف المسرحي إلى حد كبير. أنا لست مؤرخًا، ولا أقدم التراث متخفيًا، بل أسعى لإعادة خلقه برؤيا وفكر معاصرين، ينعكسان على الراهن، دون أن يفقدا مصداقية التاريخ، أو عنصر الخلود المأمول. كانت شخصيات «تاج من شوك» المستلهمة من مجموعة أعمال لشكسبير من لحم ودم، لكنها أكبر من الواقع، مما سما بها إلى المأساة الحقة. ولكن، كانت للأحداث أيضًا إسقاطات على الواقع. أما «هولاكو» ففيه جانب كبير موثق تمامًا، إلا

أن جزءًا آخر مهمًا تخلله هو من صنع الخيال. وخلال كتابتي للمسلسل، كان شارون يعتدي بهمجية ووحشية على المدن الفلسطينية، كانت الصور تتتالى على شاشة التلفزيون وعبر أثير الإذاعة، فاختلط الماضي بالحاضر. لذلك، برزت موضوعات مثل فرقة الصف العربي، واستفراد العدو بالقوى واحدة تلو الأخرى، كما برزت موضوعات العلاقة بين الحضارات، وتواجد الفرنجة في القدس. لكنني أبرزت تآلف القوى الوطنية بغض النظر عن الدين، وتكاتف المسلمين والمسيحيين في المشرق ضد الغزو الأجنبي، سواء كان صليبيًا أم مغوليًا، وصحوة الضمير حتى عند مستشرق أحب أهل البلاد وشعر بالغبن الذي يلحق بهم. كانت تلك أفكارًا معاصرة، مهمة ومفيدة من وجهة نظري، رغم أنها لم تكن موثقة تاريخيًا. أما الأحداث الكبرى، فاستعنت بأكوام من الأوراق الصفراء لتحري الدقة فيها، واقتطفت كثيرًا من الأقوال بالحرف من شخصيات تاريخية بعينها كلما تيسر لي ذلك. الدراما التاريخية مزيج من الوثيقة والخيال، ولا تكتمل إلا بتزاوجهما المنسجم. بالمقابل، كتبت مسلسلات اجتماعية وبوليسية، لعلّ أشهرها هو «المجهول». وأنا أحب التشويق والإثارة كنمط فني، وأعتبر النجاح فيه قمة الاحتراف، بحيث ضمنت هذه السمة في «تاج من شوك» و «هولاكو»، فأسهمت في نجاحهما جماهيريًا.

ثالثًا في مجال النقد:

٨- هناك من يقول إن النقد نخبوي بامتياز، فلا يكون النقد موضوعيًا وصائبًا إلا إذا صدر عن ناقد أكاديمي حاذق، بينما يرى آخرون أن النقد الحقيقي هو النقد العفوي الذي يصدر عن أي متلق للعمل الفني.

إلى أي الرأيين تميل في الحكم على النقد؟

❖❖ فليسمح لي القارئ أن أقول إن السؤال يتضمن مغالطة حساسة ودقيقة جدًا، إذ أنه سؤالان متباينان، وبالتالي فهناك جوابان متناقضان. ولعل السؤال الأول بحد ذاته إشكالي. سأبدأ من الآخر، فأقول إنني مع شعبية النقد، وليس مع نخبويته. ولكنني أعني هنا النتيجة النهائية للنقد في علاقتها بالمتلقي أو القارئ. ولكن ليس إعطاء الحق لمن هب ودب أن يدلي بدلوه في نبع النقد، ويسقي الناس، إذ أن من يفعل ذلك قد يسقيهم ماءً آسنًا، أو سمًا زعافًا.

أما بالنسبة للشق الأول من السؤال،

فبالطبع أقول إن النقد نخبوي، أي أن صفة الناقد لا يستحقها إلا من هو أهل لها، بالتمرس والخبرة، وقبلهما بالموهبة. لكن هذا لا يحصر المسألة بالأكاديمية، فهناك نقاد عظماء لا تتعدى شهادتهم الدراسة الجامعية الأولى على أحسن تقدير، ولكن حسهم النقدي كان عاليًا. ما أحب أن أؤكده في هذا السياق هو أن رفعة العلم والمعرفة لا تعني التعالي والتعقيد. لذلك، قلت إنني مع شعبية النقد، أي مع سلاسته وإقناعه وجاذبية اسلوبه. أعجبني من النقاد الأجانب للمسرح مثلاً ريموند وليامز وروبرت بروستاين وإيك بنتلي ومارتن إيسلن وبنديكت نايتنغيل ومايكا بيلنغتون ويان كوت وجون راسل براون. ذات مرة، في أحد مؤتمرات المسرح العالمية، فاجأت المنتدين من كبار المسرحيين برأي حظي بتأييد الغالبية، مفاده أن النقد التطبيقي أصعب من النقد التنظيري أو الأكاديمي. السبب أنه يفضح هشاشة الناقد إن لم يكن متمكنًا. الناقد الأكاديمي يأخذ وقته كاملاً، ولا يتقيد بالحجم، ويعود لما شاء من مصادر. أما الناقد التطبيقي فيكتب بكثافة شديدة، وبزمن قصير، ومن دون مرجعيات، لأنه محتم عليه أن ينشر بسرعة، وأن يفسّر، ويكون جسرًا بين الإبداع والمتلقي. كما أنه يحمل حكم قيمة مؤثر على مصير عمل فني مكلف له علاقة مباشرة بالجمهور. لذلك، فإن الأول مثقف كبير، أما الثاني فمبدع آخر يوازي إبداعه جهد من يقف وراء العمل الفني.

٩- من خلال متابعة الجمهور لأعمالك، مكتوبةً أم مجسدة على المسرح أو على شاشة التلفزيون أو عبر أثير الإذاعة، كيف تجسدت علاقة المبدع بالمتلقي؟

❖❖ أؤمن بالعاطفة في الفن. هذا لا يعني، أنني ضد العقل. في النقد، لابد من كثير من العقل والمنطق. ولكن الفن يحتاج إلى عاطفة، سواء كان شعرًا أم تمثيلاً أم غناءً. أحيانًا، ينجم التباس في العلاقة بين المبدع والمتلقي، خاصة عندما يطرق الإبداع باب التجريب أو يتذرع بالإبهام والترميز. لا توجد، في الواقع، وصفة جاهزة. الأمر نسبي. ولكنني حريص على أن يكون الغموض الذي صاحب بعض أعمالي المسرحية والقصصية غموضًا فنيًا، وبالتالي موحيًا وليس عبثًا شكلانيًا هدفه استعراض المهارات. وبالتالي، حتى في الرمز أو الحلم أو الكابوس، يبدو اللا معقول معقولاً، بل «أسطرة» للواقع، وربما جنين ولد من رحمه. أنا لا أحب التجريد في الفن، ولكنني مغرم بالسريالية. وأذكر أنني عندما زرت بروكسل ببلجيكا هرعت إلى متحف الفن لأرى لوحات رينيه

ماغريت، كما بحثت في معرض لندن وفي اللوفر عن لوحات سلفادور دالي. وفي مطلع شبابي، هزتني من الأعماق قراءة أدبيين معينين ممن قرأت لهم لدرجة الصدمة: إدغار ألن بو، وفرانز كافكا. من ناحية أخرى، أبكتني بعض قصص موباسان وتشيخوف وهنري، ولكن بشكل أكبر روايات دوستويفسكي. إنها مليئة بالعاطفة، وحافلة بالدراما.

١٠- برأيك ما هو الغرض من الأدب والفن؟ لماذا نصر على حمل الرسالة الأدبية والفنية؟

❖ كي نقاوم الموت. أؤمن بأن الوجود مليء، وأن الإنسان المبدع يسعى لاكتساب الخلود، مثل غلغامش، ولكن عن طريق إبداعه الذي يتحدى به الموت. إن لا واقعية الواقع المعاش في عالم انتفى منه المنطق، وسادت الأكاذيب والأقنعة، وهيمن العنف الذي يتجاوز حدود الخيال، يجعل الإبداع هو الملاذ والحصن والخلاص. عندما يواجه المبدع بقوة تكرّس الإحساس بخطر الفناء، وتهدد ليس بإبادة الأجساد، بل بإبادة الروح والتراث والحضارة، فإنه يحاول تكريس السلام والمحبة والحرية والديمقراطية، ولعله يحاول أيضًا تصوير كوابيس الخوف والدمار، في محاولة للتشبث بالحياة والحب وسط عاديات الزمن.

١١- النقد المسرحي في سورية نظري أكثر منه تطبيقيًا، ما عدا القليل. برأيك أي المنهجين يساعد الإبداع أكثر؟ وهل تحدثنا بتركيز خاصة عن تجربتك النقدية المسرحية؟

❖ أخالفك الرأي في أن نقدنا تنظيري أكثر منه تطبيقيًا، لكن المشكلة أن التطبيق عندنا قليلاً ما يرقى إلى مستوى الإبداع. أميل شخصيًا إلى النقد التطبيقي، ذلك لأن التنظير أمرٌ لا يجيده سوى ندرة نادرة، سواء من الأجانب أو العرب. وبالأخص في المسرح، فإن المطلوب من الناقد التطبيقي أن يخرج عقب مشاهدته المسرحية مباشرة ليكتب انطباعاته في وقت ضيق ومساحة محدودة جدًا، ويسلمها إلى الصحيفة، وعليها أن تكون دقيقة وعميقة لأنها يمكن أن تؤثر على مصير مسرحية كلف إنتاجها الكثير، وعلى أذواق الناس الذين سيختلفون معه بشدة وسيتوقفون عن قراءة ما يكتب إذا لم يكن مقنعًا كفاية. الناقد التنظيري يأخذ وقته، ويستخدم مصادره، ولا يحد أحد طول دراسته، ثم يقرأه عادةً مختصون. فأيهما أصعب. للأسف، النقد التطبيقي عندنا متخلف في معظمه، نتيجة الاستسهال الناجم عن سهولة النشر، وعدم الثقافة

الكافية للتحليل وإصدار الأحكام، ونتيجة الشللية وردود الأفعال الشخصانية المسبقة. كتبت في النوعين، وضمنت ثلث كتبي فصولاً تنظيرية، لكن ثلثيها الآخرين كان تطبيقيًا، كما في «بقعة ضوء»، «الصوت والصدى: دراسات في القصة السورية»، «قصة السبعينات»، «المسرح العربي: سقوط الأقنعة الاجتماعية». المهم هو منهجية العمل النقدي، أي التسلح المعرفي بمرجعية نقدية كافية، والتصدي للتحليل الموضوعي من خلال انطباع الناقد بصورة تقدم الحجج والبراهين المقنعة بحيث يكون المقال النقدي بمثابة جسر ييسر انتقال المتلقي إلى رحاب المبدع، ويعمق العلاقة بينهما بإنصاف.

رابعًا: في مجال العمل الرسمي:

١٢- عرفنا الدكتور رياض عصمت كمؤلف ومخرج وناقد مسرحي لسنوات طويلة، وهي مجالات إبداعية ليست بعيدة تمامًا عن العمل الرسمي، إلا أنها مستقلة عنه. ثم بدأنا نتعرف عليه كشخص بارز في المؤسسات الثقافية الحكومية، كعميد للمعهد العالي للفنون المسرحية، وكمعاون وزير الثقافة، وكمدير عام للإذاعة والتلفزيون. لو تحدثنا عن تجربتك الشخصية في هذا المجال، وما تضمنه من متاعب وهموم وإيجابيات، وعن مدى التأثير والتفاعل بين الإبداع والمنصب الرسمي، وكيفية تعزيز كل منهما للآخر.

❖❖ كل ما أستطيع قوله هو أن مقام الإبداع عندي يأتي أولاً. ولكنني في المهمات التي أوكلت إلي، حاولت أن أتصرف باحترام للآخرين، إنما بحزم. أحيانًا، اتهمت بأنني حازم وديكتاتوري لدرجة التعسف في القرارات، وأحيانًا اتهمت بأنني دمث وديمقراطي زيادة عن اللزوم. لا شك المنصب الإداري الرسمي سرق مني متعة الإخراج المسرحي، بحيث أعلنت في عام ٢٠٠٣ أنني اعتزلته للأبد. إن المنصب مسؤولية وعبء مرهق يزداد كلما عظم، وهو يضع الإنسان أمام خيارات صعبة جدًا أحيانًا، قد يؤله إنسانيًا أنه مضطر لاتخاذها من أجل ما يعتقد أنه مصلحة عامة، ويدخله في صراعات ومتاعب هو في غنى عنها. أنا لا أعتبر نيل أي منصب للمبدع كسبًا، بل تضحية. ولست أزعم إطلاقًا أنني فعلت أو سأفعل المعجزات، لكنني أعتقد بأنني لم أسلّم مؤسسة كنت على رأسها إلا أفضل مما استلمتها. الزمن وحده كفيل بإيضاح صواب مواقف وخيارات الإنسان، غير المفهومة أو المقدرة في حينها. ومهما كانت النتائج، فعذري أنني أسعى دائمًا إلى ضبط الشطط والمحسوبية والشللية، وإلى

استـعـادة بعض العـدل والإنصـاف والموضوعية المفتقدين. كنت وما زلت أحاول ما أستطيع ألاّ أقوم بعمل يمنعني من النوم على وسـادتي وأنا مـرتاح الضـمـيـر. أنا لاأنظر إلى الوراء أبداً، بل أنظر إلى الأمام. الحـاضـر هو جـسـر يصل بين الماضي والمستقبل.

١٣- تقـدّم الإعـلام المرئي في العـالم بشكل سريع، وأصبح مـفـتـوحـاً للقـاصي والداني بأيسر الطرق. وقد تقدّم أيضاً في سورية بشكل ملحوظ عبر القناة الفضائية والقناتين الأولى والثـانيـة، وذلك بشـهـادة الجمهور العربي عامة. كيف ترى موقع ودور ومبادئ التلفـزيون العـربي السـوري ضـمن مسيرة التطوير والتحديث التي تشهدها سورية؟

❖❖ نحن نتـقـدم، بلا شك، ونحـاول مجاراة العصر. لكن التلفـزيون بعد انتشار «السـتـالايت» أصـبـح مـثـل الراديو «التـرانزسـتـور»، مما جـعل من الضـرورة الملحة تغيير كثير من المفاهيم. طيف الاختيار الواسع جداً بين مئات المحطات يجبر على دخول معترك المنافسة، وما هي أسلحة المنافسة، سوى الصراحة والجرأة والحرية والديمقراطية. أعتقد أننا ما زلنا محـافظين، وأننا لن ننطلق إلا إذا أفسح المجال تلفـزيونيـاً داخل سـورية بإنشـاء محطات خاصة، مثلما سمح لموجات «FM» الإذاعيـة مـؤخـراً ضـمن عـمليـة التطوير والتحديث والانفتاح التي نشهدها. لكننا نفتخر ونزهو بانتشار الدراما التلفزيونية السورية ونجاحاتها المشهودة على مختلف المحطات العـربيـة، بحيث دخلت معـترك السـبق وصـارت تنافس على الصدارة في بعض الأجناس، وخاصة المسلسل التاريخي والفانتازيا السورية هي سفير فوق العادة لوجه حضاري للوطن، يجب أن يتخلص من الشـوائب التي علقت به من استـسـهـال وتجـارة دون تمسك بقـيـم الفن الأصـيلة والمعاصرة في آن معاً.

❖ ❖ ❖

الإبداع

شعر

قصة

رؤى للشـــروق ؟؟

شعر

منـــاة الخيـــر ❖

عيناكَ غيمٌ واعدٌ
والروحُ باديةٌ يعذّبها الجفاف
شفتاكَ سربٌ من طيورِ
الحبِّ
والأيامُ أغصانٌ تنوسُ
على الضفافْ
بعثرْتَني

(❖) مناة الخير : أديبة وشاعرة من سورية. لها عدة مجموعات شعرية.

أدخلتَني ملكوتَ ضوئك
لا رداءُ الوقتِ أسعفني
ولا الصمتُ الطويلْ
شيءٌ بصوتك يستبيحُ
طراوةَ اللحظاتِ ينسجُها
غلائلَ من ذهولْ
قلبي المُسيجُ بالزمان
يعودُ عصفورًا
ويقفز فوق أوتارِ الثواني
موقظًا نغمًا تلاشى
بين طياتِ الفصولْ
جذلى رأيتُ أصابعي
تخضرُّ تورقُ
ينبتُ الدراقُ في شفتيَّ
يملؤني العقيقْ
قدرٌ يدور على مسارِ النارِ
يحملني إلى وهجٍ تَجسَّدَ نخلةً
سمراءَ يعجنُها الندى برضابهِ والشهدُ
يوغلُ في التفاصيل الصغيرةْ

وردُ المساءِ يضوعُ
أغنيةٌ ومن جَفْني فراشاتٌ
تحومُ على تخومِ
البسمةِ الخضراءِ
تحملني إلى زمنٍ طليقْ
تتبرعمُ اللحظاتُ أزهارًا
شموعًا من رحيقْ
يذوي رداءُ الصمتِ
عن جسدي يذوبُه
التوجّسُ والرجاءْ
أنتَ المعلقُ في حبالِ الوقتِ
منذورٌ لأشرعة السنابل
والتواءات المكانْ
وأنا الشغوفةُ بالبهاءِ
يلوحُ من وجهٍ كدفءِ الرملِ
شرقيٌّ السناءْ
الآن أسقطُ من سماء تماسكي
لأعودَ أنثى من ضياءْ
هذا المساءُ يشدني لضلوعه

يجتاحُ سدًا من حصونِ الرمل
انشدها احتماءْ
حُرقٌ تعيد نصاعة الألوان
عتَّمَها انطفاءْ
تمتد كفكَ للزمان تلمّهُ
وإلى المكان ترشهُ بالأقحوانِ
وتفضُّ صمتًا باردَ القسماتِ

يطوي راحتيه على
شغافِ القلب
تبثقها الظنونْ
خبأتَ شمسًا
في خوابي الجفنِ
ينثرهُا الفراتُ
ملوحًا للعابرينْ

الشاعر وأشباح المدينة

شعر

عادل العامل *

عادَ..
إلى غرفتهِ..
وأسدل الستارْ
واطلقَ النارَ..
على أحلامهِ..
والحبِّ..
والأشعارْ

(*) عادل العامل:أديب وشاعر من القطر العراقي الشقيق. ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

وغادر الغرفةَ..
في الصباحِ..
محمولاً..
على نقَّالةٍ..
النهارْ
والناسُ..
سارحونَ من ورائه..
لا يعلمونَ..
ما الذي جرى..
وصارْ!
وما الذي عكَّر..
صفوَ الماءِ..
والورودِ..
والأطيارْ!
فصارتِ المدينةُ الغبراءُ..
أكثرَ اغبرارْ
ولم تعدْ تشرقُ فيها..
الشمسُ..
مثلما كانتْ
ولا تختلفُ الأيامُ..
والوجوهُ..
والأدوارْ
فالناسُ..
أشباحٌ بلا ظلالٍ..
أو غدٍ..
أو أملٍ..
أو منزلٍ..
أو جارْ!
لا يعرفونَ بعضَهم..
بعضاً..
ولا يدرونَ..
غيرَ ما يقرِّرُ..
الإلهُ في مقرهِ السرِّي..
من أخبارْ
حياتُهم قرارْ..
وموتُهم قرارْ..
وليس بينَ الموتِ..
والحياةِ..
غيرُ لحظةِ الفرارْ
وهكذا..
عادَ إلى غرفتهِ..
وأسدلَ الستارْ
وأطلقَ النارَ..
على أحلامهِ..
والحبِ..
والأشعارْ

❖ ❖ ❖

مع المتنبي

قصة

سحبان قدري العمر *

اتفق مدير الثقافة مع ثلاثة من مدرّسي المحافظة على إحياء أمسية أدبية عن المتنبي نابغة اللسان والبيان.. ولما كان سر البلاغة الإيجاز، ولتجنب التكرار والإسفاف.. وحتى ترفرف خفة الظل على الأمسية، وتغدو أشبه بنزهة في بستان، على كتفه شلال، ماؤه عذب فرات.. تعهد المحاضر الأول بتغطية عصر المتنبي وحياته.. وخُص الثاني بتحليل شخصيته واستجلاء سراديب فلسفته.. أما الثالث فيطرق بوابات أغراضه الشعرية، ويفتح الكوى أمام رؤىً جديدة في مذهبه الفني..

(*) سحبان قدري العمر: أديب وقاص من سورية. من مجموعاته القصصية: «شيخ الشباب» و«الصقيع».

المحاضر الأول:

عرّف ذلك العصر المضطرب، دولة مترامية الأطراف، تشرذمت إلى إمارات صغيرة متنابذة متناحرة، تُجاهر بعضها العداء، وتطمع فيها الأعداء... كل ديك على مزبلته صيّاح.. لا شريعة فيها سوى شريعة الغاب...

تدفقت الألفاظ من فم المحاضر بعفوية ويسّر، كشؤبوب غزير، يروي الأرض العطشى.. أضاءت أفكاره ذاكرة الجمهور، التي استعادت مآثر التاريخ وأريجه وعبره... ولدى روايته لأحداث بعينها -وقد أسقطها على العصر الحاضر- اشرأبت إليه الأعناق، والتفت حوله الأفئدة وملأت النشوة الأعطاف.. فمرحت الخواطر بلا قيود...

ناس الاهتمام، وبدأت الحيرة تنسج خيوطها على بعض الوجوه، وحاولت أن تمسك برأس الخيط الذي كاد ينقطع، حين تسللت المحاضرة إلى شخصية الشاعر وفلسفته، تحللها وتنقدها... ثم تستعرض المؤثرات الوراثية والبيئية، ويدها الطولى في تفتّح مواهبه المبكرة... والتمس بعضهم العذر له، فلابدّ من هذا الاستطراد اللطيف لإغناء جوهر الموضوع... وتلك لعمري مأثرة سبقه إليها شيخنا الجاحظ، إمام من تحدث وكتب...

انتقل المحاضر إلى الكتب الهامة التي درست شاعرنا وأرّخت لحياته وأدبه، وأبدى إعجابه بكتاب أستاذه القدير: شفيق جبري، «المتنبي، مالئ الدنيا وشاغل الناس» ودعا الناس إلى قراءته، والاستفادة منه لمن أراد الاستزادة وآثر الموسوعية في الثقافة والفكر... وفطن إلى كتاب «مع المتنبي» لطه حسين، فصب عليه جام سخطه وغضبه، لا لسوء في الكتاب، ولكن لأنّ مؤلفه ذلك اللعين الشعوبي أعمى البصر والبصيرة، أنكر الشعر الجاهلي -تلك الزمردة التي تزين تاج ديوان العرب- في كتاب آخر دبّجه في مطلع شبابه، ليلج آفاق الشهرة... على مبدأ خالفْ تُعرفْ...

غدت العيون حلقات من التثاؤب، وقد تناثرت أفكار المحاضر دون ضبط أو تركيز، كسبحة قُطع خيطها، فتدحرجت حبّاتها على رخام أملس... وتصلّب السؤال على الشفاه: متى يجيء الفرج؟!!

راقبته الأعين، وقد انقضّ كالنسر على معلقات الشعر الجاهلي، يستنطقها، يقرأ مطولات منها، يدحض بالحجة الدامغة والبرهان الساطع افتراءات هذا الدّعي وتخرصاته... متى عاد المحاضر أدراجه إلى المتنبي، وكيف عاد ومتى؟!! لا أحد يدري، فقد لفّ الجميع الضياع!!...

ساعتان بالتمام والكمال، أحسهما الناس، كأيام الإفلاس أو سنوات الجفاف... غدوا كالغارقين وسط الرمال المتحركة، بدت على وجوههم سحنة المظلومين.. تململوا في مقاعدهم... انسلّ بعضهم هاربًا، تلهى آخرون بالأحاديث الجانبية... تدلّت الرؤوس على

الصدور، ترنحت على الأكتاف، اندست بين الأذرع المشدودة، ثم تلاشت كالهوام..

كنت من القلّة التي صمدت بأعجوبة، فتوهمتُ أن فمي ينفرج عن لسان لاهث ممدود، قفز فجأة في وجهي من سطح مرآة محدبة، وقد أجهضت نظرتي الحانقة ابتسامتي المجاملة..

المحاضر الثاني:

كان من أشدّ الحضور تأففًا وغيظًا، خجل بالنيابة عن زميله، وسطا عليه الإحباط، ونال منه الوهن.. كان يجلس إلى جانبي، شكا إليّ بصوت هامس:

- كما ترى، فوضى عارمة ما أنزل الله بها من سلطان!!.. أسأله تعالى أن يعينني على إقالة هذه الأمسية من عثرتها، ولعلي أفلح، وأنقذ ما يمكن إنقاذه، ونصل إلى بر الأمان بخير وسلامة!!!

تقدّم بلباقة وكياسة-من «الميكرفون»- رسم على فمه ابتسامة عريضة ودودة.. ثم بيّن أنه سيحاول أن يضيء صفحات مجهولة من شخصية المتنبي، هي نتاج دراسات حديثة العهد، توّجت جهود بحّاثة أفذاذ من الشرق والغرب..

امتشق المحاضر حسام أفكار ساحرة ونوادر فكهة، ركضت ألفاظها على شفتيه كحصان مروّض أصيل.. نصب سارية فنّه، وطرّزه بابتكارات ماتعة.. استيقظ الجمهور من خموله، تفتحت الدهشة على الوجوه، امتشقت المشاعر روح التفاؤل بعودة الأنس إلى الأمسية..تشنفت الآذان، غدت أشبه بقاعات رحبة، يعزف فيها نسغ ثقافي طلي الأنغام.

حواس الجمهور تتصهر في المحاضرة إلى حدّ التلاشي.. تطير أخيلته إلى فلسفة المتنبي وعبقريته، تتذوق طعمها، تمتص دماؤه شهدها، تتدفق حارة في تلافيف دماغه..

فجأة، ودون سابق إنذار، ينقلب المحاضر إلى حاوٍ عجيب، ينبش التراب عن أمّ المتنبي وأبيه وجدّته.. ويهرول إلى الكوفة، ليشهدنا ولادته في حيّ كندة.. ثم يرحّلنا معه إلى بادية السماوة، لنمتحَ معه العربية من منابعها الثرّة.. ثم يمتطي أسوار الزمن ليحط في مجلس الشريف المرتضى، وأبو العلاء المعري عنده ينشد مطلع قصيدته «لكِ يا منازل في القلوب منازل».. يميط اللثام عن أسرار إعجابه بالمتنبي وشعره.. ولما كان الشيء بالشيء يذكر، فالتعريف بكبير الشعراء الفلاسفة أبو العلاء ضربة لازب.. يموسق صوته، ثم يمطّه ويرخيه وهو يقرأ مقاطع من لزوميات المعرّي الخالدة، التي تقدم لوحة «بانورامية» رائعة لقضايا عصره الكبرى وثقافته..

ينسى المتنبي تمامًا، لولا أن يلقاه مصادفة قرب قلعة حلب، وقد امتطى فرسه إلى جانب سيف الدولة الحمداني.. فيسافر معهما إلى ثغور الروم، ليقفل عائدًا إلى مصر، فيلقاه في بلاط كافورٍ الإخشيدي..

ثم يستأذن الجمهور، ليقرأ مقاطع في مدحهما وعتابهما والتعريض بهما... ولا يفوته أن ينفذ إلى بقية أغراضه الشعرية يعددها ويستشهد بمقاطع مطولة من عيون قصائده، وينبري لإصدار أحكامه النقدية على مذهبه الشعري وفنه وصنعته.

صوت المحاضر ينهمر كالطلقات النارية فوق رؤوس الأشهاد... يتهاوى وعي الجمهور مع ألحان النشاز التي حزّت أعصابه، فينسل مفلتًا من قبضة إرادته...

يفتخر المحاضر بثقافته الموسوعية، يتابع كل جديد على الساحة الثقافية، العربية والعالمية، فبالأمس القريب قرأ المجموعة القصصية الأخيرة للكاتب الكبير زكريا تامر، ولفت نظره قصة قصيرة منها بعنوان «نبوءة كافور الإخشيدي»، لخصها وحللها ونقدها، واستخلص منها أن المؤلف أراد القول: إن كافورًا أوقع المتنبي في شرك النفاق...

صمت لاهث يخيم على الجمهور، يعقبه مغادرة فوضوية لفوج آخر، تعمّد أن يثرثر بأصوات خشنة... المحاضرة ما تزال حبلى بالفوضى، والصابرون على البلوى، ممن استُنفرت أدمغتهم واستُفزت، لا يتجاوزون أصابع اليدين... قبعوا كفئران وقعت في مصيدة، ينظرون نظرة يائسة إلى الوجه المنفعل المنتصب أمامهم... تجمدت الكراسي تحتهم فظنوها أسرّة، فتهاووا فيها، وقد غدت مساندها متكأ للأنفاس والرؤوس التي أذبلها الإرهاق.

انسحبت ساعتان ونصف الساعة، حصدت من الجمهور بقايا راحته، وألقمته جبالاً من الغلظة... اكفهرت الأرواح، وأطلّ الانقباض المتعاظم من العيون الوسنى...

المحاضر الثالث:

تقدم من المنصة، أبعد الميكرفون... ثم قال:

– أشكر زميلي العزيزين... فقد كفياني مشقة الحديث والشرح والتحليل... وصدّق من قال: ما ترك المتقدم للمتأخر شيئًا... وبعد... فلعل الحظ يسعفني، وأحظى بخرم إبرة، أنفذ من خلاله إلى أمسيتنا الجميلة، التي أشرقت أنوارها بحضوركم... أرجو أن ترافقوني إلى «البوفية» المجاور، لنحتسي معًا كؤوسًا من الشاي... والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته...

أفاق الجمهور من بلواء غفلته ورقاده وكأنه زرق حقنة منشّطة، فزغردت حناجره فرحًا وتهاطلت أكفّه بتصفيق غزير، ورددت الشفاه بصوت واحد:

– أعدّ... أعدّ... ما صارّ، ما صارّ...

❖ ❖ ❖

المشعل المهجور

قصة

غالية خوجة *

قلتِ للدرب المهاجرة:

- التفِّي على غربتي، وعلى.. جروح الصفصاف.. ثم، انتبهي على دموعي من الجفاف، ولا.. تضيعي في المقبرة..

كانت أبنية المدينة تستعيد حركة الساكنين.. والشوارع تتهيأ لأقدام المارة، ولضجيج المركبات.. .. ونباتات الحديقة تستيقظ على خيوط الفجر..

وكانت بعض الأحلام تسبق أصحابها إلى الدرج، إلى المخابز، وإلى أمكنة العمل..

(*) غالية خوجة: أديبة وقاصة من سورية. عضو اتحاد الكتاب العرب.

وبعد أن حرثتْ نظراتُك عرائش الورد الناعس، وتلك النافورة المتثائبة حيث يومًا وقفتِ أنت وهو تتساءلان: بماذا توحي قطراتها الصغيرة وهي تغوص تحت صفحة ماء البركة؟..

على صفحة الماء، حينها، رميت تويج بنفسجة وغصن حبق.. ثم قلت:

- القطرات تعزف ترنيمة جميلة، وتسقط من النافورة لتعود إلى أمها..

يومها..،

كان شديد الشرود والسهو، والحنان.. فلقد مدَّ يده وحضن يدك بمحبة لا زالت آثارها على أصابعك، وقبّلك بشوق قائلاً:

- ألا تشبه النافورة قلبًا جُرح الآن..؟

قلت:

- ربما.. غيمة تنزف، أو، تضحك.. الآن..

لحظتها.. قهقه ناسيًا ما يشبه أحزانه..

- قيل: إن الذي نسيه صار صفصافًا..

ولحظتها.. لم تفهمي ماذا كان يقصد.. وماذا قلت..

لكنه حملك بين ذراعيه، ودار بك.. ثم توجهتما إلى محلات الأزياء.. اشترى لك ثوبًا بكل النقود التي كانت معه.. الثوب أبيض، مزركش بأزهار صغيرة ملونة.. فرحتك كبرت.. حتى.. ملأت وجهه بالحمرة، وقلبه بالوهج..

قفزتِ.. فتطايرت أطراف الثوب مثلما تطايرت ضحكته مع النسيم الصيفي.. كأنهما لتوّها تصدح في الآفاق..، خلف الشمس، وقرب الأيام التي ستأتي..

وكان.. أن مررتما بساحة مكتظة بالناس..

أطفال ورجال ونساء وشيوخ ورضّع.. كأن الأزمنة كلها انحشدت في هذه الساحة..

حاول أن يزاحم.. أن يجد مكانًا..

- عفوًا سيدتي.. أتسمحين؟

قال لإحدى الواقفات، فأجابت:

- فقط من أجلها.. الله! يالروعتها وأناقتها..!

خطوات أخرى. و.. تصيران في الصفوف الأمامية..

كانت فرقة موسيقية جوالة تستعد لعرضها.

خمسة شبان يعزفون على الأبواق الصفراء استعدادًا للعرض..

وفتاة شقراء تحرر السهم من قوسها.. فتهدأ الموسيقا، ويصعد المنصة الخشبية بهلوان كبير الأنف، ملون الثياب، مكحّل العينين.. يقفز في الهواء.. يمسك قبعته،

ثم يقف محيّيًا الجمهور بفمه الأحمر الواسع:

- يسعدني حضوركم..

فتصفق فتيات الفرقة، ويرفع الشبان أبواقهم عازفين فاصلاً موسيقيًا..

يتابع البهلوان:

- سنقدم عرضًا أنا وزملائي يحتاج للإصغاء بالآذان والعيون.. نتمنى أن ينال العمل إعجابكم.

وبينما ينزل المهرج على يديه، جاعلاً من قدميه فوق رأسه، يصفق الناس تصفيقًا مصحوبًا بضحكات وبنظرات ملهوفة ومنتظرة.

ومن الخيمة المنصوبة بعيدًا عن المنصة الخشبية، تخرج فتاة سمراء مرتدية ثياب فارس تاريخي.. تخطو قاطعة بسيفها الهواء، محدثة صوتًا يوحي بالقوة.. تعتلي المنصة وتخاطبكم:

- تخيلوا أفقًا بين صباحين.. أفقًا لا يعرف الغروب.. لكنه، توسّد المراكب المشتعلة بين البحر والشاطئ..، وطلع من قلوب الجنود وقائدهم الذي قال لهم: «البحر من ورائكم، والعدو من أمامكم، فأين المفر؟».. في ذلك الزمن صغرت الأرض، فلم تتسع إلاّ العاشقَين: طارق بن زياد.. و.. النصر..

يرتفع تصفيق متواصل تشاركين به أنت وهو وكل من سيقرأ القصة، وتزغرد بعض النسوة، ويرفع الرجال رؤوسهم شامخين بتاريخ أجدادهم.. وتبدأ فرقة المسرح رقصة السيوف المرافقة لمزوفة تقرع فيها الطبول المتناغمة مع أصوات الأبواق وأصوات الشهداء..

يقبّلك هامسًا:

- كم أنت جميلة اليوم..!..

تضحكين ببراءة دُوار شمس يطارد الأشعة ليمسك بالنهار.. تخفت الموسيقا.. ويتسلل البهلوان من بين أفراد الفرقة.. يقرفص بعيدًا عن المنصة، وبصوت حزين يحاكي السماء:

- متى سيعود ذلك الزمان؟.. متى سنقف أمام الموت والعدو..؟ متى سنوحد فعلنا لنكتب زماننا الجديد.. ذلك الزمان الذي ننتظر؟؟..

يظهر أن الفيوم استجابت لأسئلة البهلوان، فبدأ رذاذ صيفي يهطل على الرؤوس متعانقًا مع دمع الوجوه، ومع الثوب الأبيض المزركش البهيج..

- أترغبين بمتابعة العرض؟

- بكل تأكيد..

قلت ذلك، ونشيج حاد يتفرد بحنجرتك،

ليس من أجل الثوب، بل... من أجل حالنا اليوم كعرب.

قفزت الفتاة الفارسة إلى المنصة.. ضغطت بكل قوتها على السيف الذي ظل وحيداً على خشب المنصة، بما في ذلك من إشارة إلى: أن ما أخذ بالقوة.. ثم قرفصت الفتاة قرب البهلوان، و وضعت رأسها بين يديها.. وكان حول الجميع موسيقا جنائزية سوداء، حمراء بيضاء، وخضراء.. معبرة عن دواخل المشاهدين والعارضين الذي اقتربوا حاملين نعشاً فُرشت عليه أنواع مختلفة من الأزهار، يتوسطها أغصان غار وزيتون، رُصفت بشكل دائري، توحي للإنسان العارف بأنها رمز لدائرة التكوين التي تداولتها الأساطير على هيئة أفعى ذيلها في فمها..

مشهد جنائزي يتقدم..

الألحان تبكي..

والعيون،

متخمة بحزن قديم.. قديم..

يعتلي الموكب المنصة الخشبية.. ويضع النعش قرب السيف.. ثم يتوزع أعضاء الموكب ويقرفصون على هيئة رأس حربة قرب الفتاة والبهلوان.

تغيّر الموسيقا حركتها..

لا تتغيّر ألوان الموسيقا..

فينسحب الحزن من العيون ليدخل محله استفهام غامض.. لا يلبث أن يتبدد حين ينفتح غطاء التابوت ويخرج منه مقاتل، يرمي هيكلاً عظمياً- كان يغطيه، على المنصة.. ويطلق في الفضاء، فوق رؤوس المتفرجين والقرّاء، حمامة بيضاء تحلق بحريّة وابتهاج ثم تغيب.. تغيب.. ولا يغيب المقاتل.. فها هو يأخذ بارودته من كتفه، يُخرج من فوهتها غصن زيتون.. ثم.. يُخرج قلب بلاده الذي مازال نابضاً.. نازفاً... ونازفاً.. تتبلل يدا المقاتل بخطوط دم حمراء تقطر من ساعديه على خشب التابوت والمنصة... ترسم خارطة الوطن العربي.. وتقطر.. تـ.. قـ.. طر.. على أكفهم، على الشجر، على الغصون، وعلى كل مكان وزمان.. وبعدما تعكس قطرات الدم نور النهار، ونور قلوبكم، يصرخ القلب:

- كيف نسيتموني؟ كيف نسيتم حضاراتكم وفتوحاتكم.. وسكنتم في الهزائم؟ كيف.. وكل ما في الأندلس يشهد على نبضي.. كل ما في الشجر يعرفني.. فأعيدوا إليّ صباحاتي.. أعيد إليكم أرواحكم..

بمنديل واحد يجفف دمعه ودمعك.. ودفعة واحدة، تعزف الآلات نشيداً يرقص

على أنغامه الرذاذ.. ولا.. تسدل الستارة.. ولا.. يعود الميت إلى النعش..

يلفّ ذراعه حول خصرك.. وتسلكان مع الجمهور المتفرق إحدى طرق المدينة المؤدية إلى بيتكم حيث أمك تنتظر.. يومها..، تناقشتما طويلاً حول رموز المسرحية التي ملأتكما بلهب الأزمنة والتصفيق والمفارقة الكامنة بين السيف والنعش والانبعاث والرذاذ وألوان الموسيقا وشجاعة طارق بن زياد والزركشة المعمارية القائمة حتى الآن في غرناطة..

يومها،

لم يكن البرق يتحرك في الأعالي..

ألم يستقر في جسديكما؟..

ربما، اللحظة، تذكرين كيف ردّ على سؤالك:

- أين نحن من العالم؟

كان متورد الوجه والقلق، ومتفائل الكلمات حين قال:

- ستشرق شمس العالم منا.. مرة ثانية.. ستـ.. تُشرق.. غداً.. وستستمر بلا غروبات.. وسيحاول العالم أن يلحق بمدارها..

وها قد أشرقت شمس الغد..

وها أنا أقول للطريق المؤدية إلى قبركِ:

- احتفظي بظله.. بخطواته.. فإذا مشيتِ وراءه، فلن.. تضيعي..

الدرب المتعرجة صارت خارج المدينة..

وقامتكِ تستقبل تباشير الصباح.. وسلّتا الورد أتعبتا يديك.. وثيابك المرقعة تفوح بآلام كثيرة.. لقد طوت ذاكرتك فصول ملامحه مع فصول السنة..

وخطواتك.. كل يوم، تطوي هذا الطريق مع نظرات المارة الذاهبين والقادمين..

هكذا..، في غمرة انفرادك بنفسك، يقاطعك صوت يرشح من مسام الأوراق الخضراء المتساقطة من أشجار الطريق على الاسفلت والرصيف.

لم تسمعي من قبل مثل هذا الصوت وهو يتحدث إليك:

- أنا الزمن الآتي.. أنا من يحطم الأحلام في عباب البحر، في تضاريس البر، وفي فصول الفضاء.. أنا من لاصوت لي.. أُسمِعكِ بأنني حين أريد أن أحقق حلمًا، فإنني أسرقه من أفكار ورغائب صاحبه، وأجعله على هيئة سفينة مجنحة.. عندما أكمل آخر ريشة فيها، ترسو في موانئ اللحظة..

الصوت عميق.. وبعيد.. كأنه آت من مكان لا يُرى من دواخلك.. ويستمر الصوت في التبخّر من جلدك.. ويتصاعد كدمك

إلى رأسك.. و.. فجأة.. تهب عاصفة تتغلغل بين الأغصان وسلّتَيّ الورد وجسمك.. تلمّ صوت من لاصوت له.. وتجمعه كمشعل يتأرجح أمام عينيك..

لا.. أحد يحمل المشعل..

ولا.. أحد يراه، سواك..

ولا نار في المشعل سوى وجه كدتِ تعرفينه..

و.. كدتِ تتعثرين بحجارة باب المقبرة.. يسبقك المشعل إلى قبر أبيك. تقبّلين الشاهدة.. تضعين سلتي الورد أمامك.. وترقبين وجه والدك المتوهج في المشعل.. كأنما جبال العالم كلها تتحرك وراءه.. وبحار العالم كلها هائجة، بمراكبها وسفنها وأمواجها تستغيث به.. تستغيث.. تنادي عليه..

النداء يتجاوز الجبال والبحار والمدينة..

يتعاظم النداء أكثر..

فتختلط عليك الأصوات:

– صوت أمك التي تمنت أن تبيعي الورود بسرعة كي تتناول معك الطعام.. صوتها رقيق أمرضه الحزن على والدك.. كم.. أوصتك بتقبيله.. وبطمأنته عليها..

– صوت طفل ورجل وامرأة يشترون منك وردًا.. يضعون لك النقود على القبر، ثم يجلسون قرب قريبهم الذي دفنوه البارحة..

– صوت الموتى الذين بدأوا ينفضون الأتربة عن أجسادهم وعظامهم وأرواحهم، ويتشابحون حول المشعل الذي بدأ يصير قصرًا بديعًا مائلاً إلى الحمرة، منتصبًا بعزة وشموخ فوق هضبة مشرفة على مدينة منشغلة بالسحر.. القصر يبتعد.. ثم يبتعد.. وأشباح الأموات، كالدخان المتشكل بعد الصاعقة، تتكاثف ثم تنبسط لتكون الطريق الوحيد المؤدية إلى القصر..

لقد لمحتِ نفسك تسلكين هذه الطريق بينما لم تغادري مكانك.. وها.. يدك تعطي بعض الورد لمشترٍ آخر ترك على القبر نقودًا.. تلمحين نفسك تمشين مسرعة، والطريق تتدرج بالارتفاع، وبالتعرج.. وما من صوت سوى صوت الزمن الآتي، وصوت لهاثك، وخرير سواقي الماء النقية التي تغريك ببرودتها الفضية بالشرب..

كم هي عذبة هذه المياه.. فلقد منحتك قوة أخرى لمتابعة الطريق الصامتة والساكنة.. ورغم هذا الصمت الرهيب إلاّ أن سكوتها يتكلم.. ويناديك.. فتصلين غابة كثيفة.. أشجارها الهرمة تغطي وجه الهضبة، وتمتد لتصافح أسوار القصر من كل جانب..

الرهبة تغمر قصر الحمراء ومن يدخل اليد..

الرهبة تجذبك.. فيخفق الجمال بالترانيم.. وتخفقين بالتشوق والتعرف على هذا القصر العجائبي المزدحم بالغرف والقاعات والأجنحة والـ.. كأنه مدينة تداخلت زخارفها وخطوطها المستقيمة والمقوسة والمنحنية، ورسومها، وزجاجها المعشق، ورخامها الفريد..

وصلت فناء الرياحين الذي تتوسطه مستطيلة، مياهها تغني مع رائحة العبق، فترقص الخضرة المجاورة.. وعلى هذا الإيقاع تتفتّح أبواب الغرف المصنوعة من خشب الأرز، وتنغلق أبواب أخرى..

كأن السقوف المزينة بأرقى فن تشكيلي صار لها ثوب مكشكش يميل معها، ويدور حول قدميها كأبرع راقصة «فلامنكو» ستطلع من فجر أسطوري... لترمي شالها الجميل على الذرا الساطعة من نقاء يوم بعيد أتعبه الحنين فحوّله إلى زعفران وزنابق وياسمين وقرنفل وأضواء تنعكس من فناء السباع على هيئة ماء مقذوف من فم كل سبع إلى سر غامض لا تعرفه إلا الجدران والبركة والماء والأعمدة والليالي المرتعشة في آفاق الريحان والجلنار والزمن الهارب من الموت..

الزمن ينفصل عن كل الجهات.. فيسقط النوم في الحفرة.. والأشباح، في مثواهم الأخير.. والقصر، في المشعل.. وأنت، فوق سلة الورد الفارغة..

يرفعك عن الأرض شاب كان قد اشترى آخر ما في السلتين..

يساعدك على الجلوس..

– أنا.. دا.. ئخة.. دائخة.. الدُوار.. المشعل.. القصر.. الـ..

يُحضر لك ماء.. فتشربين وتنظرين حولك.. المقبرة اعتدت عليها.. أناس يبكون بحرقة.. وأناس يقرؤون الآيات بصمت.. وآخرون يقرفصون فوق التراب.. بينما حفار القبور يجهز حفرة جديدة للميت الذي رأيت روحه قبل قليل تعانق بعض الأشباح.. فعرفت أنهم أخوته وأمه وابنه الصغير..

كنت كملاّح ضاع سنين في المحيط.. وحين رأى اليابسة، وقف مذهولاً، ثم.. هتف:

– أما زلتُ حيًّا؟!!!

صرخت:

– أ حقيقة لم أمُت بعد؟!

يحضنك الشاب المستغرب بهدوء ويقول:

– هل أساعدك بالذهاب إلى البيت؟

الشاب يكرر السؤال..

شاهدة قبر أبيك ترشح ماء.. كأنها جرّة أزلية، منها.. يتفجر، اللحظة، ينبوع بارد ونظيف.. كل الناس يتركون موتاهم، ويتحلقون حولك..

الموتى يتركون عظامهم ويهرعون إليك بعدما سحبوا ضيفهم الجديد من تابوته..

يصل إلى مسامعك: صوت ناي حزين..
وصوت قيثارة تنفصل عن اللوح المنحوتة عليه..

نشيد خفيّ يتارجح مع المشعل..
عيناكِ تتارجحان مع النشيد...
مطر غزير يقتحم دهشة الحاضرين..
وكفتاة مسحورة، تضعين رأسك تحت مياه الينبوع.. تغسلين شعرك.. وجهك.. كل جسمك.. يشتد المطر.. يملأ الوحل حفرة الميت الجديد.. يدوّي الرعد.. يلمع البرق.. تضربك صاعقة مفاجئة.. و.. تدخلك في المشعل.. وبطرفة عين تصيرين حمامة شعاعية.. تجربين الطيران.. تفردين أجنحتك.. ثم تضمينها..

ها أنتِ تطيرين فوق كل العيون..
الفضاء،
والمطر،
والموسيقا،
لكِ..
فمنذ ذلك اليوم،
وأنت كل فجر تتوحين على نافذة أمك، وتدورين حول النافورة، ثم تبتعدين إلى المقبرة..

منذ ذلك اليوم..،
وأنت كل مساء تختبئين في تابوت كل شهيد محمول على الأكتاف.. سيدفنونه الآن.. وكلما رفعوا غطاء التابوت.. لم يجدوا غير ثياب الشهيد ملفوفة بالعلم، عليها غصن زيتون.. وقرب الغصن طفل يصرخ باحثًا عن ثدي أمه..، وشعاع أزرق يطير باتجاه المدينة...

كلما سيفتحون تابوتًا..،
لن يجدوا غير قلب الوطن مسافرًا مع الشعاع...

❖ ❖ ❖

نافذة على النشاط الثقافي

أحمد الحسين *

* شهر الكتاب:

أقامت وزارة الثقافة بمناسبة اليوم العالمي للكتاب ما يزيد على ٢٠٠ معرض لمنشوراتها في المراكز الثقافية الرئيسية والفرعية في المحافظات السورية كافة.

وقد شهدت هذه التظاهرة المتميزة إقبالاً واسعاً من الأوساط الاجتماعية والثقافية بسبب وفرة العناوين التي ضمتها هذه المعارض من جهة، والتي شملت مختلف مجالات الإبداع والتأليف والترجمة وكتب الأطفال، واتساع رقعة هذه المعارض بحيث شملت كل المدن، والبلدان والتجمعات السكانية الكبيرة من جهة ثانية، وكان العامل الأساسي الهام في زيادة

(*) أحمد الحسين: باحث من سورية، ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

الإقبال على هذه المعارض هو التخفيض الكبير الذي جرى على أسعارها، والذي أتاح لروّاد هذه المعارض اقتناء المزيد من المعروضات حيث أن سعر النسخة من الكتاب الواحد لم يتجاوز ٥٠ ل.س ويعد هذا الأمر سعرًا رمزيًا مشجعًا على اقتناء الكتاب، وتحقيق التواصل بين القارئ وحركة التأليف، وما هو جديد في عالم النشر والدوريات.

وقد رافقت معارض الكتب نشاطات ثقافية وفنية موازية في مختلف المراكز الثقافية شملت المحاضرات والندوات والأمسيات الأدبية، وحلقات الكتاب واللقاءات الأدبية والعروض المسرحية والسينمائية، والفنية والحفلات، وسواها من النشاطات التي استقطبت الجمهور الثقافي وعززت حركة التواصل مع معارض الكتب، وارتيادها.

من ناحية ثانية أعلنت وزارة الثقافة في سياق شهر الكتاب، أنها ستقوم بإصدار سلسلة الأعمال الكاملة لعدد من الكتاب السوريين ومنهم: فايز خضور، أديب النحوي، جورج سالم، حسيب كيالي، عبد الله عبد، إضافة إلى إعادة طبع بعض الكتب من عصر النهضة في القرنين التاسع عشر والعشرين.

وبهدف تطوير هذه المبادرة وتحقيق أهدافها، وتعزيز نتائجها الإيجابية تعمل وزارة الثقافة على جعل شهر الكتاب تظاهرة ثقافية سنوية، وأن يتم التوسع في النشاطات الموازية لها، وأن يتم اختيار الوقت المناسب لها، وأن تعطي حيزًا واسعًا من الاهتمام الإعلاني والإعلامي، بحيث تصبح هذه التظاهرة سبيلاً حقيقيًا لتوسيع دائرة الثقافة الشعبية، وإتاحة الكتاب بين أيدي الجميع بأسعار متهاودة، تتناسب وأوضاع شرائح المجتمع المادية، واهتماماتهم الثقافية والعلمية والفنية[1].

❖ الأيام الثقافية السورية:

في الكلمة التي قدمت بها الدكتورة نجوة قصاب حسن أيام الثقافة السورية في السودان قالت: في فضاء ثقافي وقيمي واحد يظللنا وتراث فكري وبيان واحد يجمعنا، وإرادة متشوقة للعلا والتقدم تمثل تطلعاتنا، نحمل خطابنا الفني والمعرفي الأصيل من سورية العراقة والتاريخ إلى السودان الشقيق موطن الحضارة، نصل الماضي المجيد بحاضر يسير نحو المستقبل الأمثل، تتكامل في اقتباس القيم الرفيعة، وتجسيد الأخلاق الكريمة، نغني ونغتني بتبادل الفكر والإبداع.

وأكدت السيدة وزيرة الثقافة أن الأسابيع « الثقافية محطات تعرض فيها ملامح من التجارب الفنية وشواهد من الخبرات العلمية والثقافية في جو من التآخي والتآلف الذي يجسد التقدير

المتبادل والرغبة الصادقة في تعزيز أواصر الروابط الاجتماعية المتينة، وتعميق الرؤى الموحدة الهادفة لبناء الإنسان والوطن».

وقد حفلت الأيام الثقافية السورية بنشاطات متنوعة شملت معارض الفن التشكيلي، والكتب والصور الضوئية والعروض السينمائية، والأمسيات والمحاضرات الأدبية، والحفلات الموسيقية والفلكلورية.

فعلى صعيد معرض الفن التشكيلي: عرضت مجموعة من اللوحات الفنية لمشاهير الفنانين التشكيليين السوريين: فاتح المدرس، غسان السباعي، سعيد طه، خزيمة علواني، عبد القادر أرناؤوط، ممدوح قشلان، نذير إسماعيل، إلياس زيات، نذير نبعه، نصير شورى.

وقد عبرت لوحات هؤلاء الفنانين عن اتجاهات الفن السوري، وتياراته وتجاربه، وكشفت «عن المدى الإبداعي الذي بلغه الفنان التشكيلي المعاصر في سورية وتمكنه عبر مساحة اللوحة وعناصرها الفنية من القدرة والرغبة في التعبير عن كل ما يشغل ذهنه ويجسد واقعه بأبعاده ومستوياته السياسية والاجتماعيةوالثقافية، كما عبرت تلك اللوحات عن مستوى التعبير الفني، وما بذله الفنانون من جهود لتطوير أساليبهم وربطها بموضوعات الحياة اليومية والاجتماعية.

أما معرض الصور الضوئية فقد كان شاهداً على ما تمتلكه سورية من ماض عريق دلت عليه لوحات المعرض التي مثلت أبرزوأهم القلاع والحصون الأثرية في سورية، ومن بينها قلاع صلاح الدين، المهالبة، المرقب، الكهف، الخوابي، طرطوس، أرواد، حلب، سمعان، نجم، حمص، الحصن، تدمر، حماه، شميميس، شيزر، المضيق، أبو قبيس، مصياف، دورا أوروبس، الرحبة، حليبة، جعبر، بصرى، الصبية، صلخد، دمشق، إضافة إلى سور الرقة، وسور الرصافة.

وتجلت صورة السينما السورية من المشاركة السينمائية التي عرضت من خلالها على جمهور السودان الأفلام الطويلة التالية: نسيم الروح، تراب الغرباء، الطحين الأسود، الترحال، آه يابحر، وبعض الأفلام القصيرة: لحظة فرح، ياليل ياعين، رقصة مع الشمس وغيرها.

وشاركت فرقة المهرة السورية للرقص الشعبي بتقديم عدة لوحات فنية ودبكات شعبية، ومقطوعات غنائية جسدت تنوع الفولكلور والغناء السوري في مختلف بيئاته وألوانه الفنية والاجتماعية منها لوحة سماح، المولوية، واللوحة البدوية، ولوحة السيف والترس، وأغنيات وأهازيج مثل: زينو المرجة، ياطيرة طيري، عالزينو، ع الهودلك، واللالا.

وعلى صعيد المحاضرات والأمسيات الأدبية ألقت الأديبة رغداء مارديني محاضرة عن الصالونات الأدبية النسائية في سورية.

كما ألقى الدكتور نبيل اللو محاضرة عن «قالب السماعي في الموسيقية العربية التراثية».

وقدم الدكتور تامر العربيد محاضرة عن «تطور الفن المسرحي في سورية خلال العقود الأربعة الأخيرة».

وإلى جانب النشاطات السابقة أقيم معرض الخط العربي الذي ضم لوحات وصوراً لأعلام الخطاطين السوريين المعاصرين، وما امتازوا به من مهارات عبرت عن جماليات الحرف وتشكيلات الخط العربي.

بالإضافة إلى معرض الكتاب السوري، الذي ضم أهم العناوين الجديدة من منشورات وزارة الثقافة، ومطبوعات اتحاد الكتاب العرب، ومجمع اللغة العربية[٢].

❖ **لقاءات مع أدونيس:**

بهدف تعزيز الحوار الثقافي بين سورية وأوروبا. وبرعاية الدكتور محمد مصطفى ميرو رئيس مجلس الوزراء نظمت بعثة المفوضية الأوروبية بدمشق خمسة لقاءات شعرية وفنية مع الشاعر السوري أدونيس «علي أحمد سعيد».

وقد مثلت الدكتور نجوة قصاب حسن وزيرة الثقافة رئيس مجلس الوزراء في افتتاح فعاليات تلك اللقاءات، التي بدأت بأمسية شعرية موسيقية في بهو قصر العظم بدمشق، والتي انطلقت إلى بعض المحافظات الأخرى.

وفي هذه اللقاءات كان المكان يغص بالجمهور من المثقفين والأدباء والفنانين، رغم رحابة عالم الشعر وفضاءاته الواسعة، حيث حلق الشاعر أدونيس عبر قصائده التي ألقاها بأداء متميز، وطاف من خلالها متنقلاً بين محطات أساسية في تاريخ حياته وتجربته الإبداعية.

يتربع أدونيس اليوم بنتاجه الشعري والأدبي على قمة الإبداع والشهرة، ويعد أحد أبرز الرموز في الحركة الشعرية والثقافية العربية والعالمية، وقد صدر له أكثر من سبع عشرة مجموعة شعرية، وإحدى عشرة دراسة نقدية، وثلاثة عشر كتاباً مترجماً، وثلاثة عشر مؤلفاً تمثل مختارات شعرية ونثرية انتقاها من التراث العربي وقدم لها .ولأدونيس حضور واسع ومشاركات غنية على صعيد المحافل الثقافية والمنابر العربية والدولية[٣].

❖ **تحديات تواجه الثقافة العربية:**

دعا المجلس الأعلى للثقافة والعلوم بمصر إلى عقد مؤتمر حول الثقافة العربية بين تحديات الحاضر وآفاق

المستقبل «بمشاركة ٥٠ شخصية من أعلام الفكر والإبداع الثقافي العربي».

وسيتضمن هذا المؤتمر خمسة محاور تدور حول وضع الثقافة العربية على الساحة العالمية في العصر الجديد، وعلاقاتها بدول البحر المتوسط وثقافات آسيا وأفريقيا، وأزمة النظام الإقليمي العربي في ظل الأزمة الراهنة للنظام العالمي، ومشروع الإصلاح الثقافي في إطار الإصلاح السياسي للمجتمعات العربية.

كما سيؤكد المؤتمر على قضايا حرية الإبداع والتعبير، وتطوير السياسات الثقافية بما يؤدي حسب تصريح الدكتور جابر عصفور رئيس المجلس الأعلى للثقافة إلى تغيير البرامج الإعلامية، والبحث عن منظور جديد للثقافة القومية (٤).

❖ تكريم أدباء مصريين:

كرمت مصر عدداً من أدبائها ومثقفيها الراحلين والأحياء منهم، فأقامت ثلاثة تماثيل لأحمد شوقي وطه حسين ونجيب محفوظ.

وقد أزاح رئيس الوزراء المصري عاطف عبد الستار عن هذه التماثيل في ثلاثة ميادين رئيسية في العاصمة المصرية القاهرة، حيث نصب تمثال برونزي لأمير الشعراء أحمد شوقي، وهو جالس على كرسي فوق قاعدة رخامية في منطقة الدقي أمام حدائق الأورمان.

وانتصب تمثال طه حسين المصنوع من البرونز أيضاً في ميدان الجلاء قرب الجسر الذي يربط بين ضفتي النيل ومحافظتي القاهرة والجيزة.

أما تمثال الروائي نجيب محفوظ الحائز على جائزة نوبل، فقد نصب في موقع قريب من مكان سكنه في منطقة العجوزة.

وقد تواصلت مهرجانات التكريم المصرية، حيث أعلن وزير الثقافة المصري فاروق حسني عن أسماء الفائزين في نيل جائزة مبارك، وجوائز التفوق، والتقدير، وجائزة الدولة التشجيعية.

حيث فاز الباحث العلامة شوقي ضيف رئيس مجمع اللغة العربية في مصر بجائزة مبارك للآداب، وفاز بالجائزة ذاتها في فرع الفنون الدكتورة سميحة الخولي رئيسة أكاديمية الفنون سابقاً.

وفاز كل من سليمان فياض وصبري موسى وعبد العزيز حمودة بتقديرية الآداب، وزبيدة عطا وصلاح عامر بتقديرية العلوم الاجتماعية، وفاز الملحن كمال الطويل والسيناريست محفوظ عبد الرحمن والتشكيلي صالح رضا بتقديرية الفنون.

كما أعلن عن فوز الكاتب وحيد حامد والموسيقي راجح داود بجائزة التفوق في

فرع الفنون، والدكتور نهاد حليمة والكاتب عبد العال الحمامصي بجائزة الآداب فرع الفنون، وفي العلوم الاجتماعية فاز كل من أميرة مطر، ومحمد شفيق زكي، وشاكر عبد الحميد.

أما جوائز الدولة التشجيعية فقد فاز بها في ميادين الرواية والشعر وأدب الرحلات، كل من الروائي أحمد أبو خنيجر، والشاعر محمد الغيطاني، إضافة إلى ثمانية مرشحين آخرين في فروع العلوم القانونية والاجتماعية»[٥].

❖ **أصوات شعرية مغربية رائدة:**

تزامناً مع تنظيم المهرجان العربي الأول للشعر، وبهدف تشجيع حركة النشر في جميع الأجناس الأدبية، ودعم قراءة الكتاب المغربي، أصدرت وزارة الثقافة المغربية عدة دواوين ومؤلفات تجمع أصوات شعرية وأدبية مغربية.

ومن هذه الإصدارات بعض دواوين الشاعر المهدي أخريف، وكتاب حول موضوع « ديوان الشعر المغربي التقليدي»، وآخر بعنوان «ديوان الشعر المغربي الرومانسي».

وجمعت أعمال المهدي الكاملة إعادة طباعة دواوينه وهي : في الثلث الخالي من البياض، وضوضاء بنش في حواشي الفجر، وترانيم لتسلية البحر، ومالك الحزين، ومقاطع من عشق بدائي، وباب البحر، ورسوم الفرطاج على أسوار أ صيلة.

أما ديوان «الشعر المغربي التقليدي» فهو يشتمل على ثمانية شعراء مغاربة تقليديين عاشوا ابتداء من منتصف العشرينات من القرن العشرين، وهم: المختار السوسي، وعبد المالك البلغيثي، وعبد الرحمن حجي، وعبد الله كنون، وعلال الفاسي، ومحمد بن إبراهيم، والمهدي محمد الحجوي، ومحمد الحلوي.

وقد برز أولئك الشعراء في مدن مغربية متباعدة، والتقوا في فاس، فكانت على حد تعبير الشاعر محمد بنيس نقطة التجاذب التي ألفت بين قصائدهم.

ويضم ديوان الشعر المغربي الرومانسي مختارات شعرية لأحد عشر شاعراً مغربياً يمثلون التجربة الرومانسية، وهم: عبد القادر حسن، وعبد الغني سكيرج، وعبد الكريم ثابت، وعبد المجيد بنجلون، وعبد القادر المقدم، وعبد السلام العلوي، وإدريس الجاي، ومحمد الصباغ، وأحمد عبد السلام البتالي، وعلال بن الهاشمي، ومصطفى المعداوي وهذه المجموعة من الشعراء التي تحدرت من مناطق مغربية مختلفة جاءت بعد الحرب العالمية الثانية، كانت أول حركة شعرية بالمغرب أنصتت لكل

من شعـراء مدرسـة الديوان في مصـر وشعراء المهجر، كما تعرفت على شعر أبي القاسم الشابي(٦).

❖ الالكسو والتراث العراقي:

بعـد الدمـار الذي لحق بالمتـاحف والمكتبات العراقية وما تعرضت له من عمليات تدمير ونهب منظمة، تمثلت بسرقة ما يصل إلى ١٧٠ ألف قطعة أثرية، وحرق ونهب آلاف الوثائق التاريخية ، ومئات المخطوطات النادرة، عقدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اجتماعًا شارك فيه مكتب اللجنة الدائمة للثقافة العربية، مكتب اللجنة الدائمة للآثار والتراث الحضاري في الوطن العربي، بهدف وضع برنامج أو خطة عمل لما يجب أن تقوم به الدول العربية من أجل الحفاظ على التراث الحضاري العراقي، وعرضه على اجتماع وزراء الثقافة والإعلام العرب.

وقد أوصت اللجنة بتوفير ميزانيةمالية لا تقل عن مليون دولار لمتابعة مهمة تنفيذ الإجراءات المطلوبة لإنقاذ التراث العراقي، والمحافظة عليه، واسترجاع الممتلكات العراقية التي نهبت.

وطالبت اللجنة أن يكون العـراق أول المستفيدين من أنشطة الألسكو وبرامجها في الدورتين الماليتين الحالية والقادمة، والتنسيق مع المنظمات والمؤسسات ذات الاختصاص العربية والدولية في هذا المجال.

كما اقترحت اللجنة تشكيل لجنة «وحدة الآثار والتراث الثقافي العراقي» على أن تتكون هذه اللجنة من خمسة ممثلين عن سورية والأردن، والإمارات العربية، والسعودية وقطر، وأن يكون مقـر هذه الوحدة في إحدى الدول المجاورة للعراق.هذا وقد كان الفريق المتخصص التابع لمنظمة اليونسكو قد أكد في مؤتمر صحفي أن هنالك كارثة ثقافية في العراق تحتاج إلى سنوات من العمل وإلى تضافر جهود العالم لمحاولة احتوائها وإعادة بعض مانهب منها.

ودعا نائب مدير عالم اليونسكو إلى المباشرة بمجموعة من الإجراءات الطارئة على صعيد استئناف العمل في المؤسسات الثقافية العراقية، وتأمين مستلزمات ذلك من الناحية المالية، وتوفير المعدات والآليات وسواها من المستلزمات الأخرى.

وقد ذكر فريق اليونسكو الذي ضم إلى جانب بشناق كلا من: جون سل من جامعة ماساشيوسش وباريت مسؤول الآثار العراقية في المتحف الإيطالي، وماتسوموتو رئيس البعثة اليابانية المتخصصة بآثار العـراق أن زياراتهم إلى متحف بغداد،

والمكتبة الوطنية وبيت الحكمة، والقصر العباسي، ومسجد الأعظمية، كشفت عن تعرض هذه الأمكنة إلى إضرار جسيمة، وأن عصابات السرقة المنظمة قد نهبت كل شيء حتى المقاعد الخاصة بالعاملين في هذه الأماكن (٧).

❖ ندوة علمية موريتانية:

اختتمت أعمال اللقاء الأول للباحثين الموريتانيين في العلوم البحتة والتطبيقية، والتي استمرت فعالياتها ثلاثة أيام متتالية، وشارك بها عدد كبير من الباحثين، وأساتذة الجامعات الموريتانية.

وقد ألقى وزير التهذيب الوطني الموريتاني أبو بكر ولد أحمد كلمة في حفل اختتام الندوة تحدث فيها عن أهداف هذا الملتقى وغايته على صعيد كسب رهان التقدم العلمي والتقني في عصر سمته الأولى أنه عصر الثورة المعلوماتية، وما يتطلبه ذلك من خطوات تتجاوب مع المتغيرات المعرفية والكونية من خلال إنشاء صندوق وطني لدعم البحث العلمي في إطار البرنامج الوطني لتنمية قطاع التهذيب، وكذلك من خلال تدريس المواد العلمية ولغات الانفتاح، وتطوير عمل الجامعات والمؤسسات العلمية الموريتانية.

وقد تناولت أعمال الندوة الأولى للباحثين الموريتانيين عدداً من الموضوعات، تركزت حول مشاكل التبادل العلمي، وسبل تطويره، والصعوبات التي تعترض تحقيقه.

ثم انتهت الندوة إلى إقرار عدد من التوصيات أكدت على ضرورة الملاءمة بين النظام التربوي ومتطلبات التنمية من خلال تنمية البحث العلمي، وتفعيل تدريس اللغات الحية، وإصدار المجلات المتخصصة في هذا الشأن.

ودعا المشاركون إلى ضرورة إعداد استراتيجية وطنية في مجال البحث العلمي، ووضع الإطار الذي يكفل الحصول على التمويل المالي اللازم، وتنمية التفاعل والتبادل الثقافي، وتأمين انعقاد هذه الندوة بشكل دوري ومنتظم.

وهذا وكانت اللجنة المنظمة للندوة، قد أشارت إلى أن هذا اللقاء يعد الأول من نوعه، وهو يهدف إلى خلق فضاء للاتصال بين هؤلاء الباحثين، يخدم عملية التنمية العلمية والاجتماعية، بما ينعكس دون شك على تطوير وترقية حركة البحث العلمي في البلاد، وتنمية روح الابتكار والاختراع فيها(٨).

❖ ما لا يصلح للنشر:

على هامش مشاركته المتميزة في مهرجان الشعر العربي الذي نظمته الرباط

بوصفها عاصمة الثقافة العربية، قال الشاعر الفلسطيني محمود درويش: أنا من الشعراء الذين لا يحتاجون إلى نقاد لكي يدمروهم... «أنا كفيل بتدمير نفسي، والتمرد عليها».

وقد أطلق درويش هذه المقولة في سياق حديثه عن تجربته الإبداعية المتجددة، ورفض ركونها إلى السكونية، والرتابة والنمطية، حيث أكد أنه شديد السأم لما ينتج، وعندما يقرأ جديداً كتبه، ويرى أنه يشبهه كثيراً، يشعر كما يقول: أنه لا يصلح للنشر، لأن ما يرضى عنه هو ما يشعره وكأن الذي كتبه شخص آخر، وليس نسخة عما كتب.

وفي هذا الجانب تحدث درويش بشكل موسع حول قضايا أساسية في تجربته الشعرية، وعلاقة النقد والنقاد بها، وما اتسمت به من غنائية وغموض ورمزية.

وحول علاقة النقد بالشعر قال درويش :المفاجأة الشعرية دائماً تسبق النقد، والإنجاز الشعري هو الذي يؤسس للنظرية النقدية، وليس العكس، والشعر أسبق دائماً وسريع التطور أكثر من النقد، وهو دائماً يقفز فوق النظريات، ولا يستسلم لضوابط وحدود النظرية النقدية.

وعن المعاناة وتجربة الموت في مطولته «الجدارية» قال محمود درويش: هذه التجربة من أغنى تجاربي الوجودية، حيث يقف الإنسان أمام مصيره، وأمام شريط حياته بكامله أثناء الاقتراب من الموت، وبالتالي كان لا بد من تسجيل ما يشبه السيرة الذاتية كخلفية لموضوع الموت، مؤكداً أن هذه السيرة الذاتية تتجاوز تاريخ الفرد لتشمل إلى حد ما تاريخ المكان والعلاقة بالمكان، وتاريخ سؤال الموت، كما ورد في النصوص الإنسانية[٩].

❖ دعوة لإنشاء محكمة ثقافية:

في مواجهة قيود الرقابة العربية التي ما تزال رغم ثورة المعلومات الهائلة واكتساح الإنترنت كل السدود والحدود تتوسع في تحريم الكتب، أو مصادرتها، ومنع نشرها أو تداولها، دعا الباحث د. شاكر النابلسي إلى حرية الإبداع وعقلنة الرقابة التي أصبحت سيفاً مسلطاً على رقاب المبدعين، يحدُّ من عملية إبداعهم بجوانبها المختلفة، ويؤثر في المناخات الثقافية العربية.

ويرى أن المثقف العربي بات يعاني كثيراً من مزاجيات الرقابة، واختلاف أنواعها، فقد يسمح له بطباعة عمله في زمن ثم يصادر في زمن آخر، وقد يطبع هذا الكتاب في بلد ما، ثم يمنع من الدخول إلى بلد آخر، مما يلحق ضرراً ليس

بالكاتب فحسب، بل بالأمة كلها، لأن الكاتب يمثل ضمير الأمة وعماد حضارتها.

ومن هنا تأتي دعوته إلى إنشاء محاكم ثقافية تبت من وجهة نظره في النزاعات التي تنشأ بين المبدعين والهيئات والجهات الرقابية التي تمنع طباعة كتاب أو تصادره، فتكون الفصل والحكم بين المثقف وخصمه، الذي هو كما يقول د.النابلسي: الرقابة العربية[١٠].

❖ الإعلام والفن التشكيلي:

انتقد الفنان التشكيلي المصري عز الدين نجيب تقصير وسائل الإعلام العربية على تقصيرها في نشر الثقافة الفنية وترميم الفجوة التي تفصل بين المبدع والمتلقي العربي، الذي بات يفتقد وسيلة التواصل والإطلاع على تطورات حركة التشكيل الإبداع العربي.

كما انتقد نجيب غياب دور وسائل الإعلام وعجزها عن تحقيق التواصل بين الفنان والجمهور، وتوعيته بماهية الفن التشكيلي، وتربية الذوق والحس الجمالي عند المتلقين.

ودعا نجيب وسائل الإعلام إلى الاهتمام بقضايا الفن التشكيلي، وعدم إهماله وتهميشه، وإعطائه الفسحة والحضور كسائر الفنون الأخرى.

وأكد نجيب أن قنوات التلفزة العربية من النادر أن تخصص برامج تكون مكرسة للتعريف بالفن التشكيلي ونشر الثقافة الفنية.

وأشار إلى معاناة الفنانين التشكيليين والصعوبات التي يوجهونها والمسؤوليات التي يجب أن تتحملها الجهات الرسمية والأهلية لدعم مسيرة الفن والفنانين، مؤكداً أن الإبداع خارج الوطن العربي «يحتل مساحات كبيرة من اهتمام الدولة، وهناك جهات مسؤولة عن تقديم هذا الإبداع بشكل راق وجيد»[١١].

❖ التعاون الثقافي العربي - التركي:

أطلق عدد من الأكاديميين والأساتذة الجامعيات في تركيا دعوة إلى تفعيل التعاون الثقافي التركي، وتعزيز الروابط الثقافية، وتشجيع التواصل بين الهيئات الأكاديمية، وفتح قنوات الحوار، انطلاقاً من أن تحقيق التقارب العربي - التركي، لا يمكن أن يتم دون تعاون بناء بين قطاعات المثقفين العرب والأتراك.

وفي هذا العدد أكد د.موسى يلدر رئيس قسم اللغة العربية في جامعة غازي بأنقرة «أن الحوار الحقيقي بين الشعوب ينبه رجال العلم والثقافة من خلال التعاون بين المؤسسات الأكاديمية والعلمية والإعلامية».

وأشار إلى ضرورة «تجاوز الحواجز النفسية التي تركها المستعمر الغربي» داعيًا إلى الدور الذي ينبغي أن تقوم به المؤسسات التربوية والإعلامية لتصحيح العديد من المفاهيم الخاطئة والأفكار المسبقة التي يحملها كل طرف عن الآخر.

كما دعا الدكتور محمد حقي صوشين المحاضر في جامعة غازي إلى ضرورة تشجيع الترجمة من وإلى العربية والتركية، وأن تعمل دور النشر العربية على التعريف بإصدارات الكتاب والباحثين الأتراك، وان تقوم دور النشر التركية بالتعريف بإصدارات الكتاب والباحثين العرب، الأمر الذي سيسهم في تشجيع الحوار الثقافي بين الجانبين للتعرف[١٢].

❖ ندوة الحوار العربي - الروسي:

في إطار خطته لإقامة جسور الحوار والتواصل بين الثقافات والحضارات، أقامت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم (الإلكسو) ندوة للحوار العربي - الروسي في مدينة الحمامات التونسية، شارك فيها عدد من الشخصيات الفكرية والثقافية العربية والروسية.

من بينهم: التونسي المنصف المزغني والجزائري زروخي اسماعيل، والسودان تاج السر الحسن، والسوري سليمان زيديه، واللبناني وجيه فانوس، والمغربي عبد الرحيم العطاوي، والمصري مكارم الغمري، والفلسطيني مهدي الدجاني، والكويتي علي الحلبي.

كما شارك بها من الشخصيات الروسية: فصيح بن رخان، وعبد الجميل زينولين، وروستيسلاف ريبا كوف، وأناتولي رياسوف، ودمتري ميكولسكي، وفلاديمير شاغال.

وقد تضمن برنامج الندوة عقد سلسلة من الجلسات العلمية تضمنت العديد من المحاضرات والمداخلات حول: تاريخ العلاقات العربية مع منطقة الفولغا والأورال، والحضارة الإسلامية من أبعاد الشخصية الروسية، وتاريخ العلاقات الروسية - العربية، والجاليات الروسية في مصر وتونس في القرن العشرين، والعلاقات الثقافية الروسية المصرية في عهد الرئيس الراحل جمال عبد الناصر، والتثاقف العربي - الروسي خلال القرن العشرين، إضافة إلى دور الترجمة في التواصل الثقافي العربي - الروسي[١٣].

❖ معرض الكتاب العربي - الأوروبي:

اكتسب المعرض العربي الأوروبي السابع للكتاب، الذي افتتح مؤخرًا في معهد العالم العربي بباريس أهميته من خلال المشاركة

الواسعة لأفضل إصدارات دور النشر العربية والأوروبية خلال السنوات الماضية، ومن خلال المشاركة الرسمية والثقافية التي رافقت هذه التظاهرة في عاصمة النور والفن والمعرفة.

وقد شاركت عدة بلدان عربية في معرض الكتاب العربي الأوروبي منها الجزائر وفلسطين والعراق.

وتمثل الحضور الجزائري بمشاركة ٢٢ دارًا للنشر عرضت أحدث إصداراتها الأدبية والثقافية والإبداعية.

كما تمثلت المشاركة الفلسطينية من خلال مطبوعات مؤسسة الدراسات الفلسطينية، أما المنشورات العراقية فكانت إصدارات دار الجمل العراقية في ألمانيا. وبرزت بين دور النشر الفرنسية التي أبدت اهتمامًا بالكتاب العربي، مثل آكت سود وسوي، وغاليمار وغيرهما.

وتمثل الحضور الفرنسي بصفة عامة من خلال ٤٠ دارًا للنشر، كما شاركت دور نشر أوروبية مثل كل من: ألمانيا، بلجيكا، اسبانيا، إيطاليا، هولندا، بريطانيا، سويسرا.

ما يجدر ذكره أن ٢٥٠ ناشرًا شاركوا في هذا المعرض، الذي توزعت أجنحته على مساحة ١٢٨٠ مترًا، وكان لأدب الأطفال حيز هام في معروضاته، التي احتوت إلى جانب الكتب المطبوعة، الأقراص المدمجة وبرامج الكومبيوتر التي تحتوي إلى جانب الكتب المطبوعة، الأقراص المدمجة وبرامج الكومبيوتر التي تحتوي على موسوعات، وبرامج مختلفة لتعلم اللغة العربية، إضافة إلى القرآن، والأحاديث النبوية الشريفة، وثمة العديد من النشاطات الموازية التي رافقت تظاهرة الكتاب من بينها إقامة ندوات ومحاضرات حول الترجمة، والتوزيع وحقوق التأليف والملكية الفكرية، ونشاطات أخرى حول الأدب الجزائري، وتكريم الكاتب الجزائري الراحل محمد ديب، وما تجدر الإشارة إليه أن أول معرض الكتاب العربي الأوروبي أقيم للمرة الأولى سنة ١٩٩٠ بمبادرة معهد العالم العربي، وبيادر برنار صاحب دار نشر سندباد، التي أصبحت الآن جزءًا من دار نشر آكت سيد.

وفي خطوة لدعم هذه التظاهرة عمد المعهد هذه المرة إلى شراء جميع العناوين المعروضة، أو طلب إبداعها لديه من قبل دور النشر، وكان لهذه البادرة أثر هام إذا سمحت بالتحكم بالنوعية الجيدة للكتب المعروضة، مما جعلها في هذا المعرض أكثر تنوعًا وحداثة وتمثيلاً لما ينتج في البلدان المشاركة[١٤].

❖ **معرض الأيقونات العربية:**

وفي باريس أيضًا أقام معهد العالم العربي، الذي يُعد جسرًا للتواصل الثقافي العربي - الأوروبي معرضًا عن الأيقونات العربية بعنوان: الأيقونات العربية فن مسيحي من الشرق.

ويضم هذا المعرض تحفًا نادرة، ومجموعة استثنائية من القطع الفنية، تشمل أكثر من ٨٤ أيقونة، إضافة إلى نماذج من الأدوات المستخدمة في الطقوس الكنسية، وبعض المخطوطات النادرة التي جلبت من سورية ولبنان.

وتعود معظم أيقونات هذا المعرض إلى القرنين السابع عشر والثامن عشر، حيث ازدهرت الفنون المتنوعة، بسبب الاستقرار والرخاء الاقتصادي والمادي، وقد لعبت مدينة حلب آنذاك دورًا هامًا وأساسيًا في نشوء فن الأيقونة وازدهاره، وفيها ظهرت عدة مدارس وعائلات من الفنانين المسيحيين المختصين بالأيقونات والمنمنمات، ومن بين هؤلاء عائلة «المصور» التي تركت بصماتها على هذا الفن لأجيال عديدة.

اشتهرت إلى جانب حلب مدن أخرى بفن الأيقونة، ومنها بيروت ودمشق والقدس.

وما يشار إليه أن لوحات هذا المعرض حفلت بمؤثرات من الفنون الإسلامية على طريقة المنمنمات وزخارف السجاد، والعناصر التزيينية والزخرفية، والأدوات والأزياء، حيث يظهر السيد المسيح جالسًا القرفصاء في إحدى الأيقونات وهي جلسة عربية بدوية، كما بدا بعض الأشخاص وهم معتمرين العمائم.

وحفلت الأيقونات بكتابات عربية ويونانية وسريانية وآرامية، وأحيانًا تركية، أما المخطوطات التي تم عرضها فتشمل ١٧ مخطوطة، كتبت بلغات مختلفة يعود تاريخها إلى القرنين الثالث عشر والتاسع عشر، ومن أهمها مخطوطة ملونة للإنجيل القبطي، ومخطوطة كتاب الصلوات التي عثر عليها في بعض أديرة لبنان.

وتتجلى أهمية هذا المعرض من خلال تأكيده للمشاهد أن الأيقونة ليست عملاً دينيًا فقط، وإنما هي عمل فني أيضًا يخاطب العين، وهي وفق التقاليد الكنسية تعتبر بمثابة عظمة أو كتاب مرسوم يقرأه الجميع.

وقد كشف معرض الأيقونات العربية ما امتاز به هذا الفن من قدرة على استيعاب الأساليب المختلفة، وانغماسه في الثقافات المحلية وتوظيفها في إبداع العمل الديني - الفني(١٥).

❖ سارقو النار:

يبدو وزير خارجية فرنسا دومينيك دوفيليبان كما يرى الناقد هاشم صالح منغمسًا في الشعر، ومسكون بهواجسه رغم التناقض الظاهري بين عمله كسياسي، وانشغاله الشعري.

ويعزى تعلق دوفيليبان بالشعر إلى معاناة ذاتية وجراحات شخصية لم يكشف عن أسرارها، قد يكون من بينها موت شقيقه في سن مبكرة، وقد يكون منها دور أمه التي غرست في نفسه حب الشعر من طفولته المبكرة، عندما تنسخ له قصائد كبار الشعراء ليقرأها، ويتذوق صورها ولغتها، فنشأت بينه وبين الشعراء صلات مبكرة تنامت مع الزمن، وتجارب الحياة، وشجون العمل والأحداث.

وهو في كتابه «سارقو النار» الصادر عن دار غاليمار الفرنسية، يعرض آراءه وأحكامه النقدية، وتصوراته التي تتجلى من خلالها سعة إطلاعه، وعمق ثقافته، وشاعرية لغته، بحيث يمكن القول: إن دوفيليبان مؤرخ للآداب وناقد له في آن واحد، حيث نجده يستعرض تاريخ الشعر الفرنسي في مراحله المتعاقبة، إضافة إلى عرض إشارات واقتباسات عن شعراء آخرين من ثقافات أخرى، مما يؤكد نهجه الشمولي في تتبع الظاهرة الشعرية على صعيدها العالمي، متجاوزًا الحدود الزمانية أو المكانية، ومتخطيًا النظريات والحواجز اللغوية والمعرفية، مؤكدًا قيمة الشعر في جوهره وكينونته، التي تشكل سر خلود الشعراء.

وفي إطار هذه الرؤية المنفتحة على عالم الشعر لا يتوقف دوفيليبان عند مشاهير شعراء العالم، الذين أصبحوا محطات أو منارات فقط، أو الذين نالوا المجد والتشريفات، وإنما نجده أيضًا يقترب من عالم أولئك الشعراء الذين رفضتهم مجتمعاتهم أو نبذتهم، وهاجمت نزعاتهم الشعرية، وسلوكياتهم الفردية والذاتية، بما فيها من غرابة الأطوار والمواقف والأفكار، لتعارضها وقيم المجتمع وعاداته، فينبري مدافعًا عن هؤلاء الشعراء، مقدرًا ما أعطوه، في ثقافة مجتمعاتهم، معبرًا عن تعاطفه معهم، وإعجابه بهم إلى حد عميق.

ويلاحظ أن دوفيليبان ومن وحي إحساسه الخاص وقف إلى جانب الشعراء، الذين عاشوا على هامش الحياة، وهذه النظرة قلما نجدها بين النقاد، الذين غالبًا ما ينصرفون بدراستهم إلى مشاهير الأدباء، دون سواهم من المنبوذين أو المطرودين.

وقد أبدى دوفيليبان اهتمامًا شديدًا

بشعراء الحداثة، الذين شكلوا في ثقافات مجتمعاتهم محطات جديدة، وأحدثوا قطيعة من نوع ما مع من سبقهم، ومن هذا المنطلق كان تركيزه على شعراء فرنسا في القرنين التاسع عشر، والعشرين من أمثال: جيراي دوفيرفال، وبودلير، رامبو، لوتريا مون، رينيه شار، هنري ميشو، سان جوسي بيرس، هؤلاء الذي قدموا من وجهة نظر دوفيليبان رؤى جديدة في فهم الشعراء، وإدراك طبيعته، ويبدو أن هذه الرؤى استأثرت باهتمامه، واستحوذت إعجابه، وشكلت علامة فارقة بين مرحلة وأخرى سواء في لغة الشعر أو وظيفته ودور الشاعر وحضور شخصيته.

ويبدو دوفيليبان من خلال تلك الاقتباسات التي عرضها، أكثر انسجاماً مع تلك الرؤى التي ترى أن «الشاعر لايترك وراءه براهين، بل آثار تدل على مروره، فآثار خطاه وحدها التي تجعلنا نحلم. فالشاعر يمر وكفى، وهذا حدث خطير في التاريخ، ليس بحاجة إلى براهين من أي نوع لكي تعرفنا بأهميته، يكفي أن يتواجد الشاعر في مكان ما، لكي تشتعل الدنيا».

إن الشعراء كما يقول دوفيليبان سراق نار، لأنهم يرون مالا يرى عن طريق اقتحام المجهول والمحرمات والمجازفة الخطيرة التي يدفع الشاعر ثمنها بشكل باهظ، وسارقو النار بدءًا من بروميثيوس وبودلير، ولو ترباسون مروراً بغيرلين ورامبو وعشرات الشعراء الآخرين، كلهم ماتوا في عز شبابهم، وعرفوا الطبقات السفلية للجحيم، وسقطوا في الهاوية، واقتربوا من الحافة.

ويتساءل ماسر ولع هؤلاء الشعراء بتلك الهاوية، والانحطاط نحو الأعماق السحيقة فيها، ولماذا ينبغي عليهم أن يدفعوا حياتهم ثمن ذلك؟ هل لأنهم اقتربوا من المقدسات أكثر من سواهم، واكتشفوا الأسرار، ونطقوا بها، أم لأنهم كانوا الرواد والفاتحين الذين اقتحموا المجاهيل، ووسعوا حدود اللغة، فكان مرتهم المبكر عقاباً على ارتياد تلك الآفاق القصية، التي لم تطأها قدم قط، ولتجرئهم على اصطياد المجازات العبقرية والصياغات اللغوية واختراق الآفاق، والإبداع من العدم(١٦).

❖ جيل جيلبرتو:

في حوار صحفي تحدث وزير الثقافة البرازيلي الفنان جيل جيلبرتو عن علاقة السياسية مع الفن في حياته، وعن هيمنة العولمة، وحضور الهويات المحلية، كما تطرق إلى قضايا أخرى من أبرزها علاقات بلاده بالعرب وأفريقيا، وقضية الشعب الفلسطيني وسواها من الجوانب الأخرى.

جيلبرتو قبل أن يكون وزيراً للثقافة فهو مغن له حضور طاغ في المهرجانات الفنية والموسيقية، فقد زار عدة بلدان عربية من بينها المغرب، وتونس ولبنان، مؤكداً أن البرازيل تربطه علاقات قديمة بالعرب وفي مدينته «باهيا» كان كثير من جيرانه من أصول عربية، وكانت لهم ثقافتهم وتقاليدهم، وقد شكل ذلك أساس النظرة المشتركة إلى العالم العربي، والسعي إلى تطوير علاقات التعاون مع الدول العربية.

وحول تقاطع السياسة والثقافة في حياته وعمله أكد جيلبرتو أنه يسعى أن يفصل بينهما فالوزارة من وجهة نظره عمل بيروقراطي رسمي يخضع لنمط عمل المؤسسات، أما الموسيقى فهي متحرر من القيود المؤسساتية.

ورغم ذلك فإن جيلبرتو يعطي ٨٠٪ من وقته لعمله كوزير، وما تبقى يتركه لفنه، وغنائه وموسيقاه التي قال عنها: إنها تحمل أبعاداً ومعاني إنسانية.

وحول القضية الفلسطينية قال جيلبرتو: إن ذلك يتطلب تسوية من خلال استرجاع الفلسطينيين لأرضهم، وإقامة دولة فلسطينية، وهذان العنصران يشكلان مفتاح البداية لحل هذه المشكلة.

أما رؤيته للعولمة وآثارها وتداعياتها على الخريطة الكونية، فتنطلق من إقراره أن للعولمة سطوتها وقوة تأثيرها باتجاه فرض معايير ثقافية وسلوكية على حياة العالم، تلغي خصوصية الثقافات والمجتمعات[١٧].

❖ مهرجان موسكو السينمائي:

بدأت فعاليات مهرجان موسكو السينمائي الخامس والعشرين بعرض فيلم المخرج الروسي ألكسي أو تشيتل «نزهة» الذي تدور أحداثه في مدينة سانت بطرسبورغ، ويصور الفراغ الإيديولوجي والذهني الذي يعيشه ثلاثة شبان بعد سقوط الشيوعية وانهيار الاتحاد السوفييتي، وما يسود حياتهم من فوضى وعبثية.

وقد شاركت في مهرجان موسكو عدة دول منها: إيطاليا، إسبانيا، فرنسا، هولندا، هنغاريا، إيران، كولومبيا، البرازيل، أمريكا، اليابان.

يذكر أن لجنة التحكيم تألفت من المخرج الروسي سيرغي بودروف، والمخرجة البولندية اغنيشكا غولند، والممثل البريطاني كين راسيل، والممثل الألماني موريس بلياتروس، والمخرج الإيراني باباك بيامي، والممثلة الروسية أولغا بوديفا.

وشاركت في افتتاح المهرجان الممثلة

الإيطالية جينا لولو بريجيدا، وكانت الممثلة الفرنسية صوفي مارسو ضيفة الشرف في مهرجان موسكو السينمائي، وقد قامت بتسليم المخرج السينمائي الياباني المسن كانتيو سندو جائزة خاصة تقديراً لجهوده في مجال الإبداع السينمائي.

في تظاهرة موسكو كانت السينما الغائبة كعادتها هي السينما العربية، حيث لم تشارك أية دولة عربية في هذا المهرجان(١٨).

✥ اعتراضات ثقافية:

عبرت الأوساط الفنية والثقافية في البرازيل عن احتجاجها وعدم موافقتها على التوجهات الثقافية الرسمية التي فرضت قواعد جديدة تربط تمويل الأعمال الثقافية في البلاد بمشاريع ذات طابع اجتماعي يبرز الثقافة الشعبية، ويؤكد على الهوية الوطنية، ويروج للثقافة البرازيلية في الخارج، ومن الذين اعترضوا على هذه التوجهات الحكومية المخرج السينمائي كارلوس ديغيس الذي اعتبر أن الثقافة في ظل هذه الإجراءات أصبحت تحت الوصاية، وأن ما حدث ماهو إلا عبث ثقافي، وأن الأنظمة والقواعد الحالية ذات طابع مركزي، وهي مرهونة بالمنفعة الاجتماعية التي لاتعترف بالثقافة كمكسب اجتماعي في حد ذاته.

وقد أيد ديغيس في اعتراضاته عدد كبير من الفنانين والمخرجين والمغنين والممثلين من بينهم: المغني والملحن كاتيانو فيلوزو، والممثلة مارينا سيفيرو، والمخرج باولو بيتي وغيرهم.

وفي مواجهة حملة الاعتراضات تلك حاولت الحكومة أن تفسر توجهاتها بأنها إجراء تحفيزي، وليست شرطاً يقيد الإبداع والمبدعين أو يحدُّ من عملية التمويل والمساعدات المالية التي كانت الدولة تدعم بها الأعمال الثقافية، ولاسيما قطاع السينما الذي يحظى بجماهيرية واسعة، وشهرة كبيرة على صعيد صناعة السينما العالمية(١٩).

✥ انتقادات ضد ماركيز:

يتعرض الروائي المشهور غابرييل غارسيا ماركيز لحملة تشويه مركزه، نتيجة لمواقفه الداعمة لقضايا التحرر في العالم وللقضية الفلسطينية بشكل خاص ولموقفه الرافض للحرب على العراق.

– وقد رد صاحب مائة يوم يوم من العزلة، وجنازة الأم العظيمة، والجنرال في متاهة على انتقادات الكاتبة الأمريكية سوزان سونتاغ التي أخذت فيها على الروائي الكولومبي صمته إزاء حملات القمع التي تشهدها الجزيرة الكوبية،

ودعــمــه لنظام الرئيس الكوبي فــيــدل كاسترو.

وقـال مـاركـيـز: إنني أعـارض الإعـدام أينمـا كـان ولأي سـبب أو ظرف، وأضـاف أنه: سـاعـد عـددًا كـبـيـرًا من السـجناء والمنشقين على مـدى عـشرين عـامًـا، وفي صـمت مطلق على الخـروج من السـجن أو الهجرة من كوبا، وأنه لايعرف العديد منهم، وراحة البال والضمير كما يقول تكفيني.

وكانت سـونتاغ قـد عـبرت عن إعـجاب بماركـيـز كـروائي، لكنهـا ترى أنـه من غـيـر اللائق أن يقف صـامتًـا حيـال مايجري في كوبا.

وشـارك في حـملة الانتـقـادات الموجهـة إلى غارسيا كل من الكاتب البيرو في ماريو فــارغـس يوســا، والكاتبــة الكوبيــة زوي فـــالديس، والمكاتب المكســيكي أنريكي كراوزي.

وقد وضحت فالديس أن مـاركـيـز يقوم منذ سنوات بإنقـاذ حـيـاة شـخـصـيـات وصـحـافـيين بإخـراجـهم من كـوبا، لكنه يتناسى أن هؤلاء الأشـخـاص لا يمكنهم أن يرووا مـا حـدث لهم، لأنه يطلب منهم عـدم الإفصاح عن ذلك حتى لا يسيء الأمـر إلى مكانته لدى فيدل كاسترو.

أمـا يوسـا وكـراوزي فـقـد اتهـمـاه بأنه كاتب متملق.

إن هذه الإتهامـات بحـد ذاتها وكـما هو واضح تحمل طابعًا إيديولوجيًا، وفيها نوع من التـحامل، والمبالغـة، والقـراءة المنحـرفة للوقائع والأحداث[٢٠].

❖ برلين تحتفل بمهرجان الثقافات العالمية:

احتفلت مـدينة برلين بمسـيـرة «كرنفـال الحضـارات» وثقـافات الشعوب من مختلفة القـارات التي يشـارك فـيـهـا سيـاسـيـون وأصحاب فكر وممثلو من مختلف الأجيال من ألمانيـا والدول الأوروبيــة، وآخــرون من قارات العالم يقدر عددهم بأكثر من مليون ونصل المليون.

وقـد ذكـرت بريرا جـون المشـرفـة على تنظيم الكرنفال أن احتفال هذا العام يتميز عن غـيـره من الاحـتـفـالات السـابقـة باحـتـضـانه لمختلف الأجـيـال ومـخـتلف الشرائح الاجتماعية، واحترام التوجهات الاجـتمـاعـيـة والثـقـافـيـة الجديدة لمختلف الثقافات.

وأضـافت أن كـرنفـال الثـقـافـات للعـام الحــالي «مظاهرة للتســامح والتـعــددية، ووجـهـات النظر الشـخـصـيـة، والتـراث الحضاري للشعوب».

وجـاء في وصف الكرنفـال أن مـسـيـرة الاحتفال التي ارتدى المشاركون فيها أزياء

ومـلابس ملونة وزاهية تعبـر عـن ثقـافـات الشعوب وتراثها، امتدت على مسافة تزيد على ١٤كم، وشارك فيها أكثر من ٤٠٠٠ ممثل ينتمون إلى ٨٠ دولة من دول العالم.

ومـا يذكر أن كـرنفال الثـقـافـات تقليد سنوي عـرفته برلين سنة ١٩٧٣ هو نشاط هام ومـتـمـيـز يحظى بدعم كل المؤسسات الرسمية والأهلية لما له من آثار إيجابية تسهم في تعزيز علاقات التفاهم والتواصل بين الشعوب والثقافات، التي تجسدها مدينة برلين حيث تشير الإحصائيات إلى وجود ما يزيد على ٨٠٠ ألف إنسان من مختلف الحضارات والثقافات يعيشون فيها، وتنعكس في هذا المهرجان ألوان حياتهم وأنماط ثقافاتهم وتراثهم وأزيائهم، وفنونهم الموسيقية وعاداتهم وتقاليدهم الاجتماعية[٢١].

إحـالات

١ – تقرير مديرية المراكز الثقافية.
٢ – دليل النشاطات.
٣ – كراس اللقاءات.
٤ – البوابة.
WWW.albawaba.com
٥ – الحياة عدد ١٤٦٩٩+القناة.
WWW.alqanat.com.
٦ – وكالة الأنباء المغربية.
٧ – القناة +البوابة.
٨ – الوكالة الموريتانية للأنباء.
٩ – البوابة.
١٠ – البوابة.
١١ – البوابة.
١٢ – البوابة.
١٣ – وكالة الأنباء الكويتية.
١٤ – القناة.
١٥ – القناة.
١٦ – الشرق الأوسط – عدد ٨٩٧٢.
١٧ – الشرق الأوسط – عدد ٨٩٧١.
١٨ – وكالة الأنباء الكويتية.
١٩ – القناة.
٢٠ – القناة.
٢١ – البوابة.

❖ ❖ ❖

صفحات من الثقافة العالمية

ثائــــر ديـب ❖

أن تطلّ على «الآخر»، ولو بصورة التقليب في صحفاته الثقافية كتبًا ودوريات وظواهر وشخصيات، يعني أن تزيد من تحديدك لذاتك وليس العكس. ولعلّه قد بات من المقرّر أنّ الذات تتحدد بآخرها أو آخريها، لا على نحو يقتصر على وضع هذين الطرفين في قطبين متقابلين ومتناقضين على طول الخطّ وفي جميع الحالات، بل أيضًا على نحو يجعل الواحد منهما داخلاً في نسيج الآخر مهما عزل نفسه عنه وأقام أسواراً - وهميةً في النهاية - بينه وبينه، وكذلك على نحو يعترف بتعدّد الآخر وتنوّعه مما يقتضي تنوّع الموقف منه وتعدّد النظر فيه.

(❖) ثائر ديب: أديب ومترجم من سورية. له عدة أعمال مترجمة من أهمها (نظرية الأدب). ينشر في الدوريات المحلية والعربية.

هكذا لا تكون الحقيقة ماكثةً في مكان واحد أو لدى طرف دون سواه، بل تكون خاصةً في المساحة التي يشغلها حوار الأطراف، وتفاعلها المتبادل، وصراعها. كلُّ ذلك يقتضي معرفة الآخر، أو الآخرين، بما في ذلك الآخر العدّو - وربما أولاً الآخر العدّو - دون خوف على الذات والهوية. فمثل هذا الخوف غالبًا ما يكون مجرد دلالة مرضيّة على هوية هشّة أو مصلحة ضيقة تدفع إلى السكون، والثبات، والإيواء إلى الماضي، والارتعاد أمام التاريخ والتغيّر، مع أنَّ النظر في الهوية اليوم يقوم على أنها مشروع مستقبلي يُبْنَى بناءً وليست معطى قَبْليًا ومسبقًا ديدنه الثبات والخمول.

من الواضح أنَّ هذا يعلي من شأن الاطلاع الناقد المنتج للمعرفة ويحطّ من قَدْر الجهل والتجاهل والمنع، كما يقلّل من قيمة الميل إلى «القولبة» والتصنيف الضيق الفقير. فالآخر متعدد، شأنه في ذلك شأن الذات، مما يقتضي أن تتعدد نوافذ الاطلاع عليه وتتنوّع مسالك البحث في توجّهاته المتعددة وظواهره المتنوعة ونتاجاته المختلفة وشخوصه المتباينة. هذا المقتضى هو ما نرجو لجولتنا في صفحات الثقافة العالمية أن تحققه وهي تحاول أن تصقل عدّة تطوافها وتزيد من إتقانها في كلّ مرة.

❖ - دوريات:

١ - مجلة «الشؤون الخارجية» الأميركية Foreign Affairs:

حين تُذْكَر مجلة «الشؤون الخارجية» الأميركية، من المرجّح كثيرًا أن يتبادر إلى ذهن المهتمّ مباشرةً اسما كلٍّ من فرانسيس فوكوياما وصموئيل هنتجتون. فقد نشر كلٌّ منهما على صفحات هذه المجلة مقالته الشهيرة التي غدت كتابًا ذائع الصيت، «نهاية التاريخ» لفوكوياما و«صدام الحضارات» لهنتجتون. ولا حاجة للتذكير، إذًا، بالتوجّهات التي تعكسها عمومًا هذه المجلة وبأهميتها، تاليًا، في محاولة استشراف السياسات الأميركية في العالم ككل.

في العدد الجديد، ورقمه (٤) ومجلّده (٨٢)، تموز / آب ٢٠٠٣، من مجلة «الشؤون الخارجية» عدد من المقالات التي تتركز أساسًا على عواقب الاحتلال الأميركي للعراق، وعلى ما يدعوه الأميركيون بالإرهاب، وما يرتبط بكلّ ذلك من مسائل أخرى. ومن مقالات العدد:

- «أمن الخليج» لكينيث م. بولاك، حيث تشير هذه المقالة إلى أنَّ حرب العراق الأخيرة تستدعي إقامة إطار جديد لما تدعوه أمن الخليج. فالمشكلات الأساسية الثلاث، كما تحددها المقالة (قوة العراق، برنامج الأسلحة النووية الإيراني، القلق الداخلي في دول مجلس التعاون الخليجي)، غدت أصعب وليس أسهل بعد سقوط النظام العراقي، سواء أُخِذَت فرادى أم مجتمعة.

- «الشيعة ومستقبل العراق» لاسحق

نقّاش، حيث ترى المقالة أنّ من الأسئلة المهمّة التي تظلّ مطروحة بعد الحرب الأخيرة ما إذا كانت الأكثرية الشيعية في العراق سوف تسعى لإقامة حكومة إسلامية على الغرار الإيراني، بعد أن تفعّلت طاقاتها حديثًا، أم أنّ أفراد هذه الأكثرية سيوافقون على تقاسم السلطة مع الجماعات الأخرى؟ وبالطبع، ما يجب أن يبقى في الذهن، إزاء مثل هذه المقالات، هو نزعتها الاستشراقية العميقة التي تنظر إلى مجتمعاتنا على أنها، في التحليل الأخير، مجتمعات جماعات وطوائف لامجتمعات جماعات اجتماعية واقتصادية وسواها.

- «العدوّ متغيّر الأشكال» لجيسيكا ستيرن، والمقصود بهذا العدو المتقلّب هو منظمة القاعدة، التي ترى المقالة أنها قد تلقّت في العامين الأخيرين ضربات قاسية لكنها ضربات لا تزال بعيدة عن أن تضع لها حدًّا كما تدلّ تفجيراتها الأخيرة. والسؤال هو كيف تدبّرت هذه الجماعة البقاء على الرغم من حملة الولايات المتحدة؟ وتجيب المقالة بأنّ ذلك قد تمّ عن طريق تبديل أشكال وجودها، وإقامتها تحالفات جديدة، وغير متوقّعة في بعض الأحيان. وترى المقالة أنّ هذه التكتيكات جعلت القاعدة أشدّ خطورة من ذي قبل، وأنّ على الحكومات الغربية أن تبدي مرونة أكبر في حربها ضدّ هذه الجماعة.

- «قوة الولايات المتحدة واستراتيجيتها بعد العراق»، جوزيف س. ناي الابن، حيث ترى هذه المقالة أنّ الاستراتيجية التي تتبنّاها إدارة بوش في الأمن القومي تتّسم بشيء من قصر النظر. فالعالم قد تغيّر بطرائق تجعل من المستحيل على القوة الكبرى منذروما أن تمضي منفردةً. وينصح الكاتب صنّاع السياسة الأميركيين بأن يدركوا أنّ القوة اليوم لم تعد تكمن في جبروت السيف بل في جاذبية الأفكار.

- «إقامة صفقة جديدة عبر الأطلسي»، أندرو مورافزيك. تتساءل هذه المقالة كيف يمكن للولايات المتحدة وأوروبا رأب صدوع التحالف الغربي بعد الانشقاق حول العراق خاصةً أنّ بعض الأوروبيين يرغبون ببناء قوة عسكرية مستقلة؟ وترى المقالة أنّ الجواب الأفضل يكمن في التكامل الأوروبي - الأميركي، وليس في التنافس، وأنّ على الجانبين أن يركّزا على الأهداف المشتركة في الوقت الذي يقوم فيه كلٌّ منهما بما يقوم به على أفضل الوجوه.

- «بريطانيا بلير بعد العراق»، ستيفن فيليب كريمر. ثمة إشارة هنا إلى أنّ الحرب الأخيرة في العراق غيّرت الديناميات القائمة لا بين أوروبا القارية، وبريطانيا، والولايات المتحدة وحسب، وإنّما أيضًا بين رئيس الوزراء البريطاني طوني بلير وحزبه العمالي أيضًا. وترى المقالة أنّ على بلير، لكي ينجو سياسيًا ويبقى على بريطانيا لاعبًا أساسيًّا في الاتحاد الأوروبي، أن يؤكّد على هوية بلاده الأوروبية أساسًا.

وفي باب «مراجعات وردود»، نشرت المجلة عددًا من المساهمات منها مقالة بعنوان «نحن لم نبدأ بإطلاق النار: الرأسمالية ونقّادها ماضيًا وحاضرًا» بقلم شيري بيرمان، ومقالة أخرى بعنوان «الإحياء العظيم» تحاول فهم الأصولية الدينية، وأخرى بعنوان «البقاء على قيد الحياة» تتناول ما تسميه إشاعات مبالغ فيها عن موت الأمم المتحدة.

٢- مجلة «الفلسفة والأدب» Philosophy and Literature

وهي مجلة تصدر عن مطبوعات جامعة جونز هوبكنز الشهيرة. وقد احتوى عددها الأخير (٢) من المجلّد (٢٦) على عدد من المقالات، وندوة، ومقابلة، فضلاً عن التعليقات والنقاشات النقدية والمراجعات.

فمن المقالات ثمة «الحب والانتقام في بروميثيوس لشيلي»، والمقصود هو بيرسي بايش شيللي (١٧٩٢ - ١٨٢٢)، الشاعر الرومانسي الإنجليزي العظيم، ومسرحيته «بروميثيوس طليقًا» التي ترجمها لويس عوض إلى العربية منذ عقود. أمّا كاتب المقالة فهو ديفيد بروموتيش. وثمّة مقالة أخرى بقلم إريل ميراف، عنوانها «الصراع التراجيدي وعظمة الشخصية». ومقالة ثالثة بقلم ليستر. هـ. هنت، عنوانها «بيلي بَدْ: معضلة ملْغِز». وهي تطرح قضية الأخلاق في الأدب من خلال رواية «بيلي بَدْ» لهيرمان ملفل (١٨١٩ - ١٨٩١). أمّا المقالة الرابعة «بايرون بوصفه وغدًا» فهي بقلم إيان جويلنغ الذي يقوم بدراسة نفسانية للسلوك الجنسي عند البارون جورج غوردن بايرون (١٧٨٨ - ١٨٢٤). لتأتي المقالة الخامسة، بقلم ماركوس نورلند، عن التأويل الأدبي والعلاقة بين الأدب والعلم.

أما ندوة العدد فعن الفيلسوف التحليلي الأميركي دونالد دافيدسن وعنوانها «دافيدسن والفهم الأدبي». شارك فيها كلٌّ من ريدوي دازنبروك: «الفلسفة بعد جويس: ديريدا ودافيدسن»، وهي مقالة تتناول تأثير جيمس جويس (١٨٨٢ - ١٩٤١) الفكري والفلسفي. وكليف سترود درينكووتر: «ستيفن بعد دافيدسن عن الاستعارة»، حيث يتناول وجهات نظر كلٌّ من والاس ستيفنس (١٨٧٩ - ١٩٥٥) ودونالد دافيدسن (١٩١٧ - ...) في الاستعارة. وغاري هاغبرغ: «دافيدسن، معرفة الذات، الكتابة السيرية الذاتية».

وأتت مقابلة العدد بعنوان «عوالم أم كلمات منفصلة؟ آثار البراغماتية على الدراسات الأدبية». وهي مقابلة أجراها إ.ب. راغ مع الفيلسوف الأميركي المعروف ريتشارد رورتي. وبعد ذلك تأتي تعليقات العدد التي ضمّت مقالتين إحداهما بقلم كارولين ويبر عن مفهوم الرائع عند كلٌّ من المركيز دي ساد (١٧٤٠ - ١٨١٤) والمفكّر ما بعد الحداثيّ جان فرانسوا ليوتار، أما الأخرى، فبقلم إيرين غيلسينان نوردن، وهي بعنوان «العدميّة عند شيموس هيني».

وإلى هذا فقد ضمّ قسم النقاشات النقدية من المجلّة ثلاث مواد. كتب أولاها مارك بورلين بعنوان «العلوم الإنسانية في حبّها لذاتها»، تناول فيها أحد أعمال روبرت شولز الذي سبق أن تعرّف عليه القارئ العربي فيما كتبه عن البنيوية والسيميائية خاصةً. أمّا الثانية فكتبها جيمس شميت بعنوان «ميراث التنوير»، تناول فيها كتابين هما «ماالذي بقي من التنوير؟» الذي حرّره كيث ما يكل بيكر (ومن الواضح بالطبع أنّ عنوان هذا الكتاب قد اتّخذ شكل واحد من أهم الأسئلة التي تطرحها مدرسة ما بعد الحداثة)، والكتاب الثاني هو «ما بعد الحداثة والتنوير: منظور جديد في تاريخ الفكر الفرنسي في القرن التاسع عشر». وجاءت المقالة الثالثة بقلم نانسي إيسترلن وبعنوان «مادة الرومانسية الرمادية». ومن المعروف أنّ المادة الرمادية هي إحدى مادتين، إلى جانب المادة البيضاء، تتكون منهما بنية الدماغ. وتتناول هذه المقالة كلاً من الرومانسية الإنجليزية وما يُدّعى بعلم العقل.

أمّا باب المراجعات في المجلة فقد ضمّ أربع مساهمات تتناول الأدب وتاريخه ونقده، ودور الأدب في الفلسفة الأخلاقية، وأبستمولوجيا الحداثة، ورينيه ديكارت.

٣- مجلة «المعيار الجديد» The NeW Criterion:

ضمّ عدد شهر حزيران ٢٠٠٣ من هذه المجلة مواد متنوعة ربما كان أهمّها مقالة كينيث مينوغ «رهاب المسيحية والغرب». وهي ترى أنّ لبّ الإيمان الذي انطوت عليه اليعقوبية، والاشتراكية، وصنوف العقلانيات المختلفة، والوضعية المنطقية، وجميع الاتجاهات التي عبّرت عمّا كان يعتنقه القرن التاسع باسم التقدّم وما دعاه القرن العشرون باسم «مشروع التنوير»، هو تصوّر مفاده أنّ فجر العقل قد أشرق ليحلّ محلّ التحيّز والخرافة بحيث تدرك الكائنات البشرية جميعًا أنها تتقاسم جوهرًا إنسانيًا كما تتقاسم الحقّ بالسعادة وامتلاك السلطة اللازمة لتحقيقها في إطار يجب أن تتعاون فيه كلّ الحضارات والشعوب لإنجاز مشروع عالمي هو بمثابة خلاص أرضيّ.

ومن المقالات الأخرى في العدد مقالة بقلم بول جونسون بعنوان «من امبراطورية الشرّ إلى «امبراطورية الحريّة»». وهي مقالة تتعصّب لفكرة «الأمبراطورية الأميركية» وتدافع عن خرقها قرارات الأمم المتحدة. وهناك أيضًا مقالة بعنوان «درايزر في العام ١٩٢٥». ففي ذلك العام كان بمقدور القارئ أن يقرأ أول كتاب مهم لأرنست همنغواي، وهو « في زمننا»، وكذلك رواية «غاتسبي العظيم» لسكوت فيتزجيرالد. وفي ذلك العام أيضًا كان الشعراء الأميركيون يتفجّرون مثل الشهب في السماء، فضلاً عن كونه العام الذي كتب فيه درايزر عمله الأبرز «التراجيديا الأميركية».

وإضافة إلى مواد أخرى، فقد أشارت المجلة إلى كتابين هامين. أولهما هو «بقاء الثقافة: القيم الثابتة في عصر عمليّ» تحرير هيلتون كرامر وروجر كيمبل. وثانيهما هو «حيوان العقل: استخدام الذكاء وإساءة استخدامه من هيغل إلى وود هاوس»، حيث سيصدر هذا الكتاب الأخير في شهر أيلول.

٤- «مجلة اليسار الجديد» NeW Left Review:

اشتمل عدد أيار / حزيران ٢٠٠٣ ورقمه (٢١) على عدد من المواد المهمة، أبرزها «إعادة استعمار العراق» لطارق علي الكاتب والناشط والروائي الباكستاني الأصل. وقد تناول فيها الغزو الأميركي البريطاني للعراق، وردود الفعل العالمية على الامبراطورية الجديدة، من المظاهرات المناهضة للحرب إلى ضروب النفاق الدبلوماسي المتواطئة معها. وكذلك دور الأمم المتحدة كإطار للحصار والتدخل البارحة، وقناع لما يُدّعى بإعادة البناء في الغد. أما المقالة الأخرى المهمة فهي للناقد والمفكّر الماركسي الأشهر في هذه الأيام، فريدريك جيمسون. وقد جاءت هذه المقالة بعنوان «مدينة المستقبل»، حيث تتساءل أيّة أنواع من المدينة وأيّة أشكال من العمارة تنتظرنا بعد تداعي الحداثة المدينية؟

ومن بين مراجعات هذا العدد نجد مراجعة بيتر غوان لكتاب أندرو باسينيتش «الامبراطورية الأميركية»، والذي يشتمل على تفحّص ثاقب لأقوال الولايات المتحدة وأفعالها في عالم ما بعد الحرب الباردة.

٥- «مجلة لندن للكتب» London Review of Books:

وقد اشتمل العدد (١٢) من المجلد (٢٥) الصادر في ١٩ حزيران ٢٠٠٣ على مساهمة لإدوارد سعيد بعنوان «خارطة الطريق إلى أين؟» ومما جاء فيها: «مخطئٌ كلُّ من يعتقد أنّ خارطة الطريق يمكن أن تجلب أيَّ استقرار، أو أن تعالج أيّة قضية أساسية. فهي، مثل الكثير من خطابات السلام السائدة، تضع على عاتق الفلسطينيين مباشرةً كلاً من ضرورة الكبح والتخلّي عن الحقوق، وبذا تُنكرُ كثافة التاريخ الفلسطيني وثقله. أن تقرأ خارطة الطريق يعني أن تكون إزاء وثيقة لا تعيين لموقعها، ذاهلة عن المكان والزمان».

كما اشتمل العدد أيضًا على مراجعة الناقد الإنجليزي الشهير تيري إيغلتون لثلاثة من الكتب عن جورج أورويل («جورج أورويل» لغوردن بوكر، و «أورويل: حياته» د. ج. تايلور، و «أورويل: حياته وعصره» لسكوت لوكاس). ومما جاء فيها: «إنّ أورويل، مثل د. هـ. لورنس، يقسم قرّاءه إلى نصفين. ففي حالة لورنس، إمّا أن تشعر أنّ ما لديه من عمق وكثافة كفيلان بأن يضعا أيّ كاتب آخر في الظلّ، أو أن تشعر أنّ نزعته التفوقية الذكورية وميوله التصوفية

المشبوبة كفيلة بأن تدفعك لأن تقذف به جانبًا. وليس مدهشًا أنَّ خلافات عنيفةً مشابهة قد أحاطت برجل مثل أورويل كان إنجليزيًا تقليديًا ثوريًا سياسيًا في آن معًا».

٦- «المجلة الأدبية» الفرنسية Magazine Littéraire:

احتوى العدد الأخير من «المجلة الأدبية» الفرنسية، ورقمه (٤٢١) حزيران ٢٠٠٣، على ملف عن الشاعر الفرنسي الشهير إيف بونفوا الذي سبق أن تعرّف القارئ العربي على أشعاره بترجمة أدونيس التي صدرت عن وزارة الثقافة. وإيف بونفوا ليس شاعرًا فقط، بل ناقد ومترجم أيضًا. وهو، على غرار بودلير، دفع إلى أقصى الحدود ما يُعرَف بـ «عبادة الصورة» التي شُغف بها عددٌ من كبار الكتاب. وإيف بونفوا الذي بلغ الآن الثمانين من عمره هو واحد من الشخصيات الكبيرة المكرّسة في الأدب الفرنسي. وكان بونفوا قد بدأ مسيرته الأدبية في إطار السريالية، لكنه لم يلبث أن انفصل عن السرياليين ليشقّ طريقه الخاص والمتفرّد. وإضافةً إلى أشعار بونفوا المبثوثة في دواوينه العديدة، فإنّ له دراساته عن الرسوم الجدارية القوطية في فرنسا، وعن بيكاسو، وبودلير، ومالارميه، وبيير جان جوف... الخ. كما قام بونفوا بترجمة أعمال لشكسبير وييتس وليوباردي إلى الفرنسية.

ومن مواد الملفّ عن إيف بونفوا في هذا العدد مقابلة معه أجراها روبير كوب، وعمل له بعنوان «حجر» يُنْشَر لأول مرّة، وموجز تاريخي عن حياته وأعماله أعدّه روبير كوبٌ أيضًا، فضلاً عن لقاءات مع بونفوا قام بها كلٌ من جون كلير، وآلان فنستان، وبيير الشينسكي، وإيف بيّري، وموريس أوليندي. ليتلو ذلك كلّه دراسات عن بونفوا مثل الدراسة المعنونة بـ «الصورة والصوت» لجون ميشيل مولبوا، و «الشعر والحقيقة الرياضية» التي أتت بصورة مقابلة مع آلان كون أجرتها نادين سوتيل، و «الكتابة بالرسم» لأليبت أرميل، ثم مقابلة مع الناقد الشهير جان ستاروبنسكي أجراها روبير كوب وتناولت أحد أعمال بونفوا، ودراسات أخرى تناولت أوجه بونفوا العديدة وما يرتبط به مع كلٍّ من بودلير، ومالارميه، وفاليري. ثم دراسة عن ترجمة بونفوا لشكسبير. وقد تبع ذلك نوع من البيلوغرافيا المرجعية للأعمال التي كُتبت عن بونفوا.

إضافة إلى ملف إيف بونفوا، احتوى هذا العدد من المجلة الأدبية على مادة مهمة عن الروائي والقاص الياباني هاروكي موراكامي الذي بيع ما يقارب المليونين من النسخ من إحدى رواياته.

ب) - إصدارات جديدة:

١- يُعَدّ تيري إيغلتون واحدًا من أبرز منظّري الأدب والثقافة في عالم اليوم. وكان القارئ العربي قد تعرّف على إيغلتون من خلال كتبه ومقالاته التي تُرْجِمتْ ونُشِرتْ في أكثر من مكان. فقد ترجم له

جابر عصفور في مجلة «فصول» مقالة مطوّلة عن الماركسية والنقد الأدبي، ونشرت له مجلة «الفكر العربي المعاصر» تمهيد كتابه «نظرية الأدب: مَدْخل»، ثم ترجم له كاتب هذا المقال ثلاثة من بين أشهر كتبه وأهمّها، وهي «نظرية الأدب: مدخل»، الذي صدر عن وزارة الثقافة عام ١٩٩٥، و «أوهام ما بعد الحداثة»، الذي صدر عن دار الحوار عام ٢٠٠٠؛ و «فكرة الثقافة»، الذي صدر عن الدار ذاتها في العام ٢٠٠١.

وها هو كتاب جديد يصدر لإيغلتون عن دار النشر بلاكويل في ٣٢٨ صفحة، وعنوانه «العنف العذب: فكرة التراجيدي». وكعادة إيغلتون في كلّ كتاب جديد، فإنّ شغله في هذا الكتاب الأخير يرقى إلى مستوى النظرية الجديدة في التراجيديا أو المأساة. وكعادته أيضًا، فإنّ نظرية إيغلتون هذه تتبنى شيئًا فشيئًا من خلال نقد الفكر السابق المتكوّن في هذا الموضوع. وهو هنا يتناول بالنقد واحدة من المقولات الكبيرة الشائعة وهي أنّ التراجيديا قد ماتت. ولكي يصل إلى ذلك، فإنّه يبدأ بتسليط نقده اللاذع المتهكّم الذي اشتهر به على محاولات النقّاد التوصّل إلى ضَرْب من التعريف للتراجيديا في سياق تناولهم لهذا الموضوع. فحين يقول أحد النقّاد إنّ التراجيديا «لا تنطوي على إمكانية الخلاص وحسب، وإنّما أيضًا على تأكيد روحي مفاده أنّ الإنسان رائع في رماده،

ويمكنه أن يتعالى على طبيعته»، يردّ إيغلتون بأنّ من الصعب أن نرى إلى ضحايا البوسنة أو كمبوديا على أنّهم رائعون في رمادهم. وحين يتحمّس ناقد آخر قائلاً إنّ نهاية التراجيديا هي بمثابة «تصوير للحياة التي تغدو دموعها متعة أبدية، يردّ إيغلتون بأنّ من الصعب أن نميّز بين مثل هذه الرؤية والنزعة السادية المتأججة.

مثل هذه الانتقادات تتكرر من حين لآخر في كامل الكتاب، حيث يفلح إيغلتون في استخدام هذا التمرين النقدي للتقدّم باتجاه إنجاز قطيعة مع البحث السابق المضني عمّا شاعت تسميته بكأس النقد الأدبي المقدّسة، ألا وهو تعريف التراجيديا. وهكذا يتوصّل إيغلتون إلى أنّ ثمّة مشكلة في التعريفات ذاتها، وأنّه لم يتمّ التوصّل إلى أيّ تعريف للتراجيديا مُحْكَمٍ أو نافع يتعدّى القول إنّها «محزنة جدًا». فحين نأخذ، على سبيل المثال، تعريفًا يبدو للوهلة الأولى معقولاً ومنطقيًّا، كالقول إنّ «كلّ التراجيديات تنتهي بكارثة»، لا نلبث أن نكتشف أنّ هذا التعريف الذي ينطبق على «الملك لير» لا ينطبق على «الأورستايا» التي تنتهي عمليًا نهاية سعيدة بحلّ ديمقراطي لما تنطوي عليه المسرحية من معاناة وألم.

ولا يعني هذا بأيّ حال من الأحوال أنّ إيغلتون يصل إلى الحدّ الذي يلقي بالقارئ في هوّة الضباب والغموض بشأن ماهية التراجيديا. وهو لا يستهين مطلقًا بإحساسنا أننا نعلم ما نعنيه بالتراجيدي.

فها هو يقول: «إننا نستخدم المصطلح ذاته لكي نشير إلى كلٍّ من ميديا وما كبث، وقتل مراهق وكارثة منجم». ويستنتج إيغلتون أنَّ التراجيديّ يبدي ما يدعوه فتغنشتين «التشابهات العائلية» التي تتداخل فيها الملامح دون أن تكون خاضعةً لمجموعة صارمة ودقيقة من المعايير التي يمكن أن تستند إليها بثقة ويقين.

وفي ضَرْبٍ من التبصّر العميق، يرى إيغلتون أنَّ الرؤيتين المتنافستين إلى التراجيديا – الرؤية التقليدية التي يمثّلها جورج شتاينر مؤلّف كتاب «موت التراجيديا» و الرؤية الراديكالية التي يمثّلها ميخائيل باختين المنظّر الأدبي الروسي الذي يرى إلى الفنّ على أنّه نوع من الكرنفال – هما رؤيتان تتفقان على الأرضية ذاتها على الرغم من تناقضهما الظاهر. فهذان المعسكران متفقان على أنَّ التراجيديا تقيم عددًا من ضروب التمييز بين القدر والمصادفة، والإرادة الحرّة والمصير، والداخل والخارج، والعمى والبصيرة، والتاريخي والكوني، والمحتوم والقابل للتغيير، والتراجيدي بحقّ والمثير للشفقة وحسب، والهزيمة البطولية والعطالة المخزية..الخ

ويتمثّل الفارق في أنَّ النقّاد التقليديين يعتقدون، مع نيتشه، أنَّ التراجيديا قد ماتت منذ أن كفَّ البشر عن الإيمان بالقدر واستسلموا للمصادفة، والعَرَضيّة، والديمقراطية، والعقلانية، وفكرة التقدّم، وزوال الافتتان بالماورائيات. وبحسب شتاينر، فإنَّ مع هيوم وفولتير وما يمثّلانه، اختفت تمامًا تلك النوبات التي كانت تنتاب العقل منذ صراخ دم آغاممنون طالبًا الانتقام أو أنّها آوت إلى الأشكال الميلودرامية واجدةً فيها نوعًا من الملجأ. أما النقّاد الراديكاليون فعادةً ما يبدون ميولاً مناهضة لما هو تراجيدي، ورفضًا لإضفاء نوع من الانسجام المفتعل الذي تقف وراءه رؤية للعالم ميتافيزيقية في جوهرها، مدافعين عن فكرة مفادها أنَّ الحقيقة تكمن فيما هو مفتوح النهاية أو «كرنفالي» بحسب مصطلح باختين.

وبعبارة أخرى، فإنَّ المحافظين يستنتجون أنَّ التراجيديا لم تعد ممكنة في حين يستنتج الراديكاليون أنها لم تعد مرغوبة، وبذا يتّفق الفريقان على أنَّ الظرف الراهن هو ظرف أفلت فيه التراجيديا أو ماتت.

والحال، أنَّ إيغلتون يطلق نظريته الجديدة في التراجيديا انطلاقًا من نقد هاتين الرؤيتين اللتين هما رؤية واحدة في النهاية، من حيث النتيجة على الأقل. بل إنّه يستعيد في هذا المجال عددًا من المفاهيم والتصورات التي غالبًا ما أشاح عنها الراديكاليون بوجوههم بسبب الخوف من الميتافيزيقا، فيدفع هذه المفاهيم والتصورات لتشكّل رؤيةً مفادها أنَّ التراجيديا لم تمت إلى الآن وإنّما انتقلت إلى الحداثة على نحو يجعل ثمّة مأزق

تراجيدي في القلب من الثقافة الغربية المعاصرة.

ومن ثمَّ، فإنَّ حجريّ الزاوية اللذين يستند إليهما إيغلتون في بناء رؤيته هما هيغل وفرويد. وإذا ما كان مفهومًا أن يعود ماركسي مثل إيغلتون إلى هيغل وديالكتيكيته، فإنّه من الغريب بعض الشيء أن يستلهم شخص مثله فرويد في آخر مراحله التي غالبًا ما اتّهمه فيها الراديكاليون بالنزعة البطريركية، المتشائمة، المحافظة.

يدافع هيغل عن التنوير من خلال نظريته عن الصراع بين العقل وما يدعوه «ليل العالم»، ذلك الخليط العمائي الفوضوي من الكراهية واللاعقلانية القابع في دواخلنا ويمكن أن يدمّرنا وما بنيناه، إلا أنّه يظلّ على الرغم من كلّ ذلك مصدر طاقة هائلة. فتاريخنا، بحسب هيغل، هو تاريخ محاولاتنا نقض ذلك النقض التدميري الذي يمارسه «ليل العالم» وتحويله إلى فكر مُنتج وبناء اجتماعي.

وما يراه إيغلتون هو أنَّ رؤية فرويد التي عبّر عنها في كتابه «الحضارة ومنغّصاتها» تعزّز رؤية هيغل وتسندها. ففي هذا الكتاب يرى فرويد أنَّ ثمة صراعًا أبديًا يشتعل فعله في دواخلنا بين دافع الموت «تاناتوس» ودافع الحب «إيروس» الذي هو دافع للبناء والتفتّح والازدهار. ويرى إيغلتون أنَّ التراجيديا الحديثة تكمن في أنَّ إيروس يدفعنا إلى الرغبة في حرية فردية تقف ضد الآخرين جميعًا. غير أنَّ هذه الحرية الفردية، أو هذا التحقّق الخاص الذي يرغب المرء في إنجازه، هو في العالم الرأسمالي القائم اليوم بمثابة الخيانة وبمثابة التضحية بالآخرين. فمع التجاوزات المتطرفة التي ارتكبتها الرأسمالية المعاصرة، باتت الحرية تحوم فوق كابوس الحطام الاجتماعي الفوضوي. وبعبارة أخرى، فإنَّ حلم الحرية الفردية يمكن أن يتحول بسرعة إلى كابوس، حيث يمكن أن تتحول الصرخة الحديثة المطالبة بالحرية الفردية («لا أستمدّ قيمةً سوى من ذاتي») إلى صرخة قلقٍ («إنني وحيدٌ في هذا العالم»).

هكذا يعد إيغلتون أنَّ البطل التراجيدي الحديث واقعٌ بين سندان الرغبة ومطرقة «ليل العالم»، مكافحًا مثل مسيح ستتم التضحية به ويتألم لخطايا عالمنا المولم، هذا العالم الذي لا تبرز فيه الثقافة والموت على أنهما خصمين أو ضدّين بل يبدو فيه تشويه الذات التراجيدي قائمًا عند جذر الحضارة. وهذا هو مصدر تلك العذوبة الغريبة التي يجدها الإنسان المعاصر في مشهد يبدو جميلاً مع أنَّ الألم والمعاناة يكمنان في قلبه وفي جوهره.

❖) - شخصيات وأحداث:

- وفاة البروفسور برنارد وليامز في العاشر من حزيران ٢٠٠٣.

ربما كان البروفسور السّر برنارد

وليامز، الذي توفي عن عمر ناهز الثلاثة والسبعين عامًا، أعظم فيلسوف بريطاني في حقبته. فقد أحيا الفلسفة الأخلاقية بعد أن كانت تحتضر. وكان رائدًا من روّاد السجالات الحديثة حول الذات والهوية وفكرة المساواة. كما تميّز برنارد وليامز بصوته الفلسفي المميّز المتّسم بالذكاء، وسعة المعرفة، والحسّ الإنساني العطوف، والنظر إلى العالم نظرة فكهة ومأساوية في آنٍ معًا.

ولعلّ مساهمة وليامز الحقيقية تكمن في انتشال جثة الفلسفة الأخلاقية من تربة التحليل المنطقي البعيد عن التاريخ وتحويلها إلى نوعٍ من الأنثروبولوجيا الأخلاقية المنغمسة في التاريخ وفي الثقافة، طارحةً أسئلتها على المؤسسات الأخلاقية التي نظر إليها وليامز في نسبيتها وتميّزها.

ألحّ وليامز على أهمية الانفعال، والتحفيز، والمصادفة المحضة في الأخلاق بعد أن أُهملت طويلاً. وألحّ أيضًا على أهمية العوامل «الداخلية» كما «الخارجية». وبذلك فقد وسّع حدود الفلسفة الأخلاقية ناقلاً إياها من كونها نوعًا من الهاجس التنظيري المفرط إلى كونها دعوة إلى عيش الحياة عيشًا حسنًا. ولذا فقد استهدف وليامز بالنقد كلاً من الكانطية والنفعيّة، اللتين عادةً ما ينظر إليهما على أنهما نظريتان أخلاقيتان متعاكستان. فهاتان النظريتان تزعمان كلتاهما الكونية والموضوعية ومبدأ أخلاقيًا مفردًا بعكس تعددية وليامز، وميله إلى تحرير الفلسفة من التصورات المسبقة وإلى تركيز الاهتمام على الكيفية التي تكون عليها الأشياء فعليًا، والتي يجد فيها وليامز مصدر غنى بلا حدود.

ولد برنارد وليامز في ٢١ أيلول عام ١٩٢٩. وفي عام ١٩٧٢ نشر أول كتبه وعنوانه «الأخلاق: مدخل» حيث تعرّض بالنقد للفلسفة الأخلاقية الحقّة كما كانت تمارس في حينه، واصفًا إياها بأنها فارغة ومملّة ولاتناقش القضايا الأخلاقية الحقّة أيّما مناقشة فعلية. وفي عام ١٩٧٣ قدّم وليامز نقده للنفعية، والذي اشتمل على مثالين مشهورين أصبحا الآن موضوع عدد لايحصى من أطروحات الدكتوراه. وإذْ نكتفي هنا بإيراد المثال الأول، فإن وليامز تخيّل رجلاً اسمه جيم يجد نفسه في الساحة المركزية لبلدة صغيرة في بلد من بلدان أمريكا الجنوبية. وهناك يصادف جيم عشرين هنديًا يرزحون بقيودهم التي قيّدوا بها بعد قمع تمردهم. ويبادر القائد الذي قمع تمرد هؤلاء الهنود إلى تكريم جيم بوصفه ضيفًا أجنبيًا، فيعلن أنّه إذا ما قام جيم بقتل أحد هؤلاء الهنود فإن ذلك سيكون كافيًا لإطلاق سراح الآخرين ونيلهم حريتهم، وإلاّ فإنهم سيموتون جميعًا كما سبق أن تقرّر.

وبحسب المنطق النفعي، الذي يرى أنّ الخير في فعل من الأفعال يكمن في مقدار

زيادته المحصلة الكلّية للسعادة، فإنَّ جيم لا يواجه أيّة مشكلة، وعليه ببساطة أن يقتل واحدًا من أولئك الهنود. أما بحسب وليامز، فثمة مشكلة حقيقية لأنَّ التمييز بين قتل جيم لأحد الهنود وقيام أحد ما آخر بقتلهم بسبب ما يفعله جيم هو تمييز حاسم. وبعبارة أخرى، فإنَّ النفعية التي لا تقيم مثل هذا التمييز إنما تنظر إلى كلٍّ منا على أنه مجرد وسيلة بيد مفاعيل ومؤثِّرات قائمة في هذا العالم. وهي بذلك تجرِّد الحياة الإنسانية من كلّ ما يجعلها جديرة بالعيش، وتخفق في أن تأخذ بالحسبان حضور الشخص، وتخطيطه لحياته، وواجباته الخاصة تجاه الجماعات الاجتماعية التي يدين لها بالولاء.

شارك وليامز في لجنة مؤلَّفة من اثنى عشر عضوًا مهمتها دراسة عدد من المساوئ أو الرذائل الاجتماعية، مثل القمار والمخدرات والأفلام الخلاعية. وفي تشرين الثاني من العام ١٩٧٩ قدّمت هذه اللجنة تقريرها الذي كتب وليامز بنفسه قسمًا كبيرًا منه وتدبَّر أن يوفّق بين الآراء المختلفة لأعضاء اللجنة، فجاء هذا التقرير حياديًا ومفعمًا بالفطنة والروح البراغماتية العملية. فقد رأى وليامز، على سبيل المثال، أنَّ توصيات اللجنة كفيلة إذا ما نُفِّذَت بأن تزيل الخلاعة من بريطانيا. فهذه التوصيات التي تعتبر وجود الأفلام الخلاعية في المتاجر التي يدخلها الأطفال خروجًا على القانون، إنما تسمح بعرض هذه الأفلام في دور السينما المخصَّصة لذلك بنظام خاص من السماح.

وعلى أية حال، فإنَّ تاتشر التي كانت قد وصلت إلى سدّة الحكم منذ قليل تجاهلت هذه التوصيات وأهملتها معتبرةً إياها مفرطةً في ليبراليتها.

ومن ميزات وليامز الأخرى سخريته من أولئك الذين يقيمون نوعًا من التضاد بين الأساليب التحليلية الصارمة التي تميّز بها الإنجليز والأميركيون في الفلسفة وبين الأساليب الأدبية التي تميّز بها الفلاسفة والمفكّرون الفرنسيون. فهو معجب بميشيل فوكو وجاك ديريدا بقدر ما هو متحمس للفيلسوف التحليلي الأميركي دونالد داڤيدسن. وإذا ما كان وليامز قد وصف في مرحلة ما كتاب نيتشه «ما وراء الخير والشرّ» بأنّه ضرب من الهراء، فإنّه كان مستعدًا على الدوام لأن يغيّر رأيه، وسرعان ما غدا واحدًا من أشدّ المتحمسين لنيتشه لدرجة أنه عبّر عن توقه الدائم لأن يقتبس منه.

في أواخر الثمانينيات من القرن العشرين انتقل وليامز من جامعة كيمبرج إلى جامعة كاليفورنيا معبّرًا عن اشمئزازه من تدمير تاتشر للحياة الأكاديمية البريطانية ومن تضييقها على العمل الفكري الجاد. وذلك على الرغم من أنَّ وليامز كان قد أنجز في عام ١٩٨٥ ما يعتبر أفضل كتبه وأهمّها، ألا وهو «الأخلاق وحدود الفلسفة». وقد عبّر وليامز عن اشمئزازه المشار إليه قائلاً إنَّ البشر أيضًا، وليس الجرذان فقط، لهم الحقّ في أن يغادروا السفن الغارقة. وعلى أية حال،

فإنّه عاد في النهاية إلى أكسفورد موضحًا أنه قد شعر بغربة شديدة في أميركا.

حاول وليامز أن يحاكي نيتشه في قدرته على أن يقول في صفحة واحدة ما يحتاج الآخرون إلى كتاب كامل لكي يقولوه. وهذا ما جرّ عليه تهمة الإفراط في تكثيف مادته وتركيزها وضغطها. فهو يفضّل الإيماء إلى الأفكار على نحو مقتصد وفكه دون أن يبيّن هذه الأفكار بصورة دقيقة واضحة ودون أن يعرّفها أو يطورها. فهو يميل إلى السرعة ويتّسم بنفاد الصبر حيال السجال الشامل المجهد. ولقد تركه كلّ ذلك عرضة للتأويل، أو سوء التأويل بالأحرى. فقد أسيء، مثلاً، تأويل أحد أعظم إسهاماته في الفلسفة الأخلاقية، ألا وهو مفهومه عن الأسباب والعوامل الداخلية والخارجية. وكذا الأمر بالنسبة لمعالجته، في «الأخلاق وحدود الفلسفة»، مسألة ما إذا كانت الأخلاق موضوعية أم لا، إذْ غالبًا ما خُلطَ بين موقفه وبين التشكك الأخلاقي الساذج.

يرى وليامز أننا يمكن أن نفهم المجتمعات الأخرى وإنْ لم نقاسمها المعرفة ذاتها. بل يرى أنّ بمقدورنا، من خلال دراسة اليونان القدماء مثلاً، أن نصل إلى فهم أفضل لأنفسنا. ولقد مثّل كتابه «العار والضرورة» الصادر في العام ١٩٩٣ نوعًا من التفحّص البارع للفكر اليوناني القديم، مع أنَّ هذا الكتاب كان في المقام الأول محاولةً «للتمييز بين ما نعتقده وما نعتقد أننا نعتقده». ورأى وليامز في هذا الكتاب أنَّ الأخلاق الهيلينية توفّر ميدانًا أوسع من ذاك الذي توفّره النظريات الأخلاقية القائمة على أساس مسيحي.

وفي كتابه «الحقيقة والصدق» الصادر عام ٢٠٠٢، يمسك وليامز بتلابيب النزعة النسبية المعاصرة التي تدعو إلى تفكيك فكرة الحقيقة وتقويضها. فهو يحلل الطريقة التي يسخر بها ريتشارد رورتي، وديريدا، وآخرون من الطراز الفوكوي، من أيّة حقيقة مفهومة واصفين الإيمان بأية حقيقة بأنّه ضَرْب من السذاجة، لأنّ الحقيقة لا يمكن أن تكون خارج إطار القوة أو السلطة والتحيّز الطبقي والإيديولوجي مما يشوّهها ويحيلها إلى الزيف. وهكذا يأتي كتاب وليامز الأخير هذا بمثابة سبر «للتوتر بين السعي وراء الصدق والشكّ في أنَّ هنالك حقًّا أية حقيقة يمكن أن نجدها». ولعلّ مما يميّز هذا الكتاب أنّه يجعل القارئ يضحك عاليًا أو يندفع إلى البكاء، على نحو لم يُعتَد في كتب الفلسفة أو في الإطار الأكاديمي.

يمثّل وليامز دعوة إلى الحياة بقوة أكبر وبانتباه أشدّ. ولذا كان شخصًا اجتماعيًّا مرحًا، على الرغم من أنَّ ذكاءه السريع وإدراكه الفطن وضعاه على قَدْر من السرعة المختلفة عن سرعة الآخرين مما أصابه بشيء من الانعزال. تزوج وليامز مرتين. وله ابنة من زواجه الأول وابنين من زواجه الثاني. وقد كانت وفاته في العاشر من حزيران ٢٠٠٣.

كتاب الشهر

مملكـــة مــاري

عرض وتقديم
محمد سليمان حسن *

صدر حديثًا، عن وزارة الثقافة السورية، كتاب تحت عنوان: «اقتصاد مملكة ماري» لمؤلفه الباحث الأستاذ «علم الدين أبو عاصي». يقع الكتاب في /٣٣٤/ صفحة من القطع الكبير. ضمّ بين دفتيه: مقدمة وأربعة فصول بحثية، إضافة إلى سرد للمختصرات، ومجموعة من الرقم الاقتصادية المترجمة إلى اللغة العربية، وبعض الصور الإيضاحية التي تساعد في فهم طبيعة النصوص المقدمة. نحاول في عرضنا هذا، تقديم عرض يتسق والمعطيات المعرفية للكتاب في فصوله المدونة.

(*) محمد سليمان حسن: باحث من سورية، عضو اتحاد الكتاب العرب، عضو اتحاد الصحفيين. من مؤلفاته: تيارات الفلسفة الشرقية.

الفصل الأول: تاريخ مملكة ماري

تعد دراسة الماضي العريق لبلادنا أساسًا لاستيعاب التراث الحافل للشعوب التي عاشت في هذه المنطقة من الأرض العربية وسط العالم القديم، وتشكل جزءًا من الكشف عن جذور الحضارة الإنسانية. وأظهرت لنا التنقيبات الأثرية في تل الحريري، هوية التل، وظهر أنه «موقع مدينة ماري». وأسفرت حفريات تل الحريري عن قصور وعمائر ومعابد ومنحوتات فريدة، ومنها قصر (زمري- ليم Zamri- lim) الملكي في الألف الثاني ق.م، وقدمت المكتشفات الرقمية معلومات لا تضاهى في مجال التعريف بمدينة ماري، وقد كتبت بالخط المسماري واللغة الأكادية- المارية. وتتكون الوثائق المكتشفة قبل الحرب العالمية الثانية من طائفتين: تحتوي الأولى على رسائل كانت قد وصلت ماري من الحكام المعاصرين ومن أتباعهم وموظفيهم. ويرجع معظمها، إلى النصف الأول من القرن الثامن عشر ق.م. أما المجموعة الثانية فتضم العديد من النصوص الاقتصادية- الإدارية. وهي الوثائق التي وجدت في قاعات مختلفة من قصر (زمري- ليم). وقدمت مواسم التنقيب لما بعد الحرب العالمية الثانية ستمئة لوح، تشكل النصوص الاقتصادية عددًا كبيرًا منها. وكشفت البعثة عن خمسمئة لوح بين عامي (٧٩- ١٩٨٧) يعود مئتا لوح منها إلى الألف الثالث ق.م. ومع أن الفائدة الكاملة من جميع المعلومات التي تحتويها وثائق ماري لم تزل بعيدة المنال، إلا أن النتائج، تلقي الضوء على جوانب مهمة من تأريخ بلاد الشام في الألف الثاني والأموريين منه بشكل خاص، وتاريخ الشرق الأدنى بوجه عام. وتطلعنا على الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والمعتقدات الدينية والعلاقات الدولية بين سورية ووادي الرافدين وتعاصر ملوك ذلك الزمن.

١- ما هي أصول ماري:

تعود أقدم آثار الاستيطان في منطقة ماري إلى العصر الحجري الحديث. أما ماري نفسها فقد سكنت لأول مرة منذ مطلع الألف الثالث ق.م. وتشير بعض الأسباب إلى أن تأسيس ماري يعود إلى بداية عصر السلالات القديمة بين /٢٩٠٠- ٢٨٠٠ ق.م/. وقد بلغت عصرها الذهبي الأول حوالي منتصف الألف الثالث ق.م.

٢- ماري في العصر الأكادي:

يذكر (شاروكين - صرغون) الأكادي حوالي (٢٣٤٠ - ٢٢٨٤ق.م/ على خط سير حملته الحربية التي قادته حتى غابات الأرز وجبال المعادن الثمينة المراحل التالية. توتول، ماري، يارموتي وإبلا. ويعد (شاروكين) عهد حفيده (نارام سين: ٢٢٦٠- ٢٢٢٣ ق.م) إلى بناته بوظائف دينية في ماري، مؤكداً نفوذ الأكاديين. إلى أن تمكن المدعو (ميجر داغان) من اعتلاء عرش ماري، مؤكدًا استقلاليتها.

٣- الشاكاناكو، أمراء ماري في نهاية الألف الثالث ق.م:

بعد اختفاء دور ملوك أكاد «خضعت ماري لنظام الحكام المدعوين شاكاناكو Shakkanakku، وكان هذا العهد بالنسبة لها عهد تقدم في كل الميادين». فقد أظهرت الحفريات «أن عهد الأمراء (الشاكاناكو) دام قرونًا عدة. منذ العصر الأكادي حتى: بداية الألف الثاني، ولم يقتصر على عصر أسرة أور الثالثة في القرن الحادي والعشرين كما كان يعتقد، وأن ذلك العهد شكل أحد أعظم أدوار تاريخ المدينة. ويبدا أن معظم العمائر التي كانت تتألف منها المدينة في أيام (زمري- ليم) تم بناؤها في تلك الحقبة الزاهرة». وعقد هؤلاء الملوك علاقات دبلوماسية عن طريق المصاهرة مع حكام أور، وأضحت ماري في عهد (شولجي Shulgi) تحت وصاية أور، التي لم تستمر طويلاً. فقد انتزع السلطة قائد عسكري من مدينة ماري، وتكفل العيلاميون بالقضاء على ما تبقى. بينما استمر الحكم في ماري في يد سلالة الحكام الشاكاناكو كما في السابق.

٤- ماري الأمورية في الألف الثاني ق.م

في هذه الفترة، كانت تتدفق موجة جديدة من البدو وأنصاف البدو على أراضي الحضر المستقرين. وكانوا يسمون (مارتو) بالسومرية، أو (آمورو) بالأكادية. وهم من الأقوام السامية التي هاجرت من شبه الجزيرة العربية. استوطنت في الديار الشامية. وفي الألف الثاني قبل الميلاد أصبحت سورية أمورية في سكانها ولغتها وكياناتها السياسية. كانت ماري من أهم تلك الدول الأمورية وأول ملك منها حكم ماري هو (يجيد- ليم)، الذي خلفه ابنه (يخدن- ليم) أواخر القرن التاسع عشر ق.م، الذي امتد نفوذ ماري في أيامه إلى إيمار (مسكنة) والذي وصل في فتوحاته إلى شواطئ المتوسط. واستطاع أن ينتصر على ثلاثة من ملوك الفرات الأوسط وأسرهم وأباد جيوشهم. ثم دمر مدينة (خامان Haman) قاعدة أنصاف البدو الخانيين. حكم (يخدن- ليم) سبعة عشر عامًا كحد أدنى. سقط في نهايتها صريع مؤامرة حيكت خيوطها في قصره. وقتل من قبل خدمه. ولم يتمكن (سومو- يامام Sumu- Iamam) الذي خلف (يخدن- ليم) من البقاء على العرش أكثر من سنتين.

٥- السيطرة الأشورية على ماري:

أنشأ (شمشي- أدّو) مملكة واسعة تمتد من جبال زاغروس إلى الفرات. وتقاسم السلطة فيها مع ولديه (شمشي- دجن) و(يسمح- أدو). لقد كانت كل بلاد ما بين النهرين العليا بيده. ورغم ذلك فإنه لم يصل إلى سواحل البحر المتوسط. بل وصل إلى حدود مملكة يمحاض (حلب) التي ستكون سببًا في نهاية حكم أولاده، والتي أقام ضدها عدة تحالفات مع ملوك: كركميش وخاشوم وأورشوم. واستطاع بفضل قوته وقوة ابنه (شمشي- دجن) من السيطرة على الطرق التجارية والوديان

الخصبة في دولته المترامية الأطراف. فارق (شمشي- أدّو) الحياة عام (١٧٨٢ ق.م) فانقلبت الأمور ضده. إذ لم يستطع أولاده الإبقاء على هذه الدولة المترامية الأطراف، حيال هجمات الخصوم. وتمكن (زمري- ليم) المطرود من ماري والمقيم عند ملك (يمحاض= حلب) كلاجئ سياسي من استعادة عرش ماري مرة ثانية سنة /١٧٧٥ ق.م/.

٦- ماري في عصر (زمري ليم):

عاشت ماري في عهد (زمري- ليم ١٧٧٥- ١٧٦١ق.م) أوج ازدهارها. وامتلأت مدة خمسة عشر عامًا من حكمه بالأحداث الهامة. فقد وصل في فتوحاته إلى بلاد النهرين العليا، إما عن طريق التحالفات أو المصاهرات، وكان على ملك ماري أن يناور على هذه الرقعة. كان خصوم (زمري- ليم) عديدين، وأخطرهم مملكة أشنونة المتحالفة مع عيلام. لكنه بتحالفاته مع مملكة (يمحاض= حلب) استطاع درء هذا الخطر مؤقتًا. وأقامت ماري علاقات طيبة مع العديد من الدول في تلك المنطقة مثل: قطنة، أجاريت، جبيل، حاصور، بابل، ولكن نفوذ حمورابي في بابل على الرغم من تحالفه مع (زمري- ليم) كان السبب في دمار ماري.

٧- نهاية ماري:

غزا حمورابي ماري عام /١٧٦٠ ق.م/، ودمرها وأحرق حصونها وفر (زمري- ليم) دون معرفة مصيره. لقد كانت العلاقات التجارية سببًا في إعمار ماري ودمارها في آن معًا.

الفصل الثاني: الزراعة في مملكة ماري

١- الموقع:

يشكل وادي الفرات وروافده حوضًا مائيًا كبيرًا، وموطنًا للاستيطان العمراني منذ فجر تاريخ هذه البلاد. تقع ماري - المعروفة اليوم باسم «تل الحريري»- على تخوم الحدود العراقية. احتلت ماري موقعًا له أهمية استراتيجية كبيرة في منطقة بين أغنى منطقتين للاستيطان البشري القديم: بلاد الرافدين والجزيرة العليا والبادية.

٢- البيئة الطبيعية:

تواجدت ماري في بيئة شبه صحراوية، حيث تقع في منطقة الجفاف، ويعود السبب لموقع المنطقة القاري. وتتلقى كميات قليلة غير منتظمة من الأمطار (١٢٠-١٥٠مم) في السنة. وتزيد الرياح الخماسينية الجفاف، وتصل درجة الحرارة إلى (٤٠ْ). هذا المناخ يؤثر بشكل فعال على عملية الحت في سفوح التلال، ويؤثر في الضفاف السطحية والسهول الغرينية. وتجعل هذه الظروف المناخية الرطوبة ضعيفة (٤٥٪) وعملية التبخر عالية جدًا. إن وجود الفرات وحده يتيح الفرصة لتحمل الوضع المناخي المفروض، فنهر الفرات الدائم الجريان يجتاز ما بين إيمار والرمادي مسافة ثلاثمئة كيلومتر في منطقة سهبية قاسية. وادي النهر ضيق غالبًا حوالي (٦٠٠كم٢). ويتبع نظام جريان

الفرات نظام المجاري التي تغذيها الأمطار. يصب الخابور على ضفة الفرات اليسرى، ولا يخلو من تأثير على منسوبه، خاصة في فترة الفيضان.

٣ً- دور الزراعة في اقتصاد ماري:

على الرغم من الظروف المناخية القاسية، تمكنت ماري مع تعاظم سيطرتها على المنطقة من استثمار الأراضي الصالحة للزراعة في وادي الفرات والخابور. وأنشأت لذلك شبكة من أقنية الري، فتمت الزراعة في تلك المدينة، وشكلت إحدى ركائز اقتصاد ماري.

٤ً- أراضي منطقة ماري:

يسيل نهر الفرات في واديه الأوسط بين دير الزور وأبو كمال. وقد شقّ واديه بعمق، بين سهوب الجزيرة الواسعة. وقد شكلت الأراضي الزراعية المحيطة بماري قاعدة اقتصادية لها. وقد شكل انحدار الفرات إلى تكون مناطق ترسيب غنية.

٥ً- نوع التربة:

تتنوع التربة في منطقة ماري بتنوع الطبقات الجيولوجية لها، وتنقسم إلى عدة أنواع هي:

- الأراضي المنخفضة السفلى: تربتها ناعمة متحولة قليلاً طميّة صلصالية.

- الأراضي المنخفضة العليا: تتكون تربتها من الطمي الغريني، تحتوي على الحصى والرمال.

- الأراضي المرتفعة: من الحقبة الرابعة تتكون من مواد طمية غرينية رملية كثيرة الحصى.

- الهضاب والسهول: ذات تربة سجيلية (مارن) صفراء، فيها عناصر صلصالية.

٦ً- مشكلة الملوحة:

تكونت على المستويات القديمة غالبًا قشرة ملحية ناتجة عن جريان مائي خفيف أثناء عمليات الري، ونشأت الملوحة منذ الأيام القديمة على المساحات المروية من سطح (الهولوسين)، التي تنتهي إلى تشكيل طبقة بيضاء تغطي وجه التربة.

٧ً- منطقة الخابور:

لقد كانت منطقة الخابور بسبب طراوة مناخها وتعدد المراوي المارة عبرها مصدرًا زراعيًا غنيًا، وتشكل مستودعًا للقمح. وكانت الزراعات التي تغمر واديه توفر المؤونة الضرورية لأعداد كبيرة من التجمعات البشرية على ضفافه.

٨ً- أعمال الري ومشاريع المياه:

كان لازدياد عدد سكان ماري الدور الأكبر في الاهتمام بمشاريع الري، التي أكدتها الوثائق التاريخية لمدينة ماري، وقد مكن التطور التقني في تجهيزات الري الزراعي من تحكم الإنسان بمجمل المساحات الطمية من تجويف ماري. وقد أبرزت أعمال الاستكشاف الشاملة لتجويف ماري ولمنطقة التقاء الخابور بالفرات وجود شبكة من الأقنية. ويتفرع عن هذه الأقنية الكبيرة شبكة من الأقنية الأقل عرضًا.

وكان يجري هذا النظام من عملية السقاية عبر الأقنية على ضفاف الخابور أيضًا بنفس الطريقة بالنسبة للأراضي الأكثر انخفاضًا. أما بنية السدود فقد كانت تتكون من التراب المدعم بحزم من القصب، وتستند إلى أوتاد، وتتكون بعض أجزائها من الحجر. وقد استهدف النظام الوقائي من سدود وقنوات إلى تلطيف الفيضان والسيطرة عليه وحماية المحاصيل والتربة الزراعية من الانجراف.

٩- أشكال الملكية والاستثمار:

ما لدينا من معلومات -المؤلف- عن توزيع ملكية الأراضي الزراعية وأشكال التملك في مملكة ماري قليل حتى الآن. إلا أننا نعرف أن أملاك الدولة وأملاك الملك تشكلان وحدة مطلقة. وللملك حق التصرف بها، وكانت تشمل الأراضي الزراعية والمراعي الملكية. وكانت الأراضي الخاصة بالقصر مقسمة إلى عدة استثمارات يعمل عليها من /١٠- ١٢/ شخصًا. وتشير نصوص حمورابي إلى نوعين من الملكية: ملكية شخصية وملكية حيازة. وتشير النصوص إلى نماذج متعددة من الضرائب العينية أو النقدية بالإضافة إلى فرائض العمل الإلزامية، التي تفرض على كادحي ماري للأعمال العامة.

١٠- النباتات والمحاصيل الزراعية:

تتضمن وثائق ماري ذكرًا للعديد من المحاصيل الزراعية نذكر منها: (الشعير= Seumo) (القمح= byrum) (حبوب البانو alappanu) (القرنيات أو البقول) (الحمص= halluru) (الفول= Halluru) (العدس= Pulilu) (kakku = البيقة) (السمسم= Samssammu). أما بالنسبة إلى الخضار فقد ذكرت المدونات: البازيلاء، الثوم، الكزبرة، الكتان. وبالنسبة للنباتات العطرية، فقد ذكرت المدونات: (الطيب Riqqu) (السونو Sunu) (البنج Sakiru). وفي حقل الأشجار المثمرة ذكرت المدونات: (النخيل Suluppu) (الكرمة) (التين Ti-na-tino) (عرق السوس susu) (الآس Az).

١١- الرعي وتربية الحيوانات:

تظهر الآثار الأولى للشعوب التي استقرت في شمال سورية والعراق عراقة تدجين وتربية الحيوانات. ويكشف أرشيف ماري عن قطعان كبيرة وصغيرة من المواشي وحيوانات النقل. كما أشارت النصوص إلى مربي الحيوانات. ووجود أطباء بيطريين. أما الحيوانات التي كانت موجودة في تلك الفترة فهي: الأغنام، الأبقار، الخيول، الحمير، الجمال، الكلاب، الخنازير، القطط. يضاف إلى ذلك الطيور الداجنة مثل الأوز والبط والدجاج. وهناك الأسماك والنحل. أما بالنسبة إلى الحيوانات البرية والصيد، فقد ذكرت النصوص الأثرية: الأسود، الدب، والإيلة، الغزال، الأرانب، النعامة. إضافة إلى حيوانات أخرى تم تربيتها وتدجينها في منطقة ماري. وربما تكشف النصوص

القادمة أشياءً أخرى أكثر أهمية مما ذكرنا.

الفصل الثالث: الصناعة والإنتاج الحرفي

نهب قصر ماري بشكل كامل تقريبًا عندما قضى حمورابي على عهد (زمري- ليم). إن النصوص وحدها يمكن أن تعيد الحرف القديمة إلى الحياة.

١- العمل وعمال الحرف:

تتركز معلوماتنا حول الحرفيين في ماري بخاصة على الحرف المرتبطة بالقصر. ونميز من العاملين ما يمكن تسميتهم الموظفين أو الشخصيات ذات الشأن، وكذلك رجال الأعمال. وقد أبرزت السجلات رجلين عملا كمدراء مشاغل في ماري: (موكانيشوم) الذي كانت صلاته بالنسيج والأعمال المدنية بشكل خاص. والرجل الثاني هو (ياسيم- سومو) مفتش قصر ماري وقصور المملكة الأخرى. نجد كذلك رجال آخرون كانت لهم أقسامهم، على سبيل المثال: (قيشتي- ماما= المعدن)، و(زيكراتوم الصيرفي). وهناك الصناع المهرة المتخصصين بإحدى المهن، وهم من أصل محلي. ويأتي بعد ذلك العمال غير المتخصصين ويقومون بالأعمال اليدوية. ويقوم العمال المياومين بالأعمال المرهقة. إن الحرفيين الاختصاصيين والعمال المياومين والسكان الكادحين في ماري كانوا ملزمين بإدارة بعض الأعمال العامة. ويبدو أن الحرفيين قد توزعوا في مجموعات حسب نوع الحرفة في قطاعات المدينة.

٢- حرفيو القصر:

كان إنتاج الحرفيين يتجه لتأمين حاجات القصر اليومية من اللباس والأواني والأثاث المتنوع، والعربات والهدايا الدبلوماسية والقرابين الشعائرية. بالإضافة إلى مختلف أنواع الأغذية. ويجب التمييز بين مخازن القصر حيث كانت تخزن المواد الأولية، التي يتم الحصول عليها إما عن طريق الشراء أو من الطبيعة، وبني الورش حيث كانت تحضر مختلف المواضيع.

٣- المواد الأولية ومصادرها:

تنوعت المواد الأولية التي قام عليها الإنتاج الحرفي والصناعي في مملكة ماري. وهي ذات أصول نباتية أو حيوانية أو معدنية.

- الزيوت (Samnu) وكان لها أهمية كبيرة في منتوجات ماري وفي أعمال الصناع ومنها: زيت الريحان، زيت القدر diqratim، زيت الأرز، زيت اللبان، زيت الزيتون، زيت المرعر supali، زيت السرو، زيت Tamriram.

- المنتوجات الزراعية: وقد ذكرناها في الفصل السابق.

- الأخشاب: وكانت تستورد على شكل كتل وألواح من المناطق الغربية، وأغلى الأخشاب المستخدمة في صناعة الأثاث

قيمة هو المسمى Musukannum وهو نوع من الخشب يشبه الأبنوس. يضاف إلى ذلك أنواع أخرى مثل خشب الصندل، الفستق، السرو، الأرز، الآس، العرعر، الصنوبر.

- النباتات الطبيعية: التي تنبت من تلقاء نفسها: القصب، النباتات العطرية كالخزامى والآس.

- المنتوجات الحيوانية: اللحوم والألبان، الصوف، الجلود.

- المعادن: مثل القصدير، الرصاص، البرونز، النحاس، الحديد، حجر Marhsi الذي هو مركب من كبريتور الحديد الطبيعي. يضاف إلى ذلك المعادن الثمينة مثل: الذهب، الفضة، الأحجار الكريمة.

- مواد البناء: وكان يستخدم فيه الصلصال، إضافة إلى الحجر والآجر، واستخدم الحجر الزفتي (القير) كملاط للممرات، كما استخدم الجبس أيضًا في تغطية الجدران.

٤- الصناعات اليدوية:

- الصناعات الغذائية: من الطبيعي أن تكون المنتوجات النباتية والحيوانية أساس الغذاء والصناعات الغذائية في المملكة وهي:

١- طحن الحبوب: بواسطة الأدوات مثل الهاون والجاروش.

٢- صناعة الخبز: وتذكر النصوص خبزًا للقمح، وخبزًا من الطحين، والخبز الناضج.

٣- صناعة الحلوى: تتكون من العسل والفطائر.

٤- صناعة الألبان: ومنها الجبن.

٥- تجفيف الثمار: مثل التمر والتين والثوم المجفف.

٦- أعمال الطبخ: تشير النصوص إلى الطباخين العاملين في المطابخ الملكية.

٧- صناعة المشروبات: مثل النبيذ والجعة، وشراب (الابانو= الرمان).

- صناعة النسيج والملابس: تعد صناعة النسيج من الصناعات القديمة التي عرفها الإنسان، وكانت وليدة حاجته. وقد ساعدت طبيعة المنطقة على قيامها، وكان هذا القطاع الحرفي من أهم القطاعات في ماري، وكان الصوف المادة الأولية الأساسية.

١- أنواع الأقمشة: وتقسم إلى قسمين: أقمشة ثخينة، وأقمشة خفيفة. بألوان متعددة.

٢- الملابس: كان الجزء الأساسي منه (الجلباب) المصنوع من الجوخ المزين وقد يكون من الكتان. وتتباين درجة جودة الملابس بحسب الشرائح الاجتماعية. كما صنعت معظم الملابس الداخلية من نسيج خاص من الصوف يدعى (Sipatu). أما ألبسة الرأس فكانت تصنع من اللباد وتزين بالمزركشات.

٣- أنسجة المفروشات: وكانت تعرف باسم (السجاد Mardatum). إضافة إلى

الحواشي وشرائط الأثواب والأغطية والستائر والبطانيات والبسط.

– الصناعات الجلدية: كان للجلود المدبوغة استخدامات واسعة، وأهمها: صناعة الأحذية والصنادل العازلة للماء وأربطتها. وأكياس جلدية لنقل البضائع، أو على شكل حقائب ومحافظ، وسير جلدية للآنية المعدنية، وأغمدة جلدية، وعِدّد الرواحل، وأغطية عربات الخيل، وطبول الموسيقيين المصنوعة من جلد البقر.

– صناعة العطور ومواد التنظيف: عرفنا أنه كان للزيوت ومشتقاتها أهمية بين منتوجات ماري وأعمال صنّاعها. وأن بعض هذه الزيوت كانت تستخدم في تحضير العطور الممتازة. وفي شغل العطور كانت الزيوت تخلط مع بعض الروائح العطرية المتنوعة. وتتضمن قائمة العطور في ماري: عطور السرو والريحان والأرز والمرعر. وكانت تدار هذه الصناعة وتراقب من قبل القصر.

– الصناعات العاجية: أشار أحد النصوص إلى قواعد مصنوعة من العاج، وربما هي قواعد لآنية الشراب، مرصعة بالجواهر.

– الصناعات الخشبية: كانت منطقة الفرات تفتقر إلى الأخشاب، وبالتالي فإن هذه الصناعة تتم بالاستناد إلى الخشب المستورد، ويقوم بها نجارون مختصون. وكانت مشاغل القصر تلتزم بصناعة الأثاث للاستعمال الملكي أو الشعائري.

– صناعة وسائل النقل: شغل الفرات دورًا في النقل والمواصلات، وقد اهتم ملك ماري بذلك، فصنعوا السفن والقوارب بأحجام مختلفة. وكانت الوسائط النهرية تقوم بنقل مواد معينة بحسب ثقلها. وذكرت العربات (المركبات) في نصوص عديدة.

– صناعة السلال والأسيجة: تذكر النصوص عامل القصب الذي يصنع السلال والحصر والسياج من نبات القصب بأحجام مختلفة.

– صناعة الخزف: الذي يحصل عليه من الفخار، ويستخدم في صناعة الأنابيب والأقنية المائية، وفي صناعة الأباريق وجرار النبيذ والزيت والعسل والجعة.

– الصناعة المعدنية: ذكرت النصوص الحدادين والنحاسين وتضمنت مجالات الصناعات الحرفية المعدنية: آنية للمائدة والشراب بنماذج متنوعة وأوعية من جرار وأباريق للزيت والجعة والنبيذ والعسل، كذلك ظهرت صناعة الأسلحة وصناعة الحلي والمجوهرات، كذلك صناعة تماثيل الأسود البرونزية والأختام الأسطوانية، وتمكن الصناع في ماري من الوصول إلى معجونة الزجاج.

٥– مهن الخدمات: يكمل حرف إنتاج السلع المصنعة التي تمّ استعراضها، الشق الثاني من المهن وهي المتعلقة بالخدمات وتشمل: الأطباء، البناؤون، الحراس، المغنون، السعاة (ناقلو الرسائل). ونعرف من قوائم تعيينات القصر العديد من المهن

الأخرى مثل: السقاة، مسؤولو قسم القار، وكيل عزل الماء، الحلاق، حامل الصولجان، الغسال.

٦- الأجور: كانت أجور العمال عن واقع عملهم تدفع نقدًا أو عينًا، ويتضمن الأجر العيني: التغذية واللباس. أما الأجر النقدي فقد استخدم فيه المعادن الثمينة كالفضة والذهب بأوزان معينة.

يمكن أن نلاحظ بعد هذا العرض، أن التنوع في الحرف والمهن، يثبت ازدهارًا مؤكدًا للإنتاج الحرفي في ماري.

الفصل الرابع: التجارة في مملكة ماري

يدعى التاجر في اللغة الأكادية (تامكاروم= Tamakarm). والكلمة مشتقة من الفعل (مكارو Makaru) الذي يعني ممارسة التجارة والاتجار. كان لماري دور هام في وثائق ماري الرسمية وهو يرأس تسليم المعادن الثمينة إلى الصياغ، ويدقق العمليات في مكان يشبه الديوان.

١- موقع ماري في التجارة الدولية:

الفضل الأول في ثراء مدينة ماري يعود إلى موقعها الهام، وتجارتها البعيدة. ولهذا كان قصر ماري قادرًا على فرض الضرائب على التجارة العابرة في أراضيه، وعلى ممارسة التجارة بنشاط. لقد امتدت علاقات ماري التجارية من (حاصور) شمال فلسطين إلى كريت وقبرص وحاتوشا في الأناضول وإلى (دلمون) في البحرين و(عيلام) جنوب غرب إيران. وتتحدث نصوص ماري عن رسل وتجار وقوافل تجارية قادمة من مدن مختلفة تحط رحالها في ماري، أو تعبر أراضيها. كانت ماري محطة مهمة ليس فقط للقوافل التجارية بل أيضًا للسعاة الذين كانوا يسافرون بين المدن السورية والبابلية. وفي ماري كان يجري الاهتمام بتقديم الخدمات والتسهيلات لأعداد كبيرة من الموفدين الأجانب الخاصين إلى المدينة أو المارين بها من السفراء ورجال الأعمال والسعاة. وكان يعمل في خدمة قصر ماري مبعوثون وتجار في مدن عديدة.

٢- التجارة الخارجية:

كان المبعوثون والتجار الذين يقومون بالتجارة الخارجية في ذلك العصر يصلون إلى غايتهم بالطرق الودية. وقد قسمت التجارة الخارجية إلى صادرات وواردات.

- الصادرات: رغم علاقات ماري الخارجية الواسعة إلاّ أننا لا نملك إلا القليل من المعلومات عن أعمال التصدير قياسًا مع سجل الواردات. ونجد في النصوص موادًا من المعادن والحلي تصدر إلى (راصوم وخولاند). ومن البضائع التي كانت تمر عبر ماري أو يعاد تصديرها باتجاه بلاد الرافدين: الأخشاب والزيوت والمواد الصمغية والنبيذ والحجارة. وكان التصدير الموثق والمنظم والمستمر هو لمادة القصدير نظرًا لأهميته وندرته. وكان هناك تجار متخصصون فيه، يتمتعون بخبرة عالية.

- الواردات: كانت ماري بحاجة إلى

استيراد العديد من المواد وبخاصة من منتوجات الشرق الأدنى وهي:

١- المعادن: القصدير، النحاس، الذهب، الرصاص، الحديد، التراب الحديدي، اللازورد، العقيق الأحمر، الفضة.

٢- الأحجار: وكانت هناك سفن مخصصة لذلك، تنقل أحجار المطاحن وأجران الهاون.

٣- القطران والنفط: يجلبان من شمال كركميش.

٤- الحلي والصناعات المعدنية: مثل الأواني المعدنية والذهب والأسلحة واللازورد والفضة.

٥- المنسوجات والملابس: وخاصة منسوجات جبيل، الصناعات الجلدية.

٦- المنتوجات النباتية والغذائية: الحبوب، الزيوت، النبيذ، العسل،الأعشاب العطرية، الأخشاب.

٧- الحيوانات والمنتوجات الحيوانية:

الأغنام، الأبقار، الخيول، الأيلة، الدببة، الصوف.

٣- التجارة الداخلية:

كان التجار في بلاد الرافدين يتجمعون في حي يدعى (كارم Karum) ويحتمل وجود هذا الشكل في ماري، عمليات التجارة الداخلية قليلة التوثيق لأن وثائق ماري هي وثائق رسمية ولا تتضمن عمليات التجارة الخاصة والمبادلات الفردية بين المقيمين في ماري. ويتكامل في أسواق ماري نشاط الحضر والبدو، ويستفيدون من تبادل المنتجات والبضائع وكانت تقام الحانات (الخمارات) خارج المدن في مكان متوسط بين المدينة والريف.

٤- النقد والتبادل:

لم يظهر تأكيد على المبادلة (المقايضة) المباشرة في ماري حتى الآن. بل بصورة غير مباشرة. بطريقة الأجر عن العمل. ولم يكن النقد قد وجد في ماري بعد. وكانت المبادلة تتم بالمعادن الثمينة كالذهب وخاصة الفضة، ومن المقاييس النقدية: الحبة= ١/١٦غ. المثقال= ٨غ تقريباً. المينة= ٥٠٠غ تقريباً. وقد عرفت الخواتم (الحلقات) كأحد أشكال استخدام الفضة بمثابة النقود قبل العملة. كما وضعت في زمن (شمشي- أدو) معدلات نظرية لتبادل بضع سلع أساسية مثل الشعير والزيت والصوف مقابل الفضة. وتقدم لنا بعض الحسابات معلومات عن الأسعار، خصوصاً عن علاقة القيمة بين الذه

ب والفضة.

٥- الضرائب والرسوم:

كان المقيمون في ماري ينتفعون من انتقال السلع والمواد الاستهلاكية المختلفة، وتوضح الوثائق انتفاع الدولة وخاصة الملك من انتقال هذه المواد. حيث كانت تجبى الرسوم والضرائب على عدد من المواد إلى خزينة الملك من قبل جباة يستأجرهم الملك براتب محدد. وكانت المبالغ المجباة إما نقدية أو عينية. وتشير النصوص إلى

نماذج متعددة من الضرائب. وكانت ماري كما تدل الرسائل تفرض ضرائب جمركية على البضائع التي تنقل عبر أراضيها وفقًا للحمولة سواء البرية منها أو البحرية. وكانت الرسوم الجمركية تشكل موردًا هامًا من موارد الدولة.

٦- المقاييس والموازين:

وتقسم إلى عدة أنواع هي:

- مقاييس السعة: تستخدم في تقدير حجوم السوائل والحبوب والدقيق والأغذية النباتية.

- **مقاييس الوزن**: تستخدم في وزن المعادن بالإضافة إلى مواد أخرى مثل الصوف.

- مقاييس المساحة: وتستخدم لقياس مساحة الأراضي.

٧- المواصلات التجارية:

كانت تتم الأعمال التجارية في مملكة ماري وعلاقاتها التجارية مع البلدان الأخرى في القرن الثامن قبل الميلاد، إما عبر الطرق المائية أو البرية.

أ ـ النقل المائي : كان لنهر الفرات منذ القديم دور كبير في النقل والمواصلات، مؤمنًا الاتصال بين المناطق الجغرافية. وفي عصر ماري حمل الفرات والخابور والقنوات المتفرعة عنهما عبء التجارة المتزايدة. وقد اهتم ملوك ماري ببناء المراكب الكبيرة والصغيرة للنقل في الفرات. وتقدم لنا الرسائل الكثير من المعلومات حول رحلات السفن على نهر الفرات من خلال الضرائب الجمركية التي كانت مملكة ماري تحصلها من السفن. كان النقل التجاري يجري من أعالي النهر إلى أسفله وبالعكس. وكانت أهم المواد المنقولة: الحبوب والنبيذ والسمسم والعسل والماشية وأبراج الحصار والأسود والجيوش أيضًا. ونقل الأخشاب عن طريق التطويف. كانت القصور والمعابد والأفراد في بلاد الرافدين يملكون مراكبهم الخاصة. ولايتوقف النقل النهري حتى في فترة الفيضان من نيسان إلى حزيران. وكذلك كان لنهر الخابور نفس الأهمية وإن كان بكثافة أقل في ملاحته.

ب ـ النقل البري: كذلك واكبت القوافل شطآن النهر، وأحيانًا مبتعدة عنه قليلاً.

١ ـ أهم الطرق البرية: الطريق الأول ينطلق من ماري محاذيًا الفرات باتجاه الشمال الغربي حتى مدينة (إيمار) متجهًا نحو المناطق الساحلية عبر سهول سورية الشمالية حتى حلب، ثم يتجه من حلب إلى البحر المتوسط عبر (آلالاخ) أو (أجاريت). ويتقاطع هذا الطريق في حلب مع الطريق المتجهة من حلب نحو الجنوب عبر (قطنة) إلى فلسطين. ويتفرع من (إيمار) عدة طرق نحو وادي البليخ وكركميش إلى قطنة. ويمتد هذا الطريق المحاذي للفرات باتجاه بابل مارًا بمدينة (خانة= عانة) بالقرب من الحدود العراقية السورية. ثم إلى (إيدا=هيت) ثم (رابيقوم=الرمادي) وتصل إلى (سيار). أما الطريق الثاني فهو طريق صحراوي المتجه نحو (قطنة) عابرًا تدمر

متجهًا غربًا إلى سواحل البحر المتوسط، ويلتقي عند حمص مع الطريق المتجهة من حلب. ويتفرع عنه عند تدمر فرع باتجاه الجنو ب نحو (ناشا=القريتين). حيث يلتقي بعدها بالطريق القادم من الشمال من حلب إلى دمشق ففلسطين، وكان يوجد طريق صحراوي آخر يقطع البادية بين أبو كمال وتدمر. كذلك؛ قام الخابور بنفس الدور بين ماري ومدن أشور.

٢ ـ وسائل النقل البر ي والاتصالات:
الحيوان الذي كان يستخدم كوسيلة في هذه الفترة هو (الحمار= Imerum) كواسطة للحمل والركوب وحمل السقاة. وكذلك ذكرت النصوص رحلات القوافل لأسباب أمنية. كذلك ذكرت النصوص العربات وسيلة لنقل الأخشاب، وبخاصة في المناطق السهلية. وتحرك الرسل على الطريق البرية حاملين الرسائل (الألواح) من ضباط مقاطعاتهم إلى الملك. وكان النقل والتجارة على الطريق البرية يواجه بعض المصاعب شتاءً بسبب سوء الأحوال الجوية وغزارة الأمطار التي تسبب الوحل. وكان للصوص الطرق الدور الأكبر في تعثر النقل البري. وقد ذكرت نصوص ماري من هؤلاء اللصوص مجموعة من البدو أهمهم: البنيامينيون والحانيون والسوتيون والخابيرو. وكانت التجارة والمواصلات عمومًا تتأثر بالاضطرابات وبسوء العلاقات السياسية والحروب بين الدول. وتتطلب حماية القوافل والمبعوثين من الاعتداءات أخذ الحيطة والحذر، والحراسة التي كان يحاول تأمينها ملوك ماري.

لقد لعبت ماري دورًا بارزًا كوسيط تجاري بين المدن السورية وبلاد مابين النهرين وبقيت ماري هبة موقعها الاستراتيجي ونشاطها التجاري طيلة الوقت.

خاتمة

لقد نشأت ماري على ضفاف الفرات في النصف الأول من القرن الثالث قبل الميلاد، وعاشت على مدى أكثر من الف عام، وكانت حاضرة مزدهرة للفرات الأوسط، ولعبت دورًا بارزًا في تاريخ الشرق الأدنى القريب المضطرب.

وتبين الوثائق أن مملكة ماري قد اعتمدت على اقتصاد متعدد الجوانب، زراعي وتجاري وصناعي وخدمي. ويمكن القول من خلال أربعمئة وخمس وثلاثين وثيقة أن صناع ماري كانوا يشكلون نسبة كبيرة من العاملين ، ولم يكونوا أقل من الفلاحين نشاطًا.

وتتيح الدراسات الأثرية والتاريخية وقراءة النقوش تقدير الدور الكبير لماري بوصفها مركزًا تجاريًا استراتيجيًا. وما زال (تل الحريري =ماري) يحوي الكثير من المجهول عن هذه المملكة، ربما تكشفه لنا الأيام القادمة.

❖ ❖ ❖

إصدارات

❖ صمود وانهيار

بعد الأجزاء الثلاثة، صدر الجزء الرابع من كتاب الباحث الدكتور «علي عقلة عرسان، رئيس اتحاد الكتاب العرب، تحت عنوان: «صمود وانهيار، مسارات التفاوض العربية - الإسرائيلية بعد مؤتمر مدريد، وانهيار رمز العظمة نذير بانهيار الطغيان».

الكتاب في مجمله، دراسة تاريخية تعتمد التصنيف الزمني التاريخي للأحداث والوقائع، مقسمة على مجموعة من الأبوب والفصول الداخلية، بصيغة موضوعات معرفية محددة، مع تأكيد المؤلف على محورية الصراع العربي - الإسرائيلي كهوية أساسية للبحث.

قسم الكتاب إلى ثلاثة أبواب، هي: فلسطين الجرح المقاوم - انهيار رمز العظمة - العراق والعدوان الأمريكي المستمر. إضافة إلى باب خاص حمل عنوان «نصوص خواتيم» قدم فيه الباحث المؤلف الدكتور علي عقلة عرسان، رؤية مستقبلية لمجمل المفهومات المعرفية التي قدمها في كتابه، بلغة استنتاجية، تعتمد التحليل والوثيقة المكتوبة، والرؤية المعرفية أساسًا.

وقد عمل المؤلف الباحث الدكتور علي عقلة عرسان، على ربط الماضي بالحاضر، ضمن رؤية جدلية تعمل على استشفاف المستقبل من خلال جدل العلاقة بين الماضي والحاضر في حدثه التاريخي، مؤكدًا: «أن أحداث المسار الفلسطيني مع الكيان الصهيوني، قد وصلت إلى مرحلة حاسمة، بتقديم خارطة الطريق بعد سقوط بغداد والاحتلال الأمريكي - البريطاني للعراق.. والتدخل الأمريكي المباشر لاستثمار هذا الحدث سياسيًا وثقافيًا إلى أبعد الحدود...».

يقع الكتاب في /٨١٠/ صفحات من القطع الكبير. وهو من إصدارات اتحاد الكتاب العرب لعام /٢٠٠٣/.

❖ حسني هلال.. حفنة صور

حفنة صور.. مجموعة قصصية قصيرة للأديب والقاص حسني هلال. وهي على ما أعتقد ليست باكورة إنتاجه الأدبي، بل سبقتها أعمال أخرى. المجموعة من إصدارات دار علاء الدين بدمشق لعام /٢٠٠٣/. ضمت في داخلها، مجموعة من القصص القصيرة. جاء في غلافها: « صور احتلت القلب وكمنت في دهاليز الذاكرة، تطل برؤوسها بين حين وآخر لتغرينا بالهروب إلى فضاءات بكر وينابيع صافية.. مجموعة قصصية تنهل من التراث كؤوسًا مترعة برائحة الأرض والعشب البري، ودفء العلاقات الإنسانية، رغم الأحلام المكسورة والأمنيات العصية على التحقيق.

❖ القلب كان حمامة

للأديب والشاعر محمد سمير جعارة، صدر حديثًا، مجموعة شعرية تحت عنوان «القلب كان حمامة». وهي من إصدارات

دار الشاري للنشر والتوزيع لعام /٢٠٠٣/. تقع المجموعة في /١٢٥/ صفحة من القطع الوسط. ضمّت بين دفتيها، مجموعة من القصائد الشعرية ذات المنحى الوطني والقومي في آن معًا. بلغة أقرب إلى التحديد الواقعي والرمزية المبسطة ذات الهدف المحدد.

والأديب الشاعر محمد سمير جعارة، من الأدباء الذين مارسوا الكتابة الشعرية والقصصية منذ مدة ليست بالقليلة، فمجموعته الشعرية هذه هي الحادية عشرة في مجموع أعماله. نذكر منها: (مزامير لقرص الرماد) مجموعة شعرية. (الصامت) مجموعة قصصية. (حافة الشوق) رواية. إضافة إلى مجموعة أخرى من الأعمال. من أجواء مجموعته الشعرية الجديدة نختار المقطع التالي:

لو... كان لي
أن أعبر هذا الحيز
أن أصل...
إلى آخر
سواد الدنيا

* * *

لو... كان لي
أن أطبع قبلاتي
على وجه هذا الكون
مادام اللون
لم تلفظه شراييني.

* * *

* في انتظار البرابرة:

رواية جديدة مترجمة للأديب الروائي الجنوب أفريقي (ج.م. كوتيزي) قام بترجمتها (صخر الحاج حسين) وأصدرتها دار (عبد المنعم ـ ناشرون) في طبعتها الأولى لعام /٢٠٠٠/. تقع المجموعة في /١٩١/ صفحة من القطع الكبير.

المؤلف (ج.م. كوتيزي)، من مواليد /١٩٤٠/ في (كب تاون) بجنوب أفريقيا. درس في بلده وفي الولايات المتحدة الأمريكية. يعمل حاليًا محاضرًا في جامعة (كب تاون). له عدة أعمال روائية، منها: (أراضي الظلام ـ ١٩٤٧)، (في قلب الوطن ١٩٧٧).كما نشر العديد من الترجمات والدراسات اللغوية والنقد الأدبي. فازت روايته (في قلب الوطن) بالجائزة الأدبية الأولى (CAN) في جنوب أفريقية.

تعتبر روايته (في انتظار البرابرة) من أهم الأعمال الروائية في القارة الأفريقية، فقد طبعت في عقد الثمانينات تسع مرات متتالية.

الرواية في مضمونها محاولة لإبراز هوية الحرب في علاقة غير متكافئة بين مضطهِد ومضطهَد. كيف يمكن للقاضي الذي هو شاهد عيان كرمز للعالم أجمع، أن يشاهد ما يجري ويجري في جنوب أفريقيا ويلتزم بالصمت. إنها حال مفهوم القوة والقطب الواحد في هذا العالم الذي يقبع تحت حالة من العنف والدمار.

تتميز هذه الرواية بدقة الترجمة

والتدقيق اللغوي الجيد، إضافة إلى استخدام التقنية العربية في التشكيل والضبط اللغوي.

* لأننا لم نفترق:

هو الإصدار الجديد للأديبة ليلى مقدسي، في سلسلة إصداراتها.

وهي من الأديبات اللواتي مزجن في كتابتهن بين النثر والشعر. بين المقالة والمقامة. بين القصة والرواية. بين اليوميات والرسائل. كل ذلك بلغة البوح الجواني الذي لايخلو من الجرأة في معظم الأحيان.

مجموعتها الجديدة هذه، الصادرة عن دار المقدسية بدمشق لعام /٢٠٠٣/ تضمّ بين دفتيها مجموعة من النصوص التي تأخذ منحى أدب الرسائل، في لغة هي تركيبة جميلة بين النثر والشعر، وإن كنا نرى في داخل النصوص قصائد شعرية تحل محل النثر لتعطي كل ذي حق حقه من التعبير.

يقول الأديب عبد الكريم حسن عن المجموعة في رسالة موجهة إلى الكاتبة: «العزيزة ليلى مقدسي.. لأننا.. لم نفترق.. نص على نص.. محاكمة جريئة للحب، يخرج القارئ منها ليدخل مع ذاته في فضاء من المرارة التي طالما وسمت (علاقة) المرأة بالرجل.. وفي فضاء من التأمل العميق أبقى أسير لغة عذبة.. ومجازات بكر.. وصور شفافة.. وانسيابية جارفة.

أسطورة الإطار.. في دفاع عن العلم والعقلانية:

ضمن منشوراتها الشهرية القيمة، صدر الكتاب رقم ٢٩٢/ لعام /٢٠٠٣/ من سلسلة عالم المعرفة الكويتية تحت عنوان (أسطورة الإطار.. في دفاع عن العلم والعقلانية). الكتاب من تأليف الفيلسوف وعالم الرياضيات (كارل بوبر). قام بتحريره (مارك توترنو) وترجمته إلى اللغة العربية الدكتورة يمنى طريف الخولي. يقع الكتاب في /٣٢٥/ صفحة من القطع الوسط، ضم بين دفتيه مقدمة وخاتمة و/٩/ فصول بحثية. إضافة إلى سرد للمصطلحات المستخدمة في الكتاب.

يعتبر المؤلف (كارل بوبر/١٩٠٢-١٩٩٤/) من أهم فلاسفة العلم والمنهج العلمي هاجر من موطنه (النمسا) عام /١٩٣٦/ إلى نيوزيلندا، حيث عمل في التدريس الجامعي، ثم استقر في انجلترا. عمل أستاذاً للمنطق والمنهج العلمي في جامعة لندن (١٩٤٩-١٩٦٩). حصل على خمسة عشرة دكتوراه فخرية، والعديد من الجوائز والمناصب العلمية والأكاديمية. من كتبه المنشورة (منطق الكشف العلمي) (المجتمع المفتوح وخصومه) (عقم النزعة التاريخانية) (المعرفة الموضوعية) (النفس ودماغها) (الكون المفتوح) (نظرية الكوانتم) (إسطورة الإطار)، إضافة إلى مؤلفات أخرى. ترجمت أعماله إلى أكثر من ثلاثين لغة. وصدّرت عشرات الرسائل الجامعية والكتب عن فلسفته في أنحاء العالم.

جاءت فصول الكتاب على النحو التالي: عقلانية الثورات العلمية. أسطورة الإطار.

العقل أم الثورة. العلم، المشكلات والأهداف. الفلسفة والفيزياء. المسؤولية الخلقية للعالم. مقاربة تعددية لفلسفة التاريخ. النماذج والأدوات والصدق. الابستيمولوجيا والتصنيع.

يمثل هذا الكتاب، آخر إصدارات كارل بوبر- والذي تعتبر فلسفته من أهم الفلسفات المعاصرة المشكلة لمعالم الفكر الغربي. وقد جاء عنوان الكتاب حالة إدانة لمجمل المجتمعات التاريخية المغلقة ودعوة لمجتمع بشري مفتوح خارج الأعراق ودوغما الأفكار المغلقة. باعتباره أن صدام الحضارات أو الالتقاء فيها هو شريعة التاريخ والوجود البشري، على أن يتم هذا الصراع بعقلية نقدية متفتحة. أما العنوان الفرعي تحت عنوان (دفاع عن العلم والعقلانية) فقد جاء كرد على اتجاهات مابعد الحداثة. وبخاصة علاقة مابعد الحداثة بفلسفة العلوم. رافضًا أيّ هيمنة لنظريات مابعد الحداثة على فلسفة العلوم. ويكفي أن يكون (بوبر) باعتراف الجميع فيلسوف العالم الأكبر حتى يدفعنا إلى قراءة الكتاب مرتين. مرة لمعرفة مافيه. ومرة أخرى كقراءة نقدية، وربما مرة ثالثة لمعرفة بماذا يفكر هذا اليهودي الذي خرج عن إطار عشيرته نحو مجتمع علماني مفتوح.

❖ المثل الشعبي... والمرأة

ينطلق الباحث في مقدمة كتابه، من مفهومة معرفية تؤكد على تجاوز المثل الشعبي للحدود والحواجز، فهو باعتباره قولاً ينتقل على الألسن، يتجاوز في ماهيته حدود الأرض واللغة ليصيب في خانة التاريخ المعرفي على الدوام.

ويؤكد الباحث على أن مفاهيم مثل العولمة والغزو الثقافي وحوار وصدام الحضارات، يلعب فيها الموروث الشعبي دورًا هامًا باعتباره خصوصية الأمة في جدل العلاقة بين العام والخاص.

ويؤكد الباحث أيضًا على دور المثل الشعبي والسيرة الشعبية باعتبارهما فن القول في أزمان الخطر والأزمات، كما في أزمان الرخاء والأزدهار، ويستعير قولاً للكاتب المسرحي (فاروق خورشيد) مفاده: «أن سيرة عنترة بن شداد، تعكس معارك العرب ضد هجمات الروم والفرس، وسيرة الظاهر بيبرس تعكس التضامن العربي ضد هجمات الفرنجة، وسيرة سيف بن ذي يزن، تعكس الحرو ب العربية ضد الأحباش في اليمن».

كما أن الأمثال الشعبية العربية في عصرنا الراهن تعكس وحدة الأمة لغة وتاريخًا ومفاهيمًا معرفية. فعلى الرغم من دخول العامية في المثل الشعبي، إلا أننا ندرك وحدة المثل الشعبي العربي مضمونيًا، باتفاقه على مضمون المثل وإن اختلفت الطريقة في التعبير.

ثم يقدم الباحث منظومة معرفية شاملة في مكانة المرأة في المثل الشعبي العربي، وأحيانًا العالمي. مؤكدًا على أهمية المرأة

وعلى دورها في الحياة عبر التاريخ.

الباحث مؤلف الكتاب (فوزي معرو ف) عضو في اتحاد الكتاب العرب، يحمل شهادة الإجازة في اللغة العربية، ودبلوم في التربية وعلم النفس، وماجستير في الأدب والنقد. له عدة مؤلفات منشورة.

أما الكتاب فيقع في /١٦٨/ صفحة من القطع الكبير ضمّ بين دفتيه: مقدمة وخاتمة وثلاثة أبواب بحثية. والكتاب من إصدارات عام /٢٠٠٣م/

❖ الذكورة والأنوثة:

بعد إصدارات متعددة، يطل علينا الباحث حسن عباس بإصداره الجديد تحت عنوان «الذكورة والأنوثة بين الفن والأخلاق». يقع الكتاب في /١٤٥/ صفحة من القطع الكبير، من إصدارات عام /٢٠٠٣م/، ضمّ بين دفتيه مقدمة وخاتمة، إضافة إلى ستة فصول بحثية، جاءت على النحو التالي: الشخصية العربية بين الفن والأخلاق. العلاقات الجدلية بين الذكورة والأنوثة. الذكورة والأنوثة في الملاحم والأساطير. الذكورة والأنوثة في الكتب السماوية. الذكورة والأنوثة في علم النفس بين الفن والأخلاق. المرأة العربية في مواقعها الريادية.

وللباحث حسن عباس، مجموعة من المؤلفات من أهمها: (بين أدب النشوة وأدب اللذة) (إطلالة على الإعجاز اللغوي في القرآن) (حروف المعاني بين الأصالة والحداثة) (لافن بلا أخلاق ولا أخلاق بلا فن).

دوريات

❖ مجلة الآداب الأجنبية:

صدر العدد الجديد من مجلة (الآداب الأجنبية)، ربيع ٢٠٠٣، فصلية اتحاد الكتاب العرب بدمشق، والتي يرأس تحريرها الدكتورة بثينه شعبان.

جاءت محتويات العدد ضمن أبوابها الثابتة على النحو التالي: افتتاحية العدد للدكتورة بثينة شعبان تحت عنوان «إنتاج الفكر» مؤكدة في افتتاحيتها على مفهوم القراءة، وقراءة النص وإعادة إنتاجه وفق مفاهيمات المتلقي بوصفه قارئًا، وكيفية الاستفادة من معطيات النص باعتباره منتجًا مفاهيميًا، يمكن إعادة صياغته وتفصيل مقابلاته الماهوية باختلاف الزمكان، ووحدة الهدف.

- في باب أبحاث ومقالات مترجمة، فقد كتب: (نظرية علم اللغة التقابلي في التراث العربي) للباحثين جاسم وزيدان علي جاسم. و(رحلة يونغ إلى أميركا الهنود الحمر) ترجمة نهاد خياطة وغالية خوجة. (مابعد الانطباعية: طرق فردية نحو البناء والتعبير) ترجمة خالدة حامد. (حول شعر الغزل عند الوليد بن يزيد) ترجمة الدكتور محمد فؤاد نعناع.

- في باب القصص، قدمت ترجمات للقصص التالية:

توماس مان (الموت) ترجمة عدنان حبال. زوران كوفاجفسكي (فيليب والبجعة) ترجمة وليد السباعي، البرتومورافيا (الرضيع) ترجمة حصة منيف.

- في باب الشعر، قدمت ترجمات للقصائد التالية:

(أناشيد عاطفية بلا كلام) لبول فرلين، ترجمة لطيفة ديب. (أغنيات البراءة) لوليم بليك، ترجمة جهاد الأحمدية. (مختارات من ديوان العملة الحديدية) لخورخ بورخس، ترجمة رفعت عطفة. (من ديوان المراثي) لنيكولاس غيين، ترجمة ابراهيم الأشقر. (قصائد) لأحمد التيلي، ترجمة ديلان شوقي.

- في باب المسرح، ترجمة مسرحية (وحيد القرن) ليوجين يونيسكو، قام بترجمتها إلى العربية وفاء شوكت.

كما ضمّ العدد في باب المراجعات، ترجمة حول أدبيات تاريخ بلاد مابين النهرين، قدمته من الصحافتين الفرنسية والإنكليزية (هدى أنتيبا).

❖ مجلة الثقافة:

صدر العدد الجديد، تموز لعام /٢٠٠٣/ من مجلة الثقافة، التي تصدر في دمشق، والتي تعتبر إلى جانب مجلة المعرفة السورية شهرية وزارة الثقافة، من أقدم المجلات السورية، التي مازالت تصدر بشكل منتظم حتى الآن. فقد تأسست مجلة الثقافة عام /١٩٥٨/، ومجلة المعرفة عام /١٩٦٢/. مجلة الثقافة، مجلة شهرية، ويصدر رديف لها أيضاً بشكل أسبوعي كجريدة صباح كل سبت. وهي من المجلات الخاصة، يتولى رئاسة تحريرها وإدارتها الأديب الشاعر مدحت عكاش.

احتوى العدد الجديد، مجموعة من الدراسات والمقالات والقصائد الشعرية، منها: سعاد الصباح شاعرة الأنوثة للأديب عيسى فتوح. الآب أنطون بولاد للأديب حكمت هلال. الأديبة هيلانة غسطين ليوسف عبد الأحد. شعر الحداثة للأديب الدكتور متري نبهان. الأديب المعجمي عز الدين التنوخي للباحث أحمد سعيد هواش. إضافة إلى مجموعة أخرى من الأبحاث والمقالات.

يقول الأديب عيسى فتوح في بحثه (سعاد الصباح شاعرة الأنوثة): الدكتورة سعاد الصباح، شاعرة كويتية مبهرة ومدهشة، وكاتبة موهوبة ومبدعة، اكتسبت شهرة واسعة في الأوساط الأدبية العربية، ولفتت الأنظار بأنوثتها ورقتها ودعوتها إلى تحرر المرأة والوطن، منذ أن صدر ديوانها الأول (ومضات باكرة في القاهرة /عام/١٩٦٢/.

❖ مجلة العلوم:

عن مؤسسة الكويت للتقدم العلمي، صدر العددان/ ٤-٥/ لعام ٢٠٠٣/ من مجلة العلوم الشهرية. وهي الترجمة العربية لمجلة ScientiFic American، وتعتبر هذه المجلة من المجلات الدولية الهامة في مجال العلوم بعامة والعلوم البحتة بخاصة.

تضمن العدد مجموعة من الدراسات في شتى الميادين، نذكر منها: تقانة ضد الإرهاب. حينما تتصادم النجوم. لغز مرض هنتنكتون. هل من لقاح لمرض الإيدز. أسرار حقب الحياة الوسطى في مدغشقر. الصحيح والخاطئ عن التنويم المغناطيسي. إضافة إلى الأبواب الثابتة في المجلة.

ومن مقال: هل من لقاح لمرض الإيدز، نشرت إحصائية عن عدد الإصابات بهذا المرض في العالم ـ وفق تقسيمات جغرافية محددة. وقد حصدت القارة الأفريقية جنوب الصحراء المرتبة الأولى، واستراليا ونيوزيلاندا المرتبة الأخيرة. أما منطقة الشرق الأوسط وشمال أفريقيا وهي المنطقة العربية، فقد تبين، أن عدد إجمالي المصابين بالمرض وفق الإحصائيات المتوفرة /٤٤٠٠٠٠/. مصاب، وعدد المصابين الجدد /٨٠٠٠٠/ مصاب، وعدد الوفيات /٢٠٠٠٠/. وقد احتلت المرتبة الثامنة من أصل عشر مناطق، هي مجموع مناطق العالم.

❖ **شؤون عربية:**

عن جامعة الدول العربية في القاهرة. صدر العدد /١١٤/ صيف /٢٠٠٣/ من مجلة شؤون عربية. وهي مجلة فصلية متخصصة في الدراسات والبحوث الخاصة بالشأن العربي في علاقاته مع العالم ومع نفسه على الأصعدة كافة: الاقتصادية والاجتماعية والسياسية والثقافية. جاء العدد في /٢٥٩/صفحة من القطع الكبير، ضمّ بين دفتيه مجموعة من الأبحاث والدراسات المقسمة على أبواب عدة نذكر منها: مابعد الغزو الأمريكي للعراق. الرأي من الجانب الآخر. أمريكا وبترول الشرق الأوسط. الدبلوماسية العربية في عالم متغير إضافة إلى التقارير وعروض الكتب.

في كلمة العدد كتب رئيس التحرير قائلاً: تسببت أحداث سبتمبر في إجراء تغييرات جذرية في البنية الفكرية للمجتمع الأمريكي، حيث فرضت عليه مجموعة من المفاهيم التي لم تكن مطروحة على الساحة الفكرية الأمريكية من قبل.. وقد وضح مدى تسرب هذه المفاهيم الجديدة في عمق الوعي الأمريكي أثناء إعداد البلاد للحرب ضد العراق.. وبعد إنهاء عملية الغزو، وانقشاع الضباب عن أبعاد النوايا الأمريكية الحقيقية من هذه العملية، برزت حملة التواطئ الفجة بين الإدارة والإعلام الأمريكي.

أما بالنسبة للوعود الأمريكية والبريطانية، بتحريك عملية السلام عن طريق خارطة الطريق الرباعية، فيبدو أن ذلك يتم وفقًا للإيقاع الذي تتحمله السياسية الإسرائيلية.

أما عن المشهد الدولي، فقد وضح أن الانقسام الحاد في المواقف بين الإدارة الأمريكية من جهة، والدول الرئيسة في الاتحاد الأوروبي وروسيا من جهة أخرى يعود أساسًا إلى توجس هذه الدول من توجهات سياسة الهيمنة الأمريكية،

والوقوف إلى الجانب الأمريكي في الأمم المتحدة لتمكينه من الحصول على غطاء شرعي للعملية على أساس الأهداف الأمريكية.

وفي ظل هذه المعطيات الأمريكية والدولية والإقليمية، يثور التساؤل حول الموقف العربي من التطورات الراهنة بالمنطقة، ومدى رغبة الدول العربية في التواجد بفعالية على مسرح الأحداث فيها وقدرتها على التعاون الجماعي لتوجيه هذه التطورات لصالحها.

❖ **آفاق الثقافة والتراث:**

«آفاق الثقافة والتراث» مجلة فصلية ثقافية تراثية تصدر عن دائرة البحث العلمي والدراسات بمركز جمعة الماجد للثقافة والتراث، بدولة الإمارات العربية المتحدة. العدد الصادر هو الواحد والأربعون، ربيع عام /٢٠٠٣/تضمن العدد إضافة إلى الافتتاحية، مجموعة من الدراسات موزعة على النحو التالي:

التنغيم عند ابن جني للأستاذ أحمد البايبي. نبات الأقحوان في رواق النقد البياني للدكتور أبو أزهر بالخير. شعر السجون في العصر الأموي للدكتورة رافعة السراج. النزعة التفوقية في فلسفة الاستشراق للدكتورة فريدة غيوة. الحياة الاجتماعية لشرق الجزيرة العربية في العصور الإسلامية (منطقة الإمارات نموذجًا) للدكتور عبد الواحد ذنون طه. الظروف المعيشية الصعبة في مدينة الجزائر في العصر العثماني للمهندسة نجاة عروة. من شيوخ الأشعرية (أبو بكر الصقلي) للأستاذ سمير القدوري. قناطر النيل في مصر للدكتور رفيق إبراهيم. تعريب المصطلحات العلمية للدكتور حاتم الضامن. تراثنا العلمي وسبل نشره للدكتور صبحي الجامي. الأطباء الأندلسيون للدكتور أجقو علي. إضافة إلى مجموعة أخرى من الأبحاث.

❖ **الرافد:**

مجلة شهرية ثقافية جامعة، تصدر عن دائرة الثقافة والإعلام في دولة الإمارات العربية المتحدة. والعدد بين أيدينا هو /٧٠/ يونيو /٢٠٠٣/. وهي مجلة تعنى بإثارة السؤال الثقافي العربي الراهن في محاولة لرفده بصوت الجدل الحيوي المفضي إلى السوية الثقافية. يرأس تحرير هذه المجلة الأستاذ عصام بن صقر القاسمي.

احتوى العدد على مجموعة من الدراسات، إضافة إلى القصائد والقصص القصيرة والمتابعات. كما احتوى على ملف تحت عنوان (حول أدب المرأة) كتب فيه مجموعة من الأدباء والباحثين نذكر منهم: تساؤلات حول أدب المرأة، لبهيجة مصري أدلبي. المرأة العربية في القرن العشرين لعبد الحميد غزي حسن. مهمات الصحافة النسائية للدكتورة أوشا الحديدي. الأنثى مرايا السرد في القصة السعودية لوجدان عبد الإله الصائغ. التوق للحياة والبحث عن الحرية لإبراهيم فارس، منال الشر بيني

تبدع شعرًا رعويًا جديدًا لأحمد فضل شبلول.

كما ضم العدد ندوة تحت عنوان (الثقافة والبيئة) ضمت الدراسات التالية: حماية البيئة الوسائل والمناهج لعبد العزيز المدفع. الحضارات الإنسانية والفكر البيئي للدكتور شير الوادعي. البيئة في زمن العولمة للدكتور عمر عبد العزيز: مفهوم وقضايا البيئة من منظور اقتصادي للدكتور بدر الدين إبراهيم.

❖ فكر وفن:

مجلة ثقافية تصدر مرتين في السنة وتوزع مجانًا. وهي مجلة تصدر عن معهد غوته في ألمانيا. تهدف إلى تنمية العلاقات بين ألمانيا والعالم وبخاصة العالم العربي. احتوى هذا العدد رقم /٧٧/ السنة الأربعون لعام /٢٠٠٢/ مجموعة من الدراسات والأبحاث تمحورت حول قضية الحرب والسلام عبر التاريخ. نذكر من مقالات هذا العدد: مونتسكيو، موضوعات حول الحرب. هاينريش بول ورسائل من الجبهة. الياس كانيتي ووظيفة الكاتب. منى يحيى ونصب الحرية. أحمد حسون وعالم صدام حسين. أنا ماري شمل وأيام لاتتسى.

❖ ❖ ❖

في افتتاحية العدد كتب رئيس التحرير شتيفان فانيدر: عندما دفعنا بهذا العدد إلى الطباعة كانت الحرب على العراق قد وصلت إلى نهايتها. ونظرًا للقلق والتسرع الذين نوقشت من خلالهما الحرب، ارتأينا أنه سيكون من المفيد إلقاء نظرة على التاريخ الطويل للفكر البشري الذي تناول الحرب. سنحاول في هذا العدد أن نرصد التغيرات التي طرأت على طريقة التفكير في الحروب والتجارب التي مرت بها البشرية. «ليس العراق بل أمريكا هي المشكلة». هذا ما كتبه الشاعر العربي أدونيس قبل الحرب. نحن في (فكر وفن) نأمل أن يكون هذا العدد الذي أعد في ظل الحرب على العراق خير دليل على أهمية الأفكار والفنون في عالم يزداد عنفًا.

❖ ❖ ❖

ملاحظة

تتوجه مجلة المعرفة إلى السادة الكتّاب، والمؤسسات التي تصدر دوريات ومجلات ثقافية، تزويد المجلة بإصداراتهم ومجلاتهم، لمن يرغب بالكتابة عنها والتعريف بها في هذه الزاوية من المجلة، خدمة للثقافة والحركة الثقافية العربية.

❖ ❖ ❖